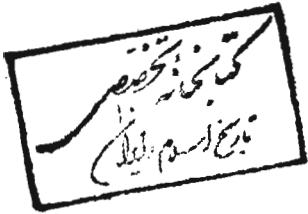


الْبَيْتُ الْفَتَى

في القرن الرابع



تأليف

زكي مبارك

دكتور في الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس
وحائز دبلوم الدراسات العليا في الآداب من مدرسة اللغات الشرقية في باريس

[قدم هذا الكتاب بالفرنسية الى جامعة باريس ونوقش أمام الجمهور في ٢٥ أبريل سنة ١٩٣١
ونال به المؤلف إجازة الدكتوراه بدرجة مشرف جداً]

الجزء الثاني

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر لصاحبها : مصطفى محمد

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م

تحت الطبع :

- ١ - سرائر الروح الحزين .
 - ٢ - أكوأب الشهد والعلم .
 - ٣ - أسمار وأحادث .
-

الباب السادس

كتاب الرسائل والعهود

صفحة	
١٩٣	أبو الفضل بن العميد
٢٠٢	نثر ابن العميد
٢١١	أبو حفص بن برد
٢١٨	أبو المغيرة بن حزم
٢٢٦	أبو الفرج البيهقي
٢٣٣	نثر أبي الفرج البيهقي
٢٤٣	الصاحب بن عباد
٢٥٩	أبو بكر الخوارزمي
٢٧٧	قابوس بن وشمكير
٢٩٠	أبو إسحاق الصابري
٢٩٦	رسائل الصابري
٣٠٢	أبو عامر بن شهيد
٣١٠	نثر ابن شهيد
٣١٩	أبو الفضل الميكالي
٣٢٥	بدیع الزمان
٣٥١	نثر بدیع الزمان
٣٥٧	عبد العزيز بن يوسف
٣٦٣	الفهرس المفصل
٣٧٣	فهرس الأعلام
٣٩١	المراجع

الباب الرابع

كتاب النقد الأدبي

صفحة	
٧	أبو الحسن الجرجاني
١٧	نقد كتاب الوساطة
٢٧	ابن فارس
٣٧	نقد آراء ابن فارس في فقه اللغة العربية
٤٨	النقد الأدبي عند ابن شهيد
٥٩	أبو بكر الباقلاني ونقد آرائه في إعجاز القرآن
٨٢	أبو القاسم الآمدي
٨٩	بين صاحب أبي تمام وصاحب البحتری
٩٤	أبو أحمد العسكري
٩٦	أبو هلال العسكري
١٠٣	نقد كتاب الصنائع
١١١	أبو علي الحاتمي
١٢٠	أبو عبد الله المرزباني

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

١٣٣	أبو حيان التوحيدى
١٤٥	أبو علي بن مسكويه
١٥٢	الأخلاق عند ابن مسكويه
١٥٩	ابن نباتة الخطيب
١٦٦	أبو محمد بن حزم وآرائه في الحب
١٧٩	أبو منصور الثعالبي

الباب الرابع

كتاب السبق في الأدب

١ - أبو الحسن الجرجاني

١ - إن للرجل الذي نتحدث عنه في هذا الفصل فضلا على علوم اللغة العربية يجب أن يعرفه طلاب الأدب والبيان .

ويكفي في تقدير فضله أن نشير إلى أنه أستاذ عبد القاهر الجرجاني صاحب "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"^(١) . وسيرى القارئ في درس هذه الشخصية ما لم يكن ينتظره من درس شخصيات الفقهاء .

فأبو الحسن هذا قاض من كبار القضاة عند الشافعية، ولكنه بالرغم مما يحيط بوظيفة القضاء من قيود الرزاة وأغلال الوقار : رجلٌ طليق العقل، حتى الإحساس، حر الوجدان يلقي إلى فطرته القياد فيما يعمل وما يقول . وأي خسارة كانت تُرزء بها الآداب العربية لو توقر هذا الرجل وترهب وألقى بنفسه في تيار الجمود ! وأي خطر كان يحدق بالقضاء لو أصمّ هذا القاضي مشاعره، وأمات ذوقه، ودفن إحساسه، وأغمض عينيه عما في هذا العالم من فنون السحر، وضروب الفتون !

أفتحسب القضاة بنجوة عما تعرض له النفس الانسانية من ظلمات الفتن وعواصف الأهواء ؟ إن أول صفات القاضي فيما أعتقد أن يكون "إنسانا" له في حياته ما يخضع له من مطامع العقل، وأمانى النفس، وحاجات الفؤاد . وإلا فكيف يحكم بين الناس وهو لا يحس بما تدين له النفس الانسانية من نزوات المشاعر، وهفوات العقول ؟

٢ - ولد أبو الحسن على بن عبد العزيز في مدينة جرجان سنة ٢٩٠ للهجرة . وجرجان هذه مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان، كما ذكر ياقوت . وقد خرج منها عدد من الأدباء

(١) هكذا يقول ياقوت في معجم الأدباء ص ٢٤٩ ج ٥ ، ولكنه يقول في ص ٣ ج ٧ : إن عبد القاهر ليس له أستاذ سوى محمد بن الحسين ابن أخت أبي علي الفارسي ، وكذلك قال السيوطي في بغية الرعاة ص ٣١٠

والعلماء والفقهاء والمحدثين . وكانت لعهد من عُرفت بهم من كبار الباحثين مشهورة بالصناعة المتينة ، والقواكه الكثيرة : فكان فيها الإبريسم الجيد الذي لا يستحيل صبغه ، والذي كان يحمل الى جميع الآفاق ، وكان بها كثير من النخل والزيتون ، والجوز والرمان ، وكان بها ما شاء القناص من الأجادل والمزرازي ، والطباء واليعافير . وكانت فوق هذا كله مشهورة بالخرم ، وفيها يقول ابن خريم ، أو الأقيشر اليربوعي — تردد في ذلك صاحب معجم البلدان — :

وصهباء جرجانية لم يطف بها	حنيف ولم يتغر بها ساعةٍ قدر
ولم يشهد القس المهينم نارها	طروقا ولم يحضر على طبخها خبر
أتانى بها يحيى وقد نمت نومة	وقد لاحت الشعرى وقد جنت النسر
فقلت أصطبجها أو لغيرى فأسقها	فما أنا بعد الشيب ويحك والخرم
تعففت عنها في العصور التي مضت	فكيف التصابي بعد ما كلاً ^(١) العمر
إذا المرء وفي الأربعين ولم يكن	له دون ما يأتي حياءً ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذي أتى	وإن جرأسباب الحياة له الدهر

قال ياقوت : وكان أهل الكوفة يقولون : من لم يرو هذه الأبيات فانه ناقص المروءة^(٢) .

ونرى أن لوفرة ما كان يجرجان من القواكه ولشهرتها بالخرم تأثيراً فيما كان لأهلها من رقة الحس ، ودقة الذوق . وفي ظلال هذه المدينة المفتنة في تنسيق المزارع والمصانع نشأ أبو الحسن الذي برع من تقدمه من الكاتين في أساليب البيان .

٣ — ولقد ظلت جرجان أثيرة لديه طول حياته وكان الصاحب بن عباد فيما قال يقسم له بها من إقباله وإكرامه أكثر مما يتلقاه به في سائر البلاد .

قال : وقد استعفيته يوماً من فرط تحفيي بي وتواضعه لي فأنشدني :

أكرم أخاك بأرض مولده وأمدّه من فعلك الحسن

(١) كلاً العمر : انتهى إلى آخره وأقصاه . (٢) ورد حديث هذه الأبيات قبل ياقوت في الأمالي .

فالعز مطلوب وملتَمَسٌ وأعزّه ما نيل في الوطن

ثم قال : قد فرغت من هذا المعنى في العينية . يريد قوله :

وشيدت مجدى بين قومي فلم أقل ألا ليت قومي يعلمون صنيعى

قال : والأصل فيه قوله تعالى : ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربى وجعلني من

المكرمين ﴾ . ورغبة الرجل في أن يكرم في وطنه وبين أهله من الأمانى الانسانية التى تحدث بها

الشعراء في مختلف الأجيال .

قال الثعالبي : "وكان في صباه خلف الخضر في قطع عرض الأرض وتدوئج بلاد العراق

والشام وغيرها وأقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم علماً ، وفي الكمال

علماً . ثم عرج على حضرة صاحب وألقى بها عصا المسافر فاشتد اختصاصه به ، وحل

منه محلاً بعيداً في رفعتة ... وتقلد قضاء جرجان من يده . ثم تصرفت به أحوال في حياة

الصاحب وبعد وفاته بين الولاية والعطلة . وأفضى محله الى قضاء القضاة بالرى فلم يعزله عنه

إلا موته رحمه الله^(٢) . وكانت وفاته بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة ٣٩٢ هـ

وحمل تابوته الى جرجان فدفن بها . وحضر جنازته الوزير القاسم بن على وأبو الفضل العارض

راجلين . فيما ذكر ياقوت^(٣) .

٤ — ألف أبو الحسن الجرجاني في الفقه والأدب والتاريخ . أما تأليفه في الفقه فلم يصلنا

منه شيء . وقد جاء في طبقات الشافعية أنه صنف كتاباً في الوكالة فيه أربعة آلاف مسألة .

ولو وصل إلينا هذا الكتاب لعرفنا كيف أستطاع هذا القاضى الأديب أن يخدم التشريع . وأما

تأليفه في التاريخ فلم يُعرف منه إلا كتاب تهذيب التاريخ وهو كتاب وصفه الثعالبي بأنه (تاريخ

في بلاغة الألفاظ وصحة الروايات وحسن التصرف في الانتقادات) وقد ضاع هذا الكتاب ولكن

الثعالبي حفظ لنا منه فصلين اثنين يمكن أن نعرف منهما منحنى هذا الرجل في دراسة التاريخ :

(١) ص ٢٥٢ ج ٥ معجم الأدباء . (٢) ص ٢٣٨ ج ٣ يتيمة (٣) ص ٢٤٩ ج ٥

(٤) ص ٢٤٢ ج ٣ يتيمة .

فهو يبين في الفصل الأول أن من غرضه أن يكشف عن مغازى رسول الله وحروبه ، وعن سراياه وبعوثه ، ومتى قارب ولأين ، وفي أى وقت جاهر وكاشف - ويبين في الفصل الثانى أنه يرمى بكتابه الى غرض دينى وغرض دنيوى : فيبين من الوجهة الدينية كيف طمس الله معالم الشرك ، وأوضح معارف الحق . ويترك من الوجهة الدنيوية أثرا يذكر به عند صاحب ابن عباد ... وهذا الاتجاه يدل على أن هذا الرجل كان يستخدم التاريخ في نشر الدعوة الاسلامية . وأستخدام التاريخ في الأغراض الدينية والسياسية يحمل المؤرخ على مكاره كثيرة ينجو منها من يحاول أن يجعل التاريخ صورة صادقة للأمم والشعوب . وقد يكون للصاحب بن عباد مثلاً ميلٌ خاص الى بعض الأحزاب الاسلامية . ولهذا أثره المحتوم في كتاب يوضع بنهجه وإرشاده . وتلك خطة قد تكون نبيلة باعتبار ما ترمى اليه : فطالما أعترت الأمم بما قد يصور به ماضيها من شتى التهاويل . ولكنها خطة خطيرة على التاريخ .

أما تأليفه في الأدب فقد بقى لنا منه "كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه" وسنعود اليه . وأما آثاره الأدبية فلم يبق منها إلا طائفة من الشعر المختار هي عُدتنا في تصوير نفس ذلك القاضى الأديب .

٥ - كانت نفس القاضى على بن عبد العزيز الجرجاني نفساً غالية : فلقد ترك لنا في شعره صورة لنفسه الأبية العزيزة ، التى حرمت عليه طيبات الحياة : إيثارا للعزة والأنفة والكرامة ، وصونا للعرض من الدنس ، وإبعادا للروءة عن مواطن الابتذال . وسيرى القارئ حين نقدم له صورة تلك النفس الغالية ، الغالية . ولو شئت لكررتها ثلاثا . سيرى فيها عزاءً له إن كان من الذين وقفت نفوسهم الأبية في سبيل ما يشتهون من بسطة الرزق ، وصوله الجاه . ومن ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فينتقل ما نكتب عن هذه النفس الى من خلعوا نفوسهم عند أبواب المطامع ، وأقبلوا على مصارع الفضل مهطعين ؟ لقد عزت نفس قاضى القضاة وأسرفت في التصون ، إن كان في التصون إسراف ، وما زالت به تصدّه عن مواطن الشبهات ومظان الرّيب والظنون حتى زينت له العزلة والافتراد . وشعره في هذا المعنى مثال من

الأمثلة العليا التي يعتز بها كآتها كبار النفوس . فليسمع أهل العلم كيف يصف نفسه ذلك العزيز الأثوف :

يقولون لي فيك انقباض وانما
أرى الناس من دانا هو هان عندهم
وما زلت منحاذا بعرضي جانبا
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى
وما كل برق لاح لي يستفزني
ولم أقض حق العلم ان كان كلما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
أشقى به غرسا وأجنيه ذلة
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا
وفي هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

على مهجتي تجني الحوادث والدهر
كأنى ألقى كل يوم ينوبني
فان لم يكن عند الزمان سوى الذي
وقالوا توصل بالخضوع الى الغنى
ويبنى وبين المال بابان حرما
إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه
إذا قدّموا بالخير قدمت دونهم

وأما أصطباري فهو ممتنع وعمر
بذنب وما ذنبي سوى أذى حر
أضيق به ذرعا فعندى له الصبر
وما علموا أن الخضوع هو الفقر
على الغنى : نفسى الأبيّة والدهر
مواقف خير من وقوفى بيا العسر
بنفس فقير كل أخلاقه وفر

في هاتين الكلمتين صورة لتلك النفس المعذبة التي قضى عليها الفضل بالشقوة والحرمان . وأشرف ما وصف به ذلك القاضى حظه من العزة تصويره للطيبات تُعرض عليه عرضا فياهاها إيثاره للصون وحرصه على الجلال . يتمثل هذا في قوله :

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ولكن نفس الحُرّ تحتمل الظم
وقوله :

إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه مواقف خيرٌ من وقوفٍ بها العسر
وقوله :

وبيني وبين المال بابان حرّما على الغنى : نفسى الأبية والدهر
ويرحم الله من يعانى ثورة النفس ، وقسوة الزمان !

٦ -- وما أحب أن أترك هذه الناحية من أبي الحسن الجرجاني قبل أن أقف القارئ على لون آخر من ألوان تلك النفس ، فقد رأى كيف يشور على زينة الحياة الدنيا سخطا على ما يصحبها من مواقف الهوان . فليظركيف يعتذر من أنقباضه عن أخويه ، وكيف يلمح برفق ولطف الى ما طوى عنه إباؤه من أسباب النعيم ، وكيف أنس بالوحدة والوحشة هربا من مواقع الظنون ، وكيف جعل نفوره من العالم سحبة فطر عليها منذ قضى الله أن يلتقى به فى ظلمات هذا الوجود ، وذلك حيث يقول :

أيا معهد الأحباب ذكّرهم عهدى	ودم لى وإن دام البعاد على الودّ
ولى خلّق لا أستطيع فراقه	يفوتنى حظى ويمتنعنى رشدى
نفور عن الإخوان من غير ريبة	يعدّ جفاءً والوفاء لهم وكدى
غذيت به طفلا فان رمت هجره	تأبى وأغرّتنى به ألفة المهد
كما ألفت كفا كما البذل والندى	فأعيا كما أن تمنعا كف مستجدى
على أننى أقضى الحقوق بنيتى	وأبلغ أقصى غاية القرب فى بعدى
ويخدمهم قلبى وودى ومنطقى	وأبلغ فى رعى الذمام لهم جهدى
فإن أنما لم تقبلا لى عذرة	وألرمتانى فيه أكثر من وجدى
فقلوا لطبعى أن يزول فانه	يرى لكما حق الموالى على العبد

٧ - كان القاضي أبو الحسن الجرجاني من المغرمين بالتغريد على أفنان الجمال .
وشعره في وصف الملاحه ذو أفانين وشجون . فقد نراه يترنم بمظاهر الحسن ، ويتغنى بما
فضح الشباب من أسرار الصباحة . كقوله - في الخلد المورّد والطرف الكحيل - :

أثر على خديّ من وردك أودع في يقطفه من خدّك
أرحم قضيب البان وأرق به قد خفت أن ينقّد من قدّك
وقل لعينيك بنفسى هما يخففان السقم عن عبدك

وقوله - في مغازلة النديم - :

أفدى الذى قال وفى كفه مثل الذى أشرب من فيه
الورد قد أينع فى وجنتى قلت فى بالثم يجنيه

وقوله - فى فتنة الأخطا - :

من ذا الغزال الفاتن الطرف الكامل البهجة والظرف
ما بال عينيه وأخطاه دائبة تعمل فى حتفى
وأها لذاك الورد فى خده لو لم يكن ممتنع القطف
أشكو الى قلبك يا سيدى ما يشكى قلبى من طرفى

وقوله - فى اختلاس التقييل - :

وغنج عينيك وما أودعت أجفانها قلب شج وامي
ما خلق الرحمن تفاحتيّ خديك إلا لقم العاشق
لكننى أمتنع منها فما حظى إلا خلصة السارق

وقوله - فى القسم بجنود الجمال - :

لا وجفون بغضا العذلّ عن وجنات تذيبها القبل
ومهجة للهوى معرضة تعبت فيها القدود والمقل
ما غاب من غاب عن ذراك وان أخرج ميقات يومه الأجل

وهذه القطع التي اخترناها من شعره في الأوصاف الحسية تمثله شره الحواس . وله في هذه المعاني أشعار طريفة يقضى العرف الاجتماعي بأن لا تنشر في مثل هذا الكتاب فلنطوها عن القارئ طاعة للتقاليد . وإحساس هذا القاضى بالجمال جعله يخلق الأسباب ليفصح عما يعنى نفسه من أغلال الوجد الدفين . ولننظر كيف يتحدث عن سحر العيون وهو يشكو الزمان إذ يقول :

مَنْ عَازِرِي مَنْ زَمَنَ ظَالِمٍ لَيْسَ بِمُسْتَحْيٍ وَلَا رَاحِمٍ
تَفْعَلُ بِالْأَحْرَارِ أَحْدَاثَهُ فَعَلَ الْهَوَى بِالْدَنَفِ الْهَائِمِ
كَأَنَّمَا أَصْبَحَ يَرْمِيهِمْ عَنْ جَفَنٍ مَوْلَايَ أَبِي الْقَاسِمِ

وفي تصيّد أسباب الغزل وموجبات التشبيب يقول في تفدية حبيب نال من دمه مبضع الطيب :

يَا لَيْتَ عَيْنِي تَحَمَّلَتْ أَلْمَكَ بَلْ لَيْتَ نَفْسِي تَقَسَّمَتْ سَقَمَكَ
وَلَيْتَ كَفَ الطَّيِّبِ إِذْ فَصَدَتْ عَرَقَكَ أَجْرَتْ مِنْ نَاطِرِيَّ دَمَكَ
أَعْرَتَهُ صَبِغَ وَجْنَتَيْكَ كَمَا تَعِيرُهُ إِنْ لَثِمْتَ مِنْ لَثْمِكَ
طَرَفَكَ أَمْضَى مِنْ حَدِّ مَبْضَعِهِ فَالْحَظُّ بِهِ الْعَرَقُ وَارْتَجَزَ أَلْمَكَ

٨ — وقد يلهو هذا القاضى الأديب عما في الجمال من نعيم الحواس ، ويعود الى بكاء ما ذهب من أنسه في أيامه السوالف ، ولياليه الخوالى . فيذكرنا بلوعة الشريف الرضى الذى كاد ينفرد برقة الحنين . ولننظر كيف يذوب روحه وهو يناجى النسيم :

يَا نَسِيمَ الْجَنُوبِ بِاللَّهِ بَلِّغْ مَا يَقُولُ الْمَتِيمُ الْمُسْتَهَامُ
قُلْ لِأَحِبَّائِهِ فِدَاكُمْ فُؤَادَ لَيْسَ يَسْلُو وَمَقْلَةٌ لَا تَنَامُ

وكيف يقول في خطاب الديار، ديار الأنس المفقود :

يَا دِيَارَ السَّرُورِ لَا زَالَ يَبْكِي بَكَ فِي مَضْحَكِ الرِّيَاضِ غَمَامُ
رَبِّ عَيْشِ صَحْبَتِهِ فَيْكَ غَضُ وَجَفَوْنَ الْخُطُوبِ عَنَّا نِيَامُ

في ليالٍ كأنهنَّ أمانٍ من زمان كأنه أحلام
وكان الأوقات فيها كؤوس دائرات وأنسهن مدام
زمن مسعدٌ وإلفٌ وصولٌ ومنى تستلذها الأوهام
كل أنس ولذة وسرور قبل لقياكمو على حرام

وقد أطلق الشاعر خياله في هذه الأبيات فأوضحت معانيه كأنها خيال في خيال . أليس يذكر أن عيشه الغض كان :

في ليالٍ كأنهنَّ أمانٍ من زمان كأنه أحلام

ولكن من ذا الذي ينكر جمال هذا الخيال ؟ أو من ذا الذي لا يروقه نوم جفون الخطوب ؟

ومن جيد الشعر قوله في الحنين الى ليالى بغداد :

أراجعهُ تلك الليالى كمهدا الى الوصل أم لا يُتجى لى رجوعها
وصحبة أقوام لبست لفقدهم ثياب حداد يستجدّ خليعها
إذا لاح لى من نحو بغداد بارق تجافت جنوبى وأستطير هجوعها
وإن أخلفتها الغاديات رعوها تكلف تصديق الغمام دموعها
سقى جانبى بغداد كل غمامة يحاكى دموع المستهام هجوعها
معاهد من غزلان إنس تحالفت لوحظها أن لا يُداوى صريعها
بها تسكن النفس النفور ويقتدى بأنس من قلب المقيم نزعها
يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بجبات القلوب ربوعها
فكل ليالى عيشها زمن الصبا وكل فصول الدهر فيها ربيعها
وما زلت طوع الحادثات تقودنى على حكمها مستكرها فأطيعها

راجع هذا الشعر أيها القارئ وقلب النظر في ثنايا ذلك الروح الحزين . فسترى تلك اللوعة الدفينة وذلك الوجد الدخيل يرجعان الى الكلف بمظاهر الحسن ، والظما الى معاهد

تلك الظباء التي تحالفت لحاظها أن لا يداوى لها صريع، أو يبرأ منها جريح، أو يُبَكِّي في ظلالها
قتيل . وما أضيع الدمع المسفوح فوق أفنان الجمال ! .

وما أحب أن يغفل القارئ عن رقة الشوق في هذين البيتين يصف بهما الشاعر معاهد
تلك الظباء :

بها تسكن النفس النفور ويغتدى بآنس من قلب المقيم نزيها
يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بحبات القلوب ربوعها^(١)

والعجيب في هذا الشعر أن تُصوِّر نفس المحب في غربته ونواه وهي تأنس بديار
الأحباب فوق ما يأنس المقيم ! أهذا حق ؟ أهذا مما يشهد به الوجدان ؟ قد يكون ذلك .
وغيرى عنده الخبر اليقين ! .

ولكن أين أنس الظاعن من نعيم المقيم ؟ وأين روح الذكرى من نشوة الاضطباع
بوجوه الملاح ؟ ومن يدرى لعل من أنس بهم هذا الغريب أعانتهم غربة النوى على نسيان
المهود !

رويدكم لا تسبقوا بقطيعتي صروف الليالى إن في الدهر كافيا
أفى الحق أنى قد قضيت ديونكم وأن ديونى باقيات كما هيا
فوأأسفى حتام أرعى مضجعا وآمن خوانا وأذكر ناسيا
وما زال أحببى يسيئون عشرى ويحفوننى حتى عذرت الأعاديا

(١) ما قلناه من شعر الجرجاني يحده القارئ في أخباره باليمنية — ج ٣ — ومعجم الأدباء — ج ٥ —

٢ - كتاب الوساطة

- ١ - «الوساطة بين المتنبي وخصومه» كما سماه صاحب وفيات الأعيان، أو «الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقد الشعر» كما سماه صاحب كشف الظنون : هو كتاب في النقد لأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني . يقع في ٣٦١ صفحة بالقطع الكبير طبعه وصححه وشرح بعض ألفاظه حضرة أحمد عارف الزين من أدباء صيدا في سنة ١٣٣١ هجرية . نقلنا عن نسختين مخطوطتين إحداهما بمصر وأخرهما بالعراق . ولم تسلم هذه الطبعة مع ما بذل فيها من الجهد من مظاهر النقص والتحريف . أحسن الله لناشرها الجزاء .
- ٢ - ذكر التعالبي أنه لما عمل الصاحب بن عباد رسالته المعروفة في إظهار مساوي المتنبي عمل القاضي أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ^(١) .

أما المؤلف فيذكر أنه رأى أهل الأدب في المتنبي فئتين : فئة تطنب في تقريره وتناول من ينقصه بالاحتقار والتجهيل ، وفئة تجتهد في إخفاء فضائله وإظهار معاييه . وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه ، وأنه رأى من البر بالآداب - وهي أرحام لأبنائها - أن يقول كلمة الحق في الفصل بين المتنبي وخصومه المسرفين . ويقول في الحرص على الأواصر الأدبية : « وما من حفظ دمه أن يسفك بأولى ممن رعى حريمه أن يهتك . ولا حرمة أولى بالعناية وأحق بالحماية وأجدر أن يبذل الكريم دونها عرضة ويمتن في إعزازها ماله ونفسه من حرمة العلم الذي هورونق وجهه ، ووقاية قدره ، ومنار اسمه ، ومطية ذكره . وبحسب عظم مزيتته ، وعلو مرتبته ، يعظم حق التشارك فيه . وكما تجب حياطته تجب حياطة المتصل به وبسببه . وما عقوق الوالد البر ، وقطيعة الأخ المشفق ، بأشنع ذكرا ، ولا أقبح سمّا من عقوق من ناسبك إلى أكرم آبائك ، وشاركك في أنخر أنسابك ، وقاسمك في أزين أوصافك ، ومثّ اليك بما هو حظك من الشرف وذريعتك إلى الفخر » ^(٢) .

(١) ص ٢٣٩ ج ٣ بتيمة . (٢) الوساطة ص ١٠

وهذا الحرص على بنوة العلم وأخوة الأدب لا يحمل القاضى الجرجانى على التعصب المطلق . وإنما يزين له أن يحوطه بالعدل والانصاف فيقول في ذلك :

”وكما ليس من شرط صلة رحمك أن تحيف لها على الحق أو تميل فى نصرها عن القصد فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف ، أو تخرج فى بابه الى الإسراف . بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك ، وتقف على رسمه كيف وقفك . فتتصف تارة وتعذر أخرى ، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهدا لك اذا أنكرت . وتقيم الاستسلام للحجة اذا قامت محتجا عنك اذا خالفت . فانه لا حال أشد استعطافا للقلوب المنحرفة ، وأكثر استمالة للنفوس المشمئة ، من توقفك عند الشبهة اذا عرضت ، واسترسالك للحجة اذا قهرت“^(١) .

وأخوة الأدب هذه عُرِفَتْ قبل هذا القاضى الأديب فى شعر أبى تمام وديك الجن وعلى ابن الجهم والبحتري وعلى بن محمد الكوفى . وللقارئ أن يرجع الى ما قيل فيها من جيد الشعر فى الجزء الثالث من زهر الآداب ليرى كيف تأثر هذا الكاتب المبدع بما أطل النظر فيه من دقائق الشعر البليغ .

٣ - وضع القاضى الجرجانى لكتاب الوساطة مقدمة طويلة تكلم فيها عن أغلاط الشعراء فى الجاهلية وعن تأثير الطباع والأمكنة فى رقة الشعر وجفافه . وانتقل الى الكلام عن أبى تمام والبحتري وجريروأبى نواس فذكر ما لهم من المحاسن والعيوب .

وساقه هذا الى بحث الاستعارة والجناس والتصنيف والتقسيم . ثم أخذ فى الحديث عن المتنبي فذكر السخيف والمعقد من شعره وتكلم عن تلخيصه ومطالعه واعتذاره وفلسفته وسرقاته الشعرية وما أنكر العلماء عليه وما قيل فى الاعتذار عنه . وقد جرته هذه الأبحاث الى الكلام عن التشبيه واختلاف الناس فى التشبيهات ، وتفاوت الشعراء فى صوغ اللفظ والمعنى واختلافهم فى أخذ الألفاظ والمعانى الى غير ذلك نَمَا كان يوجبهُ الأُنس بالاستطراد عند المتقدمين .

(١) الوساطة ص ١٠ (٢) ص ١٧٠ - ١٧٣ (ط) أولى .

ونريد في هذا الفصل أن ندرس مع القارئ بعض النظريات الأساسية لصاحب الوساطة وأن نتبين معه ما فيها من القوة أو الضعف وأن نكشف عنها ما قد يلابسها أحيانا من الغموض . راجين أن يكون في هذه المراجعة فائدة لمن تعينهم دراسة الآداب .

٤ — انفرد الجرجاني ، أو كاد ، بالشك في سلامة الشعر الجاهلي من الضعف والحن . فقد كانت جمهرة الباحثين ترى أن شعراء الجاهلية أعز من أن تؤخذ عليهم هفوة أو تحسب عليهم سقط . وكان من النحاة من يعنى نفسه بتصويب الجاهليين والمخضرمين والأمويين حين يجد الناقد في شعرهم ما يذهب بقيمته من شذيع الأخطاء ، وقبيح الأغلاط . ولكن الجرجاني يرى أن الدواوين الجاهلية لاتسلم فيها قصيدة من بيت أو أكثر يمكن القدح فيه : إما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه وإعراجه ويقول .

« ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم وأعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة ومستزلة ومردودة منفية . لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم وفى الظنة عنهم . فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام » .^(١)

وهو يستنكر تسكين الفعل من غير موجب في قول امرئ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب^(٢) إثمًا من الله ولا واغل^(٣)

وإسقاط النون لغير إضافة ظاهرة في قوله :

لها منتان خطانا^(٤) كما أكب على ساعديه النمر

وتسكين الفعل بغير عامل في قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

(١) الوساطة ص ١٢ - ١٥ (٢) يقال احتقب الإثم إذا اكتسبه كأنه شئ محسوس حمله (مصباح) .

(٣) الواغل المستر — وغل في الشجر وغولا توارى فيه ، ودخل على القوم واغلا ، وقصده هنا غير مستر .

(٤) الخطاة : المكتنزة من كل شئ .

وقول الأسدى :

كما نزعها وقد مزقت واتسع الحرق على الراقع
وقول الآخر :

تأبى قضاة أن تعرف لكم نسبا وابنا نزار فأنتم بيضة البلا
وحذف النون في قول طرفه :
وقد رفع الفخ فماذا تحذرى
ورفع ما يجب نصبه في قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحنا أو مجلف
وخفض ما يجب رفعه في قول امرئ القيس :

كان نبيرا من عرائن^(١) وبله كبير أناس في بجاد^(٢) مزمل^(٣)

وقد أطال الجرجاني في سرد الأمثلة وفيما ذكرناه كفاية . ثم أشار الى أنه تصفح ما تكلفه النحويون لشعراء الجاهلية من الاحتجاج اذا أمكن تارة بطلب التخفيف عند توالى الحركات ومرة بالإتباع والمجاورة وتغيير الرواية اذا ضاقت الحجة ، وتثبت ما راموه في ذلك من المراعى البعيدة وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة التى يشهد القلب بان الباعث عليها شدة إعظام المتقدم والكلف بنصرة ما سبق اليه الاعتقاد وألفته النفس .

هـ — ونحن لانحب أن نكتفى بما أشار اليه الجرجاني من تعسف المتأخرين عن شعراء الجاهلية ومن قاربهم من المخضمين والأمويين فقد لا تغنى هذه الإشارة . وانما نذكر ما قالوه في توجيه قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحنا أو مجلف

فانهم يذكرون أنه رفع "مجلف" بعد نصب "مسحنا" تبعا للمعنى لأن المراد أنه لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف — ومثله قول الهذلى — وهو من شواهد المفصل — :

(١) جمع عرائن وهو الأنثى . وعرائن الويل : أول المطر . (٢) الجباد : كساء . مخطط تلبسه العرب .

(٣) مزمل : أى ملتف في ثوبه . وكان يحب رفعه .

على أطرقا باليات الخيام إلا الثمام وإلا العصي^(١)
 نصب الثمام لأنه استثناء من موجب ورفع العصي حملا على المعنى . وكذلك قول الآخر :
 غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف والخمر
 رفع الخمر على توهم رفع العبيطات لأنه إذا أحلتها الطعنة فقد حلت هي ، إلى آخر ما يتأول
 النحاة !!

تأمل هذا أيها القارئ ، وسل نفسك : أكان هؤلاء الشعراء يفكرون حقا في أنهم نصبوا
 الاسم الأول على الاستثناء ورفعوا الثاني وفقا للمعنى ؟ أكان الهذلي والفرزدق يحسبان حساب
 النحاة في مثل ذلك التأويل ؟ لا شيء من ذلك وإنما أتعب النحاة أنفسهم كلفا بنصرة ماسبق
 إليه الاعتقاد وألفته النفس ، كما يقول أبو الحسن الجرجاني . أو هو لحن صريح : فاننا نرتاب
 في سلامة الأعراب من اللحن والغلط ونرى أنهم قد يلحنون كما يلحن المولدون وأن من الخطأ
 إهمال القياس اتباعا لما يؤثر عنهم من الشذوذ^(٢) ... وهذا المذهب في استقراء أغلاط القدماء
 خير من التورط في النفع عنهم بما لا يغني ولا يفيد . فقد كان الفراء يذكر أن من العرب
 من يقول في " أنظر " أنظور — وينشد لبعض الأعراب :

الله يعلم أنا في تلفتنا يوم الفراق إلى جيراننا صور
 وأنتى حيث ما يثنى الهوى بصرى من حيث ما سلكوا أرنو فانظور^(٣)

وهذا لحن لا ينبغي أن يتحمل له الصواب . فان دياجة هذا الشعر تبعد أن يكون قائله
 من قبيلة مهجورة تسبغ هذا التعبير .

٦ — وقد تكلم الجرجاني عن تأثير المكان والطبع في رقة الشعر وجفائه وهو يرى أن
 للبادية أثرا في خشونة الشعر وقوة أسره وصلابة معجمه . وأن للحاضرة فضلا على رقة الشعر

(١) راجع الفصل ص ٨ (٢) ويجب أن نذكر أن الشعر الجاهلي والأموي كان يجري على قواعد من
 النحول تأخذ صبغة نهائية في التحديد والترتيب ، كما اتفق ذلك في العصر العباسي ، فأغلاط الجاهليين والأمويين ليست
 أغلاطا بالقياس إلى لغتهم هم ، وإنما هي أغلاط بالاضافة إلى اللغة التي حددت قواعدها النحويون .

(٣) أنظر الصاحبى ص ١٢

وعذوبته وسلامته من الوعورة والجفاء! ومن هنا كان شعر عدى وهو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤية وهما آهلان : للملازمة عدى الحاضرة وبعده عن جلالة البدو وخشونة الأعراب^(١)، وقد يكون من البر بالأدب أن نذكر في تأييد هذه النظرية قطعة من رائية المنخل اليشكري وهو جاهلي صقلته الحضارة ودمته الترف في قصور الملوك، ولننظر كيف يقول في أخذ الفتى بأعطاف الفتاة، وقد ختلها هدأة الخدر وغفوة الرقيب :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير
الكاعب الحسناء تر فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعتها فتدافعت مشى القطة الى الغدير
ولثمها فتتنفس كنتنفس الظبي الغدير
فدنت وقالت مامد بل ما يحسبك من حرور
ما شف جسمي غير حب لك فاهدئي عني وسيري
وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري

٧ - وأظرف ما تنبه اليه الجرجاني إشارته إلى أن للطبع وللخلفة أثرا في رقة الشعر فان وجفائه سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة . ويقول :

” وأنت تجد ذلك في أهل عصرك ، وأبناء زمانك ، وترى الجاني الجلف منهم كثر الألفاظ معقد الكلام وعمر الخطاب حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونعمته وفي جرسه ولهجته ، ومن شأن البداوة أن يتحدث بعض ذلك “^(٢) .

ولك أيها القارئ أن تبحث عن ذلك أيضا في أهل عصرك وأبناء زمانك : فقد تجد تعقيد بعض المعاني أثرا لالتواء بعض الوجوه والنفوس !!

أما أنا فأشهد بصحة هذه النظرية حين أوازن بين مقامات الحريري ومقامات بديع الزمان أو شعر أبي تمام وشعر أبي نواس . وقد يكون الفرق بين شعر الشباب وشعر الكهول

راجعاً الى هذه الناحية الخلقية : فطالما يأتي الشاعر وهو قتي بما لم يستطعه وهو كهل .
وما أقوى سلطان الجسم والروح في حياة العقول ! وهنا وجه آخر لمائة الشعر ورقته :
هو نفس الشاعر حين يتيحه الحب ويأسره العشق . ولم يذكّر الجرجاني أمثلة لذلك اكتفاء
بوضوح الفكرة، ولو شاء لتمثل بقول بعض الأعراب :

وفي الجيرة الغادين من بطن وَجْرة غزال كحل المقلتين ريبُ
فلا تمسبي أن الغريب الذي نأى ولكن من تتأين عنه غريب
وقول الآخر :

فيارب إن أهلك ولم ترو هامتي بليلي أمت لا قبر أعطش من قبري
وإن أك عن ليلي سلوت فأنما تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر
وان يك عن ليلي غنى وتجلد فرب غنى نفس قريب من الفقر

٨ — وقد نص الجرجاني على أنه لا يريد بالسهل الضعيف ولا يقصد من الرشيقي المؤث

وهو يتكلم عن سهولة الشعر ورشاقته، وإنما يريد النمط الأوسط الذي ارتفع عن الساقط السوق^١
وانحط عن البدوي الوحشي. وهو لا يوصي بأجراء الشعر كله مجرى واحدا وإنما يرى أن تقسم
الألفاظ على رتب المعاني فلا يكون الغزل كالفيخر، ولا المديح كالوعيد، ولا الهجاء كالاستبطاء،
ولا الهزل كالجد، ولا التعريض كالصريح. فان المدح بالشجاعة واليأس يتميز عن المدح
باللباقة والظرف. ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمداوم: فلكل واحد من
الأمرين نهج هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه. ثم يقول « وليس ما رسمته لك
في هذا الباب بمقصود على الشعر دون الكتابة ولا يختص بالنظم دون النثر، بل يجب أن يكون
كتابك في الفتح والوعيد خلاف كتابك في التشويق والتهنئة واقتضاء المواصلات، وخطابك إذا
حذرت وزجرت أنعم منه إذا وعدت ومنيت. فأما المهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل
والتهافت، وما أعترض به الصريح والتعريض، وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع
علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس^(١) » .

فأما القذف والإفحاش فهو سبب محض . وليس للشاعر إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم . ويقول بعد كلام « وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض العمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به . ولست أعنى بهذا كل طبع . بل المذهب الذى قد صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الردى والجيد ،^(١) وتصور أمثلة الحسن والقيح » .

٩ — والذى يتعقب النقد عند العرب يرى الجرجاني مسبوقا في هذه الآراء . فليس له إلا فضل الترتيب والتنسيق . وهو فضل ليس باليسير . على أنك تشعر وأنت تراه يتصرف في هذه الأفكار تصرف المالكن أن عقله أشرب مذاهب النقد والمفاضلة بين طبقات النثر الجيد والشعر البليغ ، بحيث يتعذر عليه هو نفسه أن يميز بين ما استفاده بالدرس والمراجعة وما أمدته به قريحته المتوقدة وذوقه السليم... وللقارئ أن يرجع الى صحيفة بشر بن المعتمر ووصية أبى تمام^(٢) للبحترى^(٣) فسرى عناصر هذه النظريات التى يسوقها الجرجاني في سياسة النفس وتقويم البيان . ولكنه سيرى كذلك أن الجرجاني أنهض بحجته ، وأملك لآيه ، وأقرب الى نفس قارئه من الذين سبقوه في هذا الباب . وتلك دلالة على استقلاله بما أودع كتابه من الآراء .

١٠ — وقد رأى أبو الحسن الجرجاني أن يفرق بين الشعر والدين وأن يميز بين غاية الأدب وغاية الأخلاق . وهو يعجب ممن ينتقص المتنبي ويفض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة ، كقوله :

يترشفن من فمى رشقات هن فيه أحلى من التوحيد
وقوله :

وأهـر آيات التهامى أنه أبوكم وإحدى ما لكم من مناقب

مع أنهم احتملوا إسراف أبى نواس في مثل قوله في انتهاب اللذات والشك في عذاب
الآخرة :

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة . (٢) ص ٥٨ من البيان والبيان .

(٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٠١ ط أول .

فدع الملام فقد أطعت غوايتي ونبذت موعظتي وراء جداري
ورأيت إيشار اللذاذة والهوى وتمتعا من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظر أجل ظننى به رجم من الأخبار
إني بعاجل ما ترين موكل وسواه إرجاف من الآثار
ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة مذمات أو في نار

ويقول في تأييد هذه النظرية "فلو كانت الديانة عارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يحمى اسم أبي نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الآية عليه بالكفر ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبيرى واضراهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكما خرسا وبكاء مفحمين . ولكن الأمرين متباينان . والدين بمعزل عن الشعر" (١) .

ويجب أن نذكر أن صاحب هذه الفكرة هو "قاضي القضاة" وسيد الفقهاء في الرأي - وجرجان : لنعرف الى أى حد كانت النزعة الفنية . سيطرة على مشاعر هذا القاضي الأديب . غير أننا نلاحظ أن الشعر الذى تمثل به لأبى نواس لا يشفع في تأييد هذا الرأي الخطير . فليست الشاعرية أن يعلن الرجل كفره أو إيمانه في تعابير لا رونق لها ولا ماء ، كما أعلن كفره أبو نواس ، وكما يعلن الأشياخ والأخبار والرهبان حرصهم على الدين والأخلاق ، وإنما الشاعرية روح يتمرد به الشاعر فيهنز نفس القارئ أو السامع هزا عنيفا يحمله على أن يؤمن وهو طائع ذلول بما يدعو اليه الشاعر من تزيين الاتم والبغى أو تقبيح النخى والفسوق .

ومن ذا الذى لا تروقه روعة الفتك في قول ديك الجن :

لما نظرت إلى عن حدق المها وبسمت عن متفتح الشوار
وعقدت بين قضيب بان أهيف وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدى في الثرى لك طائعا وعزمت فيك على دخول النار

أو من ذا الذى لا يخشع لعظمة الفضل والوقار فى قول معن بن أوس :
 لعمرك ما أهويت كفى لريبة^(١) ولا حملتى نحو فاحشة رجل
 ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ولا دلتى رأى عليها ولا عقلى
 وأعلم أنى لم تصبني مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبل
 ولست بمأش ما حيت لمنكر من الأمر لا يمشى الى مثله مثلى
 ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة وأوثر ضيفى ما أقام على أهلى

والشاعر الواحد قد يرضيك جده وهزله ، ويروقك شكبه ويقينه ، حين يصدر عن ألوان نفسه ، ويتحدث صادقاً عن أسرار قلبه . ولا عيب على الشاعر فى أن تختلف آراؤه باختلاف ذوقه وإحساسه : فإن الشعر كالمرآة . والنفس دنيا ثانية تتراءى صورها المختلفة فى لوحة الشعر الجميل . وما ذا تريدون من الشعر والأدب أيها الناس ! أتريدون أن تعلنوا الأحكام العرفية على الكتاب والشعراء والفنانين لئلا ينظروا بعيونهم ، ويفقهوا بقلوبهم : فيكون من آثارهم ما ينقض ما تواضعتم عليه منذ أجيال ؟ إن الله الذى يلون العالم كل يوم بلون جديد وتفتن يده الصَّنَاع فى تزيين الأرض والسماوات ، وينفخ من روحه فيمن اصطفاهم للشعر والبيان ، هو وحده جل شأنه القادر على أن يقول : هذا ما أريد أن يكون ، وذلك ما أنكر أن يكون !! وسيظل الأدب الحق أداة يعرب بها الشعراء عما تريد القدرة أن تُصَوِّر به محاسن هذا الوجود .

فهنيئاً لمن أراد الله أن يشربهم صفوة الحياة ليكون للعالم من أدبهم فرقان وانجيل .



تلك نواح كشفنا عنها وبينناها من كتاب الوساطة راجين أن يعود اليه القارئ طالباً للزيد .
 فليس النقد إلا وسيلة الى إثارة الرغبة فى المراجعة والشوق الى الاطلاع .

(١) الريبة ، بكسر الراء ، التهمة .

٣ - ابنه فارس

١ - لم تعين كتب التراجم السنة التي ولد فيها أحمد بن فارس، ولم يتفق مترجموه على المكان الذي ولد فيه . وقد نسبته ابن الأنباري الى المكان الذي مات فيه وهو الرى : فسماه أبا الحسين الرازى . والرازى نسبة شاذة الى الرى ^(١) . ويقول ياقوت فى معجم الأدباء ^(٢) : « واختلفوا فى وطنه ف قيل : كان من رستاق الزهراء من القرية المعروفة كرسف وجياناباذ، وقد حضرت القريتين مرارا ولا خلاف أنه قروى . حدثني والدى محمد بن أحمد وكان من جملة حاضري مجالسه أنه أتاه آت فسأله عن وطنه فقال : كرسف . قال فتمثل الشيخ :
بلادها شئت على تسمى وأول أرض مس جلدى ترابها »
أما وفاته رحمه الله فكانت بالرى فى صفر سنة ٣٩٥ هجرية وقد دفن بجوار قاضى القضاة على بن عبد العزيز الجرجاني .

٢ - ذكر السيوطى فى بغية الوعاة ^(٣) أن ابن فارس كان نحويا على طريقة الكوفيين وأنه سمع أباه وعلى بن ابراهيم بن سلمة القطان . وذكر ابن الأنبارى أنه أخذ عن أبى بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب . وعن أبى عبد الله أحمد بن طاهر المنجم، وكان يقول عن أبى عبد الله هذا : " ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه " ^(٤) وكان ابن فارس حريصا على تدوين ما يأخذه عن أبيه . وقد أثبت ابن الأنبارى شاهدا على ذلك الحرص نكتفى بالإشارة اليه . وذكر ياقوت أن ابن فارس حدث عن أبيه أنه قال : هججت فلقيت بمكة ناسا من هذيل بخاريهم ذكر شعرائهم فاعرفوا أحدا منهم . ولكننى رأيت أمثل الجماعة رجلا فصيحاً وأنشدنى :

إذا لم تحظ فى أرض فدعها وحث اليعملات على وجأها ^(٥)

ولا يغرك حظ أخيك فيها إذا صفرت يمينك من جدأها

(١) طبقات النحاة ص ٣٩٢ (٢) ج ٢ ص ١٢ (٣) ص ١٥٣ (٤) طبقات النحاة ص ٣٩٢

(٥) اليعملات : الجمال .

ونفسك فز بها إن خفت ضيما واخل الدار تحزن من بكها
فانك واجد أرضا بأرض ولست بواجد نفسا سواها

٣ - كان لابن فارس عدد كثير من التلامذة أشهرهم صاحب بن عباد وبديع الزمان الهمداني . أما حاله مع صاحب فقد ابتدأت بوفاق ، وانتهت بشقاق - نسجع على ذكرى صاحب بن عباد! - تمت بينهما الألفة في بداية الأمر حتى وضع ابن فارس كتابه « الصاحب » نسبة الى الصاحب . وحتى مدح الصاحب ابن فارس بقوله « شيخنا أبو الحسين محمد رزق حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصحيف »^(١) ثم انحرف الصاحب عن ابن فارس لانتسابه إلى خدمة آل العميد وتعصبه لهم فأنفذ إليه من همدان كتاب الحجر من تأليفه فقال الصاحب «رد الحجر من حيث جاءك» ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وأمر له بصلته^(٢) . وكان الصاحب كما ذكر ياقوت في معجم الأدباء يعترض أحيانا بابن فارس فيذكر أنه رأى «بعض الجهال يصحف ويقول» . وأما حاله مع بديع الزمان الهمداني فكانت فيما يظهر غاية في صفاء الوداد . نعرف ذلك من كتاب بديع الزمان إلى أستاذه جوابا على كتاب ورد إليه منه في ذم الزمان . ومن البر بالأدب والتاريخ أن نذكر هنا نص ذلك الكتاب لنرى كيف كان بديع الزمان يرتاب فيما تقدمه من نظام الحكومات الاسلامية ، وكيف كان يحذر تقلب النفس الانسانية التي تُجَلُّ غدرها في قصائد الشعراء ، وصحائف الأنبياء . ولننظر كيف يقول «نعم أطل الله بقاء الشيخ الامام إنه الحمأ المسنون»^(٤) وإن ظنت الظنون ، والناس ينسبون لآدم ، وإن كان العهد قد تقادم . وارتبكت الأضداد ، واختلط الميلاد . والشيخ الإمام يقول «فسد الزمان» أفلا يقول متى كان صالحا ؟ أفى الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسمعنا أولها ؟ أم المدة المروانية وفي أخبارها لا تكسع الشول بأغبارها ؟ أم السنين الحربية^(٦) .

(١) طبقات الأدباء ص ٣٩٤ (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩ (٣) ج ٢ ص ٣٠٢

(٤) الحمأ المسنون : الطين المتغير . (٥) الشول جمع شائلة على غير قياس . والأخبار جمع خبر وهو بقية اللبن . والكسع هو ترك بقية من اللبن في أخلاف الناقة . المعنى : لا تغز لبن إبلك واحلبها لأضيافك فانك (لا تدري من الناتج) كما في بقية البيت . (٦) نسبة الى حرب بن أمية ، والمراد خلافة معاوية وابنه يزيد .

(١) والريح يركز في الكلى
(٢) والسيف يغمد في الطلى

وميت حجر في الفلا والحارثان وكربلا

أم البيعة الهاشمية وعلى يقول : ليت العشرة منكم براس من بني فراس؟ أم الأيام الأموية والتغير إلى الحجاز ، والعيون إلى الأعجاز ؟ أم الامارات العدوية وصاحبها يقول : وهل بعد النزول إلا النزول ؟ أم الخلافة التيمية وصاحبها يقول : طوبى لمن مات في نأنة الاسلام ؟ أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل : اسكتي يا فلانة ، فقد ذهبت الأمانة ؟ أم في الجاهلية وليد يقول :

ذهب الذين يعاش في أكافهم وبقيت في خلف بكلد الأجر
أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بلاد بها كنا وكنا نجها إذ الناس ناس والزمان زمان

أم قبل ذلك وقد روى عن آدم عليه السلام :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح

أم قبل ذلك وقد قالت الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ وما فسد الناس ، وإنما اطرده القياس . وما أظلمت الأيام ، وإنما امتد الظلام . وهل يفسد الشيء إلا عن صلاح ، ويمسى المرء إلا عن صباح ؟

ثم انتقل بديع الزمان إلى الرفق بأستاذة والعطف عليه فقال :

« ولعمري لئن كان كرم العهد كتابا يرد ، وجوابا يصدر ، إنه لقريب المنال ، وإنى على توبيخه لى لفقير إلى لقائه ، شفيق على بقائه ، منتست إلى ولائه ، شاكر لآلائه . لا أحل حريدا عن أمره ، ولا أفق بعيدا عن قلبه . مانسيته ولا أنساه . إن له أيده الله على كل نعمة خولنيها الله نارا ، وعلى كل كلمة علمنيها منارا . ولو عرفت الكتابي موقعا من قلبه لاغتنمت خدمته به ولرددت إليه سُور كاسه ، وفضل أنفاسه . ولكني خشيت أن يقول (هذه بضاعتنا ردت

الينا) وله أيده الله العتي ، والمودة في القربي ، والمرباع ، وما ناله الباع . وما ضمه الجلد ،
وضمته المشط . وليست رضاي ولكنها جل ما أملك » .
إلى آخر ما قال ^(١) :

ولو وجدنا نص الكتاب الذي بدأ به ابن فارس لعرفنا شيئا من صور نفسه ، وألوان قلبه :
فان لأزمات القلب ، وبفحات النفس ، دلالة كبيرة على المناحي التي يمنح اليها الكتاب والشعراء
والباحثون ^(٢) .

هـ - كان ابن فارس وسطا في شعره ونثره : فلم يكن يُسَفّ حتى يصل الى وصمة
الإعياء . ولم يكن يعلو حتى يصل الى جودة البيان . ونثره في جملة بين واضح مقبول . يعجبني
منه قوله - في تقرير رجال الفقه والحديث على اللحن وترك الإعراب - : « وقد كان الناس
قدما يمتحنون اللحن فيما يكتبونه أو يقرءونه اجتنابهم بعض الذنوب . فأما الآن فقد تجوزوا
حتى إن المحدث يحدث فيلحن والفقيه يؤلف فيلحن . فاذا نها قالا (ما ندرى ما الاعراب
وإنما نحن محدثون وفقهاء) فهما يُسران بما يساء به اللبيب ! ولقد كلمت بعض من يذهب
بنفسه ويراها من فقه الشافعي بالرتبة العليا في القياس . فقلت له : ما حقيقة القياس وما معناه ؟
من أى شيء هو ؟ فقال (ليس على هذا وإنما على إقامة الدليل على صحته) .

« فقل الآن في رجل يروم إقامة الدليل على صحة شيء لا يعرف معناه ولا يدرى ما هو
ونعوذ بالله من سوء الاختيار ! » .

وللقارئ أن يتأمل هذه الجملة فسيراها جيدة المعنى نقية الأسلوب ، وسيرى كيف وصل
الكاتب الى ما يرمى اليه من التهمك اللاذع بالفقهاء والمحدثين من غير أن يلجأ الى غرابة المعاني

(١) راجع ص ٤١٤ و ٤١٩ - من رسائل البديع . (٢) الذي في رسائل بديع الزمان أن هذه
الرسالة جاءت جوابا عن كتاب ورد اليه من ابن فارس في ذم الزمان . وفي نهاية الأرب ج ٧ ص ٢٦٢ أن بديع
الزمان ذكر في مجلس ابن فارس فقال ما معناه : إن البديع قد نسي حق تعليمنا إياه وعقنا وشيخ بأنفه عنا فالحمد لله على
فساد الزمان وتغير نوع الانسان ! فبلغ ذلك البديع فكتب الى ابن فارس ذلك الكتاب .

وجلجلة الألفاظ . وفي هذه الجملة أيضا دلالة على أن غفلة الفقهاء عن اللغة العربية قديمة العهد وليست من سيئات العصر الحديث .

٦ — أما شعر ابن فارس فهو على قلته يكاد يقف عند شكوى الزمان . من ذلك قوله — وقد قل ماله ، وكثر دينه ، ولم يغنه علمه — :

سقى همدان الغيث لست بقائل سوى ذا وفي الأحشاء نار تضرم
وما لي لا أصفي الدعاء لبلدة أفدت بها نسيان ما كنت أعلم^(١)
نسيت الذي أحسنه غير أني مدين وما في جوف بيتي درهم

وقوله في كثرة همومه وتعزيه بالهرة والكتاب والمصباح إذا أوى الى بيته المقفر الجديب :

وقالوا كيف حالك ؟ قلت خير تقضى حاجة وتفوت حاج^(٢)
نديمى هرتى وأنيس نفسى دفاتر لي ومعشوقى السراج

وقد يستظرف دفاعه عن البخل والحرص إذ يذكر أن المال المضمون به يسخر المحقق لخدمة صاحبه : فقد يكرم الرجل لفناه قبل أن يكرم لفضله . وفي هذا المعنى يقول :

يا ليت لي ألف دينار موجهة وأن حظي منها فلس إفلاس^(٣)
قالوا فما لك منها قلت تخدمني لها ومن أجلها الحق من الناس

وقد يستجاد قوله في التغاضي عن هفوات الصديق :

عتبت عليه حين ساء صنيعة وآليت لا أمسيت طوع يديه^(٤)
فلما خبرت الناس خبر مجرب ولم أر خيرا منه عدت اليه

ومن ظريف الإشارة الى ضعف حجج النحاة قوله في فتور الجفون :

مرت بنا هيفاء مقدودة تركية تسمى لتركي^(٥)
ترزو بطرف فاتر فاتن أضعف من حجة نحوى

(١) ص ٢١٨ ج ٣ من البيعة . (٢) ص ٢١٩ ج ٢ (٣) ص ٢١٩ ج ٢

(٤) ص ٢٢٠ (٥) ص ٢٦٩

٧ — لابن فارس مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا القليل . والذي يعنينا هو (الصاحبي) الذي قدمه الى الصاحب بن عباد ، وهو كتاب متوسط الحجم يقع في ٢٢٢ ص بالقطع الكبير طبعته المطبعة السلفية في سنة ١٩١٠ طبعاً جيداً نقلاً عن نسخة صحيحة بخط المرحوم الشيخ الشنقيطي من مكتبته بدار الكتب المصرية وقد نقلها رحمه الله عن نسخة في إحدى مكاتب القسطنطينية قرئت على المؤلف في سنة ٣٨٢ هـ ، وعلى ظهرها بخطه ما يفيد إجازة القراءة والنسخ . قال المرحوم الشنقيطي ” وكانت مقابلتي لإياه صفحة صفحة : لا أبتدئ الصفحة إلا بعد مقابلة الصفحة التي كتبتها قبلها فتمت كتابته ومقابلته في آن واحد والله الحمد“ .

أما قيمة الكتاب من الوجهة العلمية فستظهر حين نناقش ما فيه من مختلف الأبحاث .

٨ — يحار الباحث في تحديد حياة ابن فارس العقلية : ومرجع هذه الحيرة هو ظهور هذا الرجل بلونين مختلفين كل الاختلاف . أما سبب هذه الحيرة فهو إغفال المتقدمين تاريخ آثار هذا اللغوي الأديب فقد نعرف أنه راجع كتاب الصاحبي في سنة ٣٨٢ ولكننا لا نعرف في أي سنة من سني حياته العلمية وضع رسالته في الرد على محمد بن سعيد الكاتب . والفرق بعيد جداً بين رسالته هذه وكتابه ذلك : فهو في ”الصاحبي“ رجل حذر هيب يحسب مسaire العقل جريمة ، ويعد التفكير من جملة الذنوب . ولكنه في رسالته الى ابن سعيد باحث مملوء بالغيرة والحمية لكل حق ولكل جديد .

نظرات ابن فارس في كتاب ”الصاحبي“ كلها جمود وكلها ذهول . وقد يصحح أحياناً فيرمي بالقول السديد . وحسب القارئ في الدلالة على إغراق كتاب الصاحبي في «الرجعية» أن يعرف أن ابن فارس يفضل العروض على الفلسفة . ويقول في وصفه ”علم العروض الذي يربى بحسنه ودقته واستقامته على كل ما يتجسس به الناسبون أنفسهم الى التي يقال لها الفلسفة“^(٢) . ومن هذه العبارة أخذ الشيخ بخيت فيما نظن قوله في رينان ”ذلك الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف“ .

وحقا إن الفلسفة لا تزيد عن أنها « التي يقال لها الفلسفة » ورينان لا يزيد عن أنه « الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف » وسبحان من أغنانا عما ترك المبدعون في العلوم والفنون !!

وأغرب من هذا أن يستنكر ابن فارس أن يكون للفلاسفة مؤلفات في النحو والإعراب وأن يستبعد أن يكون لهم شعر جميل . ويقول في ذلك « وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو »، ثم يقول « وهذا كلام لا يعرج على مثله . وإنما تشبه القوم آنفا بأهل الاسلام فأخذوا من كتب علمائنا وغيروا بعض ألفاظها ونسبوا ذلك الى قوم ذوى أسماء منكرة بتراجم بشعة لا يكاد لسان ذى دين ينطق بها . وآدعوا مع ذلك أن للقوم شعرا . وقد قرأناه فوجدناه قليل الماء نزر الحلاوة غير مستقيم الوزن » ثم يقول في وصف العروض « ومن عرف دقائقه وأسراره وخفيايه علم أنه يربى على جميع ما يتبجح به هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والخطوط والنقط التي لا أعرف لها فائدة . غير أنها مع قلة فائدتها ترق الدين وتنتج كل ما نعوذ بالله منه »^(٢).

وكذلك كان يرتاب أكثر المتقدمين في العلوم العقلية . ويرونها خطرا على العقائد : كما يفعل المتأخرون اليوم . وهذا كله هرب من البحث وإخلاق الى الخمول . وإلا فكيف سبعت الناس عن دينهم كلما توغلوا في درس حقائق الأشياء ؟

٩ — ترك هذه الناحية من عقلية ابن فارس التي تمثل لنا رأيه ورأى أمثاله في فهم ما توحى به العقول . وننتقل الى الجانب المشرق من حياته العقلية فنراه يمثل لنا انقسام أهل ذلك العصر الى طائفتين تقتتلان . تدعو إحداهما الى الاكتفاء بما ترك المتقدمون من الآثار الأدبية . وتدعو أخرىهما الى الابداع والتجديد في عالم الآداب . ويكفى أن يعرف الباحث أن من رجال ذلك العصر من أنكر اختيار الشعرا ككتفاء بديوان الحماسة ليرى أن (الرجعية)

كانت تفنك بأحلام أولئك الناس وأن الصراع بين القديم والجديد يكاد يتصل بالحياة الفكرية في جميع الأجيال .

وفي رسالة ابن فارس الى محمد بن سعيد صورة لهذه الخصومة العقلية التي شهدتها رجال القرن الرابع . فلنتركه يتكلم ولننظر كيف يدافع عن شعراء عصره المبدعين إذ يقول في خطابه الى ابن سعيد ” ألهمك الله الرشاد؛ وأصحبك السداد، وجنبك الخلاف، وحجب اليك الانصاف ! وسبب دعائي هذا لك إنكارك على أبي الحسن محمد بن علي العجلي تأليفه كتابا في الحماسة وإعظامك ذلك وإعله لو فعل حتى يصيب الغرض الذي يريده ، ويرد المنهل الذي يؤمه لاستدرك من جيد الشعر ونقيه، ومختاره ورقيه ، كثيرا مما فات الأول . فما ذا الانكار ولم الاعتراض ؟ ومن ذا حذر على المتأخر مضادة المتقدم ؟ ولم تأخذ بقول من قال ” ما ترك الأول للأخري شيئا “ وتدع قول الآخر ” كم ترك الأول للأخري “ وهل الدنيا إلا أزمان ولكل زمن منها رجال ؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم ووقفها على وقت محدود ؟ ولم لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه، ويجمع مثل جمعه، ويرى في كل ذلك مثل رأيه ؟

وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوازل الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ؟

أو ما علمت أن لكل قلب خاطرا ولكل خاطر نتيجة ؟ ولم جاز أن يقال بعد أبي تمام مثل شعره ولم يجوز أن يؤلف مثل تأليفه ؟ ولم حجرت واسعا وحظرت مباحا وحرمت حلالا وسددت طريقا مسلوكا ؟ وهل (حبيب) إلا واحد من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ؟ ولم جاز أن يعارض الفقهاء في مؤلفاتهم ، وأهل النحو في مصنفاتهم ، وأرباب الصناعات في جميع صناعاتهم ، ولم يجوز معارضة أبي تمام في كتاب شذ عنه في الأبواب التي شرعها فيه ؟ أمر لا يدرك ولا يدري قدره !!

ولو آقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أفهام ناقبة، وليكأت ألسن لسنة، ولما توشى أحد لخطابة ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة ولمجت الأسماع كل مررد مكرر، وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ . وحتام لا يسأم (لو كنت من مازن لم تستبح إبلى) وإلى متى "صفحننا عن بنى ذهل" — إلى أن قال "وهلا حثنت على إثارة ما غيبته الدهور وتجديد ما أخلقته الأيام وتدوين ما نتجته خواطر هذا الدهر وأفكار هذا العصر؟ على أن ذلك لو رامه رائم لأتعبه ولو فعله لقرأت ما لم يحط عن درجة من قبله من جد يروعك، وهزل يروقك، واستنباط يعجبك، ومزاح يلهيك" .^(١)

١٠ — تلك هي الناحية المشرقة من حياة ابن فارس العقلية وهي كما يرى القارئ تختلف عن سابقتها أشد الاختلاف . وقد ذكر صاحب اليتيمة جزءاً كبيراً من هذه الرسالة فليرجع إليها من يطلب المزيد . ولكننا نرى من البر بالأدب أن نذكر نماذج من الشعر المحدث لعهد ابن فارس وكانت تضيق به نفوس الرجعيين إذا ذاك . وهو يستجيد قول يوسف بن حمويه المعروف بالمنادى وكان من أهل قزوين :

جج مثلى زيارة الخمار	واقتنائى العقار شرب العقار
ووقارى اذا توقر ذو الشيد	ببة وسط الندى ترك الوقار
ما أبالى اذا المدامة دامت	عذل ناه ولا شناعة جار
رب ليل كأنه فرع ليلى	ما به كوكب يلوح لسارى
قد طويناه فوق خشف كحيل	أحور الطرف فاتن سحار ^(٢)

(١) ص ٢١٥ و ٢١٦ ج ٣ يتيمة .

(٢) وردت هذه الأبيات في ديوان أبي نواس مع اختلاف قليل ، وربما كانت مما أضيف إلى شعر أبي نواس لاتصالها بفنه المعروف فى الغزل والشراب ، وهى فى الديوان طويلة تصل الى خمسة عشر بيتاً آخرها هذا البيت الحكيم :

فتى بفلح الفتى وهو إن را ح بسكر وان غدا فى نمار

ويستجيد قول أحمد بن بندار :

زارني في الدجى فتم عليه طيب أردانه لدى الرقباء
والثريا كأنها كف خود أبرزت من غلالة زرقاء

ويستجيد قول بعض رجال الموصل :

فديتك ما شبت عن كبرة وهذى سنى وهذا الحساب
ولكن هجرت فخل المشيب ولو قد وصلت لعاد الشباب

الى هنا وقف القارئ على شيء من حياة ابن فارس يقربه اليه بعض التقريب ان لم يمثله كل التمثيل . فلنأخذ في نقد آرائه في فقه اللغة العربية والكشف عما فيها من مظان الخطأ ومواقع الصواب .

٤ - نقد آراء ابنه فارس في فقه اللغة العربية

١ - الفقه العلم بالشئ والفهم له والفطنة . وغلب على علم الدين لشرفه . كما في القاموس المحيط . وفي أساس البلاغة (قال أعرابي لعيسى بن عمر شهدت عليك بالفقه : أى بالفهم والفطنة . وفي الحديث (من أراد الله به خيرا فقهه في الدين) وفقحت فلانا كذا وأفقحته أياه فهمته ففقهه وتفقهه . وقال عمر لحرير بن عبد الله كنت سيدا في الجاهلية وفقها في الاسلام . قال الزخشرى وتقول فلان بين الفراهة : في أبواب الفقه . وخلف فقيه عالم بذوات الضبع وذوات الحمل^(١) .

فالفقه كما ترى دقة الفهم ونفاذ البصيرة في التفريق بين حقائق الأشياء . وعبرة "فقه اللغة" لم يكده يتفق القدماء على أفرادها بمدلول خاص . وإنما نجدتها في تعابير الكتاب والمؤلفين على سبيل الاختيار لاعلى وجه التعيين . والثعالبي يحدثنا بأن كتابه (فقه اللغة) إنما سمي بهذا الاسم وفقا لاختيار الأمير الذى أهده اليه فدل ذلك على أن المنحى الذى سلكه في تأليفه لم يكن جريا على خطة آتفق عليها الباحثون في ذلك الحين . فما هو المقصود من عبارة (فقه اللغة) في العصر الحديث ؟ ذكر السنيور جويدي في محاضراته الأولى بالجامعة المصرية (٧) أكتوبر سنة ١٩٢٦ أن كلمة (Philologie) تصعب ترجمتها بالعربية وأن لها في اللغات الغربية معنى خاصا لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب . فمنهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية . ومنهم من يذهب الى أنه ليس درس اللغة فقط ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوها . وإذا صح هذا فمن الممكن أن يدخل في دائرة "الفيلولوجى" علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الأدب في معناه الأوسع فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم

(١) الضبع — بفتحين — شهوة الناقة الى الفعل .

من حيث تصنيف الكتب العلمية ، وتاريخ الفقه من حيث تدوينه فى المجاميع والمجلات وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية ، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام . ولا سبيل الى معرفة كنه هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذى نشأت فيه تلك الآثار الأدبية “ .

ويترتب على هذا التعريف كما ذكر السنيور جويدى أن يصبح هذا العلم من أوسع العلوم دائرة وأن يصبح « الفيلولوج » مضطرا الى البحث عن أوائل الأدب حين يدرس درجة التقدم عند شعب من الشعوب ، وإلى تأمل العلاقات التى كانت بينه وبين غيره وما أثر فيه من الحوادث السياسية والتاريخية . ثم لا يكفى لمن يريد درس كتب المجوس الدينية مثلا أن يقف عند معرفة اللغات الايرانية بل عليه أن يطيل النظر فى كل وجوه الحياة عند الفرس وما تأثر به هذا الدين مما اتصل به من العقائد والديانات .

هذا هو اتجاه السنيور جويدى الذى كان أستاذ فقه اللغة العربية بكلية الآداب . وهو كما يرى القارئ يجعل مهمة الباحث فى هذا العلم شاقة عسيرة ويرد ما تميز واستقل من علوم اللغة الى علم واحد تنوء به عزائم الآحاد . وقد شعر الأستاذ نفسه بهذا فقرّر أنه لا يمكن للباحث أن يجيد إلا جزءا واحدا من ذاك العلم الكثير الأجزاء !

٢ — على أن من الحق أن نقتر أن كلمة “ فقه اللغة ” التى اختيرت لترجمة كتاب التعلال لم يرم بها قائلها من غير أن يكون لها فى نفسه مدلول خاص : فقد وردت هذه الكلمة فى فاتحة كتاب ابن فارس إذ قال “ هذا الكتاب الصاحبى فى فقه اللغة العربية وسنن العرب فى كلامها ” وهو بالطبع كان يعرف ما ترمى اليه هذه التعابير . فلم يبق إلا أن يكون الباحثون فى علوم اللغة العربية لذلك العهد قد فكروا فى فن جديد غير ما عُرف من علوم البلاغة وما اصطلح عليه من مسائل النحو والصرف والاشتقاق . وهذا الفن الجديد الذى كاد ينفرد به رجال القرن الرابع والخامس لم يحد من يعنى بتدوين أصوله ، وتحقيق فروعه ، حتى يستقل عن غيره بعض الاستقلال . وإنما ظل كما ابتدأ مسائل متفرقة ينقصها الترتيب والتفصيل

ويعوزها النقد والتمييز، وما الى ذلك من أنواع العناية بمختلف الفنون . وعندى ان أهم ما يؤخذ على المؤلفين فى فقه اللغة هو إهمال المصادر وإهمال التاريخ ولنضرب لذلك الأمثال :

جاء فى الفصل الثالث من الباب التاسع عشر من كتاب الثعالبي أن "الارتكاض" حركة الجنين "والنوس" حركة الغصن بالريح "والتدلبل" حركة الشيء المتدلى - "والترجرج": حركة الكفل السمين والقالودج الرقيق . "والنسيم": حركة الريح فى لين وضعف . "والذماء": حركة القتيل . "والنودان" حركة اليهود فى مدارسهم . وكان يجب أن يذكر بجانب هذا التنويع ما يؤيده من الشعر الموثوق بصحته وأن يدلنا على العصر الذى استعملت فيه كلمة "النودان" مثلاً وأن يبين أعربية هى أم عبرية .

وجاء فى الفصل السابع عشر من الباب الرابع والعشرين أن الانسان إذا شرب فهو نشوان وإن دب فيه الشراب فهو ثمل . فإذا بلغ الحد الذى يوجب الحد فهو سكران . فإذا زاد امتلاء فهو سكران طافح . فإذا كان لا يتماسك ولا يتمالك فهو ملتخ . فإذا كان لا يعقل شيئاً من أمره ولا ينطق لسانه قيل سكران باتّ وسكران ، ما يت^(٢) . وكان من الواجب أن يذكر لنا الثعالبي شيئاً عن أصول هذه التعابير وأن يرينا متى وقعت كلمة (سكران طافح) وكيف وقعت : فى شعر أوفى نثر . وإذا كان مصدرها الشعر فن يدرينا لعل للوزن والقافية دخلاً فى صبغها بصبغة التأكيد . وكل ما عمله الثعالبي أن دلنا على أن كلمة (ملتخ) منقولة عن الأصمعي وأن (سكران باتّ وسكران ما يت) كلاهما عن الكسائي ولم يتعرض لأيهما الراجح وأيهما المرجوح .

وهذا المأخذ يسرى على جميع الأبواب التى روعى فيها حصر الأوصاف والنوع . فإن أكثر ما جرى عليه الثعالبي فى "فقه اللغة" وآبن سيده فى "المخصص" وآبن الأجدابى فى "كفاية المتحفظ" لم يلحظ فيه اختلاف اللغات . وإنما كان الغرض منه جمع الأشباه والنظائر فى الصفات والأسماء .

٣ - قلت لك إن المتقدمين لم يفرّدوا هذا العلم بموضوع خاص ، والآن أشير إلى أن منهم من غلبت عليه صنعة الكتابة فكان من همّه أن يزيد في مادة الإنشاء بجمع ما تبدّد من الألفاظ والتعابير، وكان منهم من غلب عليه النحو والتصريف فكان من همّه أن يقيد ما أطلقه من حرموا صناعة الإعراب إذ وجدهم (لا يبينون ما أنقلب فيه الألف عن الياء مما انقلبت الواو فيه عن الياء ولا يحدّون الموضع الذي انقلب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو مع عكس ذلك ولا يميزون ممّا يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب وما هو من ذلك لغتان . وذلك بكذب وجبذ . ويئس وأيس . ورأى وراء ... وكذلك لا ينبهون على ما يسمعون غير مهموز ممّا أصله الهمز على ما ينبغي أن يعتقد منه تخفيفا قياسيا وما يعتقد منه بدلا سماعيا ولا يفرقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع ^(١) .

وهذا الاتجاه يسير إلى ما رمى إليه ابن جنى في "الخصائص" وإن كان دونه .

فإن ابن جنى أراد أن يسمو على ما شغل به الكوفيون والبصريون وأن يعمل في أصول النحو ما عمله الذين سبقوه في أصول الفقه ^(٢) . وهذا وذاك سعى إلى غاية واحدة هي إنشاء فن جديد يجمع بين أسرار اللغة وأسرار الإعراب . ولا تزال الحاجة شديدة إلى فهم ما حاوله الثعالبي وابن جنى وابن سيده من دقائق هذا الفن العجيب ، والبحث عن المصادر الأولى التي مهدت لهم السبيل إلى التعمق في بعض الأبواب ، وتعقب الآثار الأدبية التي تعين على تصحيح ما وقعوا فيه من الأغلاط . وذلك يتطلب كثيرا من الجهود .

٤ - في كتاب ابن فارس طائفة من الأبحاث يتصل بعضها بأسرار اللغة ويرجع بعضها إلى مسائل عرضية كانت مما يشغل الناس إذ ذاك . من هذا كلامه عن الخط العربي وأول من كتب به وهو ينقل في سذاجة أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة . كتبه في طين وطبخه فلما أصاب الأرض الفرق وجد

(١) راجع مقدمة المخصص . (٢) ص ٧ من الخصائص .

كل قوم كتابا فكتبوه فأصاب اسماعيل الكتاب العربي . ويرى كذلك أن الخط توقيف لظاهر قوله عز وجل : « إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ويرى أنه ليس ببعيد أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء على كتاب ويقول « فاما أن يكون مخترع اخترعه من تلقاء نفسه فشىء لا تعلم صحته إلا من خبر صحيح ^(١) » .

ويبالغ فى إثبات أن لغة العرب توقيف لا اصطلاح . ويرى كما رأى فى زعمه ابن عباس أن الأسماء التى علمها الله آدم "هى هذه التى يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك" ويقول فى سذاجة "ولعل ظانا يظن أن اللغة التى دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفى زمان واحد وليس الأمر كذلك بل وقف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه فى زمانه وانتشر من ذلك ما شاء الله ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبيا نبيا ما شاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . فأتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة . ثم قر الأمر قراره فلا تعلم لغة من بعده حدثت ، فان تعمل اليوم لذلك متعمل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده ^(٢) وهذا التوقيف هو عند ابن فارس منشأ اللغات . وإنه خطأ مبين . وقد خطر له أن النحاة يقولون إن العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا : من أنها لا تجمع بين ساكنين ولا تبدئ بساكن ولا تقف على متحرك وأنها تسمى الشخص الواحد بالأسماء الكثيرة وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد ، وهذا دليل على أن للعرب شيئا من الاختيار فى كيفية التعبير وهو يدفع ذلك بقوله . "إن العرب تفعل كذا بعد ما وطأناه من أن ذلك توقيف حتى ينتهى الأمر إلى الموقف الأول" ويحسن أن نذكر أن ابن فارس لم يبالغ فى تأييد هذا رأى إلا عند الكلام عن منشأ اللغات فقد انطلق عقله بعد ذلك وأدرك أن لاختلاف الاصقاع والأقاليم تأثيرا فى تكوين اللغة وإن لم يعط هذا الوجه حقه من البيان .

٥ - وقد عُني ابن فارس وهو يتكلم عن الكتابة والقراءة والخط بمسألة تتعلق برسم المصحف وقراءته : فذكر بسنده أن عثمان أرسل إلى أبي بن كعب كنف شاة فيها "لم يتسن" و "فأمهل الكافرين" و "لا تبديل للخلق" فدعا بالدواة فحما إحدى اللامين وكتب "لخلق الله" وحما "فأمهل" وكتب "فمهل" وكتب لم "يتسنه" ألحق فيها هاء .

ونقل عن الفراء أنه قال (إتباع المصحف إذا وجدت له وجها من كلام العرب وقراءة القرآن أحب إلى من خلافه) .

وأنه قال (وقد كان أبو عمرو بن العلاء يقرأ «إن هذين لساحران» ولست أجتري على ذلك وقرأ (فأصّدق وأكون) فزاد واوا في الكتاب ولست أستحب ذلك) .
وكان عليّ ابن فارس أن يكشف عن مغزى هذا التغيير في رسم المصحف وأن يبين إلى أي حدّ يقبل تصحيح النحاة لقراءات القرآن . ولكن يظهر أن رغبة الجماهير في الكف عن التعمق في درس ما يتصل بالدين حالت بينه وبين الإفصاح عما لمحاولات النحاة من الغرض البعيد . ونحن أيضا نكتفي بالإشارة إلى هذا البحث الخطير^(٢) .

٦ - المعروف أن العلوم العربية لم تنشأ الا في الاسلام : فالتحوي من وضع أبي الأسود الدؤلي . والعروض من وضع الخليل بن أحمد . والبلاغة من وضع عبد القاهر الجرجاني . إلى آخر ما يهيجس به أدعياء التاريخ . وقد تنبه ابن فارس الى استبعاد هذه البداية للعلوم العربية فذكر أن علم العروض أقدم من عهد الخليل . قال : والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرئ قصيدة الخطيئة التي أولها :

شاقك أظعان لليل
دوت ناظرة بواكر

ف نجد قوافيها كلها عند التزم والإعراب تجيء مرفوعة ولولا علم الخطيئة بذلك لأشبهه أن يختلف اعرابها : لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقا من غير قصد لا يكاد يكون^(٣) .

(١) ص ٩ و ١٠ و ١١ (٢) القرآن يجب أن يفرد له نحو خاص ، وكذلك الأدب الجاهلي والأموي ، ولغات العالم كله تعرف بما يسمى "النحو التاريخي" ونحن في حاجة الى ذلك النحو لتوجيه بعض ما يبدو شاذا من تعابير القرآن . (٣) ص ١٠ و ١١

وهنا يجب أن نشير إلى غلطة وقع فيها ابن فارس وهو يذكر أن علم العربية وعلم العروض كانا قبل الدؤلى والخليل . فقد نص على "أن هذين العالمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس ثم جددهما هذان الإمامان" .

ويعنى هذا أن النحو الذى نعرفه علم مجدد لا مبتكر، وكذلك العروض . وهذا خطأ إن أردنا أن النحو والعروض كانا قديما على مثل هذا الوضع . والحق أنه يبعد أن لا يكون العرب فكروا في ضبط لغتهم منذ العهود القديمة . ولكنه يبعد كذلك أن يكون ما عرفوه وتواضعوا عليه من الضوابط والقواعد مما تلا ما عرف بعد الاسلام . لأن النحو الذى نعرفه هو نحو اللغة القرشية فكلمة "العرب" في عبارة ابن فارس تحتاج الى تحديد .

٧ — ولا بن فارس رأى في التعابير الأدبية فقد نقل لنا تعابير كثيرة ضاعت مغازيها من أذهان المتكلمين وبقيت خلوا من المدلول . وهو يرى أن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله وأن علماء اللغة يختلفون في كثير مما قالته العرب فلا يكاد واحد منهم يخبر عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والامكان، وأنه لا يعرف أحد منهم حقيقة قول العرب في الاغراء (كذبك كذا) وما جاء في الحديث من قوله (كذب عليكم الحج) "وكذبك العسل" .

وقول القائل :

كذبت عليكم أو وعدوني وعللوا بى الأرض والأقوام قردان موطبا

وقول الآخر:

كذب العقيق وماء شت بارد ان كنت سائلى غبوقا فاذهبي

ونحن نعلم أن قوله (كذب) يبعد ظاهره عن باب الإغراء . وكذلك قولهم (عنك في الأرض "عنك شيئا" وقول الأفوه :

عنكمو في الأرض إنا مذجج ورويدا يفضح الليل النهار

ومن ذلك قولهم "أعمد من سيد قتله قومه" أى "هل زاد ؟" .

وقال ابن ميادة :

وأعمد من قوم كفاهم أخوهبو صدام الأعادى حين فُلت نيوبها

قال الخليل وغيره "معناه هل زدنا على أن كفينا" قال ابن فارس فهذا من مشكل الكلام الذى لم يفسر بعد . وقول أبي ذؤيب :

صخب الشوارب لا يزال كأنه عبد لآل أبي ربيعة مسبح

قال ابن فارس : فقوله "مسبح" لم يفسر حتى الآن تفسيراً شافياً .

ومن هذا الباب قولهم "ياعيد مالك" و"ياهي مالك" و"ياشئ مالك" ولم يفسروا قولهم "صه" و"ويهك" و"إنيه" ولا قول القائل :

* بخائبك الحق يهتفون وحى هل *

ويقولون "خائبكما وخائبكم" . فأما الزجر والدعاء الذى لا يفهم موضعه فكثير كقولهم "حى" و"حى هلا" و"وبعين ما أرينك" فى موضع عجلى . و (هج) و (هجا) و"دع" و"دعا" و"لعا" للعائر يدعون له وينشدون :

ومطية حملت ظهر مطية حرج تنمى مل عثار بدعدع

ويروى عن النبى أنه قال "لا تقولوا دعدع ولا لعل . ولكن قولوا اللهم ارفع واقنع" قال ابن فارس : فلولا أن للكلمتين معنى مفهوماً عند القوم ما كرهما النبى . وكقولهم فى الزجر "أخر" و"أخرى" و"دها" و (هلا) و (هاب) و"ارجى" و"عد" و"عاج" و"يعاط" و"يعاط" وينشدون :

وما كان على الجئى ولا الهى امتداحيكا

وكذلك "إجد" و"وأجدم" و"حدج" .

(١)

قال ابن فارس : لا نعلم أحداً فسر هذا .

تأمل أيها القارئ في هذه التعابير المجهولة وأذكر أنها لم تجهل إلا لأنها كانت متصلة بقبائل تناساها المحدثون . ولو كانت هذه التعابير متأصلة في لغة قريش لبقيت معروفة المدلول . وهنا نشير الى أنه لا بد من وضع قاموس يراعى فيه جانب التاريخ . فان المعاجم العربية جمعت الألفاظ والتعابير من هنا وهناك من غير أن تعين ما عُرف في عصر ثم جهل وما استعمل ثم تجاوز الاستعمال . وقد نجد من كتاب العصر الحاضر من يظن المعاجم صورة صادقة لما كان يذهب اليه العرب في طرائق التعبير وهو خطأ لو يعلمون شنيع !

٨ — وقد تنبه ابن فارس الى التعابير التي لا يمكن الوصول فيها الى تعيين المراد . والمشتبه الذي لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتمال وما هو بغريب اللفظ ولكن الوقوف على كنهه معتاض . وذكر من ذلك قولنا (الحين) و(الزمان) و(الدهر) و(الأوان) فانك لا تدري اذا قال الحالف «والله لا كلمته حيناً أو زماناً أو دهرًا» الى أى حد يتصل الإعراض وكذلك «بضع سنين» مشتبه . قال ابن فارس وأكثر هذا مشكل لا يقصر بشيء منه على حد معلوم ومن هذا الباب على رأيه قولهم في الغنى والفقر وفي الشريف والكريم واللئيم اذا قال «هذا لأغنياء أهلى» أو «فقرائهم» أو «أشرافهم» أو «كرامهم» أو «لئامهم» وكذلك إن قال «امنعوه سفهاء قومي» لم يمكن تحديد السفه .

قال ابن فارس : ولقد شاهدت منذ زمان قريب قاضيا يريد حجرا على رجل مكتهل فقلت وما السبب في حجره عليه ؟ فقيل يزعم أنه يتصيد بالكلاب وأنه سفيه . فقرئ على القاضى قوله جل ثناؤه «وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلموهن بما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم» . فأمسك القاضى عن الحجر على الكهل^(٢) .

٩ — وقد أراد ابن فارس أن يثبت للغة العرب خصائص ليست لغيرها من سائر اللغات فزعم أنها انفردت بالبيان : لقوله جل ثناؤه «(وإنه لتنزىل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين)» .

ثم أعقب هذا الشاهد الذى لا يقيم حجته بهذه العبارة « فان قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربى لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين . قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان : لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلماً فضلاً عن أن يسمى بيناً أو بليغاً .

”وان أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط : لأننا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد . ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة . وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذلك؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟“^(١)

وهذا كما يرى القارئ كلام أجوف لا طائل تحته وهو يدل على أن ابن فارس كان قليل العلم بما عُرف لعهد من آثار الفرس واليونان . وإلا فكيف جاز له أن يظن أنه لاحظ لغير العرب فى البلاغة والبيان! ثم ما هو الدليل على انفراد العرب بالإفصاح؟ لا شيء إلا أن للأسد خمسين ومائة اسم ، وللسيف خمسمائة ، وللمية مائتين ، وما شاء الله كان ! وقد شاع هذا الغلط عدة قرون وكان من آثاره أن سأل الرشيد الأصبهى عن شعر لابن حزام العكلى ففسره فقال الرشيد :

يا أصبهى ! إن الغريب عندك لغير غريب ! فقال ”يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً“ وكان من آثاره أيضاً أن أفرد صاحب ابن عباد هذه المترادفات بكتاب !

ولقد جرى ذكر هذه (الثروة اللغوية) فى درس الدكتور طه حسين فأشار الى أن هذا غير طبيعى أو أنه على الأقل إسراف . وهو يرجح أن كثرة المترادفات الى هذا الحد ليست إلا أثراً من عبث الرواة ولعبهم بالجماهير . ويرى أنها ترجع الى السياحات العديدة التى كان

يرى بها الرواة واللغويون الى جمع ما تفرق في أحشاء البادية من مختلف الصفات والأسماء ليعودوا الى الحواضر مثقلين بمادة المكاثرة والتعجيز ثم لا يتحرجون من أن يقولوا إن العرب تعرف للأسد خمسين ومائة اسم وللسيف خمسمائة وللحبة مائتين .

فمن هم هؤلاء العرب أيها الناس؟ أليسوا في أنفسكم كل من أقلت الجزيرة العربية من شتيت القبائل وعديد الأحياء؟ ولكن ألا تذكرون أننا حين نذكر لغة العرب لا نريد غير لغة قريش التي نزل بها القرآن؟ أفستطيعون أن تثبتوا أن قريشا عرفت للحجر سبعين اسما وللكلب ما لا ندري كم تعدون من الأسماء؟

١٠ — وقد غفل ابن فارس عن تأثير الاقليم في اللغة العربية فظن التعابير التي انفرد بها العرب — لما نتأثر به أسماعهم وأبصارهم — فضلا تطول به لغتهم سائر اللغات . وكذلك يرى أنه لا يمكن لغير العربي أن يعبر عن قوطم (رحب العطن، وغمر الرداء . ويخلق ويفرى . وهو ضيق المحجم . قلق الوضعين . وهو ألوى بعيد المستمر . وهو شراب بأنقع . وهو جذيلها المحكك وعذيقها المرجب . وعى بالاسناف) .

ولو تأمل ابن فارس قليلا لعرف أن هذه التعابير ليست إلا تمثيلا لما يراه العرب في باديتهم من الحيوان والنبات والجماد ، وأنه من المعقول أن يكون للهند والفرس والروم تعابير كهذه أخذت مما تقع عليه أبصارهم من أنواع الموجودات ولا يستطيع العرب أن يسفوها لأنها وقعت على غير ما يألون .

٥ - النقد الأدبي عند ابن شهيد

مر البيان — خصومة ابن شهيد وحققه على المعلنين في قرطبة — مذهب الجاحظ في تعليم البيان — كيف تكون ملاحاة النحو وفصاحة الغريب — الأنساب والقرابات بين الحروف — ربط القوافي والأوزان بالمعاني — كيف كان الشعر ينفع المجتدين عند البقالين والقصابين — هل في مقدور كل بلّغ أن يصل إلى كل غرض — البلاغة سياحة نفسية من المتكلم للمخاطب — أثر الطبع في البلاغة — هل لجمال الأعضاء دخل في جمال النفوس ؟ — وهل كان الجاحظ لدمامته من أهل الغفلة والحق ؟ — كيف تزن أقدار الرجال ؟

١ — أشرنا عند الكلام على رسالة "التواضع والزواج" (١) إلى ما كان يراه ابن شهيد من أن البيان نفحة سماوية ولا صلة له بالنحو والتصريف ومعرفة الغريب، فلنذكر الآن أن هذا الرأي كان من المسائل التي شغل بها ابن شهيد وأخذ يبدئ فيها ويعيد كلما تكلم عن النقد والبيان. ومن الخير أن ننص هنا على أن ابن شهيد لم يكن في درس هذه المسألة مخلصا كل الإخلاص، فقد تبين لنا بعد مراجعة ما كتبه في ظروف مختلفة أنه كان حريصا على تحقير جماعة من اللغويين والنحويين الذين عاصروه في الأندلس وناصبوه الخصومة والعداء. وقد اجتهد في أن يخفي علينا تعامله على رجال النحو والتصريف والغريب ويصنع أحكامه بصيغة التعميم، ويبعد عن أذهاننا ما يريد من التخصيص، ولكنه غلب على أمره فصيح بشكواه من قلة إنصاف النحويين له وتسلطهم عليه وإسرافهم في ثلبه. فلنفهم هذا جيدا قبل عرض آرائه لنذكر أن أقواله مشربة بالضغن والحقد وأنه لا ينبغي أن نتخذها أساسا صالحا لتقدير العلوم العربية من نحو وصرف وأشتقاق: لأن تلك العلوم ضرورية، وليس من النفع أن نوافق ابن شهيد على الاستهانة بها وتحقير أهلها، وإن كنا نعرف أنها لا تكفي وحدها لمنح طلاب الأدب ملكة البيان.

(١) راجع تحليل رسالة التواضع والزواج في باب « الأخبار والأقاصيص » من الجزء الأول.

٢ - يتحدثنا ابن شهيد أن قوما من المعلمين في قرطبة ممن أتوا على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة يفتنون عن قلوب غليظة كقلوب البعران، الى فطن حمئة، وأذهان صديئة، لا منفذ لها في شعاع الرقة، ولا مدب لها في نور البيان، سقطت اليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهم القرد اليماني من الرقص على الايقاع والزمير على الألحان، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم، ولم يكن له آلة الصناعة، كالجمار الذي لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رؤسغه واستدارة حافره، وأنه لو جاز لجمار أن يغنى :

ما بال أنجم هذا الليل حائرة أضأت القصد أم ليست على فلك

لما جاز أن يوقع بالمضرب على الأوتار، ويرنمى الوتر في مجرى السبابة والبنصر فيليل بنشيد، ويولول في ضربه، وكذلك حال المتعلمين في قرطبة على رأى ابن شهيد^(١).

٣ - وفي موطن آخر نراه يتندد بالمعلمين ويصفهم بأوصاف منكرة ثم يقول :

”وما علم من خلق هذه العصابة اذا محتنا أبصارهم قابلونا بالماق، وهم منطوون على الحسد والحنق، فاذا جمعنا المحافل، وضمننا المجالس، تراهم الينا مبصبين، وعن الأخذ في شيء من تلك المعاني واقفين، وانما يتبين تقصير المقصر، وفضل السابق المبرز، اذا اصطكت الركب وازدحمت الحدق، واستعجل المقال ... الخ“^(٢).

٤ - ولا يكفى ابن شهيد بمثل تلك الحملات في تحقير المعلمين، بل يضيف قول الجاحظ :

”إنا اذا أكثرينا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهما في الشهر، ولو أكثرينا من يعلمهم البيان لما قنع منا إلا بألف درهم“ وقد أمكنت هذه الكلمة ابن شهيد من إعلان رأيه في كتاب البيان والتبيين الذي ألفه الجاحظ وهو في رأيه كتاب لم يكشف فيه عن وجه التعليم وصور كيفية التدريس“ ليرى القارئ كيف يكون وضع الكلام وتزليل البيان،

(١) الذخيرة ص ١٢٢ ج ١ (٢) ص ١٢٤ (٣) ١١٨

وكيف يكون التوصل الى حسن الابتداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء . ومن رأى ابن شهيد أن الجاحظ " استمسك بفائدته ، وضمن بما عنده غيره على العلم ، وشحا بثمرة الفهم " لأنه عرف «أن النفع كثير والشاكر قليل» ولذلك كان كتابه في البيان موقوفا على أهله ومن كرع في حوضه ، أما الجاهل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه على الإطلاق .

٥ — ونحن لانوافق ابن شهيد على ما رآه في كتاب البيان ، ونفهم أن الجاحظ لم يخف شيئا عن عمد ، وإنما نفترض أن تلك كانت طريقة الجاحظ في التأليف : فهو ينتقل من فن الى فن ، ومن كلام الى كلام ، جريا على طريقته في تسطير كل ما يمر بخاطره من ألوان الأدب والعلوم لأيسر المناسبات . وما نكاد نتصور أن التعليم كان من مبتغيات الجاحظ حتى يهتم بالترتيب والتبويب ، وإنما نتمنله رجلا يكتب لنفسه قبل كل شيء ، ويرضى شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات من القدماء الذين كانوا يخشون على العلم من الضياع ويكفهم أن يدونوا ما يسمعون أو ينقل اليهم من مختلف الأقوال والآراء والشواهد والأمثال .

٦ — وليس لإنحاء ابن شهيد على النحو والغريب معناه أنه ينكر قيمة ذلك في البيان ، كلا ، وإنما يحتم أن يختار الكاتب أملح النحو وأفصح الغريب . وملاحظة النحو هذه لم أرها عند أحد غير ابن شهيد ، وهو يريد بها اختيار الوضع النحوي الذي يساعد على أداء المعنى ، فقد يكون الكلام مستقيما من الوجهة النحوية ولا يكون مستقيما من الوجهة البيانية ، فان البلاغة في الواقع تبنى على سلامة التركيب .

والتركيب السليم لا يراد به التركيب الخالي من الغلط حين يراد وزنه بالموازن النحوية ، وإنما هو التركيب الذي يستوفي الدقائق المعنوية التي يهتم بتقييدها علماء المعاني . أما فصاحة الغريب فهي عند ابن شهيد وضع اللفظة الغريبة في موضعها بحيث لو وضعت مكانها كلمة مألوقة لتطرق الى المعنى شيء من الإخلال . ولننظر كيف يقص علينا ابن شهيد بعض ما كان يقع له مع تلاميذه في هذا الباب :

« جلس إلى يوسف الاسرائيلي وكان أفهم تلميذ مرّ بي وأنا أوصي رجلا عزيزا على من أهل قرطبة وأقول له : ان للحروف أنسابا وقربات تبدو في الكلام . فاذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخابر ، أفهمت ؟ قال :

إي والله ! قلت له : وللعربية إذا طلبت ، وللفصاحة إذا التمس ، قوانين من الكلام من طلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر ، أفهمت ؟ قال : نعم . قلت : وكما تختار مליح اللفظ ورشيق الكلام فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه . قال : أجل . قلت أنفهم شيئا من عيون كلام القائل :

لعمرك إني يوم بانوا فلم أمت خفاتا على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها لناظرها غصن يراح مطير

فقال : إي والله ! وقعت (خفاتا) موقعا لذيذا ، ووضعت (رميت) و (متن الطريق) موضعا مليحا ، وسرى (غصن يراح مطير) مسرى لطيفا . فقلت له : أرجو أنك تنسيت شيئا من نسيم الفهم فأغد على بشيء تصنعه .

قال ابن شهيد : «وكان ذلك اليهودي سائحاً يعي ما أقول فغدا ذلك القرطبي فأنشدني :

حلفت رب مكة والجبال لقد وزنت كروبي بالجبال

في أبيات تشبهه وجاء اليهودي فأنشدني :

أيهم ركبأنهم منعجا وقد ضمنوا قلبك الهودجا

وأستمز إلى آخر القصيدة فأتى بكل حسن ، فقال لي ذلك القرطبي : شعر اليهودي أحسن من شعري ! قلت ولا بأس بفهمك إذ عرفت هذا . ولم يزل يتدرب باختلافه إلى حتى ندى ثربه ، وطلع عشبه ، ثم تفتح زهره ، وضاع عقبه . ورآني أستعمل وحشى الكلام

في موضعه ولم يشعر بحسن الموضع فأستعمل شيئاً منه وعرضه على . فقلت : استره ! فقال : تبخل على به ! وعرضه على ابن الإفليل فقال له : تنكب هذا الكلام . فقال له : إن أبا عامر يستعمله ! قال : يضعه في موضعه وهو أدرب منك^(١) .

وهذا كلام جيد، وأجوده مانص فيه على أن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام، فإذا جاور النسب النسب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصيغة . وهذه الفكرة الدقيقة ليست من مبتكرات ابن شهيد فقد رأيناها قبله منسوبة إلى ابن العميد حين حدثنا صاحب في مقدمة كتابه عن مساوي المتنبي أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد « فانه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن^(٢) » .

وبذلك تكون كلمة ابن العميد أسبق وأشمل من كلمة ابن شهيد ، لأن ابن العميد يربط القوافي والأوزان بالمعاني ، فليس كل وزن يصلح لكل معنى ، لأن بعض القوافي والأوزان أرق أو أخف من بعض ، كما أن بعض الألفاظ والمعاني أطف أو أجزل من بعض ، وفطنة الشاعر والكاتب هي التي تؤلف بين المعنى وبين لَبُوسه من ألفاظ وحروف وقواف وأوزان .

٧ — ويرى ابن شهيد أن البلاغة تختلف باختلاف أقدار المخاطبين ، ومعنى هذا أن البلاغة صلة نفسية بين المتكلم والمخاطب ، فهي ترجع إلى فهم المتكلمين لنفوس المخاطبين ، وعلى ذلك لا يكون أساس بلاغة الكلام صلاحيته لأن يلقي إلى جميع الناس في جميع الأحوال ، وإنما بلاغة الكلام أن يبلغ بصاحبه إلى الغرض الذي يرمى إليه عند الخطاب . ويقول في ذلك : « وربما لا ذنبنا المستطعم باسم الشعر ممن يحبط العامة والخاصة بسؤاله فيصادف منا حالة لا تتسع في كبير مبرة فنشاركه ونعتذر له ، وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصائين ، فإذا قارفت أسماعهم ، ومازجت أفهامهم ، در حلبهم ، وانحلت عقدهم ، وجل شخص

(١) ص ١١٨ و ١١٩ من الذخيرة . (٢) مقدمة كشف مساوي المتنبي .

(٣) الخطب : السؤال ، من خبط الشجرة شدّها ثم نقض ورقها لتسقط منها الثمرة .

ذلك البأس في عيونهم: فما شئت إذ ذاك من خبزة وثيرة يحشى بها كفه ، ورقبة سمينة تدفن في مخلاته ، ومن كوز فقاع يصب في فمه ، وتينة رطبة يستد بها حلقه ، وسنو سمكة ودكة تدس تحت لسانه ، والودجة رطبة يحنك بها حنكه ، فلا يكاد البأس يستتم ذلك حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يمسحها ، راغبا في أن تكشف له السر الذي حرك العامة فبذلت ما عندها له وبادرت برفدها إليه ^(١) .

وتلك قصة نعرف منها كيف كان الشعر الفصيح ينفع من يستجدون البقالين والقصابين في الأندلس ، وكيف كانت تلين اللغة لمثل ابن شهيد حتى يخاطب بها في بلاغة جميع الطبقات . والمهم أن نعرف رأى صاحبنا أبي عامر حين طُلب منه كشف السر الذي حرك العامة بفادت بعد بخل ، وهشت بعد جمود ، وهو يقول في الجواب :

”وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشحذ لا نستطيعه : لأن هذا الذي يريد منا تعليمه هو البيان وبين فكره وبينه حجاب . ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان“ ^(٢) .

٨ - وابن شهيد يرى أنه ليس في مقدور كل بليغ أن يصل الى كل غرض : فهناك ناس بخلاء من الكبراء يعسر تحريكهم الى البذل بحيث لا ينبج فيهم تقيظ ، وإذ ذاك ”يحتاج الى أنقب ما يكون من الذهن وأوسع ما يكون من الحيلة . إلا أن هذه العصابة لا يمكن لذي النباهة تحريكها ولا بد لها من طبقة يكون لها في العين بعض التصويب والتصعيد ، ولهذا صار سب الاشراف عسيرا عويضا فانك تجدهم يتدحرج عنهم قبيح المقال ، ولا يضعفهم خبيث الكلام ، لقوة بنيانهم وثبات أركانهم ، فهدم بنيان هؤلاء صعب“ ^(٣) .

وهذا الذي يقوله ابن شهيد يحتاج الى تحديد : فمن الحق أن هناك مواطن يحار فيها البليغ وقد تبدو البلاغة في بعض الأحيان لونا من اللغو والفضول ، لمعجز الكاتب والشاعر والخطيب عن غزو بعض النفوس ، ولكن في تلك المواطن وحدها يحتاج الى بيان الكتاب والخطباء

والشعراء، وبقدار فهم البليغ لما تعقد واستبهم من بعض الأهواء والميول يكون نجاحه في درك ما يتعسر على سواد المنشئين، لأن لكل شخصية مهما مكر صاحبها وخبت ولؤم جوانب من الضعف ينفذ إليها القول حين يتصل المنشئ بأسرار من يخاطبهم من أهل الشح والكنود؛ وسر البلاغة لا يظهر إلا في المواطن التي تبدو مفروغا من الكلام فيها، ومينوسا من فائدة العود إلى شرحها وتفصيلها، فإن المنشئ لا يعجز إلا حيث يكون الجوّ بداهة وظهور بحيث يظهر كل بيان وكأنه حديث مرّدّد معاد، عند ذلك يعرف البليغ الموفق كيف يحوّل المسائل الظاهرة إلى مشاكل عقلية وروحية واجتماعية، فينقل قلوب الجاحدين وعقولهم إلى جواء من البحث والتفكير ويفقههم موقف الحيرة والترّدّد بين الخير والشر والبر والعقوق. فليس البليغ هو من يأتي فقط بالبدع الطريف، ولكن البليغ هو من يحوّل الموضوعات العادية إلى شئون جديدة طريفة لتحلل فيها عزائم أهل الشح أو تنهض ضمائر أهل الجمود. وليس من الصحيح أن هناك ناسا يصعب هدم بنيانهم، ولكن الصحيح أن هناك ناسا لا يهدمون لأنهم يهاجمون بمعاول محطمة من الهجو القبيح.

والبليغ يستطيع أن يصل دائما من طريق علم النفس إلى مكان من الضعف من نفوس الأتقياء الذين يتوقنون أمام دعوات الخير والبر والاحسان، ففي كل نفس مهما لؤمت جوانب خيرة غافية يقدر على إيقاظها البارعون من أهل البيان.

وجملة القول في هذا المعنى أن البلاغة ضرب من السياسة النفسية، ومن السياسة تكون نظراتهم أشدّ خطراً على أعدائهم من الجيوش والأساطيل، وكذلك البليغ يكون في أحيان كثيرة شراً مستطيراً على المعاندين من يخاطبهم أو يرسلهم أو يحاورهم في جدّ أو في هزل، من قرب أو من بعد، لأن البلاغة ليست إلا نقل ما في الروح من حب أو حقد، أو عتب، أو ملام، وصبّ ذلك كله في رفق أو عنف في أفئدة من تخاطب أو تكتب من عدوّ أو صديق. وذلك يفرض أن تفيض عنا البلاغة ونحن في أعلى درجة من درجات التيقظ والقوة، وفي أسمى أوج من الغضب أو الحنان، بحيث تكون أنفاسنا شواظا يتلظى حين نهجم

ونفثك ، ونسبما يتأرجح حين نحنو ونعطف . أما وضع الكلام في ذهول ومن غير درس
لأنفس المخاطبين فهو العي الذي استعاذ منه الخطباء ، والإفحام الذي تهيب عواقبه الشعراء .
ومن الناس من يظن أن البلاغة ليست إلا سواد المداد في بياض القراطيس !

٩ — على أن ابن شهيد لم يفقه أن سر البلاغة يرجع الى الطبع قبل أن يرجع
الى استيفاء مسائل النحو وحفظ كثير الغريب . وعنده أن البلغاء يتفاوتون بقدر ما يتفاوت
تركيب أنفسهم مع أجسامهم :

” فمن كانت نفسه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا يطلع صور الكلام والمعاني
في أجمل هيئاتها وأروق لباسها . ومن كان جسمه مستوليا على نفسه من أصل تركيبه كان
ما يطلع من الصور ناقصا عن الدرجة الأولى في التمام والكمال وحسن الرونق .

” فمن كانت نفسه هي المستولية على جسمه فقد تأتى منه في حسن نظام صور رائعة تملأ
القلوب وتتعش النفوس ، فاذا قششت لحسنها أصلا لم تجده ، ولجمال تركيبها وجهها لم تعرفه ،
وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن ، كقول امرئ القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالى

فهذه الديباجة إذا تطابت لها أصلا من غريب معنى لم تجده ، ولكن لها من التعلق
بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى^(١) .

وهذا الكلام يمثل جانبا من جوانب البلاغة عند ابن شهيد ، وهو جانب الطبع . ومعنى
ذلك أنه قد يتفق لنا أن نهجب بفقرة من النثر ، أو بيت من الشعر ، بدون أن يكون لما
أعجبنا به معنى غريب ، وإنما سر إعجابنا يرجع الى ما طُبع به الكلام من شرف الطبع وسمو
الروح . والجانب الثانى عند ابن شهيد هو المعنى ، أما اللفظ فهو عنده قالب ولَبُوس لا قِوَام
له بغير المعنى ، وهو لذلك يوصى الناقد بأن ” يفتش عن شرف المعانى ، وينظر مواقع البيان ،
ويحترس من حلاوة خدع اللفظ ”^(٢) .

ويقتر أن البليغ "إنما يستحق اسم الصناعة بتقحم بحور البيان، وتعتمد كرائم المعاني" ولا يتم له ذلك إلا بأن "يمتطى الفصل ويركب الحد، ويطلب النادرة السائرة وينظم من الحكمة ما يبقى بعد موته"^(١).

وكل هذا جدير بالتأمل والدرس ففيه شرح لما استغلق على النقاد أزمانا كثيرة، أسنا نرى في بعض الرسائل والخطب والقصائد نماذج فاتنة، وهي مع ذلك خلو من غرائب المعاني؟ فلنعرف الآن أن السر في إعجابنا بأمثال تلك النماذج مرجعه الى الطبع والروح. ونحن نستطيع تعليل ذلك بدرس من نعرف من الناس، فهناك أفراد غنائهم قليل، ومحصولهم ضئيل، ومع ذلك تُفتن بهم أحيانا ونراهم أهلا للحب والإعجاب. وهذا هو سر ذبوع كثير من الآراء الخفيفة الوزن، القليلة العمق، فانها قد تصدر عن فطر سليمة، وطباع شريفة، ينقصها العمق ولكنها غنية بالنبل والصفاء.

١٠ — ولا يقف ابن شهيد عند اشتراط شرف النفس، وكرم الطبع، بل يتعدى ذلك الى الصفات الجسمية: وهو يرى الأجسام من صور النفوس. يوضح ذلك قوله في المعلمين بقرطبة: "يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة. وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة، من فساد الآلة الروحانية، والخادمة لآلات الفهم، الباعثة لرقيق الدم في الشريان الى القلب وزيادة غلظ أعصاب الدماغ وتقصانها عن المقدار الطبيعي، وما يعين على ذلك بالحسن وطريق الفواسة من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه، وتنسوء القمحودة^(٢)، والتواء الشدق، ونخر العين، وغلظ الأنف، وانزواء الأرنبة. فنستعيز بالله أن لا يشوه خلقه قلوبنا وجرم أجبادنا"^(٣).

وهذه الأحكام متصلة أوثق اتصال بعلم النفس وعلم منافع الأعضاء، فليس من شك في أن للجسم تأثيرا شديدا على الروح حتى في صورته. والصور المقبولة تبعث في أصحابها روح الثقة بالنفس. وليس من المجازفة في شيء أن نتخذ من ذلك تعليلا لهفوات العظماء: فهم في الأكثر أصحاب أهواء وشهوات، وذلك مظهر من مظاهر الاتساق بين عافية البدن وشباب الروح.

(١) ص ١٥٦ (٢) القمحودة: عظم الرأس مما يميل الى القفا. (٣) ص ١٢٢

١١ - وابن شهيد وفي لمبده في ربط الصلة بين النفس والأعضاء، وقد حمّله ذلك على النيل من الجاحظ والغض من قيمته العلمية والأدبية، ورميه بالغفلة والحمق . وقد خطأ أبا القاسم الأفليسي في تقديمه الجاحظ على سهل بن هارون . ومن رأى ابن شهيد أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدّم ابن الزيات وإبراهيم بن العباس إما أن يكون لأنه كان مقصرا في الكتابة وجميع أدواتها ، أو لأنه كان ساقط المهمة ، أو لأن إفراط بحوظ عينيه قعد به : لأنه لا بدّ للكل من كاتب مقبول الصورة تقع عليه عينه ، وأذن ذكية تسمع منه حسه ، وأنف ذكي لا تُدَمّ أنفاسه عند مقاربتة له . ولذلك استحسنوا من الكاتب أن يكون طيب الرائحة ، سليم آلات الحواس ، نقي الثوب ، ولا يكون وسخ الضرس منقلب الشفة ، مكحل الأظفور ، وضر الطوق .

وقد شعر ابن شهيد بأنه من التحامل أن يرمى مثل الجاحظ بنقص في أدوات الكتابة فقال :

”ربما أنكر قولنا في شرطه جمع أدوات الكتابة فقليل : وأي أداة نقصت الجاحظ ؟ فنقول : أول أدوات الكتابة العقل ، ولا يكون كاتب غير عاقل ، وقد نجد عالما غير عاقل ، وجدليا غير حصيف ، وفقهيا غير حليم . وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهل أكثر من ينسبه الى الجاحظ ، ولو شاهد الجاحظ سهلا يخادع الرشيد ملكا ويدبر له حربا ، ويعانى له إطفاء جمرة فتنة ، ناهضا في ذلك كله بعقله وتجربة علمه لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال ، في صفة غراميل البغال ، وغير الكلام في الجرذان ، وبنات وردان ، ولعلم أن بين العالم والكاتب فرقا“^(١) وهذا الكلام يعطى لابن شهيد صورة غير مقبولة ، فالأدب والعلم عنده من وسائل العيش والحظوة لدى الملوك ، وبمقدار نجاح الكاتب في دنياه يكون فضله . وهذا خطأ مبين .

قد تكون دمامة الجاحظ هي التي قعدت به كما قصّر بابن شهيد نفسه ثقل سمعه ، وكما تخلف صاحبه الأفليسي لورم أنفه . وإذا ذاك يكون للجاحظ عذره المقبول .

ولكن هل خطر ببال ابن شهيد أن هناك اختلافا بينا في تركيب النفوس ؟ إننا نعرف
 بالتجربة أن للعقول شهوات ، فقد تكون السياسة أشهى ما يسمو اليه أمثال سهل بن هارون
 ولكن لا ريب في أن العلم أيضا شهوة ، وكان الجاحظ مفتونا أشد الفتنة بدرس علم الحيوان ،
 وكان كذلك مفتونا بدرس طبائع الناس وغرائزهم في مختلف الطبقات . فليس من العيب أن
 يهتم بالصغائر في العلوم لأن العلم في أصغر جزئياته لا ينال من العالم غير الإكبار والإجلال . إن
 من العدل أن تزن الأمور بميزان آخر غير النجاح المؤقت الذي يظفر به الكتاب السياسيون :
 يجب أن تزن أقدار الرجال بما يبذلون من الجهود في أعمالهم الأدبية والعلمية ، وإذا ذاك تمكن
 الموازنة بين ما عمل سهل بن هارون في ميدان السياسة وبين ما عمله الجاحظ في ميدان العلم ،
 أما الموازنة بين حظوظهما الدنيوية فباب من الضلال . ويأويل أهل الفضل إن قيست
 أقدارهم بمقياس ما يملكون من دراهم معدودات !

(١١)

٦ - أبو بكر الباقلاني

١ - لم يصل إلينا من آثار أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني إلا كتابه «إعجاز القرآن» وفي بقاء هذا الكتاب مع ضياع سائر ما وضعه المؤلف دلائل على أن معاصريه كانوا اهتموا بنسخه ومدارسته فسلم بذلك من الضياع . ونحن وإن لم نر من مؤلفات الباقلاني غير كتابه في إعجاز القرآن فانا نستطيع الحكم بأنه خير كتبه : لأنه في موضوع خطير جدا كان يستوجب من مثله حماسة واستعدادا بالغين . فقد كان بعض الناس في عصره يرتابون في إعجاز القرآن وكان في ارتيابهم ما يسوقه إلى درس الإعجاز من جميع أطرافه ، ودفع الشبه التي كان يذيعها الملحدون في الحواضر الاسلامية . وإنه ليمثل لنا الأزمة العقلية التي أطبقت على معاصريه إذ يقول :

« ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه ، وأولى ما يلزم بحثه ، ما كان لأصل دينهم قواما ، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما ، وعلى صدق نبيهم برهانا ، ولمعجزته ثبوتا وحجة . لا سيما والجهل ممدود الرواق ، شديد النفاق ، مستول على الآفاق . والعلم إلى عفاء ودروس ، وعلى خفاء وطموس ، وأهله في جفوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشestim ، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأخذ في سبيله . فالناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشيد ، وآخر مصدود عن نصرته مكدود في صنعته ، فقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين في أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين . وقد قل

(١) ولد الباقلاني في البصرة ، وسكن بغداد ، وبها كانت وفاته يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ وكان من كبار أهل السنة . ورثاه بعض معاصريه بقوله :

أنظر إلى جبل تمشى الرجال به
وأنظر إلى صارم الاسلام مقتبدا
وأنظر إلى القبر ما يحوى من الصلف
وأنظر إلى درة الاسلام في الصدف

والباقلاني : نسبة إلى الباقل بتشديد اللام وقصر الألف . وفيها كلام تجده في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٠

أنصاره، واشتغل عنه أعوانه، وأسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره : فمن قائل إنه سحر، وقائل يقول إنه شعر . وآخر يقول إنه أساطير الأولين ... الخ^(١) .

وليس في هذه الفقرة شيء جديد فإن شكوى الزمان من الظواهر الإنسانية التي يجدها المطلع في أكثر ما اثر عن القدماء والمحدثين، ورجال الدين خاصة يكثر من التبرم بمعاصريهم ووصفهم بالزيف والاحاد والفسوق . فليس معنى هذا الكلام أن أهل القرن الرابع كانوا أكثر الناس شبهات وأضاليل ، ولكن معناه أنهم كانوا كذلك في نفس المؤلف، وفي هذا ما يدفعه إلى التأهب لمناضلة المرتابين في إعجاز القرآن .

٢ - ونحب في بداية هذا الفصل أن نحدد موقفنا في درس كتاب الباقلاني عن الإعجاز . ونقتصر - في صراحة - أننا لا نريد عرض مسألة الإعجاز على بساط البحث من جديد . وإنما يهمننا أن نتبين كيف كان القدماء يفهمون النقد وكيف كانت مذاهبتهم في وزن الكلام البليغ . فكتاب الباقلان في نظرنا صورة للحياة الأدبية في أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع . وليس حجة في تقدير القرآن . لأن وزنه أخف من أن يفصل في تلك المسألة الدقيقة : مسألة الكلام المعجز الذي يسمو ببلاغته على ما يتطلع إليه فرسان الفصاحة والبيان . وهناك جانب آخر لا نذكر أن من الباحثين من أشار إليه : وهو جمع المحاولات الأدبية التي حاولها خصوم القرآن ، ففي تلك المحاولات صورة من صور النقد لها قيمة في أنفس من يعنون بتاريخ الآداب . ونحن كمؤرخين للأدب يهمننا أن نستقصى جهد الطاقة ما تناثر هنا وهناك من محاولات الناقدين بدون تفريق بين الخطأ والصواب . فإن ذلك في جملته يمكننا من درس الحياة الأدبية دراسة علمية بعيدة عن مطارح الأوهام والظنون .

٣ - من ذلك ما حدثنا الباقلاني أنه نُقل إليه أن من خصوم القرآن من (جعل يعبد له ببعض الأشعار ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضل عليه)^(٢) - ففي

هذا الخبر ظاهرة أدبية خطيرة ينبغي أن نقيد أنها وقعت في القرن الرابع . ولو أن الباقلاني بين لنا كيف كانت تلك المعادلات والموازنات لاستطعنا أن نعرف الى أي حد كانت تلك المحاولات تتصل بتاريخ النقد الأدبي ، ولكن ما صنعه الباقلاني نفسه في نقد امرئ القيس والبحترى يحدد لنا ذلك المنهج بعض التحديد : فقد عرض لأشهر قصيدة نسبت الى امرئ القيس وهي المعلقة فنقدتها بيتا بيتا بعد أن أشار الى أنه لا يرتاب في جودة شعر امرئ القيس ولا يشك في براعته وفصاحته وما أبدع في طرق الشعر من أمور أتبع فيها كذكر الديار والوقوف عليها وما يتصل بذلك من التشبيه الذي أحدثه والتلميح الذي يوجد في شعره والتصرف الكثير الذي يصادف في قوله والوجوه التي ينقسم اليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومثانة ورقة . ولم ينقد الباقلاني معلقة امرئ القيس إلا ليبين للقارئ أن تلك القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتاً بينا في الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسهل والاسترسال والتوحش والاستكراه : فهي على ذلك كلام ينحت من الصخر تارة ويدوب تارة . ويتلون تلون الحراء ، ويختلف اختلاف الأهواء ، ويكثر في تصرفه اضطرابه وتتقاذف به أسبابه . ومثل هذا الكلام لا يقارن بالقرآن الذي يصفه بأنه " قول يجري في سبيله على نظام ، وفي وصفه على منهاج ، وفي وضعه على حد ، وفي صفاته على باب ، وفي بهجته ورونقه على طريق مختلفة مؤلفة ، ومؤلفة متحدة ، ومتباعدة متقاربة ، وشارده مطيع ، ومطيعه شارد ، وهو على متصرفاته واحد : لا يستصعب في حال ولا يتعقد في شأن " .

٤ - ونتيجة هذا - من وجهة تاريخية - أن الباقلاني ومعاصريه رأوا أنه في الامكان أن يوازنوا بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن . وإن لم يتخذ الموضوع . وسبيل ذلك أن تبين محاسن القصيدة ومساوئها ويشرح فيها المبتذل والطريف والمقبول والمردول ثم يقابل ما سلم فيها بالشهرة التي توازيها في الكمية ليظهر ما في السورة من المحاسن التي لم يشنها ضعف ولا تهافت ولا فضول .

وهذا النحو من النقد يعدّ من المحاولات الباهرة في الأدب العربي . ولا عيب فيه إلا التحامل والإسراف . فان خصوم القرآن كانوا يأبون إلا الوصول إلى شواهد يحكمون لها بالفضل . والباقلاني كان يعتمد إلى القصائد التي يعرف فيها الضعف ليصل دائماً إلى الحكم للقرآن بالفضل . وقد بلغ به التحامل أن طعن في قول البحتري :

ما الحسن عندك ياسعاد بحسن فيما أتاه ولا الجمال بجمال
وزعم أن أسلم منه وأبعد من الخلل قول كشاجم :

بحياة حسنك أحسنى وبحق من جعل الجمال عليك وقفا أجمل

مع أن الذي يفهم الشعر ويتذوقه يحكم بأن بيت كشاجم هذا لا يصح أن يقارن بيت البحتري إلا عند غُلف القلوب . وأغرب من هذا الشطط أن ترى الباقلاني يأخذ في نقد بيت البحتري فيقول :

قوله "عندك" حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلفة . والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء : وفيه شيء آخر لأنه يذكر أن حسننا لم يحسن في تهيج وجده وفي تهيم قلبه . وضد هذا المعنى هو الذي يميل إليه أهل الهوى والحب .

هـ — هذا كلام الباقلاني . وهو كلام سقيم يدل على أنه لم يفهم بيت البحتري على الإطلاق ! وعلى هذا النمط من التحامل أفسد الرجل تلك الطريقة الجميلة : موازنة قصيدة من الشعر بسورة من القرآن . وكيف تنتظر العدل من حكم يكتب صحيفة الاتهام على هواه ؟ إن الذي يوازن بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن يجب عليه أن يكون مستعداً للحكم بالعدل . وهذا لا يتيسر لنا قد يرى من هم أن يبحث عن مساوئ القصيدة ويطمس محاسنها أو يتجاهلها أو يغض من قيمتها . وهو في مقابل ذلك يبحث في البحث عن محاسن السورة القرآنية وإبراز مزاياها ولا يستبيح لنفسه التفكير في وضع ألفاظها أو معانيها أو أغراضها أو أسلوبها موضع النقد . وهذا كاف في تجريح ما هموا به قديماً من الموازنة بين أثرين : أحدهما من الشعر، وثانيهما من القرآن .

٦ — وتقع بعد ذلك مسألة شغل بها أكثر الباحثين في إعجاز القرآن .

وهي إعجاز غير القرآن من كلام الله كالنوراة والإنجيل والصحف الربانية .

ويجب الباقلاني بأنه لا شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف وإن كان معجزا كالقرآن فيما يتضمن من الأخبار بالغيوب . ويضيف إلى ذلك أنه لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بما وصف به القرآن ولأنه لم يقع التحدى إليه كما وقع التحدى إلى القرآن^(١) .

ومعنى ذلك أن الباقلاني يرى أن غير القرآن من كلام الله لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بذلك . وتكون النتيجة أن نسبة الكلام إلى الله لا تعطيه صفة الإعجاز إلا إذا وصف الله كلامه به وتحدى المعارضين إليه كما تحداهم إلى القرآن .

ونحن نسأل : لماذا لم يصف الله التوراة والإنجيل بالإعجاز ؟ ولماذا لم يمنح تلك الكتب المزية التي منحها القرآن ؟ ؟ .

وقد توقع الباقلاني أن يوجه إليه هذا السؤال . وكذلك عرض لنا رأيا له قيمته في فهم القدماء لخطر اللغة العربية ومقارنتها بما سبقها أو عاصرها من اللغات . وهو يرى أن اللغات التي كتبت بها التوراة والإنجيل لا يتأتى فيها من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز . وإنما يقع فيها التقارب في البيان^(١) .

فإن سأل القارئ : أكان الباقلاني يعرف من اللغات الأجنبية ما يمكنه من الحكم بأن اللغة العربية انفردت من بين سائر اللغات بالتفاضل في وجوه الفصاحة ؟ فانا نجيب بالنفي .

وهو نفسه يتحدثنا بأنه رأى أصحابه يذكرون هذا في سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها من التفاوت ما يضمن التقديم العجيب^(١) .

٧ — وهنا يتطوع الباقلاني بشرح أسرار تفوق اللغة العربية فيقول :

«ويمكن بيان ذلك بأننا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرفه من اللغة العربية وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على نحو ما تتناوله العربية^(١)» .

وهذا المعنى عرض له ابن فارس إذ قال :

«انا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فإين هذا من ذلك وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب^(٢)» .
والفكرة في ذاتها سخيفة : لأن فضل اللغة العربية لا يرجع الى ما فيها من كثرة المترادفات إذ كانت هذه المترادفات من الثروات الضائعة التي لا يحتاج اليها الا عند اللغو والتطويل .
والقرآن نفسه الذي اتفقوا على سموه لم يعتمد على المترادفات في كثير ولا قليل وإنما هو كلام طلق يجرى الى غاية في غير تعمل ولا اعتساف .

٨ - ومن غرائب المقارنات أن المسيو مرسيه استفاد من اجماع علمائنا القدماء على أن كثرة المترادفات من أهم خصائص اللغة العربية بقاء أخيراً وطعن لغتنا طعنة دامية في تقرير مطول قدمه الى وزير المعارف في باريس زعم فيه أن اللغة العربية لغة « ما نعة » لا تعرف تحديد الألفاظ ولا الصفات^(٣) .

والمسيو مرسيه غير منصف في هذا الموضوع لأنه في تقريره اهتم بجمع الهنات والعيوب وكان الظن به أن لا يتناسى أن المترادفات التي كان منها خمسون اسماً للحجر ومائة للسيف ونحوها لا لاسد ليست مترادفات جمعت من اللغة القرشية وهي أساس لغتنا العربية وإنما هي كلمات «تصيدها» الرواة من مختلف أرجاء الجزيرة حبا في المبالغة والإغراب .

فن يبلغ الباقلاني وابن فارس ان ما كان غرة في زمانهم أصبح في زماننا من أعراض الأمراض ؟

(١) ص ٣٤ (٢) الصاحبي ص ١٢

(٣) كان ذلك في خريف سنة ١٩٣٠ ونشر التقرير في أحد مطبوعات وزارة المعارف الفرنسية .

وذلك التحمل من جانب البلاغاني ساقه الى تقرير « أن الشعر لا يتأتى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية وإن كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها البديع ما يمكن ويتأتى في العربية وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية » .

٩ — وهذه التهم التي كان يوجهها القدماء الى اللغات الأجنبية يقدمها الأجانب اليوم الى اللغة العربية : فلغتنا في أذهان كثير من أهل الغرب والشرق لا يتأتى فيها الشعر على ما قد اتفق في الإنجليزية والفرنسية والألمانية مثلا « وإن كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة » فما أعجب ما تشابه التهم على اختلاف الأجيال ! .

على أن كلام البلاغاني له دلالة ومعناه : فهو صريح في اعتزاز القدماء باللغة العربية . وإنا لنجد عند الجاحظ أصلا لهذا القول . وهو يتحدثنا بأن الفرس والهند والروم كانت لهم خصائص لم يتفق مثلها للعرب وأن العرب في مقابل ذلك انفردوا بالفصاحة والبيان^(١) .

١٠ — وللقارئ أن يذكر أن هذا « الغرور القومي » كانت له مضار ومنافع ، فمن مضاره أنه صرف العرب عن نقل الشعر الفارسي واليوناني ظنا منهم أن في شعر امرئ القيس مثلا غنى عن شعر هوميروس . ومن منفعه أنه أغراهم بالاعتزاز بشعرهم ولغتهم حتى ظنوا أن الاعجاز لا يتأتى وقوعه في غير اللغة العربية التي حسبوها تفردت بالتصرف في الاستعارات والاشارات .

وقد يكون حظ القدماء أجمل من حظنا في هذا الباب . فنحن اليوم نؤمن بأن اللغة العربية العريضة كسائر اللغات لا يتفق فيها الاعجاز لذاتها . وإنما يقع الاعجاز حيث تكون العبقرية في القلوب والعقول .

ونؤمن بأن في اللغات ضروبا من التصرف في القول قد لا يتفق مثلها أحيانا للغة العربية ولكنا لم ننقل من الشعر الأجنبي شيئا يقارب ما نقله أسلافنا من الفلسفة الأجنبية وانصرف

(١) راجع البيان ج ٣ ص ١٢

كثير من شباننا عن دراسة الشعر القديم فخرموا من تراث الأسلاف وكان لهم فيه معين من الفن لا ينضب ولا يفيض .

ووقف المجتهدون في الشعر موقف التردد والحيرة : فلا هم عرب ينسجون على منوال الفرزدق والبحتري والمتنبي ، ولا هم في طبعهم فرنجة يبيدون محاكاة ييرون وجوت ولا مرتين .

١١ — وقد جاء في كتاب « إعجاز القرآن » ما يفيد أن القرآن ليس من جنس كلام

العرب ؟

فما هي حجة الباقلاني ؟ حجته أن العرب لم يأتوا بمثله وأن منهم من خشع له بدون أن يدرك معناه . ومن أمثلة ذلك أن جماعة بعثوا بعثة بن ربيعة الى الرسول — وكان عتبة حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام — فلما وصل الى الرسول طمعا في أن يأتي أصحابه بما عنده قرأ عليه النبي سورة (حم . السجدة) من أولها حتى انتهى الى قوله : (فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) .

فوثب عتبة مخافة العذاب .

قال الباقلاني ” فاستحكوه ما سمع فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد . فقال له عثمان ابن مظعون ” لتعلموا أنه من عند الله إذ لم يهتد لجوابه “ .

ذلك ما قرره الباقلاني . وما نحسب أحدا يرتاب في أن هذا محض اختلاق : فانه لا يعقل أن يؤمن الرجل بما لا يفهم . ومن المرجح أن مثل هذه الأقاويل مما وضعه الرواة والقصاص .

ويقول الباقلاني في موطن آخر :

” قد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولغتهم فلم يحتاجوا الى تجربة عند سماع القرآن ... وقال تعالى : (ولو جعلناه قرآنا أعجميا

لقالوا لولا فصلت آياته أ أعجمي وعربي))، فأخبر أنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون في رده إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور وأنه إذا تحداهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فمعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم^(١) .

والقارئ يرى تناقضا بين هذه الفقرة وبين الفقرة التي نقلناها آنفا . وهذا التناقض وقع بين سياقين فصل بينهما بنحو ما نرى صفحة فلباقلاني عذره حين غاب عنه هنا ما أثبتته هناك . خلاصة الفقرة الأولى أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لأنه اتفق لأحدهم أن خضع له بدون أن يستطيع حكاية لفظه أو معناه .

وخلاصة الفقرة الثانية أن القرآن من جنس كلام العرب . ولولا ذلك لاحتجوا في رده بأنه خارج عن عرف خطابهم، أو اعتذروا بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم .

١٢ — ونحب أن نفصل رأينا في هذه المسئلة ونحن نرى أن الفوارق بين اللغات تنحصر في الألفاظ والأساليب : فاللغة تكون غير عربية إذا كانت ألفاظها أو أساليبها أعجمية . وقد يتفق مثلا أن نفتح كتابا تركيا أو فارسيا فنرى إحدى صفحاته تغلب فيها الكلمات العربية أو تكون بعض الجمل في ألفاظ عربية ولكننا لا نفهم شيئا لأن الأسلوب غير عربي .

وقد تكون جملة وضعت في ألفاظ أعجمية ورتبت في وضعها على الأسلوب العربي . ولكننا لا نفهمها لأن ألفاظها غير عربية . ومن هنا يتضح أن العرب فهموا بلا جدال ألفاظ القرآن ومعانيه لأنه عربي اللفظ والأسلوب . ولا عبرة بما حكاه الباقلاني من أن بعض العرب عجز عن تأدية ما سمعه من آي القرآن . لأن هذا يخالف المعقول والمنقول ويناقض ما من به القرآن على منكره من أنه بلسان عربي مبين .

١٣ - بقي نوع آخر من وجوه التفاضل في الكلام وهو المعنى : ونحن نرى أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما في المعنى من قوة وروح . ومن المتفق عليه أنه لا يكفي أن يكون المعنى صحيحا ليكون الكلام بليغا . ألا ترى أنه لا يوجد أصدق من قول من قال :
كأنا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

ولكن من الذي يقيم وزنا لصدق هذا الكلام ؟ إن هذا الصدق هو التفاهة بعينها . وقد رأى بعض النحاة أن البدييات لا تسمى كلاما . ومن رأى ذلك البعض أن من يقول " السماء فوقنا والأرض تحتنا " لم يقل شيئا ولا يضاف ما يلفظ به إلى الكلام المفيد .

وعلى هذا لا يكفي أن يكون الكلام صادقا ليكون بليغا . وإنما يجب أن يكون مع صدقه طريقا يستهوى العقل والقلب . ومن امثلة ذلك قول قريظ بن أنيف :

لو كنت من مازن لم تستبح إلى	بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بنصري معشر حُشَن	عند الحفيظة أن ذلولثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشرفى شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته	سواهمو من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا	شدوا الإغارة فرسانا وربانا

وهذه القطعة من بدائع الشعر العربى . وهى قطعة خالدة ستظل قوية بارعة ما بقي في العالم ناس يفهمون سر العربية . ومع هذا لا تستطيع أن تجد فيها ألفاظا يعز على غير قائلها الوصول إليها ، أو أسلوبا في التعبير يتميز عن غيره من الأساليب . وجمالها كله يرجع إلى دقة المعنى وطرافته وتخير الألفاظ وتخيرا يجعلها تتمثل مع المعنى كلمة واحدة . فقوله مثلا :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

هذا البيت يمكن رجعه طرائفه الى كلمة "أبدى ناجذيه" وكلمة "طاروا" وهاتان ليستا كلمتين وإنما هما المعنى تجسم في لفظين فرضهما السياق . وقوله :

لكن قسومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر في شئ وإن هانا

فقوة هذا البيت ترجع الى قوله "وإن كانوا ذوى عدد" وقوله - "وإن هانا" وفيهما أيضا يتجسم المعنى في قوة وروح . وقد بلغ هذا الشاعر أقصى غايات التهكم في قوله :
كأن ربك لم يخلق لحشيتيه سواهمو من جميع الناس لإنسانا

١٤ - وقد تجدد من الشعر ما تخلقو معانيه وألفاظه من الروعة الظاهرة . ولكن قوة الروح تصل به الى أسنى غايات الابداع . ومثال ذلك قول حطان بن المعلى يشكو فقره وما وضع القدر في رجله من قيود الأهل والذرية :

أنزلى الدهر على حكمه	من شاخ عال الى خفيض
وغالنى الدهر بوفر الغنى	فليس لى مال سوى عرضى
أبكأنى الدهر وياربما	أضحكنى الدهر بما يرضى
لولا بنات كزغب القطا	رُددن من بعض الى بعض
لكان لى مضطرب واسع	فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا	أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم	لا تمتعت عيني عن الغمض

وقوة هذا الشعر ترجع الى الشاعر لا الى اللفظ ولا الى الأسلوب : ومن ذلك يتضح أن من يزعمون أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لم يفهموا شيئا من أسرار الإعجاز . ولذلك تراهم يدورون حول الظواهر والمحسنات اللفظية : فيقول بعضهم إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الأسجاع والأمثال فبهزم القرآن لأنه جاء على نمط غير الذى كانوا يعرفون من أنماط الأسجاع والأمثال . ويقول آخرون : إن العرب كانوا تارة يسجعون وتارة يترسلون بجاء القرآن بجمع بين السجع والترسل فى نظام بديع . ويقول مؤلفو كتاب "المجمل" الذى قررت الوزارة

تدريسه بالمدارس الثانوية : إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الشعر وفنونه وأوزانه وأغراضه
بغناء القرآن ففاجأهم بلون من الأدب جديد^(١) .

١٥ — وهذا كما يرى القارئ يرجع الى الناحية اللفظية أو الفنية . ونحن نرى غير ذلك
فنرى أن محمدا عليه السلام اجتذب العرب لأنه نبي ولم يجتذبهم لأنه فنان . فالفن الكلامي لم يكن
جديدا عند العرب وإنما كان الجديد عندهم أن يأتيهم رجل منهم بأساليب من الفكر والعقل
والوجدان غير التي كانوا يألفون . ولو رجعنا الى حزب المعارضة لعهد الرسول لرأيناه لا ينكر
إلا ما جاء به القرآن من معان وأغراض . ولم يتعترض مطلقا لما جاء به من ألفاظ وأساليب .
فالمعركة كانت تدور رحاها حول ما في القرآن من الدعوة الى توحيد الله عز شأنه وإفراجه
بالقدرة والجهروت . ولو تأملنا قليلا لرأينا أن الذي يروعنا من الشاعر الواحد هو ما تنفرد به
بعض قصائده أو أبياته من دقة المعنى أو طرافة الخيال .

ومن هنا صح للنقاد القدماء أن يقولوا عن بعض الشعراء :
”لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس“ .

وصح لهم أيضا أن يقولوا :

”أشعر الناس النابغة إذا رغب . والأعشى إذا شرب . وامرؤ القيس إذا طرب . وعمرو
ابن كلثوم إذا غضب“ .

وهذا كلام دقيق جدًا لأنه يضيف قوة الشعراء الى خصائصهم النفسية والروحية : فالشاعر
شاعر لأنه يتحدث عن ذات نفسه وعن ضميره وروحه ووجدانه ، فهو فيما يرجع الى جوهر
نفسه أفصح منه فيما يتعلق بنوافل الأغراض .

ولذلك كان هذا الشاعر أبلغ إذا مدح . وذلك أفصح إذا شَبَّ . وذلك أحفل إذا تمجس .
ولو استقرينا المنازعات الأدبية في الأمم التي نعرفها لرأيناها ترجع الى المعاني والأغراض لا الى
الألفاظ والأساليب . فالتزاع في فرنسا مثلا بين الكلاسيك والرومانتيك كان نزاعا حول الفكرة .

(١) راجع من ٦٣ و ٦٤ .

فالكلاسيك يرون أن الأغراض يجب أن تكون موضوعية (objectif) والرومانتيك يفضلون أن تكون الأغراض ذاتية (Subjectif) .

١٦ - وفي مصر والشرق العربي كانت المنازعات الأدبية تدور حول الفكرة فالتزاع الأدبي القديم بين محمد عبده ومعاصريه كان نزاعاً حول فكرة . والتزاع بين قاسم أمين ومعاصريه كان يدور حول فكرة . والخصومات العنيفة التي وقعت بين علي يوسف وعبد العزيز جاويز كانت حول فكرة . والتزاع القريب جداً بين الجديد والقديم كان نزاعاً حول فكرة . وما نحسب أحداً ممن هاجموا المنفلوطي كان ينكر أن أسلوبه جيد ولكن الذين هاجموا ادّعوا أنهم يحاربون في شخصه فكرة المحافظة على قديم التقاليد .

ولا جدال في أن الألفاظ والأساليب تتلون وتشكل بلون الفكرة التي تسيطر عليها . وعلى هذا الأساس وجد الأسلوب الجزل والأسلوب الرقيق . فالرقة والجزالة من مقتضيات المعاني لا الألفاظ . فالمعنى الجزل له لفظ جزل ، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق . فإذا غلبت الرقة على شاعر مثل البها زهير فرجعها إلى الفكرة لأنه شاعر وديع يعبر عن معاني ودیعة يلهم أمثالها أصحاب الوداعة والرقة من الشعراء المترفين . وإذا غلبت الجزالة على شاعر مثل المتنبي فرجعها أيضاً إلى الفكرة لأنه شاعر طامع في أسمى ما يطمح إليه فحول الرجال وهو الملك والتغلب والسيطرة والسلطان .

أبعد هذا البيان يدهش ناس مما أشرت إليه مرة من أن السلامة والتعقيد والرقة والجزالة والوضوح والغموض كلها صور للنفس الإنسانية التي تفصح عما يطيف بها من معاني وأفكار وأراء وأغراض ؟

١٧ - وبعد هذا وذاك : أكان القرآن كلاماً من جنس كلام العرب أم كان لونا من التعبير يختلف عما عرفوه وألفوه كل الاختلاف ؟

هو كلام من جنس كلامهم ومن جوهره ومعدنه . ولكنه يمتاز بقوة المعنى وقوة الروح . فأن قيل : ولم تعذر عليهم أن يأتوا بشيء من مثله ؟ فإنا نجيب بأن القرآن نفسه فصل

في هذه المسألة حين قال ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأدعوا من أستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ .

فلتأمل جيدا عبارة ﴿إن كنتم صادقين﴾ ففيها الجواب كل الجواب . وهل كان في مقدور العرب أن يكونوا جميعا أنبياء حتى يصلوا الى ما وصل اليه مواطنهم وزعيمهم وسيدهم محمد بن عبد الله الذي صدقت كلمتهم فيه قبل نبوته حيث لقبوه بالصادق الأمين ؟

١٨ - وقد كان من القدماء من يرى أن البلاغة لا ترجع الى المعاني : لأن المعاني في رأيهم يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي . وإنما ترجع البلاغة الى جودة اللفظ وصفائه .

ودليل ذلك عندهم أن الخطب والأشعار الرائعة ما عملت لإفهام المعاني فقط . لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الافهام وإن الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد ، واذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا دخل في جملة المستهجن الملقوظ^(١) .

١٩ - أما نحن فنلقي العجم والقرويين جانبا ونحصر البلاغة في جمهور المثقفين . ثم نقرر أن الألفاظ ملك للجميع يجدونها حيث أرادوا في المعاجم والدواوين ، ولا يبقى موضعا للجهد والعنت أو العبقرية إلا المعاني والأغراض . ومن العبث أن نزن أن البلاغة لا تخرج عن المناورات اللفظية . فان هذا إسراف في تقدير الزخرف وامتهان لصولة العقول . إن الألفاظ في مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب . ولكن المعجز حقا هو الفكرة . وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزنا للصناعة الفنية . ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تجيء أولا ويحيى الورق ثانيا كما يقول الفرنسيون .

وقد رأى ناس قول الباقلاني "ليس القرآن من جنس كلام العرب" فقررُوا خاطئين أن القرآن يخالف ما درجت عليه البلاغة العربية من حيث الأسلوب . ولو سألتهم عن تحديد معنى (الأسلوب) لمعجزوا عجزا مبينا ، لأن الأسلوب في رأيها هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب

وزوجه وفكرته ومرماه، وليس في مقدور أحد من المتفوقين في علوم البلاغة أن يحدد الأسلوب تحديدا منطقيا يجمع خصائصه ويمنع ما يتطرق إليه من غريب الأوصاف ، أو أن يدلنا على خواص أسلوب القرآن دلالة واضحة بريئة من عوارض اللبس والغموض ، فان ألفاظ القرآن كألفاظ كل كلام عربي مبين لا تمتاز باللفظ ولا بالأداء وإنما تمتاز بالمعنى والغرض والروح .

فان أراد أحد شاهدا على ما نقول فانا نفتح المصحف عرضا بدون تخيير ثم ننقل آيات لنسأله أن يعين ما جاء فيه غريبا عن الأساليب العربية . ولنختر خمس آيات من مطلع سورة الأنبياء : ﴿ أقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون . قال ربى يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ .

فأين تكون غرابة الأسلوب في هذه الآيات الخمس ؟ وأين يكون السياق الفني الغريب عن الأعراب ؟ أليس مرجع الروعة في هذه الآيات الى المعنى والروح ؟ أترونها تمتاز بالسجع ؟ وكيف والسجع كان معروفا قبل القرآن ؟ أترون ألفاظها متخيرة متقاة ؟ هو ذلك . ولكن كيف يدور اختيار الألفاظ ؟ أترون لاختيار الألفاظ مدارا غير موجبات المعاني والأغراض ؟ فان كانت هذه الآيات الخمس لا تكفى فالى القارئ شواهد أخر من القرآن المجيد . يقول الله عز شأنه : ﴿ ولا يحرمكم شأن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ .

وأنا أشهد صادقا أنى ما فكرت في هذه الآية إلا دهشت من سمو هذا النصح النبيل . فأين يكون جمال هذه الآية ؟ أترونها من جنس غير جنس كلام العرب كما زعم الباقلائي ؟ هيئات ! إن ألفاظها تشبه جميع الألفاظ وتركيبها لا يتميز بشئ عن غيره من التراكيب .

ولكن الجمال هنا في المعنى الشريف الذى قضى به القرآن وذلك المعنى هو الدعوة الى إثبات العدل في جميع الأحوال من غضب وسكون وحب وشأن . وقد راجعت صديقا ادبيا في هذه الآية فأراد أن يلتمس الجمال الفني في كلمة (ولا يحرمكم) فانصح افتراض ذلك الصديق

فانا نسأل أيضا ومن أين ظفرت تلك الكلمة بمعنى الإعجاز. أليس مرجع ذلك الى ربطها بالمعنى الذى أقتضاه السياق ؟ على أنه من الخير أن نسوق الآية كاملة لتبين كيف يمكن أن تكون بعض أجزاء الآية الواحدة أقوى من بعض :

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

ألا ترون إن أنصفتم أن كلمة (اعدلوا هو أقرب للتقوى) ثقل في قوتها عن كلمة (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا) فما هو سبب التفاوت ؟ لا يظن أحد أن مرجع التفاوت هو الأسلوب فان القرآن تفرد في رأى مخالفينا بوحدة الأداء والتعبير، فلم يبق من فرق بين صدر الآية وعجزها غير تفاوت المعنى . والتفاوت هنا جاء من أن صدر الآية معنى يكر لا يجرى إلا على السنة الحكماء والأنبياء . على حين نرى عجز الآية يؤدى معنى مفهوما لدى جميع الناس .

ثم لننظر قوله جل شأه ﴿ ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين ﴾ . هذه من غرر الآيات القرآنية : فأين يقع منها الحسن ؟ أترونها في اللفظ ؟ أترونها في الأسلوب ؟ وكيف وهى ألفاظ يجدها من يريد في أسلوب واضح يدركه جميع المخاطبين ويستطيعه جميع الكاتين . ان الجمال هنا في الروح العالى : حيث يخاطب الله الآمين وقد ألقى بهم في نار الجحيم .

٢٠ — تترك شواهد القرآن جانبا لأنها من المواطن الشائكة . ونوضح نظريتنا بشواهد من النثر الجيد والشعر البليغ .

قيل لأعرابي يسوق مالا كثيرا : لمن هذا المال ؟ قال : لله في يدى !

تأملوا عبارة "لله في يدى" لتروا انها من نواذر الكلام الجيد البليغ، ثم انظروا أترون فيها شيئا غير جمال المعنى ؟

ان الأدباء جميعا يحفظون كتاب عمرو بن مسعدة، كتاب التوصية الذى ضربت ببلاغته الأمثال، فلنذكر به القراء :

”دَّابِي هذا كَلَاب مَعْنَى بِن كَتَب لَه ، وَاتَّق بِن كَتَب إِلَيْهِ ، وَأَرْجُو أَنْ لَا يَضِيع حَامِلُهُ بَيْنَ الثِّقَةِ وَالْعَنَاءِ . وَالسَّلَام “ .

أَفْتَرُونَ هُنَا جَدِيدًا فِي لَفْظٍ أَوْ فِي أَسْلُوبٍ ؟ إِنْ الطَّرَافَةُ كُلُّهَا تَحْصُرُ فِي الْمَعْنَى لَوْ تَنْظُرُونَ . وَكَتَبَ أَحَدُ الْأَمْرَاءِ يَوْصَى بَعْضَ قَوَادِ الْجَيْشِ :

”وَكُنْ مِنْ أَحْتِيَالِكَ عَلَى عَدُوِّكَ أَشَدَّ حَذَرًا مِنْ أَحْتِيَالِ عَدُوِّكَ عَلَيْكَ “ .

وَهَذَا كَلَامٌ نَادِرٌ قَلِمًا تَجُودُ بِمَثَلِهِ الْقِرَائِحُ . فَأَيْنَ يَكُونُ جَمَالُهُ ؟ أَتُرُونَهُ فِي شَيْءٍ غَيْرِ الْمَعْنَى ؟ وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ :

”عُدُّ مَرْضَى الْمُسْلِمِينَ ، وَأَشْهَدُ جَنَائِزَهُمْ ، وَبَاشِرُ أُمُورِهِمْ بِنَفْسِكَ ، فَانْمَا أَنْتَ رَجُلٌ مِنْهُمْ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَكَ أَثْقَلَهُمْ حَمَلًا “ .

وَهِيَ نَصَائِحٌ عَادِيَةٌ وَأَبْلَغُهَا جَمِيعًا قَوْلُهُ ” فَانْمَا أَنْتَ رَجُلٌ مِنْهُمْ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَكَ أَثْقَلَهُمْ حَمَلًا “ .

أَفْتَرُونَ الْجَمَالَ هُنَا ، جَمَالَ الْبَلَاغَةِ ، فِي شَيْءٍ غَيْرِ الْمَعْنَى ؟

٢١ — وَالشَّعْرُ ؟ مَا جَمَالُهُ وَمَا عَذُوبَتُهُ ؟ أَنْظُرُوا قَوْلَ ابْنِ الْأَحْنَفِ :

أَتَأَذْنُونَ لَصَبٍ فِي زِيَارَتِكُمْ فَعِنْدَكُمْ شَهَوَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ

إِنْ صَدَرَ هَذَا الْبَيْتُ عَادِيٌّ لَا طَرِيفَ فِيهِ وَلَكِنْ تَأَمَّلُوا عَجْزَهُ حَيْثُ يَقُولُ (فَعِنْدَكُمْ شَهَوَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ) أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ مَعْنَى نَادِرٌ نَفِيسٌ وَفِيهِ وَحْدَهُ جَمَالُ الْبَيْتِ ؟ أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ لَفْظَةَ ” شَهَوَاتُ “ لَمْ تَكُنْ أَوْفَى وَلَا أَدْقَ إِلَّا حَيْثُ قُرِنَتْ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَتَحَاشَتْ مَا عَادَاهُمَا مِنْ نَعِيمِ الْحَوَاسِ ؟

وَأَنْظُرُوا قَوْلَ قَيْسِ بْنِ ذَرِيحٍ :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فَقَدْ لُبَّنِي كَمَا شَكَا إِلَى اللَّهِ بَعْدَ الْوَالِدَيْنِ يَتِيمٌ

وَهَذَا مِنَ الْكَلَامِ الْجَسِيدِ : فَهَلْ كَانَتْ جُودَتُهُ فِي غَيْرِ مَعْنَاهُ ؟ أَلَيْسَ كُلُّ مَا هُنَا مِنْ رُوعَةٍ

يَعُودُ إِلَى تَشْبِيهِ الزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ بِالْأُمِّ الرَّؤُومِ ، وَتَشْبِيهِ الْعَاشِقِ الْمَهْجُورِ بِالطِّفْلِ الْيَتِيمِ ؟

وانظروا قول جميل بن معمر :

فلو أرسلت يوما بثينة تبتغي يميني ولو عزت على يميني
لأعطيتها ما جاء يبغي رسولها وقلت لها بعد اليمين سليلي
سليني مالي يا بشين فأنما يمين عند المال كل ضنين
فما لك لما خبر الناس أنني أسأت بظهر الغيب لم تسليني
فأبلى عذرا أو أجيء بشاهد من الناس عدل أنهم ظلموني
لما الله من لا ينفع الود عنده ومن حبله أن مدّ غير متين
ومن هو ذلولون ليس بدائم على ثقة خوان كل أمين

وقد تقولون : إن جمال هذا الشعر في رفته وعذوبته . ولكن أترون الرقة والعذوبة إلا صورة ظاهرة لروح الشاعر وما يضمّره لمعشوقته من عطف وحنان ؟ ألم أقل لكم إن الرقة والجزالة هي صفات للعاني تتمثل في أشباح الألفاظ !

٢٢ — ولو أننا عدنا إلى كتب النقد لرأينا أن القدماء كانوا يجعلون المعنى أساس الصورة بحيث يعد الشاعر سارقا للمعنى وإن غير من صورته . ومن ذلك قول البيهقي :

أترجو كليب أن ينجي حديثها بخير وقد أعيأ كليباً قديمها

أجده الفرزدق فقال :

أترجو ربيع أن ينجي صغارها بخير وقد أعيأ ربيعاً كبارها

وهذا ليس بشيء في جانب المعاني التي تؤخذ من المدح إلى الهجاء ومن النسيب إلى الرثاء وهي كثيرة جداً، ومع ذلك تنبه النقاد إلى أنها سرقة، وتنبه الشعراء إلى جرائمهم حتى روى عن الأخطل أنه قال : "نحن معاشر الشعراء أسرق من الصياغة"^(١).

٢٣ — وأنا مع هذا كله من أعرف الناس بقدر الألفاظ والأساليب فليست أنكر أن الشعراء والكتاب والخطباء يتفاوتون في الصياغة الفنية، ولكنني أومن قبل كل شيء بالمعنى

والروح . وأرى الألفاظ على لسان الشاعر والكاتب والخطيب تشبه أدوات الحرب وأسلحة القتال في أيدي الرجل : فالسيف هو السيف في يد البطل وفي يد الجبان ، ولكنه في يد البطل موت أزرق الناب . على حين نراه في يد الجبان أقل غناء من العصا في يد الوليد . والخيال هي الخيل ، ولكن الجواد لا يكون جوادا إلا إذا اعتلى صهوة فارس مغوار ، وهو تحت الرجل الرخو أشبه شيء بالحمار "تحت الفلاح العبيط" والمرأة هي المرأة ، ولكنها بين يدي الرجل الغزل أنضر منها في حضرة الرجل البليد ! والكاتب المحيّدون الذين أجمع الناس على احترامهم تتفاوت أيامهم تفاوتاً شديداً : فهم في بعض الأيام من فرسان البلاغة وأعيان البيان ، وهم في أيام أخر يُسَفَّون ويتهافتون . فما سبب ذلك ؟ السبب معروف فإن روح الكاتب يتأثر بمزاجه وظروفه وموضوعه تأثراً بليغاً . فلو كان الأسلوب هو سر البلاغة لتحتم أن يكون الكاتب بليغاً في جميع أحواله ، وهذا محال . فلم يبق إلا أن يكون للبلاغة سر آخر غير الأسلوب . وذلك السر هو المعنى والروح . وليست المعاني الجيدة بطائفة للكاتب في كل لحظة ، ولا الروح القوي بمواتية في كل حين . أي فهم قوم الآن أن القرآن من جنس كلام العرب في اللفظ والأسلوب ؟ أي فهمون الآن أن القرآن يمثل النثر العربي في العصر الذي نزل فيه وأن سر إعجازه راجع إلى روحه ومعانيه ؟

٢٤ - ومن أغلاط الباقلاني قوله بنفى السجع من القرآن ، وهو يتابع في هذا أبا الحسن الأشعري وأصحابه ، ويعارض جمهوراً كبيراً من أهل العلم والأدب ، منهم من سبقه ومنهم من عاصره ، وحجة مخالفيه أن السجع مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في الفصاحة والبيان . ومن أقوى ما يستدلون به على وجود السجع في القرآن أن المسلمين اتفقوا على أن موسى أفضل من هارون ، ومع ذلك قيل في موضع "هارون وموسى" مراعاة للسجع ، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل "موسى وهارون"^(١) .

والواقع أن السجع موجود في القرآن في مواطن كثيرة ، ولا ينكره إلا معاند لا يفقه ما يقول، ومن أمثلته : ﴿ والسما ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل ^(١) 》 .

ومن أمثلته أيضا : ﴿ والسما ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ^(٢) 》 .

وكذلك : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم آتكدرت ، وإذا الجبال سُيرت ، وإذا العِشار عَطَّلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجَّرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سئلت ، بأي ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلقت ، علمت نفس ما أحضرت . فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ^(٣) 》 .

ولا أطيل في سرد الآيات المسجوعة ، ففي السور المكية شواهد كثيرة على السجع والازدواج .

٢٥ — والمهم أن نعرف ما هي حجة الباقلاني على نفى السجع من القرآن لتقدر وزنه للسجع والبيئات ، وهو يقول :

” لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز ، لحاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألف الكهان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر ، لأن الكهانة تنافي النبوات ، وليس كذلك الشعر ^(٤) ” .

(١) سورة الطارق . (٢) سورة البروج . (٣) سورة التكاوير . (٤) ص ٦٠

وهذا كلام ساقط ضعيف ، فالسجع موجود في القرآن ، ولكن الرجل يأبى أن يعترف به ، لأن الاعتراف بوجوده في القرآن يتضمن الاعتراف بأنه غير خارج عن أساليب كلام العرب ، والاعجاز في رأيه ينحصر في الأسلوب ، وما دمتنا سلمنا بأن القرآن معجز فانه يجب أن نؤمن بأنه غير مسجوع ، وإلا ساوينا بينه وبين سائر الكلام !

ونحن لا ندرى كيف آتفق للباقلاني وأصحابه من الأشعرية أن يفهموا هذا الفهم العقيم ولا ندرى كيف صح له أن يحتم نفى السجع من القرآن قياسا على نفى الشعر ، بل يزيد على ذلك أن نفى السجع أوجب لأنه كان أسلوب الكهان . والمسألة كلها لعب في لعب وضلال في ضلال : لأن اختصاص السجع بالكهان حديث خرافة ، والمعقول أن السجع كان عند أهل الجاهلية لونا من الزخرف الفنى يابجا اليه الكاتب والخطيب رغبة في التأثير ، ولم يغلب السجع على الكهان إلا لأنهم كانوا أكثر من غيرهم ثقافة وأدبا ، إذ كانوا قادة الجماهير في الجاهلية . والسجع في القرآن لا يمنع من إعجازه ، لأن الاعجاز كما أسلفنا مرجعه الى سمو المعنى وقوة الروح ، والرسول رجل من العرب تفرد من بينهم بتبليغ الرسالة الى قومه ، فمن الواضح أنه ينقلها اليهم في أبجل ما عرفوا من الأساليب . ونفى الشعر عن القرآن ليس معناه أن الشعر غير صالح للإعجاز كما توهم الباقلاني ، ولكنى أرجح أن الشعر لعهد النبوة لم يكن من تقاليد الاهتمام بالشؤون الجدية ، وخاصة المسائل الروحية والدينية ، ولذلك نجد القرآن يعرض بالشعر ويهتم الشعراء باللغو والفضول والهيام في أودية الخيال . والشعر مع هذا في أسلوبه لعهد النبوة كان أضيق من أن يتسع لشرح المشاكل الدينية والاجتماعية التي أطال في شرحها القرآن ، ومن هذا يتبين أن عدم تبليغ الرسول رسالته شعرا لم يكن معناه أنه تحامى الشعر لئلا يشارك العرب في أساليبهم كما ظن الباقلاني وأصحابه الأشعريون .

٢٦ — على أن الباقلاني لا يقف عند هذا الخطأ بل يتعداه الى خطأ أشنع في فهم السجع فيقول :

”والذي يقدرُونَ أنه سجع فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً ، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ، وفصلٌ بين أن ينتظم الكلام في نفسه بالفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى نفسه دون السجع كان مستجاباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى“^(١) .

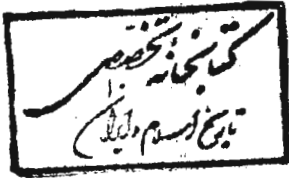
وخلاصة هذه الفكرة أن الكلام لا يكون سجعاً إلا إذا كان المعنى فيه تابعا للفظ ولا ندري من أين أتى الباقلاني بهذه القاعدة . والصواب أن خير السجع ما كان اللفظ فيه تابعا للمعنى ، كما أشار إلى ذلك غير واحد ممن كتبوا في فنون البيان ، ونحن إذا تأملنا السجع في القرآن رأينا اللفظ فيه تابعا للمعنى ، وزرى القرآن في مواطن كثيرة يضحي بفواصل السجع في سبيل المعنى ، لا كما يفعل المتكلفون حين يضجون بالمعنى في سبيل السجع .

وهناك خطأ آخر تورط فيه الباقلاني إذ يقول :

”لو كان الذي في القرآن على ما تقدرونه سجعاً لكان مذموماً مردولاً ، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحاً من الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم أوقع الخلل في كلامه ونُسب إلى الخروج على الفصاحة ، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً وكان شعره مردولاً ، وربما أخرجه عن كونه شعراً ، وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعاً متقارب الفواصل متداني المقاطع ، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ، وهذا في السجع غير مرضي ولا محمود“^(٢) .

ووجه الخطأ هنا أن الباقلاني يحاكم القرآن الى قواعد وضعها المتأخرون ، وكان أولى به أن يفهم أن القرآن هو الأساس ، ونحروج القرآن على السجع من حين الى حين من دلائل سلامته وبلاغته ، لأن التزام السجع باب الى الغلو والإغراق ، ولم يقبح السجع على السنة المتأخرين إلا لأنهم التزموا به ما لا يلزم في الترين والتجميل . والذين قالوا بوجود السجع في القرآن لم يفرضوا التزامه في جميع الأحوال ولا وقعوا في مثل ما وقع فيه الباقلاني من الخطأ حين نقاه على الاطلاق^(١) .

(١) يحسن بالقارى أن يرجع الى الفصل الذى بسطنا فيه «أطوار السجع» في الجزء الأول .



٧ - أبو القاسم الآمدي

١ - لم يصل إلينا من أخبار الحسن بن بشر الآمدي شيء كثير . وكل ما نعرفه أنه ولد بالبصرة - ولا ندري متى - وأنه انتقل إلى بغداد فتلقي النحو واللغة عن الأخفش والزجاج وابن دريد وابن السراج ، وأنه عاد إلى البصرة فكتب لأبي الحسن أحمد وأبي أحمد طلحة بن الحسن بن المثنى . وكتب بعدهما للقاضي أبي جعفر بن عبد الواحد . ثم لأخيه أبي الحسن محمد بن عبد الواحد ثم لم يزل يته بالبصرة إلى أن مات نحو سنة ٣٧١ هـ ^(١) .

٢ - وليس فيما قرأنا من أخباره ما يعين مذهبه في الحياة . ونستطيع فقط أن نتخذ من مؤلفاته دليلاً على أن حياته العقلية قصرت أو كادت على اللغة والنقد . يؤيد ذلك مجموعة كتبه التي أشار إليها ياقوت ومنها : كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء . وكتاب نثر المنظوم . وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري . وكتاب في أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما . وكتاب ما في عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ . وكتاب فرق بين الخاص والمشارك من معاني الشعر . وكتاب تفضيل شعر امرئ القيس على الجاهليين . وكتاب تبين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر . وكتاب معاني شعر البحتري . وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام . وكتاب فعلت وأفعلت ^(٢) .

وهذه المجموعة تعين اتجاهات ذهنه في حياته الأدبية : فهو من النقاد المولعين بدرس الشعر ونقد ما كتب عنه . وهو بنوع خاص مغرم بدرس البحتري وأبي تمام ، وتعقب ما كتبه رجال القرن الثالث عن الشعر والشعراء . ولو بقيت مؤلفاته لاستطعنا أن نصل إلى شيء كثير من المعارف الأدبية التي كان يملكها رجال القرن الثالث والرابع ، ولأمكننا أن نعرف

(١) راجع ترجمته في معجم الأدباء ج ٣ ص ٥٤ - ٦١ (٢) ياقوت ص ٥٨ ج ٣

الى أى حد كان أولئك القوم يعرفون من الدقائق الفنية التى تسبق الى أذهان الشعراء فتتفق أو تختلف وفقاً لاختلاف الأحوال أو توافق المشاعر والأذواق .

وهناك شواهد تدل على أنه فى حياته الاجتماعية كان حريصاً على تتبع أحوال معاصريه وربط ما يسمع من أخبارهم بما نُقل اليه من أخبار السالفين وتقييد ما عرف عن أهل عصره من النوادر والفكاهات .

٣ - وكان فوق ذلك كثير الشعر، حسن الطبع، جيد الصنعة، مشتهراً بالتشبيهات - كما قال يا قوت - ولكن شعره ضاع وما بقى منه يدل على أنه كان جيد المعانى فى أسلوبه ينقصه الرواء . من ذلك قوله :

يا واحداً بان فى الزمان	من يحاريه أويديانى
دعنى من نائل جزيل	يعجز عن شكره لسانى
فلست والله مستميحاً	ولا أخاً طامعاً ترانى
وهب اذا كنت لى وهوبا	من بعض أخلاقك الحسان

وقوله فى عالم تتمام :

لا تنظرن الى تمتعه اذا	رام الكلام ولفظه المعتاص
وانظر الى الحكم التى يأتى بها	تشفيك عند تطلق وخلص
فالدري ليس يناله غواصه	حتى تقطع أنفاس الغواص

ومن الشعر الفكاهى قوله فى أحد القصائد :

رأيت قلنسوة تستغيث	بث من فوق رأس تنادى خذونى
وقد قلقت فهى طورا تمد	ل من عن يسار ومن عن يمين
فطورا تراها فوق القفا	وطورا تراها فوق الجبين
فقلت لها أى شىء دهاك	فردت بقول كئيب حزين
دهانى أن لست فى قالى	وأخشى من الناس أن يبصرونى

وَأَنْ يَعْشُوا بِمَزَاحٍ مَعِيَ وَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِي قَطَعُونِي
 قَلْتُ لَهَا مَرًّا مِنْ تَعْرِيفٍ مِنَ الْمُنْكَرِينَ لِهَذِي الشُّؤُونِ
 وَمَنْ كَانَ يَشْهَقُ إِمَّا رَأَاكَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَوْفِهِ كَالرَّيْنِ
 وَمَنْ كَانَ يَصْفَعُ فِي اللَّهِ لَا يَمْلُ وَيَشْتَدُّ فِي غَيْرِ لَيْلٍ
 وَيَسْلُحُ مَلَائِكُ كَيْلِ التَّمَامِ إِمَّا عَلَى صَحَّةٍ أَوْ جُنُونِ
 فَفَارَقَهَا ذَلِكَ الْانْزِعَاجَ وَعَادَتْ إِلَى حَالِهَا فِي السُّكُونِ

٤ — وأهم ما بقى من آثار الآمدى هو كتابه "الموازنة بين أبى تمام والبحترى" وهو كتاب يضعه فى الصف الأول ويقدمه على كثير من الناقدين .

وأسلوبه فى ذلك الكتاب من أدق الأساليب وأصفاها وأبعدها من اللغو والفضول ، وآراؤه فى نقد الشعر آراء جيدة سديدة تعجب لها اليوم أشد العجب وبيننا وبينه عشرة قرون .

٥ — وأمتن ما يصل بيننا وبين ذلك الرجل — على بعد العهد — معرفته لنفسية الأدعياء أدعياء الأدب والبيان : فهو يقرر أن الناس يعتقدون أن الشعر منفرد من بين سائر الأشياء بجواز العلم به لكل أحد والحكم عليه لكل ناظر . لأن الذى يعرف منهم من الذهب والفضة والقيق والخيل والسلاح والثياب والطيب أكثر مما يعرف من الشعر لا يتهم نفسه فى المعرفة بالشعر تهمة لماها فى المعرفة بتلك الأشياء : لأنه يرى الفرس فيعجبه ملاحظة سبيله ، واستدارة كفله ، وبريق شعره ، وصحة قوائمه ، وسلامة أعضائه ، وبرأته من العيوب الظاهرة والباطنة ، ولكنه لا يقدم على ابتياعه حتى يشاور فى أمره أصحاب البصر به . ويرى السيف فيبهره منه جلاؤه ، وصفاله ، وصفاء حديدته ، ولكنه لا يمتضى فيه اختياره حتى يعتمد على من يعرف حسنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضاءه . ويريد ابتياع ثوب الوشى فيروقه منه حسن طرزها ، وكثرة صورته ، وبديع نقوشه ، واختلاط ألوانه ، فلا يبادر إلى إعطاء ثمنه حتى يرجع إلى أهل العلم بجوهره وجودة رقعتيه وصحة نسجه وصحة إبريسمه . ولكنه لا يحجرى على هذه القاعدة فى الشعر لأنه ربما سمع القصيدة فأعجبه منها حسن وزنها

أودقة معانيها أو ما أشتملت عليه من مواعظ وآداب وحكم وأمثال : فيتعجل بالحكم لها على سواها قبل أن يرجع إلى من هو أعلم منه بالشعر واستواء نظمها ووضع ألفاظه في مواضعها، وغير ذلك من الأنظار الدقيقة التي لا يدركها إلا أرباب الصناعة^(١).

٦ — ومن الدقائق الغريبة أن نرى الآمدى منذ عشرة قرون يفهم أن هناك حاسة فنية يرجع إليها الناقد حين يعوزه الإفصاح عما يدركه من أسرار البيان : فهو يتحدثنا أنه كما قد يكون الفرسان سليمين من كل عيب موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفارق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية الطويلة، وتكون الجاريتان بارعتين في الجمال سليمتين من كل عيب فيفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل في الثمن بينهما فضلا كبيرا بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق وإنما يعرفه بطبعه وكثرة درسته وطول ملاحظته ، فكذلك الشعر : قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناه واحدا، وأيهما أجود في معناه إن كان معناه مختلفا^(٢).

٧ — وهذه النظرية البعيدة في تقدير الحاسة الفنية لم تكن مما انفرد به الآمدى : فقد سبق إليها ولكنه استغلها أحسن استغلال . وأجل ما جاء في هذا الباب ما حكاه إسحق الموصلي : "قال لي المعتصم أخبرني عن معرفة النغم وبينها لي — فقلت إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤدّيها الصفة".

قال : "وسألني محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما فاخترت . فقال : من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لأمكنني التبيين ، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان" . وقيل لخلف الأحمر : إنك لا تزال تردّ الشيء من الشعر وتقول هو رديء والناس يستحسنونه فقال :^(٣)

"إذا قال لك الصيرفي : إن هذا الدرهم زائف فليس بنافعك قول غيره إنه جيد" .

ولكن كيف السبيل إلى كسب الذوق الأدبي أو الحاسة الفنية ؟

هنا يجب الآمدى بأن ذلك لا يكون إلا بكثرة النظر في الشعر، والارتياض فيه، وطول الملابس له والانقطاع اليه، والانجاب عليه، والحد فيه، والحرص على معرفة أسرارهِ وغوامضهِ .

٨ - والآمدى مع هذا يقرر بأنه ليس في مقدور كل إنسان أن يصل الى كسب الذوق الأدبي بطول الممارسة : لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما في طبعه قبوله وما في طاقته تعلمه . وليس كل طبع قابلاً لفهم أسرار الأدب والبيان ومن هنا صح له أن يقول :

« واعلم أيها السائل المتعنت أن هذا الذى تسأله ليس في وسعه أن يجعلك في العلم بالصناعة . كنفسه . ولا يجد سبيلاً الى قذف ذلك في نفسك ولا في نفس ولده ومن هو أخص الناس به ، ولا أن يأتيك في ذلك بعلة قاطعة ولا حجة باهرة . على أن العلم الذى لا يستقر في الذهن إلا بالروية والمشاهدة وطول الملابس لا يمكن أن ينتقل الى ذهن آخر بمجرد القول والصفة . إلا إذا استطاع صاحب البصر بالسيوف أن يصف لك عشرة آلاف سيف مختلفات الأجناس والجواهر ، بحيث يجعلك مشاهداً لها كلها في لحظة واحدة ، عالم بكل علة ، محيط بكل حجة .

”وبعد فلعل الذى غرك في دعواك المعرفة بالشعر والقدرة على الحكم فيه أن عندك خزانة كتب تشتمل على عدة من دواوين الشعراء تصفحها أحياناً وتحفظ منها القصيدة أو القصائد وفاتك أنك لم تغتر هذا الاغترار فيما يتعلق بثياب بدنك ، وأثاث بيتك ، وطرق نفقتك ؛ لأننا لانراك تبناج وشيا ولا آلة ولا تصرف ديناراً بدرهم ولا درهما بدينار ، حتى ترجع الى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك مخافة أن تفجع في مالك . فكان خليقاً بك أن تسلم أمر الشعر الى أهله مخافة أن تفجع في عقلك . ومصيبة الغبن في العقل أكبر من مصيبة الغبن في المال“ .^(١)

٩ - والآمدى يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع . ويعيب على الشعراء طلب الإغراق والإبداع والميل الى وحشي المعاني والألفاظ ، وإن كان ذلك مما يروى ويستجاد

للأعراب "لأن الأعرابي لا يقول إلا على قريحته، ولا يعتصم إلا بخاطره، ولا يستقي إلا من قلبه . وأما المتأخر الذي يطبع على قوالب ويحذو على أمثلة ويتعلم الشعر تعلماً ويأخذه تلقيناً فمن شأنه أن يتجنب المذموم ، ولا يتبع من تقدمه إلا فيما استحسن منهم واستجيد لهم واختير من كلامهم ... فان الشاعر قد يعاب أشد العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره، وبالابداع جميع فنونه ، لأن مجاهدة الطبع ومغالبة القريحة مخرجة سهل التأليف الى سوء التكلف وشدة العمل . ولكل شيء حد إذا تجاوزه المتجاوز سمي مفرطاً . وما وقع الإفراط في شيء إلا شأنه ، وأعاد الى الفساد صحته ، والى القبح حسنه وبهائه » .

وخلاصة هذا الرأي أن الأعراب يغفر لهم ما لا يغفر للشعراء المثقفين لأنهم محتذون على غير مثال، وهذا أحل في النفوس، وأشبهى الى الأسماع، وأحق بالاستجادة مما يورده المحتذون على مثال .

وهذه مسألة فيها نظر : لأن أكثر ما روى عن الأعراب دخلته الصنعة إذ كانت جمهرته من صنع الرواة . ونحن نفهم أن الأعراب يخطئون ويصيبون ، وهم حين يخطئون قد يكونون خاضعين لفطرة هي أجدى على اللغة وأنفع من جهود المثقفين في الصقل والتجميل . فأننا نرى للأعراب حرية في الحذف والإيصال لا نجد لها ظلاً عند الشعراء الحضريين وتلك الحرية في الحذف والإيصال هي أخص سمات اللغات الحية . وفي اللغة الفرنسية لذلك ألف شاهد وألف دليل .

١٠ — وظاهر من النصوص المختلفة في كتاب الموازنة أن الامدى يريد بالذات مسألة العمل والتكلف والإغراب بإثارة وحشى المعانى والألفاظ . فهذا يُقبل من الأعراب : لأنه من وحى الفطرة، ويُرفض من شعراء الأمصار : لأنه نتيجة التكلف . ومعنى هذا أنه كان هناك رأى يدعو الى تهذيب اللغة وتصفيتها وتخليصها من عنجهية الأعراب . وقد يستخلص من هذا أيضاً أنهم كانوا يفهمون أن عيش الحضارة مما يوحى التأنق والتخير

فى المعانى والألفاظ والتعابير . فالشاعر الحضرى لا يقبل منه التوعر لأنه خروج على فطرته ، وقد يقبل من البدوى لأنه يجرى فيه على سجيته ، فكان الفطرة هى الميزان . وهذا كما يرى القارى من أدق الأحكام .

وقد يكون لهذا الاتجاه دخل فى أعمار الألفاظ ، فبعضها عُمُر طويلا لأنه وافق هوى فى أنفس الحضريين وبعضها هجرات لقلّة الاستعمال : ومن هذه الناحية فضّل الآمدى البحترى على أبى تمام : لأن البحترى كان يتعمد حذف الغريب والوحشى من شعره ليقربه من فهم من يمتدحه . إلا أن يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة فى موضعها من غير طلب لها . وكان من أمره فى ذلك أنه كان يكنى أبا عبادة ، فلما دخل العراق تكنى أبا الحسن ليزيل العنجهية والأعرابية ويساوى فى مذاهبه أهل الحاضرة ويقرب بهذه الكنية الى أهل النباهة والكتاب من الشيعة . فهو بذلك بدوى تحضر فراج شعره فى البدو والحضر . ولا كذلك أبو تمام فانه حضرى تشبه بأهل البدو فلم ينفق بالبادية ولا عند أكثر الحاضرة .

١١ — والآمدى لا يستبعد اللحن بل يقرّر أنه ” لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين ولا يسلم منه شاعر من الشعراء الاسلاميين . وأنه قد جاء فى أشعار المتقدمين ما لا يقوم العذر فيه إلا بالتأويلات البعيدة . وأن ما عيب على البحترى من مخالفة المقاييس (٢) والبعد عن الصواب قد جاء كثير مثله فى أشعار القدماء . والأعراب الفصحاء “ .

والواقع أن اللحن قديم . ومن الخطأ أن يُظن أن العرب لم يلحنوا إلا حين اختلطوا بالأعاجم . ولكنه من الواجب أن يلاحظ أن لطباع الشعراء والكتاب دخلا فى فيما أثر عنهم من اللحن : لأن لبعض الأذهان طرائق خاصة فى التعبير قد تعدّ انحرافا عن الصواب . فى حين أنها تفصح عن أغراض اصحابها أتم الافصاح — ولو ترك الناس على فطرتهم لكان من طرائق تعبيرهم مادة صالحة لعلم النفس : لأن الأساليب الكتابية صور للاتجاهات العقلية ، والوجدانية ، والنفسية . وفى العقول كما فى الأساليب وضوح وغموض وخطأ وصواب .

بين صاحب أبي تمام وصاحب البحرى

اخترع الآمدى مناظرة طريفة تمثل النزاع الذى قام بين أصحاب أبي تمام وأصحاب البحرى . وهى مناظرة طويلة يجدها القارئ فى صدر كتاب "الموازنة بين الطائيين" ورأينا أن نثبت طرفا منها فى هذا الفصل ليرى القارئ كيف لآن الثر وعذب على قلم الآمدى وهو بصوغ هذا الحديث :^(١)

صاحب أبي تمام — كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحرى أشعر من أبي تمام ، وعن أبي تمام أخذ ، وعلى حذوه احتذى ، ومن معانيه استقى : حتى قيل الطائي الأكبر والطائي الأصغر .

صاحب البحرى — أما الصحبة له فما صحبه ، ولا تلمذ له ، ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا أرى قط أنه محتاج إليه .

ودليل ذلك انخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد بن يوسف الثغرى وقد دخل عليه البحرى بقصيدته التى أولها :

* أفاق صب من هوى فأفقا *

وأبو تمام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياتا كثيرة فلما فرغ من الانشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الأمير ! ما ظننت أن أحدا يقدم على أن يسرق شعري وينشده بحضرتي حتى اليوم ! ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة فهت البحرى . ورأى أبو تمام الإنكار فى وجه أبي سعيد فحينئذ قال أبو تمام :

"أيها الأمير والله ما الشعر إلا له وإنه أحسن فيه الاحسان كله" وأقبل يقرظه ، ويصف معانيه ، ويذكر محاسنه ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى أضعف له الجائزة . فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التى هى من عين شعره ، وفانح كلامه ، قبل أن يعرف أبا تمام ، جدير به

(١) اكتفينا فى إثبات هذه الصفحات بما أورده المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى فى مختاراته . ومن أراد الشواهد فليرجع إليها فى صدر كتاب الموازنة فهى هناك أوفى وأمتع .

أن يستغنى عن أن يصحبه، أو يتلمذ له أو لغيره من الشعراء . على أنى لا أنكر أنه استعار بعض معانى أبى تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحرى من شعره . وليس ذلك بمقتضى أن يكون أبو تمام أستاذ البحرى ولا بمنع أن يكون البحرى أشعر من أبى تمام . فهذا كثير قد أخذ من جميل واستقى من معانيه، فما رأينا أحدا قال إن جميلا أشعر منه بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبى تمام — إن البحرى نفسه يعترف أن أبا تمام أشعر منه فقد سئل عنه وعن أبى تمام : « فقال إن جيده خير من جيدى » وجيد أبى تمام كثير .

صاحب البحتى — إن كان هذا الخبر صحيحا فهو للبحرى لا عليه، لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام كثير الاختلاف، وشعره شديد الاستواء، والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علوا حسنا ويخط انحطاطا قبيحا . وأن البحرى يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط ولا يُسَفَّ أفضل ممن يسقط ويُسَفَّ .

صاحب أبى تمام — إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولا وإماما متبوعا وشهر به حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام . وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره، وهى فضيلة عرى عن مثلها البحرى .

صاحب البحرى — ليس الأمر على ما وصفت، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ولا بأول فيه ولا سابق اليه، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد وأحتذى حذوه وأفرط فى ذلك وأسرف حتى زال عن النهج المعروف، والسَّن المألوف، بل إن مسلما غير مبتدع له ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع متفرقة فى أشعار المتقدمين فقصدها وأكثر فى شعره منها . ولكنه حرص على أن يضعها فى مواضعها ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه حتى قيل أنه أول من أفسد الشعر بخفاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه، وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف، فسلك طريقا وعرا، وأستكره الألفاظ

والمعاني استكراها : ففسد شعره ، وزهبت طلاوته ، ونشف ماؤه . فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه اليه . وكل ما في المسئلة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه فيه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه . أما البحتري فانه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء في شعره من الاستعارة والتجيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سببا في إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله . ونفاق شعر الشاعر دليل على علو مكانته واضطلاحه بما يلائم الأذواق ويلامس القلوب من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبي تمام — إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ، أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه .

صاحب البحتري — لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني ودعبل بن علي الخزازي من الشعر ومزلتهم من العلم بكلام العرب . وقد علمتم مذهبهم في أبي تمام واذدراءهم بشعره . حتى قال دعبل : إن ثلث شعره محال ، وثلاثة مسروق ، وثلاثة صالح . وقال : ما جعل الله أبا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنشور أشبه منه بالشعر . وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام : ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل ! وهذا محمد بن يزيد المبرد ما علمناه دون له كبير شيء .

صاحب أبي تمام — إن دعبل^(١) كان يشنأ أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور ، فلا يقبل قول شاعر في شاعر . وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصب عليه لغرابية مذهبه ، ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه ، فكان إذا سئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدري فيعدل الى الطعن عليه . ولا مانع أن يكون جميع من تذكروا على هذا القياس .

(١) يشنأ : ينفض .

صاحب البحتري — لا عيب على ابن الأعرابي في طعنه على شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب الى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام الى الخطأ والإحالة . والعيب في ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة الى طريقة يجهلها ابن الأعرابي وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية .

صاحب أبي تمام — إن العلم في شعر أبي تمام أظهر منه في شعر البحتري ، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

صاحب البحتري — كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً ، وكان الأصمعي شاعراً عالماً ، وكان الكسائي كذلك ، وكان خلف بن حيان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان في زمانهم من الشعراء غير العلماء ، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل في شعره على علمه باللغة وكلام العرب .

أما البحتري فلم يقصد هذا ولا اعتمده ، ولا كان يعدّه فضيلة ولا يراه عالماً ، بل كان يرى أنه شاعر لا بد له أن يقرب شعره من فهم سامعه فلا يأتي بالغريب إلا أن يتفق له في اللفظة بعد اللفظة في موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه . على أن هذا العلم الذي توثرون به أبا تمام لم ينفعه : فقد كان يلحن في شعره لحناً يضيق العذريه ولا يحسد المتأول له فخرجاً منه إلا بالحيلة والتمحل الشديد .

صاحب أبي تمام — لسنا ننكر أن يكون صاحبنا قد وهم في بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح في كثير من معانيه . وغير غريب على فكر نتج من المحاسن ما نتج ، وولد من البسائع ما ولد ، أن يلحقه الكلال في الأوقات ، والزلل في الأحيان ، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح في سهوه ويتجاوز له عن خطاه . وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من

أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجرود الفضل بل عفى إحسانهم على إساءتهم، وتجو يدهم على تقصيرهم .

صاحب البحرى — أما أخذ السهو والغلط على من أخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين ففى البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمام فلا تكاد تخلوله قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها مفسدا أو محيلا أو عادلا عن السنن أو مستعيرا استعارة قبيحة أو مخطئا للمعنى بطلب الطباق والتجنيس ، أو مبهما بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج .

صاحب أبي تمام — إنكم تتكرون على أبي تمام من الفضل ما يعترف به البحرى نفسه فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره .

صاحب البحرى — لم لا يفعل البحرى ذلك وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين وأخوين متصافين يجمعهما الطاب والنسب والمكتسب ، فليس بمنكرو ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ويصفه بأحسن ما فيه ، وينحله ما ليس فيه ، على أن الميت خاصة يُعطى فى تأييده من التقريظ والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه .

صاحب أبي تمام — كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء أن جيد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله . وإذا كان جيده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه وأطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب فى أنه أشعر شعراء عصره والبحرى واحد منهم .

صاحب البحرى — إنما صار جيد أبي تمام موضوعا ومذكورا لندرته ووقوعه فى تضاعيف الردىء فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه . وجيد البحرى بكيد أبي تمام إلا أنه يقع فى جيد مثله أو متوسط فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيد صاحبه .

٨ - أبو هزل العسكري

١ - في الأدب العربي رجلا ن باسـ العسكري يشـبهاـ كثيرا على الباحثين، لأن كلا منهما الحسن بن عبد الله العسكري . وكان من أسباب هذا اللبس أن أخطأ صديقنا الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه "الأعلام" ^(١) فأرخ وفاة أحدهما بوفاة الآخر اعتمادا على فهرس دار الكتب المصرية .

قال ياقوت : أما وفاته فلم يبلغني منها شيء غير أني وجدت في آخر كتاب الأوائل من تصنيفه (وفرغنا من املاء هذا الكتاب لعشر خلت من شعبان سنة ٣٩٥) وقد ظن جورجي زيدان أن هذا تاريخ الوفاة .

والفرق بين ذينك الشخصين أن أحدهما يكنى أبا أحمد وهو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري، وثانيهما يكنى أبا هلال وهو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، وقيل إن ^(٢) أبا هلال كان ابن أخت أبي أحمد .

والعسكري نسبة الى عسكر مكرم، وهي مدينة من كور الأهواز ، ومكرم الذي تنسب اليه مكرم الباهلي وهو أول من اختطها، كما يقول ابن خلكان ^(٣) .

٢ - وكان أبو أحمد العسكري من رجال اللغة والرواية . وكان صاحب ابن عباد يؤد الاجتماع به ولا يجد اليه سبيلا ، فقال لمخدومه مؤيد الدولة بن بويه : ان عسكر مكرم قد اختلت أحوالها، وأحتاج الى كشفها بنفسى ، فأذن له في ذلك ، فلما أتاها توقع أن يزوره أبو أحمد العسكري فلم يزره . فكتب صاحب اليه :

ولما أيتـم أن تزوروا وقتـموا ضـعفتـنا فلم نقدر على الوخـدان ^(٤)

(١) ص ٢٢٩ ج ١ (٢) ياقوت ص ١٣٧ ج ٣ (٣) وفيات الأعيان ص ٢٣٥ ج ١

(٤) الوخدان : سعة الخطو، كالوخذ والوخيد .

أتيناكمو من بعد أرض نزوركم وكم منزل بكر لنا وعوان
نسائلكم هل من قري لتزيلكم بملء جفون لا بملء جفان

وكتب مع هذه الأبيات شيئا من النثر يجاوبه أبو أحمد عن النثر بنثر مثله، وجاوبه عن الشعر بهذه الأبيات :

أروم نهوضا ثم يثنى عزيمتي تعوذ أعضائي من الرجفان
فضممت بيت ابن الشريد كأنما تعمده تشبيهي به وعناني
”أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان“

فلما وقف الصاحب على الجواب عجب من اتفاق هذا البيت له وقال : « والله لو علمت أنه يقع له هذا البيت لما كتبت اليه على هذا الروي » .

وقد رأى أبو أحمد أن هذا لا يقنع الصاحب وأنه لا بد من الحمل على النفس، فركب بغلة وقصده فلم يتمكن من الوصول إليه لاستيلاء الحشم، فصعد تلعة ورفع صوته بقول أبي تمام :

مالى أرى القبة الفيحاء مقفلة دوني وقد طال ما استفتحت مقفلها
كأنها جنة الفردوس معرضة وليس لي عمل زالك فأدخلها

فناداه الصاحب : ادخلها يا أبا أحمد فلك السابقة الأولى ! فتبادر إليه أصحابه فحملوه حتى جلس بين يديه فسأله عن مسألة فقال : الخبير صادفت ! فقال الصاحب : يا أبا أحمد ! تغرب في كل شيء حتى في المثل السائر ! فقال : تفاعلت عن السقوط بحضرة مولانا . وأصل المثل (على الخبير سقطت) وكانت وفاة أبي أحمد العسكري سنة ٣٨٢^(١)

وانما كتبنا هذه الكلمة عن أبي أحمد لأنه كان أستاذ أبي هلال، ولنرشد القارئ إلى أن أبا هلال حين يقول في الصناعتين : « أخبرنا أبو أحمد » فإنه لا يريد رجلا سواه . ومن

كتاب الصناعتين نعرف شيئاً كثيراً عن أبي أحمد العسكري من الوجهة الأدبية، فقد نقل عنه أشياء كثيرة في أغلب ضروب البيان، واختار شذرات من نثره تمثله من أوساط الكتاب^(١).

٣ — أما أبو هلال فهو شخصية قوية جذابة لها أثر عظيم في اللغة العربية، ولولم يكن له إلا كتاب الصناعتين لكفى دلالة على فضله وبراعته وتفوقه فيما عني به من درس الشعر والنثر وتعقب مذاهب الشعراء والكتاب.

كان أبو هلال أبن النفس، قوى القلب، يترفع عن الدنايا وينأى بنفسه عما يرتطم فيه أدياء الأدب من كسب العيش عن طريق التزلف إلى الأمراء والرؤساء. وقد رأينا أن أستاذه وخاله أبا أحمد العسكري كان قدوة له في ذلك، إذ كان الصاحب يستدعيه إلى حضرته فيعتذر بالضعف والشيخوخة فرارا من أن يحشر في زمرة الأتباع وطلاب المغامر وأرباب الغايات. كان أبو هلال يتجرف في الثياب احترازا من الطمع والدناءة والتبذل^(٢)، ولكنه كان قوى الشعور بأن تلك مهنة لا تليق به ولا بأدبه، فكان يزفر بمثل قوله :

جلوسى في سوق أبيع وأشتري دليل على أن الأنام قروء
ولا خير في قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويجوهو عني رثاة كسوتى هجاء قبيحا ما عليه مزيد

وقوله :

إذا كان مالى مال من يلقط العجم^(٣) وحالى فيكم حال من حاك أوجهم
فأين انتفاعى بالأصالة والجحا وما رجحت كفى على العلم والحكم
ومن ذا الذى فى الناس يبصر حالتي فلا يلعن القرطاس والخبر والقلم^(٤)

٤ — وقد كان أبو هلال مع هذا التأبى متصل الحبل بالصاحب بن عباد، وليس في كتب التراجم ما يشرح لنا صلته بذلك الوزير الذى استعبد معاصريه من الكتاب

(١) أنظر ص ٣١٩ صناعتين . (٢) ص ١٣٥ ج ٣ ياقوت . (٣) العجم : النوى .

(٤) ص ١٣٦

والشعراء ، ولكنني رأيت في كتاب الصناعتين ما يدل على أن صلته به كانت قوية ، ولذلك
مظهران :

الأول إشادته بأدب الصاحب ، والثاني تحامله على المتنبي ، وكان ابن عباد يكره المتنبي
كرها شديدا لترفعه عن مدحه ، فكان لذلك يدفع النقد الى النيل منه والوقوع فيه ، والغرض
من شعره .

أما إشادته بأدب الصاحب فتظهر في استشاده بكلامه ، كقوله في باب السجع
والازدواج : ” ومثله قول الصاحب : لكنه عمد الى الشوق فأجرى جواده غرا وقرحا ،
وأورى زناده قدحا فقدحا ... وقوله : هل من حق الفضل تهضمه شغفا ببلدتك ، ونظمه
كلفا بأهل جلدتك ، ... وقوله : وقد كتبت الى فلان ما يوجز الطريق الى تخلية نفسه ،
وينجز وعد الثقة في فك حبسه“^(١) .

ونرى أبا هلال في مكان آخر يقول : ” روى لنا أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس
رضي الله عنه :

* تشط غدا دار جيرانتا *

فقال ابن عباس :

* وللدار بعد غد أبعد *

فقال عمر : والله ما قلت إلا كذلك ... وإذا كان القوم في قبيلة واحدة وفي أرض
واحدة فان خواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضاربة ... وأنشدت
الصاحب اسماعيل بن عباد :

* كانت سراة الناس تحت أظله *

فسبقني وقال :

* فغدت سراة الناس فوق سراته *

وكذلك كنت قلت ، فعلى هذا جائز ما يدعى لهم^(٢) .

وفي هذه العبارة تظهر مجاملة أبي هلال للصاحب ، فهو يتخذ من حضور ذهنه دليلا على أن حضور الذهن من النعم التي قد يهبها الله للناس !

ونراه في باب الفصل والوصل يقول : ” وهكذا يفعل الكتاب الحذاق ، والمترسلون المبرزون ... ألا ترى ما كتب الصاحب في آخر رسالة له : فان حثنت فيما حلفت ، فلا خطوت لتحصيل مجد ، ولا نهضت لاقتناء حمد ، ولا سعت الى مقام نخر ، ولا حرصت على علو ذكر ... وهذه اليمين التي لو سمعها عامر بن الظرب لقال هي الغموس ، لا القسم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ... فأنى بأيمان ظريفة ومعان غريبة .

وكتب أيضا في آخر رسالة : وأنا متوقع لكتابك ، توقع الظمان لساء الزلال ، والصوام لهلال شوال .

وكتب آخر أخرى : وسئل أن أخلفه في تجشيم مولاى الى هذا المجمع ، ليقرب علينا تناول البدر بمشاهدته ، ولمس الشمس بغرته .

فانظر كيف يقطع كلماته على كل معنى بديع ، ولفظ شريف » ^(٢) .

هـ — وأما تحامله على المتنبي فيظهر في مواطن كثيرة من كتابه ، فهو لا يذكره باسمه ، ولا يتحدث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح . ففي باب تمييز المعاني ينشد قول السيد الحميري :

أيارب إني لم أرد بالذى به مدحت عاليا غير وجهك فارحم

ثم يقول : ” فهذا كلام عاقل يضع الشيء في موضعه ، ويستعمله في إبانة ، ليس كمن قال وهو في زماننا :

جفخت وهم لا يحفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل ^(٣)

فأشمت عدوه بنفسه .

(١) اليمين الغموس بالغين المعجمة التي تغمس صاحبها في النار . (٢) ص ٣٥٤ و ٣٥٥

(٣) لم يذكر أبو هلال عجز البيت (ص ٤٥) . ص ٢٩٣

وفي باب الكناية والتعريض يقول : « ومن شنيع الكناية قول بعض المتأخرين :

إني على شغفى بما فى نحرها لأعف عما فى سراويلاتها

وسمعت بعض الشيوخ يقول : الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ » .

و « بعض الشيوخ » ذاك هو صاحب بن عباد الذى قيد هذه الملاحظة فى آخر رسالته

فى الكشف عن مساوى المتنبي ^(١) .

وفي باب الترصيع يقول : « ومن معيب هذا الباب أيضا قول بعض المتأخرين :

عجب الوشاة من اللحاء وقولهم دع ما نراك ضعفت عن إخفائه

هذا ردىء لتعمية معناه » ^(٢) .

وفي باب التوشيح يقول : « ومما عيب من هذا الضرب ... قول بعض المتأخرين :

فقلقت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل

وإنما أخذه من قول أبى تمام فأفسده :

طلبتك من نسل الجدليل وشدقم كوم عقال من عقائل كوم ^(٣)

٦ — وتحامل أبى هلال على المتنبي هو المظعن الظاهر فى أخلاقه ، فقد كان يستطيع أن ينقد شعر المتنبي فيظهر الجيد منه والردىء ، ولكل شاعر جيد وردىء ، ولكنه سلك خطة واحدة هى النص على السخيف من شعر المتنبي مع التعامى عن معانيه الجيدة ، وخياله الوثاب . فانضم بذلك إلى النقاد المغرضين الذين كلفوا بالبحث عن عيوب المتنبي ابتغاء مرضاة الوزير ابن عباد ، وما أخط الأدب إذا سخر لأهل الملك والسلطان !

٧ — ويعد ثرأبى هلال من الطبقة العالية . وهو يسجع ، ولكنه لا يلتزم السجع ، والتعبير المشرق الفصيح من أظهر مميزاته ، ولا يكاد القارئ يرى فى نثره عبارة غامضة أو فكرة

(١) مخطوطة فى دار الكتب المصرية . (٢) ص ٣٠٠ (٣) ص ٣٠٤ والجدليل وشدقم لخلان

كانا للنعمان .

يحوطها اللبس ، وإنما يمضى في الشرح والإيضاح بلغة سهلة مقبولة لا يعتريها ضعف ولا التواء . وانظر قوله في جودة الرصف وحسن النظم :

«أجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل والخطب والشعر . وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب . وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا . وسوء التأليف مع رداءة الرصف والتركيب شعبة^(١) من التعمية . فإذا كان المعنى سبيا ، ورصف الكلام رديا ، لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة . وإذا كان المعنى وسطا ، ورصف الكلام جيدا ، كان أحسن موقعا وأطيب مستمعا ، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا في المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا ، وإن اختل نظمه فضمت الحبة إلى ما يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثميناً . وحسن الرصف أن توضع الالفاظ في مواضعها وتمكن في أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام ولا يعنى المعنى ... وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها وصرفها عن وجوها وتغير صيغتها ومخالفة الاستعمال في نظمها^(٢) .

ولا يستطيع وضع لغة التأليف في مثل هذه السهولة وهذه الدقة إلا الكتاب المتفوقون . وانظر أيضا قوله :

”البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ، ولا على ملك دون سوقة ، ولا على لسان دون لسان ، بل هي مقسومة على أكثر الألسنة . فهم فيها مشتركون ، وهي موجودة في كلام اليونان وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم ، ولكنها في العرب أكثر لكثرة تصرفها في النثر والنظم والخطب والكتب والسجع والمزدوج والربز ، وهم أيضا متفاوتون فيها ، فقد يكون العبد بليغا ولا يكون سيده ، وتكون الأمة بليغة ولا تكون ربها ، فالبلاغة قد تكون في أعراب البادية دون ملوكها ، وقد يحسنها الصبي والمرأة^(٣) .

(١) السي ، هنا ، معناه الجيد ، والسبية : الدرة . (٢) ص ١٢٠ الصناعتين .

(٣) ص ٢١٣ التفضيل بين بلاغى العرب والعجم ضمن مجموعة التحفة البهية طبع الآستانة .

وجمال هذه الفقرة يرجع الى دقتها وسلامتها من الفضول ، وفيها صورة لفهم رجال ذلك العهد لمواقع البلاغة ، فهي في رأيهم ليست وقفا على أمة دون أمة ، ولكنهم يشعرون أن العرب أقدر الناس على الكلام البليغ ، ولا يمكن أن يطالب الرجل بغير ذلك ، فمن الصعب أن يدرك الناقد أن هناك لغة أجمل من لغته ، إذ كان تذوق الأساليب يرجع الى طول الألفة والصدقة الروحية لأسرار الكتاب والشعراء . وفي رأي أن البلاغة كالموسيقا لا تفهم ولا تُذاق إلا بطول السماع ، فهناك ألحان شرقية بديعة لا يدرك جمالها إلا الشرقيون ، ولو سمعها الغربيون لسخروا منها وعدوها من عبث الرطاع . وهناك ألحان غربية دقيقة لا يقدروا إلا الغربيون ، ولو سمعها الشرقيون لستوا آذانهم وقالوا هذه همهمة الأنعام !

٨ — وكان أبو هلال يحيد الشعر ، ويضع شعره في طبقة أشعار المفلقين ، فينشده في الصناعتين مستشهدا به كما يستشهد بشعر أبي تمام والبحترى ، أو النابغة وامرئ القيس ، ومن إليهم من القدماء والمحدثين ، وهذا يدل على اعتداده بقيمته الفنية ، ونحن كذلك نراه من الشعراء المحيدين ، فنستحسن قوله — وقد أنشده في باب المطابقة — :

قل لمن أذنيه جهدى	وهو يقصيني جهده
ولمن ترضاه مولا	ك ولا يرضاك عبده
أملح بملح الش	كل أن يخلف وعده
أم جميل بجميل ال	وجه أن ينقض عهده
ما الذى صدك عنى	ليت ما صدك صد ^(١) ه

ونستجيد قوله في تفضيل الشتاء على غيره من الأزمنة :

إن روح الشتاء خلص روحى	من حرور تشوى الوجوه وتكوى
برد الماء والهواء كأن قد	سرق السبرد من جوانح خلو

ريحه تلمس الصدور فتشفي
 لست أنسى منه دماثة دجن
 وجنوبا يبشر الأرض بالقط
 وغيوما مطر زات الحواشي
 كلما أرخت السماء عُراها
 وهي تعطيك حين هبت شمالا
 وليال أطلن مدة درسي
 وغماماته تصوب فتروى
 ثم من بعده نضارة صحو
 ركبا بشر الليل ببرو
 بوميض من البروق وخفو
 جمع القطر بين سفلى وعلو
 برد ماء فيها ورقة جق
 مثلها قد مددن في عمر لهوى^(١)

(١) ص ١٣٨ ج ٣ ياقوت .

٩ - كتاب الصناعتين

١ - أجمل أثر لأبي هلال العسكري هو كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر . وقد أراد أن يودعه جميع ما يحتاج إليه في صناعة الكلام ثره ونظمه ، من غير إخلال ولا إسهاب ، وجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا ، تكلم فيها عن موضوع البلاغة ، وتمييز الكلام جيده من رديئه ، والإيجاز والإطناب ، وحسن الأخذ وقبحه ، والتشبيه والسجع والازدواج ، والبديع وفنونه ، الخ .

والغاية من علم البلاغة فيما نص أبو هلال هي أن يعرف المتأدب إعجاز القرآن . وهى فكرة كثيرة الذبوع عند المتقدمين : فعلم اللغة العربية في عرفهم إنما وضعت لفهم القرآن المجيد ، وهم يريدون أن يطمئن المؤمن الى إعجاز القرآن اطمئنانا مؤسسا على قواعد من البيان تحمل المنصف على الإقرار بإعجاز ذلك الكتاب . وهناك غايات ثانوية منها فهم الأدب ومنها القدرة على إجادة الإنشاء . وقد أشار أبو هلال الى أن الكتب المصنفة في ذلك الفن كانت لعهد قليل وأن أشهرها كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهو في رأيه كتاب جم المنافع لما أشتمل عليه من جيد الفصول والفقر والخطب والأخبار ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبنوثة في تضاعيفه : فهى ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير .^(١)

٢ - كتاب الصناعتين كتاب جيد ، تشعر وأنت تقرؤه أنه كتاب نادر المثال ، والمؤلف قوى الشعور بذلك ، فإننا نراه يقول بعد أن شرح نعوت البلاغة ووجوه البيان والفصاحة : « ولم يسبقنى الى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد ، وإنما أقصر من كان قبلى على ذكر تلك النعوت عارية مما هى مفتقرة اليه من إيضاح غامضها ، وإنارة مظلمها ،

فكان المنفعة بها للعالم دون المتعلم ، والسابق دون اللاحق ، وربما اعترض الشك فيها للعالم المبرز، فسقطت عنه معرفة كثير منها، وأنت أيدك الله تعتمد ما ذكرته من ذلك؛ وتأتّم بما شرحته منه، وتستدل به على ما ألفتيه من جنسه إذا عثرت به، لتستغنى عن جميع ما صنف في البلاغة، وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة، إن شاء الله^(١) .

ونراه يقول بعد أن تكلم عن قبح الأخذ : «وقد أتيت في هذا الباب على الكفاية، ولا أعلم أحدا ممن صنف في سرق الشعر فثل بين قول المبتدئ وقول التالى وبين فضل الأول على الآخر والآخر على الأول غيرى ، وإنما كان العلماء قبل ينبهون على مواضع السرق فقط، فقس بما أوردته على ما تركته، فاني لو استقصيته لخرج الكتاب عن المراد^(٢) .

٣ - وأول ما يلاحظ في كتاب الصناعتين أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد، فان المؤلف يهتم بجميع الفرص ليعرض للقارئ طرائف النثر الجيد والشعر البليغ، وهو لا يكتفى بشاهد واحد، وإنما يندفع فيثقل من رسالة أنيقة الى حكمة بليغة، ومن بيت جيد الى قطعة مختارة . وقد بقي كتاب الصناعتين لذلك مرجعا لأجل ما أنتجته القرائح العربية : ففيه نماذج من النثر البليغ قد ينذر أن نجدها في كتاب سواه، واليك هذه الدرة التي نقلها عن كثير ابن هراسة في وصية ابنه :

”يا بني ! إن من الناس ناسا يتقصونك اذا زدتهم ، وتهون عليهم اذا أكرمتهم ، ليس لرضاهم موضع فتقصده، ولا لسخطهم موقع فتحذره، فاذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبد لهم وجه المودة وأمنهم موضع الخاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزا دون شرهم وما منعهم من موضع الخاصة قاطعا بحرمتهم“^(٣) .

٤ - ومن أظهر الدلائل على أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد أنه يكثر من الاستطراد، والاستطراد هو المنهج الغالب على كتب الأدب الخالص، وهو منهج جميل كان يريد به القدماء نشر المعارف الأدبية، أو ما يسمى اليوم بالثقافة العامة، ومن أمثلة

استطراذه أنه أراد أن يضرب مثلاً للعلم الكثير في القول اليسير فقال : وسئل بعض الأوائل : ما كان سبب موت أخيك؟ قال : كونه ! ... وهنا مضى أبو هلال يخبرنا أن الناس تنازعوا هذا المعنى . فقد قيل لأعرابي : كيف حالك؟ فقال : ما حال من يفنى ببقائه ، ويسقم بسلامته ، ويؤتى من مأمته . وأن النبي عليه السلام قال : كفى بالسلامة داء . وأن حميد بن ثور قال :

أرى بصرى قد رابى بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما

وقال آخر :

كانت قناتي لا تلين لغامر فالأنها الإصباح والإمساء

ودعوت ربي بالسلامة جاهدا ليصحنى فاذا السلامة داء

وقال ابن الرومي :

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة اذا زال عن نفس البصير غطاؤها

وكيف بقاء العيش فيها وانما ينال بأسباب الفناء بقاءها

وقريب من ذلك قول محمد بن علي : مالك من عيشك إلا لذة تذلف بك إلى حمامك ، وتقربك من يومك . فآية أكلة ليس معها غصص ، وشربة ليس معها شرقي؟ فتأمل أمرك .^(١) فكأنك قد صرت الحبيب المفقود أو الخيال المحترم . وقال أبو العتاهية :

* أسرع في نقص امرئ تمامه *

ولم يكتف بهذا أبو هلال ، بل ذكر أن أول من نطق بهذا المعنى النمر بن تولب في الجاهلية إذ قال :

يود الفتي طول السلامة والفتى وكيف يرى طول السلامة يفعل

يرد الفتي بعد اعتدال وصحة ينوء اذا رام القيام ويميل

ثم ذكر من الأمثال : كل من أقام شخص ، وكل من زاد نقص . وأضاف إلى ذلك شيئاً من مختار شعره في هذا المعنى .^(٢)

(١) في الأصل « الحبيب » وهو تحريف ، والتصويب عن الكامل ج ١ ص ٨٧ طبعة الخشاب .

(٢) راجع ص ٢٧ - ٢٩

٥ - ومما يؤاخذ عليه أبو هلال أنه يهمل أسماء الكتاب والشعراء في كثير من الشواهد، كأن يقول: كتب بعضهم الى أخ له^(١) "أما بعد فإن المرء ليسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك فيما قدمت من خير، وأسفك على ما فاتك من بر" وكأن يقول: "كتب بعضهم يصف رجلا فقال: "أما بعد فانك قد كتبت تسأل عن فلان كأنك قد هممت بالقدوم عليه، أو حدثت نفسك بالوفود اليه، فلا تفعل، فإن حسن الظن به لا يقع إلا بخذلان الله تعالى، وإن الطمع فيما عنده لا يخطر على القاب إلا بسوء التوكل على الله تعالى، والرجاء لما في يديه لا ينبغى إلا بعد اليأس من رحمة الله تعالى، لا يرى إلا أن الإقتار الذي نهى الله عنه هو التبذير الذي يعاقب عليه، والاقتصاد الذي أمر به هو الإسراف الذي يفضب منه ... وأن مواساة الرجل أخاه من الذنوب الموبقة، وأفضاله عليه إحدى الجوائر المهرقة، وأن الله تعالى لا يغفر أن يؤثر المرء على نفسه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء!"^(٢)

٦ - ويكثر أبو هلال من كلمة "قال الشاعر، وقال الآخر" من غير تعيين، وهذا عيب لم ينفرد به، وإنما هو عيب غالب على أكثر المؤلفين في اللغة العربية، وصلنا به الى الجهل المطبق بتمييز العصور بعضها من بعض، ولو نسبت كل كلمة الى قائلها لعرفنا كثيرا من تطورات المعاني والألفاظ والأساليب.

٧ - وسر البلاغة عند أبي هلال يرجع الى الألفاظ "وليس الشأن في اراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه"^(٣) ودليله على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائعة، ما عملت لإفهام المعاني فقط، لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام. ودليل آخر عنده أن الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد، واذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا فاترا - والفاتر شر من البارد - كان مستهجننا ملفوظا، ومذموما مزدودا^(٤).

وقد ضرب المثل فيما سبق بالعقد المنظوم : فانه يكون أروع إذا جعلت كل خرزة منه إلى ما يليق بها وان لم يكن مرتفعاً جليلاً ، وان اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وان كان فائقاً ثميناً .

وقد عرض في باب التميم إلى قول الخنساء :

وان صحرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وبين أنه مأخوذ من قول الأعشى :

وتدقن منه الصالحات وان يُسئ يكن ما أساء النار في رأسى كبكبا

إلا أنها أخرجه في معرض أحسن من معرض الأعشى . ثم قال : ” وهذا دليل على صحة ما قلناه من أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتحجيم الصورة ^(١) “

٨ — وحسن اللفظ عند أبي هلال موقوف على جمال المعنى ، فلا خير فيما أُجيد لفظه إذا سخف معناه . ^(٢) والكلام عنده بسلاسته وسهولته وتخير لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه واستواء تقاسيمه ، مع عدم ضروراته بحيث يكون المنظوم مثل المنشور في حسن رصفه وتأليفه ، وبكال صوغه وتركيبه . ^(٣) وهو يفضل الكلام السهل ، ويراہ أدل على قدرة الشاعر والكاتب ^(٤) . وهذا حق : فان سهولة الكلام تحتاج الى صنعة ومهارة وحذق ، وليس في مقدور كل كاتب أن يخاطب الناس جميعاً بما يفهمون في لغة سهلة تجري الى أذهانهم وعقولهم وأذواقهم ، ثم تظل مع ذلك فوق قواهم لا يستطيعون أن يأتوا بشئ من مثل ما فيها من الألفاظ المتخيرة ، والمعاني الشريفة ، والخيال الجميل .

وقد ضرب المثل للسهل المتنوع بقول العباس بن الأحنف :

إليك أشكوب ما حلّ بي من صدّ هذا التائه المعجيب

إن قال لم يفعل وإن سئل لم يبذل وإن عوتب لم يُعتب

صبّ بعضياني ولو قال لي لا تشرب البارد لم أشرب

وقول البحترى :

أيهما العاتب الذى ليس يرضى	نم هنيئا فلست أطعم غمضا
إن لى من هواءك وجدا قد استم-	ملك نومي ومضجما قد أقضا
بحفونى فى عبرة ليس ترقا	وفؤادى فى لوعة ما تقضى
بأبى شاذن تعالق قلبى	يجفون فواتر اللحظة مرضى
لست أنساه إذ بدا من قريب	يتثنى تثنى الغصن غضا
واعذارى إليه حين تجافى	لى عن بعض ما أتيت وأغضى
واعتلاقى تفاح خديه تقيي	لا ولثا طورا وشما وعضا

وقول الآخر :

صرفت القلب فانصرفا	ولم ترع الذى سلفا
وبنت فلم أذب كمدا	عليك ولم أمت أسفا
كلانا واجد فى النا	س ممن مله خلفا

ولكن السهولة عند أبى هلال شئ آخر غير الليونة ، فالكلام الذى يسهل حتى يصل الى الرخاوة والانحلال ردىء مردود .^(١)

والكلام الجزل يبعث بعد السهل فى الرتبة ، والجزل فى رأيه هو الذى تعرفه العامة اذا سمعته ولا تستعمله فى محاوراتها . والفرق بين السهل والجزل على هذا أن السهل تفهمه العامة وتطمع فيه مع عجزها عنه ، أما الجزل فهو ما تفهمه العامة وتشعر مع فهمها له أنها لا تقدر عليه . والجزالة عند أبى هلال شئ آخر غير الوعورة ، فهى الجمع بين القوة والسهولة ، كقول سعيد بن حميد :

”وأنا من لا يحاجك عن نفسه ، ولا يغالطك عن جرمه ، ولا ياتمس رضاك إلا من جهته ، ولا يستدعى برك إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك

إلا بالاعتراف بالجرم . نبت بي عنك غيرة الحداثة ، وردتني اليك الحنكة ، وباعدتني منك الثقة بالأيام ، وأدنتني اليك الضرورة . فان رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر ، وتجدد النعمة بأطراح الحقد ، فان قديم الحرمة وحديث التوبة يحقان ما بينهما من الإساءة ، فان أيام القدرة وان طالمت قصيرة ، والمتعة بها وان كثرت قليلة ، فعلت^(١) .

ومما هو أجزل من هذا قول الشعبي للحجاج وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث :
 ” أجذب بنا الجناب ، وأحزن بنا المنزل ، واستحلستنا الحذر ، واكتحلنا السهر ، وأصابتنا فتنه لم نكن فيها بررة أتقياء ، ولا بغيرة أقوياء “ فعفا عنه^(٢) .

ومع اهتمام أبي هلال باللفظ نراه ينص في مكان آخر على أن المدار على إصابة المعنى ، وأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة^(٣) . وهنا يناقض رأيه الأول ، فضلا عن ضعف تشبيه المعاني بالأبدان والألفاظ بالأنثواب ، وكان أولى لو شبه الألفاظ بالأجسام والمعاني بالأرواح . وفي رأيه أنه يجب أن يُفَرَّق بين المعنى والغرض ، لأن ما جرى عليه أبو هلال وغيره من كتاب النقد والبيان يتركز على وحدة البيت في الشعر ، وعلى وحدة الفاصلة في النثر ، مع أنه يجب التفكير في وحدة الغرض الذي سيق من أجله الكلام ، وبذلك ننقل النقد الى أفق أوسع ، وتكون المعاني الجزئية وحدات تتكون منها الرسالة أو الخطبة أو القصيدة ، كما ينظم العقد من حبات الجمان^(٤) .

وهناك أبواب في كتاب الصناعتين تشعرك بنفحات الأدب الجميل ، وان لم تكن في حملتها من مبتكرات أبي هلال . ففي باب الالتفات شواهد بديعة مسندة الى الأصمعي إذ قال :
 أتعرف التفاتات جرير ؟ قلت : لا ، قال :

أتُنسى إذ تودعنا سليمي بعود بَشامة ؟ سَقَى البَشَامُ

(١) ص ٤٩ (٢) استحلستنا الحذر : اتخذناه حلسا . والحلس بالكسر كساء . على ظهر البعير تحت البرذعة

ويسقط في البيت . (٣) ص ٤٩ (٤) ص ٥١ (٥) انظر الصفحات ٩٣ — ١٠٢

من كتاب (الموازنة بين الشعراء) .

ألا تراه مقبلا على شعره (لعل الصواب شأنه) ثم التفت الى البشام فدعاه ؟

وقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقني ^(١) لازلت في علل وأيك ^(٢) ناضر

وفي باب الرجوع يمثل بقول القائل : ليس معك من العقل شيء ، بلى بمقدار ما يوجب
الحجة عليك . وقول الشاعر :

أليس قليلا نظرة ان نظرتها اليك ؟ وكلا ليس منك قليل ^(٣)

وفي تجاهل العارف يتحفنا بهذه القطعة النفيسة من ثره هو — طيب الله ثراه — إذ يقول
« سمعت بورود كتابك ، فاستفزني الفرح قبل رؤيته ، وهز عطفى المرح أمام مشاهدته ،
فما أدري أسمعت بورود كتاب ، أم ظفرت برجوع شباب ، ولم أدر ما رأيت : أخط مسطور ،
أم روض مطور ؟ وكلام منشور ، أم وشى منشور ؟ ولم أدر ما أبصرت في أثنائه : أبيات
شعر ، أم عقود در ؟ ولم أدر ما حملته : أغيث حل بوادي ظمآن ، أم غوث سيق الى لفان ^(٤) »
وقد يلاحظ أن أبا هلال يغالى أحيانا في نقده ، فيؤاخذ مثلا أوس بن حجر في قوله :

ولست بخابئ أبدا طعاما حذار غد ، لكل غد طعام

لما تكر فيه من لفظ غد ^(٥) .

ونحن لا نطالب أبا هلال بأن يصيب في كل أحكامه ، فذلك مطلب عسير ، وإنما يكفي
آن نقول إن كتابه يضع القارئ في حركة فكرية متصلة . وأنا شخصيا مدين له ، فقد قرأته أكثر
من عشرين مرة ، وأشعر كلما عدت اليه بأنه كتاب جديد يُقرأ لأول مرة ، وذلك أقصى
ما يطلب من الكتاب النفيس .

(١) اللال ، بالتحريك ، الشرب بعد الشرب تباعا . (٢) ص ٣١٠ (٣) ص ٣١٣

(٤) ص ٣١٤ (٥) ص ٤١

١٠ - أبو على الحاتمي

١ - أبو على محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي من الشخصيات القوية التي غابت أخبارها عن الناس فلم يعرفها منهم إلا القليل : وسبب ذلك يرجع إلى أن جمهورنا لا يعرف من أعيان الشعر والنثر والنقد إلا من وصلت إليه من آثارهم صُبَابَات كافية تميّط اللثام عن بعض الجوانب من أدبهم المجهول . ونحن من بين الأئمة لا نعرف من أدبنا القديم إلا قليلا ، لأن نهضتنا الحديثة تشبه يقظة المخمور الذي ينظر حواليه فتترأى له صور وأشباح لا يميزها إلا بجهد شديد . من أجل ذلك قل عندنا من صحت عزيمته على النظر إلى أدب العرب بمثل ما ينظر الأوروبيون إلى أدب اليونان والرومان . وسيرى القارئ في هذا الفصل بوارق من ذهن الحاتمي تشعره بأن من المخجل أن ينسى مثل هذا الرجل في عصر يزعم ناشئوه أنهم طلاب مجد وأنهم حريصون على وصل ما انقطع من تراثهم الفكري المحيّد .

٢ - ألف أبو على الحاتمي عدّة كتب في اللغة والأدب والنقد، منها حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، والموضح في مساوى المتنبي ، والهلابة في صناعة الشعر ، وسر الصناعة في الشعر أيضا ، والحالى والعاطل في الشعر كذلك ، وكتاب المجاز في الشعر أيضا ^(١) . وهذا الإلحاح في الكتابة عن الشعر يدل على أنه كان من المولعين بدرس الشعر ونقده وأنه كان من أئمة زمانه في هذا الباب . وقد ضاعت كتبه النقدية مع الأسف المروع ، ولم يبق منها إلا شواهد ضئيلة تذكى الحسرة في أنفس من يقدرّون قيمة النقد الحق في دلالاته على ثقابة الذهن ، ومثانة العقل ، وسلامة الذوق ، وإفصاحه عن تطور الحياة العقلية في مختلف الأجيال .

ولنسارع فنقدم للقارئ كلمة حفظت في "زهر الآداب" تمثل فهم الحاتمي لوحدة

القصيد إذ يقول :

”مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فتي انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تفقون محاسنه ، وتعفى معالمة . وقد وجدت حذاق المتقدمين ، وأرباب الصناعة من المحدثين ، يحترسون في مثل هذه الحال احتراسا يجنبهم شوائب نقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان ، حتى يقع الانصال ، ويؤمن الانفصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها ، كالرسالة البليغة والخطبة الموحزة لا ينفصل جزء منها عن جزء . وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ، ولطف أفكارهم ، واعتمادهم البديع وأفانينه في أشعارهم ، وكأنه مذهب سهلوا حزنه ، ونهجوا دارسه . فاما الفحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والاسلاميين فذهبهم التعامل عن كذا الى كذا ، وقصارى كل أحد منهم وصف ناقته بالعتق والنجابة والنجاء ، وأنه امتطاه فأدّرع عليها جلباب الليل . وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به الى غرض لم يعتمده ، إلا أن طبعه السليم ، وصراطه في الشعر المستقيم ، نضا بتاره ، وأوقد بالبقاع ناره . فن أحسن تخلص شاعر الى معتمده قول النابغة الذبياني :

فكفكت غنى عبرة فرددتها	على النحر منها مستهلّ وداع
على حين عاتبت المشيب على الصبا	وقلت ألما أصح والشيب وازع
وقد حال هم دون ذلك شاغل	مكان الشغاف تبغيه الأصابع
وعيد أبي قابوس في غير كنهه	أتاني ودوني راكس فالضواجع

وهذا كلام متناسب تقتضى أوائله وأواخره ، ولا يتميز منه شيء عن شيء . ولو توصل الى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعاني ، وفتحوا أبواب البديع ، واجتنبوا ثمر الآداب ، وفتحوا زهر الكلام ، لكان معجزا عجبا ، فكيف يجاهل بدوى إنما يغترف من قليب قلبه ، ويستمدّ عفوهاجسه^(١) .

أليس في هذه الفقرات دليل على أن الحاتمي كان بعيد الغور في نقد الشعر؟ ألا تسمو نظراته هذه الى أدق ما وصل اليه النقاد في العصر الحديث؟ وأي تمثيل أصدق من تمثيل القصيدة بالإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض؟ يضاف الى ذلك جرأته في رمي الجاهلين ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين بقلة الفهم لأسرار الصناعة، وقصر ذلك على المحدثين الذين توقدت خواطرهم ولطفت أفكارهم واعتمدوا أفانين البديع . وإنما عددنا ذلك جرأة لأن الرأي الغالب في تلك الأيام كان يميل الى تفضيل القدماء واختصاصهم بالإمامة في الشعر ورمي من عداهم بالتخلف والإسفاف . على أن الحاتمي لم يفته أن يقزر أن البدوي الجاهل قد يغترف من قلب قلبه ويستمد عفواً جسه فيأتي بالمعجز الذي يعز أحياناً على العارفين بأسرار البيان .

٣ - ولكن هذه البراعة التي يمثلها ما بقي للحاتمي من الشذرات القليلة لم ترتفع به كثيراً في الأوساط الأدبية لعصره ولم يتحدث عنه من معاصريه إلا القليل . فما تعليل ذلك؟ إننا نفترض أن نحول الحاتمي يرجع الى انصراف الناس عنه لصلفه وكبريائه وذهابه بنفسه الى أبعد غايات الزهو والخيلاء ، وقد حدثنا ياقوت أنه كان مبغضاً الى أهل العلم فهجاه ابن الجحاح وغيره بأهـاج مرة . ولم يكن لهذا البغض من سبب فيما نفترض غير إسراف الحاتمي في العجب ودعواه التفرد بالحدق واللوزعية والذكاء . والحدقة من أخطر ما يُرزا به العلماء والأدباء وهي تجلب الى أصحابها من ألوان العداوة والبغضاء ما يذهب بما لهم من وطيد المجد وكريم الصيت . وقد يتفق لأهل العلم والأدب أن يُشغلوا بالإعلان عن مواهبهم وكفاياتهم فيكون ذلك أسرع الى هدمهم وتهوين أقدارهم في أنفس الناس . وكيف لا يضيق الجمهور صدراً بحذقة الحاتمي وهو يقول عن نفسه في مقدمة كتاب وضعه في سر صناعة الشعر :

«وقد خدمت سيف الدولة - تجاوز الله عن فرطاته ! - وأنا ابن تسع عشرة سنة تميل بي سنة الصبا وتتقاد بي أريحية الشباب بهذا العلم ، وكان كلفاً به علقاً المغمرم

بأهله ، متقبا عن أسراره . وُوزِنَتْ في مجلسه تكربة وإدناء وتسوية في الرتبة — ولم تسفر خدای عن عذاریهما — بأبي علي الفارسی وهو فارس العربية وحائز قصب السبق فيها منذ أربعين سنة ، وبأبي عبد الله بن خالويه وكان له السهم الفائز في علوم العربية تصرفا في أنواعه ، وتوسعا في معرفة قواعده وأوضاعه ، وبأبي الطيب اللغوي وكان كما قيل حنف الكلمة الشroud حفظا وتيقظا ، ونازعت العلماء ومُدحت في مصنفاتهم ، وعُدت في الأفراد الذين منهم أبو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرمانی وأبو سعيد المعلى ، واتخذت بعضا ممن كان يقع الايماء عليه سخرة ، وأنا إذ ذاك غزير الغرارة ، تيمد بي أسرار السرور ، ويسرى على رخاء الاقبال ، وأختال في ملاة العز في بلهنية من العيش وخفض من النعيم ، وخطوب الدهر راقدة وأيامه مساعدة » .

فعلام يدل هذا الكلام ؟ ألا يدل على أن الحاتمي كان مفتونا بنفسه أشد الفتنة ، ومسرفا في الزهو أشنع الاسراف ؟ وقد نفهم أن يدافع الرجل عن نفسه فيذكر من مناقبه ومحامده ما يشاء حين يرى الجمهور يحمد فضله ، ويطمس محاسنه ، ولكنا نعرف كذلك أن هذا لا يقع إلا من المشغوفين بالشهرة والصيت : لأنهم يتوهمون دائما أنهم مغبونون ، وأن الجمهور لفضلهم كنود .

٤ — وقد أصطدم كبرياء الحاتمي بكبرياء المتنبي ، وكانا متعاصرين يضمرا كلاهما لصاحبه أقم ألوان البغضاء . والشاعر والناقد حين يختصمان يصلان الى أبشع صور التحامل والعدوان ، ولا سيما اذا أصطبغت الخصومة بصبغة سياسية ظاهرها التعصب للأدب وباطنها التحزب الشنيع . وهذا هو الذي وقع في خصومة الحاتمي للتنبي : فقد كان الحاتمي صديقا أو تبعا للوزير المهلبی ، وكان المهلبی يبغض المتنبي بغضا شديدا لترفعه عن مدحه واتصاله بأنداده من الوزراء والرؤساء ، وكذلك تربص الحاتمي وانتظر قدوم المتنبي الى بغداد لينظره ويؤلب العامة عليه ويذهدهم في شعره ، فتم له من ذلك بعض ما أراد .

٥ - ترك الحاتمي رسالتين في نقد المتنبي : أولاهما خلاصة ما جرى في المجلس الذي تلاقيا فيه لأول مرة، وهي رسالة مفرضة بالطبع، لأنه تكلم وحده وقصّ ظروف المناظرة على هواه. ولكن ذلك لا يمنع من أن نصدق الحاتمي حين يذكر أنه ضايق المتنبي، لأننا نعرف أن كل ناقد أقوى من كل شاعر، لأن كل معول يؤثر في كل بناء، والناقد يستطيع كل شيء متى أستباح لنفسه الظلم واختلاق العيوب. والمتنبي كان رجلا واسع الشهرة، والمشاهير في الغالب جبنا: يتوهم أكثرهم أن سوء القالة يذهب بأجمل الأعمال، ويأتي على أرفع الأقدار. وبعض هذا الوهم صواب.

ولترك الحاتمي يتحدث قليلا لئلا نرى خيلاءه وقد قارع المتنبي :

« كان أبو الطيب المتنبي عند وروده مدينة السلام التحف رداء الكبر، وأذال ذيول التيه، وصعّر خده، ونأى بجانبه، وكان لا يليق أحدا إلا نافضا مذكرويه، رافلا في التيه في برديه، يتخيل إليه أن العلم مقصور عليه، وأن الشعر بحر لم يغترف نيم مائه غيره، وروض لم يرع نواره سواه، فدل بذلك مديدة... حتى تخيل أنه القريع الذي لا يقارع، والتزع الذي لا يجارى ولا ينازع، وأنه رب الغلب، ومالك القصب، وثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام فطأ كثيرا كثير منهم رأسه، وخفض جناحه، وطمأن على التسليم له جأشه، تخيل أبو محمد المهلب أن أحدا لا يقدر على مساجلته ومجاراته ولا يقوم لتبعية بشيء من مطاعنه. وساء معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوه رجل فلا يكون في مملكته أحد يماثله في صناعته ويساويه في منزلته، نهدت حينئذ متبعا عواره، ومتعقبا آذاره، ومطفيا ناره، ومهتكا أسرارته، ومقلما أظفاره، وناشرا لمطاويه، وممزقا جلباب مساويه... الخ ».

والرسالة تقع في أربع عشرة صفحة كلها مقارعة ونضال، وهي تمثل طريقة الحاتمي في الكتابة ومذهبه في النقد، وفيها فقرات قوية، كقوله يحجب المتنبي وقد سألته عن خبره

(١) المذروان بالكسر أطراف الألية، بلا واحد، أو هو المذرى، ومن الرأس ناحيته، ومن القوس ما يقع عليها طرف الور من أعلى وأسفل. وجاء ينفذ مذكرويه باغيا متهددا (قاموس).

(٢) ياقوت ج ٦ ص ٥٦٥ وقد وردت القصة أيضا في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٢ باختلاف قليل.

في تناقل وفتور : ”أنا بخير ، لولا ما جنيت على نفسي من قصدك ، وكلفت قدمي في المسير الى مثلك“ ونقدات الحاتمي في هذا المجلس لا تخرج عن أخذ المتنبي بالسراقات الشعرية وسوء التعبير في طائفة من الأبيات اشتهر أمرها بين الناقدين . وقد ختمت هذه الرسالة بفقرات تفصح عن سرور المهلبى ومعز الدولة بهزيمة المتنبي ؛ وهى كذلك دليل ما وصفنا به الحاتمي من الإسراف في التيه والخيلاء .

٦ — أما الرسالة الثانية فهى أعظم أثر وصلنا عن الحاتمي ، وهى رسالة ردّ فيها حكم المتنبي الى أصولها من كلام أرسططاليس ، وقد وضع لها مقدّمة صغيرة أراد أن يشعرنا بها أنه في نقده عف نزيه إذ حدّثنا أنه يدافع عن المتنبي ”حين أتهم بسرقة ما في شعره من أغراض فلسفية ومعان منطقية“ لأن ذلك إن كان وقع من المتنبي ”عن فحص ونظر وبحث فقد أغرق في درس العلوم ، وإن يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة بالإيجاز والبلاغة“ وهو في الحالين على غاية من الفضل ، ونهاية من النبل .

وقد رأيت بعد الاطلاع على هذه (الرسالة الحاتمية) أن صاحبنا نال من المتنبي باللفظ ما لم ينله بالعنف ، فقد أخذ يسرد كلمات أرسططاليس ثم يعقبها بشعر المتنبي ، فاستطاع بذلك أن يفصح المتنبي فضيحة شنعاء . وفى الحق أن هذا العمل كان غاية فى اللؤم من جانب الحاتمي ، لأن حكم المتنبي تبدو فطرية لأقول وهلة ، وذلك سر سحرها فى أنفس القراء ، ولكنها تبدو متكلفة مصنوعة حين تُقرن الى ما نقلت عنه من كلام أرسططاليس ، وذلك سهم من النقد مسموم .

ومن أمثلة ذلك أن يقول المتنبي :

فان قليل الحب بالعقل صالح وإن كثير الحب بالجهل فاسدٌ

وهو بيت مقبول ، ولكنه أقل قيمة من الحكمة التى أخذ عنها فى قول أرسططاليس ”يسير من ضياء الحس خير من كثير من حفظ الحكمة“ .

وقول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل
يبدو للقارئ متنافر المعنى بعض الشيء، ثم يوضح تنافره حين يُنظر الى أصله في قول
أرسططاليس " روم تقل الطباع من ردئ الأَطْمَاع شديد الامتناع"^(١) .

وقول المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراجلون هم
أقل عمقا من قول أرسططاليس :
" من لم يردك لنفسه فهو النائي عنك وإن كنت قريبا منه ، ومن يردك لنفسك فأنت
قريب منه وإن تباعدت عنه"^(٢) .

وقول المتنبي :

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل
أقل وضوحا من قول أرسططاليس :
"وقد يفسد العضو لصلاح أعضائه كالكي والفصد للذين يفسدان الأعضاء لصلاح غيرها"^(٣)
وقول المتنبي :

وما التيه طبي فيهمو غير أنني بغيض الى الجاهل المتعافل
أقل تعليلاً من قول أرسططاليس :
"إن الحكيم تريه الحكمة أن فوق علمه علما فهو يتواضع لتلك الزيادة، والجاهل يظن أنه
قد تناهى فيسقط بجهله فتمقته النفوس"^(٤) .

وقول المتنبي :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر
منقول من قول أرسططاليس :
" من أفنى مدته في جمع المال خوف العدم فقد أسلم نفسه للعدم"^(٥) .

والرسالة الحاتمية تقع في خمس عشرة صفحة نقد بها مؤلفها نحو عشرين ومائة بيت من شعر المتنبي، وهي كما أشرنا طعنة نجلاء يهون يجانبها كل ما لقي المتنبي من خصومه المسرفين .
٧ - ولكن لا يتوهم القارئ أن الحاتمي أصاب في كل ما رمى به المتنبي من سرقة معاني أرسططاليس، فقد يتفق الرجال أحيانا في المعنى وينفرد المتنبي بجمال الصورة .

فقول المتنبي :

إذا اعتاد الفتي خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحولُ
أروع بلا جدال من قول أرسططاليس :
”من استمرت عليه الحوادث لم يالم بحولها“^(١) .

وقول المتنبي :

إنهم ولّد فلأُمور أواخر أبدا كما كانت لهن أوائلُ
معنى عادي : فلا قيمة للادعاء بأنه مسروق من قول أرسططاليس :
”كل ما له أول تدعو الضرورة إلى أن له آخر“^(٢) .

وقول المتنبي :

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه
أفعل في النفس من قول أرسططاليس :
”كره ما لا بد من كونه عجز في صحة العقل“^(٣) .

٨ - ولنا أن نأخذ على الحاتمي وقوفه عند أرسططاليس، كأن المتنبي لم يعرف فيلسوفا سواه، وهذا يشعر بأن أرسططاليس كان معروفا جدا عند العرب لذلك العهد ، حتى استطاع الحاتمي أن يرجع إليه طائفة كبيرة من حكم المتنبي، ويشعر كذلك بأن الشعراء كانوا يتصرفون فيما يقرءون تصرف الخبرة والعقل ، فقد نظر المتنبي إلى قول أرسططاليس : ”ليس جمال الإنسان بنافع له إذا كان ميت الحس من العلم“ .

ثم أداره في نفسه وما زال به حتى أغرقه في لجة من الشعر حين قال :

لا يعجبني مَضِيًّا حسن بزمته وهل يروق دفينًا جودة الكفن

٩ - ولنا أن نلاحظ أن الرسالة الثانية للحاتمي أوفر أدبا من رسالته الأولى عن المتنبي، وقد يكون السبب في ذلك أنها كتبت بعد موت الشاعر: بدليل قوله في أول المراجعة "قال المتنبي رحمه الله !".

ولنا أن نلاحظ كذلك أن الحاتمي كتب رسالته الثانية وقد اكتهل وغلب عليه الوقار وفارقه التزق الذي ساد في رسالته الأولى، وحسبنا أن نقرأ قوله في مقدمة الرسالة الثانية :

"أما بعد فإن أحق ما أحتكت إليه نفوس أولى النظر، وانتقادت إليه آراء أهل الفكر، وجلت الشبه عنه نواظر المتصفحين، وأمضت به عزائمها قلوب المعبرين : العدل، فانه سنخ العقل، وحليف النهى، وصنو الفهم، وعدو الهوى".^(١)

١٠ - هذا وكان الحاتمي متين الشعر، كما كان رصين النثر، وهو الذي يقول :

لى حبيب لو قيل لى ما تمنى ما تعديته ولو بالمنون
أشتهى أن أحلّ فى كل جسم فأراه بلحظ تلك العيون

وهو القائل فى قصر الليل :

يارب ليل سرور خلته قصرا كعارض البرق فى أفق الدجى برقاً
قد كاد يعثر أولاه بآخره وكاد يسبق منه بخره الشفقا

وهو القائل فى وصف الثريا :

وليل أقنأ فيه نعمل كأسنا إلى أن بدا للصبح فى الليل عسكراً
ونجم الثريا فى السماء كأنه على حلة زرقاء جيب مدّر

ومات رحمه الله سنة ٣٨٨ وكان أبوه كذلك شاعرا أثبت له صاحب اليتيمه عدة مقطوعات فليرجع اليها القارئ هناك.^(٢)

١١ - أبو عبد الله المرزبانى

١ - المرزبانى هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد . وأصله من خراسان — كما ذكر ابن النديم^(١) — وهو من بيت رياسة ومجد : فقد كان أبوه نائب صاحب خراسان بالبواب ببغداد . وقد نسب الى بعض أجداده وكان اسمه المرزبان . وهو اسم لا يطلق عند العجم إلا على الرجل المقتدر : العظيم القدر . ومعناه بالعربية حافظ الحد^(٢) .

ولد فى بغداد سنة ٢٩٧ وتوفى سنة ٣٨٤ وقيل سنة ٣٧٨

وليس لدينا من أخبار المرزبانى إلا تُتف يسيرة، وأظهر أخباره أنه كان رجلا غنيا كريما يُفَضِّل على أساتذته وتلاميذه، وكانت داره مأوى لأهل العلم والأدب يبيتون فيها على الرحب والسعة حين يشاءون . ولم يكن يؤخذ عليه من الهفوات إلا إدمان الشراب . وكان من عادته فى ذلك أن يضع بين يديه زجاجة خمر فلا يزال يشرب ويكتب وهو مقسم الفكر والاحساس بين الواقع والخيال . وقد شعر رحمه الله بخاطر ذلك على عقله وصحته وظهر أثر تملله حين سأله عضد الدولة مرة عن حاله فقد أجاب « كيف حال من هو بين قارورتين؟! » يعنى قارورة الخمر وقارورة الخمر .

٢ - وكان فى حياته العقلية يؤثر مذهب المعتزلة : فقد صنف فى أخبارهم كتابا كبيرا . وكان المعتزلة فى تلك الأيام يقودون الحركة الفكرية والأدبية فى الأقطار الاسلامية . وقد أخذ عليه سامحه الله شئ من التسامح فى رواية الحديث .

وكان فى جملة حاله معروفا بصدق اللهجة وسعة المعرفة وكثرة السماع . وكان معاصروه يرونه من محاسن الدنيا، ومنهم من يقدمه على الجاحظ . ولعل ذلك هو السبب فى تحامل بعض المغرضين عليه كأبى حيان التوحيدى الذى كان يقارنه بابن شاذان وابن الخلال ، ممن كان

(١) الفهرست ص ١٩٠ طبع القاهرة . (٢) ابن خلكان ص ٣٢٧ ج ٢

لهم جمع ورواية وليس لهم فيما جمعه تقط ولا إجماع ولا إسراج ولا إجماع^(١). ولوقبت كتب المرزباني كلها أوجها لاستطعننا أن نزن ما كان له من فكر وعقل وأسلوب، ولكن أكثرها ضاع ولم يبق منها إلا التزر القليل. غير أننا نجد ابن النديم مفتونا به أشد الفتون. وابن النديم حجة في تقدير المصنفين والكتّاب والأخباريين، وقد حدثنا أنه رأى كتاب المرزباني عن الشعراء المشهورين والمكثرين من شعراء المحدثين. وقد أثبت في هذا الكتاب مختار أشعارهم وبين أنسابهم وأزمانهم. وأف له كتابا آخر اسمه «المفيد» يشتمل الفصل الأول منه على أخبار المقلين من شعراء الجاهلية والاسلام وأخبار من غلبت عليه كنية منهم أو شهر بكنية ابنه أو عرف بأمه أو نسب إلى جده أو عزى إلى مواليه وما جانس هذه الأحوال. ويشتمل الفصل الثاني على ما روى من نعوت الشعراء وعبوبهم في أجسامهم وصورهم كالسودان، والعور، والعميان والعمش والبرصان، وسائر ما يؤثر في الجسد من شعر الرأس إلى القدمين عضو عضوا. ويشتمل الفصل الثالث على مذاهب الشعراء في دياناتهم كالشيعة وأهل الكلام والخوارج والمتهمين واليهود والنصارى ومن جرى مجراهم. ويشتمل الفصل الأخير على من ترك قول الشعر في الجاهلية تكبرا وفي الاسلام تدينا، ومن ترك المديح ترعفا، والهجاء تكرا، والغزل تعففا، ومن أنفذ شعره في معنى واحد كالسيد بن محمد الحميري والعباس ابن الأحنف ومن جرى مجراهما. وله كتاب آخر اسمه «الرياض» ذكر فيه أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وفيه ذكر الحب وما يتشعب عنه وذكر ابتدائه وانهائه وما ذكر أهل اللغة من أسمائه وأجناسه واشتقاق تلك الأسماء بشواهد من أشعار الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين.

٣ — وليس المهم أن نلخص وصف ابن النديم لمؤلفات المرزباني ففى مقدور القارئ أن يرجع اليه في الفهرست^(٢)، ولكن يهمنا أن نشير إلى أن مجموعة مؤلفات المرزباني تدور حول نقطة واحدة هي تنظيم الثقافة الأدبية.

فقد عُني الرجل بأن يجمع أخبار الشعراء ويرتبها ترتيباً قد يعجز عنه أدباء اليوم فيضع للجاهليين كتاباً، وللحديثين كتاباً، وعُني كذلك بأن يضع مؤلفات مستقلة في أكثر الشؤون الأدبية ككتابه عما وصف به العرب الصيف والشتاء والحر والبرد والغيوم والبرق والرياح والأمطار والرواء والاستسقاء وما دخل في حملتها من أوصاف الربيع والخريف. وكتبه عن الزهد والزهاد والحجبة والحجاب والعدل والسيرة وأخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من مدح وذم، وكتابه عن الأنوار والثمار الذي ساق فيه طرفاً مما قيل في الورد والنجس وجميع الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار. وكتابه في نسخ العهود إلى القضاة وكتابه عن أشعار النساء، الخ.

ومن المدهش أنه ألف كتاباً في أخبار الشعراء سماه "المعجم" تحدث فيه عن نحو خمسة آلاف شاعر وأثبت فيه أبياتاً لكل من تحدث عنهم من الشعراء. فمن الذي يعرف اليوم هذا المقدار من أسماء الشعراء مع أننا اجتزنا من تاريخ الأدب نحو خمسة عشر قرناً وكان المرزباني لم يجتز منه غير خمسة قرون؟

ومما يوضح ما أشرنا إليه من عناية ذلك الرجل بتنظيم الثقافة الأدبية أنه كان ألف كتاباً سماه "تلقيح العقول" في أكثر من مائة باب جمع فيه كل ما يهم المتأدين الاطلاع عليه مما قيل عن العلم والعقل والأدب وما جانس ذلك^(١).

٤ — ولم يطبع من مؤلفات المرزباني — فيما علمنا — غير كتاب الموشح الذي نشرته جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ وهو كتاب جيد حدثنا المؤلف في مقدمته أنه اهتم بذكر ما أنكر على الشعراء في أشعارهم من العيوب التي سبيل أهل عصره ومن بعدهم أن يجتنبوها ويعدلوا عنها. وأنه أودع كتابه ما سهل وجوده وقرب متناوله من ذكر عيوب الشعراء التي نبه عليها أهل العلم وأوضخوا الغلط فيها من اللحن والسناد والإيطاء والإقواء والإكفاء والتضمين والكسر والإحالة والتناقض واختلاف اللفظ وهلهلة النسخ وغير ذلك من سائر ما عيب على الشعراء قديهم ومحدثهم في أشعارهم خاصة، سوى عيوبهم في أنفسهم وأجسامهم

وأخلاقهم وطبائعهم وأنسابهم ودياناتهم، وغير هذه الخصال من معانيهم التي استقصاها في كتابه الملقب "بالمفيد"، وسوى سرقات معاني الشعر التي أتى بكثير منها في كتابه الذي تحدث فيه عن فضائل الشعر ووصف محاسنه ومنافعه ومضاره وأوزانه وعيوبه ونعت أجناسه وضروبه وعروضه وأعيانه ومختاره وتأديب قائله ومنشديه والبيان عن منحوه ومسروقه، وما يتصل بذلك من مختلف الأغراض^(١).

٥ - وقد راجعنا كتاب الموشح عدّة مرات فلم نظفر للؤلؤ بما يميزه عن غيره من مصنفى الروايات والأخبار. وإن كنا نعترف بأن الرجل أجاد الجمع والتصنيف وقدم للقارئ معارض مختلفة مما أخذ على الشعراء. وأكثر ما أثبتته لا نجدّه اليوم في غير كتابه. وإن كنا نعثر على أصوله مبعثرة هنا وهناك. فأنت حين تطلع على كتاب الموشح ترى مواده معروفة لك مستأنسة إليك بطول ما صادفتها في شتى المطالعات. ولكنك لو أردت أن تظفر بجموعة ما قاله النقاد القدماء عن الأخطل أو جرير مثلاً لما استطعت أن تجدّها منظمة على نحو ما تجدّها في هذا الكتاب. على أن المؤلف كثيراً ما تظهر شخصيته فيعرف رأيه ومذهبه في النقد كقوله مثلاً في نقد قول الطائي :

وقد سدّ مندوحة القاصعا ء منهم وأمسك بالناقصاء

"ولم نعب من هذه الألفاظ شيئاً غير أنها من الغريب المصدود عنه. وليس يحسن من المحدثين استعمالها : لأنها لا تجاور بألفاظها ولا تتبع أشكالها. فكأنها تشكو الغربة في كلامهم"^(٢).

ومعنى هذا أن الغريب الوحشي قد يحسن استعماله إذا أطرّد في كلام متأبد غريب. أما في الكلام السلس فاستعماله غير مقبول. وهو يوافق بعض الموافقة ما يراه الجاحظ من أن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوق رطانة السوق. والتفاهم عند المرزباني والجاحظ هو الأساس في اختيار الألفاظ، إذ كان الناس لا يقبلون الألفاظ أو يرفضونها إلا موصولة بما يألون.

٦ - ولا يخلو المرزباني - على فضله - من تحامل : فقد رأيتُه يغض من قيمة مختارات أبي تمام إذ يقول :

”وللطائي سرقات كثيرة أحسن في بعضها وأخطأ في بعضها . ولما نظرت في الكتاب الذي ألفه في اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر احسان الشعراء . وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره وجعل بعضه عدّة يرجع إليها في وقت حاجته ورجاء أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ويقنعوا باختياره لم فتغبي عليهم سرقاته . ولا يعذر الشاعر في سرقاته حتى يزيد في إضاعة المعنى ، أو يأتي بأجل من الكلام الأول ، أو ينسج له بذلك معنى يفصح به ما يتقدمه ولا يفترض به ، وينظر إلى ما قصده نظر مستغن عنه لافقير إليه“.

ففي هذه الفقرة تجنّ شديد على أبي تمام وإزراء بإحسانه في تأليف مختاراته . وما أحسب الخاطر الذي مر ببال المرزباني مر ببال ناقد شريف القصد . فهو يرى أن أبا تمام قصر اختياره على الأشعار التي لم يسرق منها ، وأنه طوى الأشعار التي يرجو أن يغير عليها . وأنه أراد أن يصرف المتأدين بمختاراته عن الرجوع إلى الأصول التي سرق منها ما استُجيد من شعره ...

ولا أدري كيف يصح هذا من المرزباني إلا أن أرجح أنه كان من خصوم أبي تمام . وقد كان أبو تمام ابتلى في حياته وبعد مماته بمعارضة شديدة كادت تقتلع مجده من جذوره وترمي به في هاوية العفاء . وسبب ذلك أن أبا تمام ظفر بشهرة قوية أنحلت مئات الشعراء . والشهرة القوية تخلق الخصوم خلقاً وترمي صاحبها بعداوات مسمومة لم يجترح في خلقها إثمًا ولا جناية ، حتى صم للرزباني على نزاهته أن يتهمه بسوء النية في تأليف المختارات مع أن في الحماسة بابين لم نجد لهما مثيلاً في مجموعة أدبية وهما باب المراثي و باب النسيب .

٧ - ويغلب على المرزباني أن يسوق المأخذ بدون أن يتعقبها بنقد أو تمحيص ، وأحياناً يضيف إليها كلمة صغيرة تعين رأيه . من ذلك أنه نقل الكلمة الآتية بسندها عن بعض معاصريه :

”دخلت على أبي تمام الطائي وقد عمل شعرا لم أسمع أحسن منه وفي الأبيات بيت واحد ليس كسائرهما . فعلم أنى قد وقفت على البيت فقلت : لو أسقطت هذا البيت ! فضحك وقال : أترك أعلم بهذا منى ؟ إنما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة كلهم أديب جميل متقدم ومنهم واحد قبيح متخلف فهو يعرف أمره ويرى مكانه ولا يشتمى أن يموت . ولهذا العلة ما وقع مثل هذا في أشعار الناس^(١)“ .

ونقل بعد ذلك هذه الكلمة . ”قال مثنى الشاعر : قلت لأبي تمام تقول الشعر الجيد ثم تقول البيت الرديء ! فقال : مثل هذا مثل رجل له عشرة بنين منهم واحد أعمى فلا يحب أن يموت“ وفي التعقيب على هاتين الفقرتين يكتبني المرزباني بأن يقول . ”وهذه حجة ضعيفة جدا“^(١) .

وأحيانا قليلة يبسط القول بعض الشيء في النقد والمقابلة كما فعل في نقد قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجل
بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فقد بين أن أفضل منه قول الطرماح بن حكيم :

بلى إن للعينين في الصبح راحة
لطحهما طرفيهما كل مطرح

ثم قال ”فأحسن في قوله وأجل وأتى بحق لا يدفع ، وبين عن الفرق بين ليله ونهاره ، وإنما أجمع الشعراء على ذلك — أى حضور الهم بالليل وذهابه بالنهار — من تضاعف بلائهم بالليل وشدة كلفهم لقلة المساعد وفقد المحيب وتقييد اللحظة عن أقصى مرامي النظر الذى لا بد أن يؤدى الى القلب بتأمله سببا يخفف عنه أو يغلب عليه فينسى ما سواه“^(٢) .
وللرزباني ملاحظات صغيرة متفرقة قد لا يتنبه إليها القارئ المتصفح ويستجدها المتأمل كقوله في التعقيب على قول أبي العتاهية :

حلاوة عيشك ممزوجة
فما تأكل الشهد إلا بسم

فالمعنى صحيح لأن الشاعر جعله مثلاً لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها . ولكن يلاحظ
المرزباني أن العبارة غير مرضية : لأننا لم نر أحداً أكل شهداً بسم . وأجود من هذا البيت
لفظاً وأصح معنى قول ابن الرومي :

وهل خلة معسولة الطعم تجتنى من البيض إلا حيث وائش يكيدها
مع الواصل الواشي وهل تجتنى يد جنى النحل إلا حيث نحل يذودها^(١)

وتلك ملاحظه دقيقة وهي تذكر بما نقله عن أحد معاصريه وقد سأل أبا تمام : أخبرني
عن قولك :

كأن بني نهران يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر
أردت أن تصف حسن حالهم بعده أو سوء حالهم ؟ فأجاب أبو تمام : لا والله إلا سوء
حالهم لأن قمرهم قد ذهب . فقال المعترض : والله ما تكون الكواكب أحسن ما تكون إلا إذا
لم يكن معها قمر^(٢) .

٨ — وقد اشار المرزباني في غير موضع الى وحدة البيت فقد تحدث عما أخذ على
امرئ القيس في قوله يصف الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكل كل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فانه لم يشرح ما أراد بالبيت الأول إلا في البيت الثاني . وهذا عيب عند العرب لأن
خير الشعر ما لم يحتج البيت منه الى بيت آخر . وخير الأبيات ما استغنى بعض أجزائه ببعض
الى وصول القافية كقول الشاعر :

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيقية الرجل

فان قوله (الله أنجح ما طلبت به) كلام مستغن بنفسه وكذلك باقي البيت . على أن في هذا
البيت واو عطف عطفت جملة على جملة وما ليس فيه واو عطف أبلغ . وأجود من هذا
قول النابغة الذبياني في اعتذاره الى النعمان :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث، أى الرجال المهذب

فكلامه فى أول البيت مستغن بنفسه وكذلك آخره حتى لو ابتدأ مبتدئ فقال (أى الرجال المهذب) لاعتذار أو غيره لأتى بكلام مستوف لا يحتاج الى سواء^(١).

وقد أشار الجاحظ فى بعض كتبه الى هذه المسئلة . ومن الخير أن ننبه القارئ الى أن وحدة البيت لا تنافى وحدة القصيدة، وإن ظن ناس غير ذلك، فإن الوحدة فى البيت يراد بها اتساق النغم والألحان بحيث يصح الوقف فى نهاية كل بيت، ولهذا قيمة فى الرنة الموسيقية التى يحرص عليها شعراء العرب أشد الحرص . أما وحدة القصيدة فيراد بها وحدة الغرض، وذلك أن يقدر الشاعر لنفسه صورة شعرية يرسمها رويدا رويدا فى نظام وانسجام الى أن يتمها بتمام القصيدة .

ولأجل أن نبين للقارئ أن وحدة البيت ضرورية جدا لحفظ الموسيقى الشعرية ننقل له قطعة لابى العتاهية خلت من وحدة البيت على نحو ما يخلو منها الشعر الفرنسى مثلا، ولنتأمل كيف يقول :

ياذا الذى فى الحب يلحى أما والله لو كلفت منه كما

كلفت من حب رخيما لمت على الحب فذرني وما

ألقى فاني لست أدري بما بليت إلا أننى بينما

أنا بباب القصر فى بعض ما أطوف فى قصرهم إذ رمى

قلبي غزالا بسهام فما أخطأ بها قلبي، ولكنما

سهماه عينان له كلما أراد قتلى بهما سلما

وهذا النوع من الشعر كان يسميه القدماء "المضمن" وهو عندهم من الشعر المعيب .

لأن خير الشعر فى حكمهم ما قام بنفسه وكفى بعضه دون بعض . ولا تزال نحن نتبع أسلافنا فيما اطمأنوا إليه من خصائص القوافى والأوزان لأن للإلف أثرا شديدا فى تكوين الذوق . والشعر من الفنون التى تتحكم فى قدرها الأذواق .

٩ - وفي الموشح عبارات نقديه تكاد تبلغ الغاية في دقة الوصف ولتأمل القارئ ما نقله المؤلف في تحديد الشعر الجيد عن محمد بن يزيد النحوي :

” أحسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبه . وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ونبه فيه بلفظه على ما يخفى على غيره وساقه برصف قوى واختصار قريب وعدل فيه عن الإفراط^(١)“.

وهذا كلام دقيق وإن كنا لا نوافق ابن يزيد في استهجانه قول بعضهم في النحافة :

فلو أن ما أبقيت منى معلق بعود ثمام ما تأود عودها

وقال الآخر يصف سرعة ناقته :

* ويمنعها من أن تطير زمامها *

لأن في الإزراء بمثل هذه الأخيلة إزراء بمواهب الذكاء . فهناك أخيلة شعرية تجافى الحقائق في كثير من الأحيان . ولكنها تظل مع ذلك مقبولة يهش لها الذوق لدلالاتها على ما وهب الشاعر من بارع الذكاء .

وقد استنكر النقاد قول المتنبي :

كفى يجسمى نحولا أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترى

وعدوه غلوا غير مقبول مع أننا قد نستطيع قول بعض المولدين :

عادنى ممرضى فلم ير منى فوق فرش السقام شيئا يراه

قال لى أين أنت قلت التمسنى فبكى حين لم تجدنى يده

ولسنا نستطيع هذا لصحة معناه وإنما نستطيعه للصورة التي قدمها الشاعر في وصف

آثار التحول .

١٠ - والمرزباني يهتم بتقيد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء وتظهر في ثنايا كلامه نزعة

الحقد على المشاهير وإن اجتهد في إخفاء ذلك وحاول أن يصبغ كلامه بصيغة البحث الصرف فقد حدثنا أن أهاجى البحرى للخلفاء والملوك أشبه بهجاء سفلة الناس ورعاعهم وأنها تجمع بين

مخافة اللفظ وهلهة النسج والبعد من الصواب ، وأنه قد هجانحوا من أربعين رئيسا ممن مدحهم منهم خليفتان : هما المنتصر والمستعين . وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من أعظم الكتاب والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وأن حاله في ذلك تنبئ عن سوء العهد وخيب الطوية ، وأنه نقل نحواً من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم عليها الى مدح غيرهم وأمات أسماء من مدحهم أولاً مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه .

ويقول المرزبانى فى التعقيب على هذه المثالب :

” ولم أذكر حاله فى ذلك على طريق التحامل مع اعتقاده فضله وتقديمه ولكنى أحببت أن أبين أمره لمن لعله انسترنه وحسبنا الله ونعم الوكيل ^(١) “ .

وظاهر هذه الكلمة نزيه . ولكنها تمثل شهوة خفية طالما التبس أمرها على الناقدين . على أن المرزبانى مشكور على أى حال : فمن أمثال هذه الهفوات تتكشف جوانب من النفس الانسانية . والناقد مسئول عن كشف ما يتعذر كشفه على الجمهور من أخلاق الشعراء والكتاب والباحثين .

ومن يدرى ! فلفل الناس يعيشون فى رذائلهم أضعاف ما يعيشون فى فضائلهم ، ولست أريد بهذا كنية الحياة ، وإنما أريد روحها وسرها ، فان النفس لا تجانب الجادة السوية إلا وهى نائرة . والنفس فى لحظات الثورة تحيا حيوات طويلة قوية يصغر بجانبها ما تقضيه فى هدوء ووقار من طوال السنين . ولو أن المرزبانى قدّر أنه قد يحىء من رجال الأخلاق من يعلل هفوات البحترى بمثل ما عللنا لرأى أنه ليس مما يشفى النفس أن يبين أمر البحترى لمن لعله انسترنه ! وما الذى كان يقع لو ظلت صفائر البحترى مستورة وظفر بلسان صدق فى الآخرين ؟

١١ — هذا وقد كنا نحب أن نطيل القول فى نقد ما اشتمل عليه كتاب الموشح ، وخاصة ما وقع بين شعراء العصر العباسى وبين رجال اللغة كالأصمعى وابن الأعرابى ، فان ذلك

يمثل النزاع بين القديم والحديث ، وتلك إحدى المشاكل التي تتجذد على اختلاف العصور .

وفيما رواه المرزباني طائفة من الطرف والفكاهات كانت تحسن روايتها في هذا الكتاب ، ولما نرى الاكتفاء بما أسلفناه راجين أن يكون فيه كشف عن منهج المرزباني في إحياء الثقافة الأدبية ، ونشر ما تداوله الناقدون من هفوات الشعراء .
والموشح مطبوع يستطيع الرجوع اليه من يريد المزيد ^(١) .

(١) من أظرف ما نقل المرزباني من أخبار النزاع بين اللغويين والشعراء ما جاء في ص ٢٩٦ «حدث العباس بن ميمون قال : سمعت الأصمعي يقول : حضرنا مأدبة وأبو محرز خلف الأحمر وابن مناذر معنا فقال له ابن مناذر : يا أبا محرز ! إن يكن امرؤ القيس والنابغة وزهير ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعري الى أشعارهم : قال : فأخذ صحيفة مملوءة مرقا فرمى بها عليه ! »

الباب الخامس

كتاب الأئمة والمناقب

١ - أبو حيان التوحيدى

١ - لست اعدو الحق إذا قلت : إن الأدب العالى لا يقع إلا متأثراً بعاطفتين اثنتين :
الحب أو الحقد . ولن نجد فى تاريخ الاداب العربية كاتباً مجيداً أو شاعراً بليغاً أو خطيباً
منطيقاً خلت نفسه من رقة الحب ، أو قسوة البغض . فالسرى عبقرية البحرى مثلاً يرجع
إلى قوة شغفه بعالم الجمال ، كما أن السرى فى عبقرية ابن الرومى يرجع إلى تطيره وحققه
على من عرف ومن لم يعرف من سعداء الناس . وكذلك يعود السرى فى تفوق عبد الحميد
ابن يحيى إلى مروءته ونبيل نفسه وعطفه على فقراء الكتاب ، كما يعود الفضل فى فصاحة الحجاج
إلى ما كان يضطرم فى صدره من نيران الحقد والضغينة والبغض والموجدة على النافرين من
أهل العراق .

وأبو حيان التوحيدى الذى نريد أن نفيض فى الحديث عنه رجل خلقته البأساء ، وأنشأه
الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب والجاه . ولن تجده فى صميم أدبه إلا رعداً يزجر
كلما مر بباله خاطر الغنى والفقر ، والنعم والبؤس ، والنباهة والنجول .

٢ - لا تسأل متى ولد ، ولا أين ولد ، فذلك رجل نشأ فى بيئة خاملة لم تكن تطمع فى مجد
حتى تقيد تاريخ ميلاد ، ويكفى أن تعرف أنه فارسى الأصل ، وأنهم ترددوا بين نسبته إلى
واسط أو نيسابور أو شيراز ، وأنه عاش فى القرن الرابع وشهد صدر القرن الخامس ، فقد نص
فى كتاب الصداقة والصدى على أنه كتبه فى سنة ٤٠٠ للهجرة . وجاء فى تاريخ شيراز أنه توفى
سنة ٤١٤^(١) وفى هذا ما يرجح أنه من أهل شيراز . وليس بغريب أن يكون هذا حظ التوحيدى
فى تحديد مولده وتاريخ ميلاده فقد اختلف الناس فى مولد الشيخ محمد عبده فى مصر مع أنه
(١) حدثنا بذلك المسبوس ماسينيون وهو يناقش الرسالة فى السوربون . ولم نستطع مع الأسف أن نجد نسخة فى مصر
من ذلك الكتاب .

نشأ في عصر مغمور بأسباب الدقة والنظام . ولهذا الغموض في حياة التوحيدي قيمة في فهم جاذبه العاثر، وحظه المنكود، فلو كان رجلا مجدودا في دنياه لتلفت الناس اليه واهتموا بنسبه وعرفوا مسقط رأسه، لكنهم عرفوه شقيا محروما فانصرفوا عنه ، وأغفلوا أمره ، حتى عجب ياقوت من أن لم ير أحداً عني به من كتاب السير والتراجم على كثرة من اهتموا بهم من العلماء والكتّاب والشعراء .

٣ — قلت إن نبوغ أبي حيان التوحيدي يرجع إلى حقه وثورته على الحياة والأحياء، فلاذكر أن تلك الثورة شبت في مفتتح حياته ومستهل صباه، حين سمع بأخبار ابن العميد والصاحب ابن عباد وما كان يجري بين أيديهما من أسباب الرزق والرغد والطمانينة، فقصد ابن العميد واستظل بفنائنه حيناً، ثم تحول إلى ظلال ابن عباد، ولكنه لم يجد من فيض هذين الجدولين ما ينقعه غلته، ويطنى صداه . هنالك انفجر بركان غضبه وتحول إلى أتون متسع يرمي باللهب الماحق والشواظ المبيد . وقد حدثنا في كتابه (مثالب الوزيرين^(١)) أنه لما قدم على الصاحب قدم إليه نجاح بن سلمة ناظر خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال: يقول لك مولانا أنسخ هذا فإنه قد طلب منه بخراسان . فارتاع التوحيدي وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال ، ثم تضعجر وتبرم وأشار إلى أنه توجه من العراق إلى باب الصاحب ليتخلص من شوم حرفة الوراقة التي لم تكن كاسدة ببغداد، فوصل ذلك إلى الصاحب فحقد عليه ، وكان رجلاً لا يقبل أن يعصى له أمر، أو يراجع في قول . ثم كانت أيام التوحيدي عنده أيام إهمال ونسيان، فرحل عنه وأصلاه نيران الفحش والسباب . ولننظر كيف يقول :

”ماذني، أكرمك الله، إذا سألت عنه مشايخ الوقت، وأعلام العصر، فوصفوه بما جمعت لك في هذا المكان ! على أني قد سترت كثيراً من مخازيه، إما هرباً من الاطالة، أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش، وبث الفضائح، وذكر ما يسمج مسموعه، ويكره التحدث به ؛ سوى ما فاتني من حديثه، فاني فارقت سنة ٣٧٠ هـ“ .

”وماذنبى إن ذكرت عنه ما جرعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل، وحملنى عليه من الاخفاق بعد الطمع، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل، والظن الحسن، حتى كأنى خُصصت بخساسته وحدى، أو وجب أن أعامل بها دون غيرى“^(١).

٤ - وقد ختم التوحيدى كتابه مثالب الوزيرين بكلمة تدل على أنه كان يفهم أن الأدب باب من أبواب الرزق وسبيل من سبل الغنى، إذ صرح بأنه يحسد الذى يقول :

أعدّ خمسين حولاً ما على يد لأجني ولا فضل لذى رحم
الحمد لله شكراً قد قنعت فلا أشكو لثيماً ولا أطرى أحاكراً

ثم صرح بأنه كان يمتنى أن يكون ذلك الرجل، ولكن العجز فى رأيه غالب لأنه مبدور فى الطينة، ثم استحسن قول الآخر :

ضيق العذر فى الضراعة أنا لو قنعنا بقسمنا لكفانا
مالنا نعبد الأنام إذا كا ن الى الله فقرنا وغنانا

ثم دعا بما دعا به بعض النساك :

”اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبذلها بالإقتار، فنسترزق أهل رزقك، ونسأل شر خلقك، ونبتلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من دونهم ولى الإعطاء، وبيدك خزائن الأرض والسماء“^(٢).

وهذا نص فى أنه كان مشغولاً برزقه، وأنه كان لذلك معنياً بحمد الكرماء، وذم البخلاء، دفعا للفقر وطلباً للمال، فدرجت نفسه على الحرص والطمع، وألف الحقد على الأغنياء الباخلين، وكان مثله مثل المتنبي الذى تفجر شعره بالحقد على العالم والشورة على الوجود : لأنه لم يجد من يناصره فى طلب الغنى والجاه والملك، ومن هنا قلت فى شعر المتنبي عواطف الحب والإخاء والوفاء : لأن مطامعه المادية حولته إلى رجل لا يدرك غير معانى الأثرة والشح والضعف والجحود.

(١) ياقوت ص ٣٩٦ ج ٥ (٢) ياقوت ص ٤٠٤ و ٤٠٥ ج ٥

٥ — وما زال التوحيدى يقدم إلى نفسه وقود الغيظ والحفيظة حتى غلبه طبعه الجاح في أخريات عمره ، فقدم كتبه طعمة للنار ، حتى لا يكون بينه وبين العالم وشيجة من علم أو أدب أو دين ، ثم كتب في ذلك رسالة مطولة تفيض بالألم اللاذع والحزن الوجيع . وقد حدثنا في تلك الرسالة بما يؤيد ما ذهبنا إليه من أنه كان يتخذ العلم وسيلة إلى الغنى والجاه إذ قال في وصف الغرض من كتبه :

«على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولما جاء عندهم ، فحرمت ذلك كله» .

وفي تلك الرسالة فقرات مـرة موجعة تثير العطف على ذلك الرجل الذى شق كل الشقاء بما رزق من رقة الحس ، ودقة الفهم ، وقوة الإدراك . ولقد صور بلواه بالناس أصدق تصوير حين قال :

« فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن ، وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟

”بجوابى لك : أن عيائى منهم فى الحياة هو الذى حقق ظنى بهم بعد الممات ، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من إنسان منهم حفاظ ، ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، وي طرح فى قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائلك وصباحك ، وليس ما قلت بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تتبعك وتفرغك ، وما كان يجب أن ترتاب فى صواب ما فعلته وأتيت به بما قدمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه وطويته ، إما هربا من التطويل ، وإما خوفا من القال والقليل “ .

٦ — وهذه الكلمة تعطينا صورة واضحة من النزاع الدائم الموصول الذى كانت تشور محرجاته بلا انقطاع بين التوحيدى وبين معاصريه ، فذلك رجل يعرف ما هو الضمير ، وما هي

متانة الخلق، وماعنى الكرامة، وماملول الإباء، ولكن أحداث دهره قهرته على المشى فوق تلك الأشواك : أشواك الملق والمداهنة والرياء ، فشى مجروح القلب ، مقتول النفس ، مطعون الوجدان . وكان اقترافه لمخزيات الضمة والهوان والصغار مما يضرهم فى نفسه ثورة الحقد على الرؤساء المسعودين الذين لا ينال فيض ما لديهم بغير أسباب الخسة والدناءة والإسفاف .

٧ - وفى تلك المعركة الدامية التى خرج منها التوحيدى وهو بين الكتاب أهجى وأفش من ابن الرومى بين الشعراء ، لا نجد بدا من الحكم عليه بأنه كان رجلا ظاهر الطمع والجشع والحرص ، قبل فى جمع المال عن طريق الأدب أن يبيع دينه ومروءته وأن يقترب مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم : فى حين أنه كان يستطيع أن يدوس بقدميه ما يملك أصحاب التيجان ويُقبل بنفس حازمة غنية على استدوار إحدى الصناعات ليعيش ، ثم يلقى العالم إن شاء بمثل قول أبى هلال :

جلوسى فى سوق أبيع وأشتري دليل على أن الأثام قرود

ولا خير فى قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود

ولكنه أخذ يلوم الناس ويؤاخذهم بما لا يؤاخذ به نفسه ولا يتورع هو عن الوقوع فيه .

ودليل ذلك ما حكاه فى كتاب مثالب الوزيرين إذ قال :

”جرى بينى وبين ابن مسكويه شئ : قال لى مرة أما ترى الى خطأ صاحبنا - يعنى ابن العميد - فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة؟ لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت بعد ما أطل الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ ! إني أسألك عن شئ واحد فاصدق فانه لا مدب للكذب بينى وبينك ، لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه ، أكنت تخيله فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ! وليته أربى عليه ! فان كان الذى تسمع على حقيقة فاعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد، أو شئ آخر من جنسه، وأنت تدعى

الحكمة وتتكلف فى الأخلاق، وتزيف الزائف وتختار منها المختار، فأفطن لأمرك، وأطلع على شرك وشرك^(١) .

ولو أنه حاسب نفسه بمثل ما حاسب به ابن مسكويه لرأى ثورته على أهل زمانه تأخذ وقودها من قلب حاسد حقود، وهو مع هذا يدعى الحكمة ويتكلف الأخلاق .

ويظهر مع الأسف أن الانسان يبالغ فى درس الغرائز ونقد الطباع، فإذا وصل الى نفسه خلا درسه من القوة وخلا نقده من العمق، وأسبغ على خصاله وشمائله أثواب الرضا والاعجاب .



٨ — هذا الذى قدّمناه عن التوحيدى جعل لنا منه شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف: الشخصية الأولى شخصية الأديب الذى يتحدثنا عن نفسه وعن أشجانه وعن عتبه على الناس وتبرمه بالحياة . والشخصية الثانية شخصية الباحث الذى ينقل الصور المختلفة لما يفهم معاصروه من ضروب العلوم والآداب والفنون . وهذه الشخصية الثانية شخصية الباحث تقدّمه لنا رجلا فهم النزعات الفلسفية والأخلاقية والأدبية، ثم صورها لنا تصويرا يقرب من الإتقان فى كتاب المقابسات . وكتاب المقابسات هذا كتاب عظيم، طبع أولا بالهند، ثم طبع أخيرا فى مصر طبعا متقنا معنيا به من بعض الوجوه . وكتاب المقابسات لا ينفع المبتدئين إلا قليلا، ولكنه نافع كل النفع لمن وقفوا على معضلات الفلاسفة الاسلامية . ولعل أهم ما فيه أنه يعطينا صورة من الكتابة الفلسفية لعهد، وإن كنا نرى فى ذلك بعض البعد عن الضوابط، لأنه يحاكي الجاحظ فى أسلوبه الفلسفى والأدبى فيترك السجع ويقبل على الازدواج، غير أنه على كل حال إون من الكتابة الفلسفية التى تقبلها الناس فى ذلك الحين . وأدق ما يلاحظ على كتاب المقابسات أنه يطلعنا على ناحية خطيرة من عقلية الباحثين فى ذلك العهد، فهم يعرفون كيف تثار المشاكل وكيف تبذر بذور الخلاف، فإذا حاولوا

(١) باقوت ص ٤٠٦ ج ٥ .

الاجابة والتعليل ظهوروا ضعفاء عاجزين . وهذه ظاهرة تجدها حيث تتصفح كتاب المقابسات ولعل السبب في ذلك أنهم كانوا يعانون أزمة عقلية خطيرة لم يتح لهم التغلب عليها ، وكان من أثرها أن كثرت الشك والارتياب والاحاد بين طبقات المفكرين .

ومن طريف ما أثاره أبو حيان التوحيدي في إحدى المقابسات ما أنطق به أبا إسحاق النصيبي إذ قال :

”ما أعجب أمر أهل الجنة ! قيل وكيف ؟ قال لأنهم يبقون أبدا هناك ، لا عمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح ؟ أما تضيق صدورهم . أما يكتون . أما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة التي هي مشكلة لحال البهيمية ؟ أما يأنفون ؟ أما يضجرون ؟^(١)

وفي الجواب على هذا السؤال الخطر أطال أبو حيان إطالة مملة لا تقنع ولا تفيد ، لأنه افترض أن نعيم الجنة بالعقل لا بالحس ، وأن العقل لا يعتريه الملل ، ولا تصيبه الكلفة ، ولا يمسه اللغوب . وعلى ذلك بقي الاعتراض حيث وقع : لأن القرآن أعطى للذات الحسية شأنا غير قليل ، وجعلها من الغايات التي يسمو اليها المؤمنون .

٩ — أما الشخصية الأولى شخصية الأديب فهي الجانب الأقوى من نفسية التوحيدي . وتمثل هذه الشخصية الرائعة في رسائله الوجدانية ، وفي استطراداته الممتعة التي جرى بها قلمه في كتاب الصداقة والصدق . والجانب الوجداني من التوحيدي تكوّن ونشأ في هجر الفاقة والبؤس ومعاناة الأيام . ولا تراه يجيد إلا حيث يتحدث عن نكد دنياه وسواد لياليه . وإنك لترثي له وتبكي لشكواه حين تراه يطالعك بأمثال الكلمة الآتية :

”وسمعت الخوارزمي أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول : (اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمنني حتى يبور الجهل ، كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم ” وأقول : ” اللهم اسمع واستجب ، فقد برح الخفاء ، وغلب الجفاء ، وطال الانتظار ، ووقع اليأس ، ومرض الأمل ، وأشفى الرجاء ” والخوارزمي^(٢)

(١) راجع ص ١٩٤ من المقابسات . (٢) ص ١ من الصداقة والصدق .

هذا الذى يعجب به التوحيدى ويتحدث عنه ويتأسى به رجل عانى فى دهره مرارة الجور والحيف، ورأى الناس يقدمون عليه بديع الزمان وهو لدن العود غض الالهاف، فلا عجب أن يردّد "التوحيدى" شكاته وأنينه وهو الذى رأى كيف تقدم عليه الأقدار أمثال ابن عباد .

١٠ - ولنقل هنا كلمة عن كتاب الصداقة والصديق فاليه يرجع الفضل فى تصوير الجانب الوجدانى من التوحيدى رحمه الله . ابتدأ هذا الكتاب بزفرة وانتهى بزفرة . ابتدأ بالكلمة التى نقلناها آنفا عن الخوارزمى، وانتهى بقوله فى الاعتذار عن طول تلك الرسالة "فأقبل حاطك الله هذا القدر الذى قد بدأته وأعدته ، ونشرته وطويته، على أنك لو علمت فى أى وقت ارتفعت هذه الرسالة، وعلى أى حال تمت، لتعجبت، وما كان يقل فى عينك منها يكثر فى نفسك، وما يصغر منها ينقدك يكبر بعقلك . والله أسأل خاتمة مقرونة بغنيمة، وعاقبة مفضية الى كرامة، فقد بلغت شمسى رأس الحائط، والله أستعين على كل ماهم النفس، ووزع الفكر، وأدنى من الوسواس ."

وكتاب الصداقة والصديق كتب فى أدق وقت من حياة التوحيدى، كتب حين بلغت شمسه رأس الحائط كما قال، كتب بعد كتابه مثالب الوزيرين بمدة قد تكون طويلة، فهو أنضج ثمرة من أدب التوحيدى . وليس يهمنى فى هذا المقام ما أشتمل عليه من الفقرات الجميلة، والمقطوعات البديعة، والأخبار الطريفة، إنما يهمنى بنوع خاص ما مر فيه من الصور الفنية الرائعة التى جرى بها قلمه البليغ، فقد ترك لنا ذلك الرجل الفحل طائفة من النماذج العالية فى صور الخواطر والأفكار والتأملات، ومشى بنا فى أودية من الخيال ضاحكة الأزهار خفاقة النسجات .

١١ - والصور التى يقدمها التوحيدى تمر غالبا على أنها أحاديث . فهو يصور خواطر الناس وآراءهم فى فهم الحياة تصويرا عجيبا يفصح عن قدرته أتم إفصاح، وهو يظهر فى ثنايا كلامه غنى اللغة قوى الخيال يحيط بالمعنى من جميع أقطاره إحاطة بالغة لا يند منها شيء . ولننظر كيف يقول فى تشعب أنفاس الناس فى الحب والبغض :

”وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصّة : لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو ولى أو خليط . كما لا يخلو أيضا من عدو أو كاشع أو مداح أو مكاشف أو حاسد، أو شامت، أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو مزمل أو مضل أو مغل“^(١) .

ومثل هذه الفقرة يدل على بصر ذلك الرجل باللغة وقدرته على تصوير ما يشاء من المعاني النفسية والوجدانية التي تعجز أكثر الكتاب . وقد أعطانا التوحيدى عدّة صور في الصداقة والحب . من ذلك قوله في التفرقة بين الصداقة والعلاقة : ”الصداقة اذهب في مسالك العقل ، وأدخل في باب المروءة ، وأبعد من نوازي الشهوة ، وأزّه عن آثار الطبيعة ، وأشبه بذوى الشيب والكهولة ، وأرّمى الى حدود الرشاد ، وأخذ بأهداب السداد ، وأبعد من عوارض الغرارة والحدائث . فاما العلاقة فهي من قبيل العشق والمحبة والكلف والشغف والتئيم والتهيم والهوى والصباية والتدائف والتشاجى . وهذه كلها أمراض أو كلاً أمراض ، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية ، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص . ولهذا تسرع هذه الأعراض الى الشباب من الذكران والإناث وتنال منهم وتملكهم وتحول بينهم وبين أنوار العقول وآداب النفوس وفضائل الأخلاق ، ولهذا وأشباهه يحتاجون الى الزواجر والمواعظ ليفيئوا الى ما فقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط“^(٢) .

ونقل في موضع آخر أنه سمع ابن مانويه القمى يروى عن جعفر بن محمد أنه قال :
مناغة الصديق أعبت بالروح وأندى على القواد من مغازلة المعشوق ، لأنك تفزع بحديث المعشوق الى الصديق ولا تفزع بحديث الصديق الى المعشوق^(٣) .

١٢ — وقد علل التوحيدى ميل الرجل الى أهله وأحبابه فذكر أنه يحن الى والده للتعز به ، لأن الوالد عضد وركن يعاذه ، ويؤوى اليه ، ويتزع الى الوالدة لشفتها ودعائها الذى لا يعرج الى الله مثله ، ويشتاقي الى أخته للصيانة لها والترؤح اليها ، والى ابن عمه للانتصار به ،

ولابنة عمه لأنها لحم على وضم، ويصبو الى عشيقه لأن ذاك شيء يحده بالفطرة والارتياح الذي قلما يخلو منه كريم له في الهوى عرق نابض، وفي المجون جواد راكض. ثم قال: أما الصديق فوجدى به فوق شوق الى كل من نعتّه لك، لأنّ أبائّه بما أجل أبي عنه، وأجبا من أمي فيه، وأطويه عن أختي نجلا منها، وأداجى ابن عمي عليه خوفا من حسد يفتأ ما بيني وبينه. فأما العشيقه فقصاراى معها أن أشوب لها صدقا بكذب وغلظة بلين لأفوز منها بحظ من نظر، ونصيب من زيارة، وتحفة من حديث. وكل هؤلاء مع شرف موقعهم منى وانتسابهم الى دون الصديق الذى حريمى له مباح، وسارحى عنده مُراح، أرى الدنيا بعينيه اذا رنوت، وأجد فائتي عنده اذا دنوت، اذا عززت له ذل لى، واذا ذللت له عز بى، واذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة، واذا تصامتنا تناجينا بلسان الثقة، لايتوارى عنى إلا حافظا للغيب، ولايتراءى لى إلا ساترا للعيب^(١).

وقد عرض التوحيدي للصدّاقة والحب والعشق فى آخر كتاب المقابسات بتفصيل واف فليرجع اليه من شاء.

١٣ — ولم أجد فيما قرأت من كتب الأدب صورة فنية تمثل اتحاد القلوب والنفوس كالصورة التى قدمها الينا التوحيدي حين قال:

”قلت لأبى سليمان محمد بن طاهر السجستاني: إني أرى بينك وبين ابن سيار القاضي ممازجة نفسية، وصدّاقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومواتاة خلقية، فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال: يا بنى! اختلطت ثقتي به بثقته بى فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يرثان على الدهر، ولا يحولان بالقهر. ومع ذلك فيبينا بالطالع ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبية ومظاهرة غريبة، حتى أنا تلتقى كثيرا فى الإرادات، والاختيارات، والشهوات، والطلبات. وربما تراورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد اقتراننا من قبل فأجدها شبيهة بأمر حدثت لى فى ذلك الأوان حتى كأنها قسائم بيني وبينه، أو كأنى هو فيها أو هو أنا. وربما حدثته برؤيا فيحدثنى بأختها ففراها فى ذلك الوقت أو قبله بقليل، أو بعده بقليل“.

وقال بعد كلام: فقلت هل تجد عليه في شيء، أو يجد عليك في شيء؟ فقال: وجدت به في الأول قد حجبني عن موجدتي عليه في الثاني، على أنه يكتفى مني فيما خالف هواي باللمحة الضئيلة، واكتفى أنا أيضا منه في مثل ذلك بالإشارة القليلة. وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكفاية عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون لنا في ذلك مقنع، وإليه مفزع، وقبلما نجتمع إلا ويحدثني عنى بأسرار ما سافرت عن ضميري إلى شفقي، ولا نذت عن صدرى إلى لفظي، وذلك للصفاء الذى نتساهمه، والوفاء الذى نتقاسمه، والباطن الذى نتفق عليه، والظاهر الذى نرجع إليه، والأصل الذى رسوخنا فيه، والفرع الذى تشبثنا به. والله ما يسرنى بصداقة محرّ النعم. وإذا كنت أعشق الحياة لاني بها أحياء كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة وجنى لى ثمرتها، وجلب إلى روحها، وخلط بى طيها وحلاوتها^(١).

والقارئ الذى ألف تذوق العبارات البليغة فى غنى عن تحليل مثل هذا الحديث الشائق الخلاب، وما عسانا نجد فى الإفصاح عن جمال التعبير فى مثل قوله "وقلما نجتمع إلا ويحدثني عنى بأسرار ما سافرت عن ضميري إلى شفقي، ولا نذت عن صدرى إلى لفظي". هيات هيات، فتلك لمحات من سحر البيان لا يوفق إليها إلا الملهمون.

* * *

١٤ — وينبغى أن نشير إلى أن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفا، ولكنه كان يستتر اتقاءً لسخط الجمهور، وكانت طريقته فى تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مربية، كقوله: "الشرعية طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء، والأنبياء يطبون للرضى حتى لا يترايد مرضهم، وحتى يزول المرض بالعافية فقط، وأما الفلاسفة فانهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا. وبين مدبر المريض ومدبر الصحيح فرق ظاهر وأثر مكشوف لأن غاية تدبير المريض أن ينتقل به إلى الصحة — هذا اذا كان الدواء ناجما والطبع قابلا والطبيب ناصحا — وغاية تدبير الصحيح أن يحفظ الصحة واذا حفظ الصحة فقد أفاده كسب

(١) ص ٣ و ٤ من الصداقة والصدق.

الفضائل وفرغ لها وعرضه لاقتنائها، وصاحب هذه الحال فائز بالسعادة العظمى، وقد صار
مستحقا للحياة الآلهية، والحياة الآلهية هي الخلود والديمومة^(١) .

١٥ — وبهذه المناسبة نذكر أن رسائل إخوان الصفا ظهرت في القرن الرابع وهي من
أهم المصادر للفلسفة الإسلامية، ولا تُعرف أسماء مؤلفيها بالضبط، ولكن يرجح أن التوحيدى
كان بينهم . أما لغتها فليست من النثر الفنى الذى كلف به مشاهير الكتاب فى ذلك العصر ،
ولكنها لغة وسط بين لغة الكتابة ولغة التأليف، لأن كتابها أرادوا أن يفهموا الجماهير ما يرمون
إليه من الأغراض السياسية والدينية، وذلك لا يتم فى مثل لغة الصابى وابن العميد . فلم يكن
لهم بد من أن يتخيروا تلك اللغة الخالصة من شوائب البديع كالسجع والتورية والجناس، ولكن
غلبت عليهم النزعة العامية فى بعض الأحيان^(٢) .

(١) ص ١٥ مقدمة المقابسات . (٢) كانت رسائل إخوان الصفا خليقة بأن تدرس درسا مفصلا
فى هذا الكتاب . ولكننا رأينا الباحثين أطالوا فيها القول قديما وحديثا ، ورأينا من ناحية ثانية أن النثر الفنى فيها
قليل . على أننا لم ننفلها جملة ، بل كتبنا فصلا عن بعض اتجاهاتها الفلسفية فى باب (الأخبار والأفاميص) — راجع
« الانسان والحيوان أمام محكمة الجن » فى الجزء الأول . وراجع كذلك الشواهد التى أثبتناها هناك فى فصل (السجع
والازدواج) .

٢ - أبو علي بن مسكويه

١ - لما أصل الى التثبت من لقب الكاتب المفكر أحمد بن محمد بن يعقوب ، فهو تارة "مسكويه" وتارة "ابن مسكويه" وقد حدث ياقوت أنه "كان مجوسيا وأسلم" فظن صديقنا الأستاذ الزركلي صاحب "الأعلام" أن هذا صحيح ، فأثبت كذلك أنه كان مجوسيا وأسلم ، وهذا غير معقول ، فإن الرجل "اسمه أحمد بن محمد" والأرجح عندي أن عبارة ياقوت سقطت منها كلمة ، وأن الأصل "وكان جده مجوسيا وأسلم" وقد يكون هذا الترجيح هو الصواب .

٢ - اتصل ابن مسكويه في شبابه بابن العميد واختص به ، ثم ساعده زمانه فاختص بأعلام بني بويه وتولى مكتبة عضد الدولة فلقب بالخازن ، وكانت دار الكتب في ذلك العهد تسمى "الخزانة" وظل متصلا بأولئك المملوك الى أخريات عمره . يدلنا على ذلك قوله يهني عميد الملك باتفاق الأضحى والمهرجان في يوم واحد :

قل للعميد عميد الملك والأدب	اسعد بعيديك عيد الفرس والعرب
هذا يشير بشرب ابن الغمام ضحى	وذا يشير علينا بابنة العنب
خلائق خيّر في كل صالحة	فلودعاها لغير الخير لم تجب
أعدت شرخ شباب لست أذكره	بعدا ، وردّ على العمر من كتب
فطاب لى هرمى والموت يلحظنى	لحظ المريب ولولا أنت لم يطب
فإن تمرّس بى خصم تعصب لى	وإن أساء إلى الدهر أحسن بى
وقد بلغت الى أقصى مدى عمرى	وكّل غربي واستأنست بالنوب
إذا تملاّت من غيظ على زمنى	وجدتنى نائفا في جذوة اللهب

٣ — شغل ابن مسكويه مدة طويلة بالكيمياء، ولكنه لم يكن فيها من الموفقين وكان اخفاقه مثارا لسخرية أبي حيان التوحيدي، فقد غمزه في كتاب الإمتاع ووصفه بأنه "فقير بين أغنياء، وغنى بين أنبياء" واتهمه بالجهل وقلة المحصول، وأنطق بعض محادثة بهذه الجملة "يا عجبا لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل، ورأى ما عنده وهذا حظه! ثم أجاب: قد كان هذا! ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيمياء الرازي مملوك الهمة في طلبه، والحرص على إصابته، مفتونا بكتب أبي زكريا وجابر بن حيان، ومع هذا كان إليه خدمة صاحبه في خزانه كتبه. هذا مع تقطيع الوقت في الحاجات الضرورية والشهوية، والعمر قصير، والساعات طائرة، والحركات دائمة، والفرص بروق تأتلق، والأوطار في عرضها تجتمع وتفترق، والنفوس عن فوائتها تذوب وتحترق. ولقد قطن العامري الرى خمس سنين ودرس وأملى وصنف وروى فما أخذ عنه مسكويه كلمة واحدة، ولا وعى مسأله، حتى كأنه كان بينه وبينه سد. ولقد تجرع على هذا الصاب والعلقم، ومضغ لقمة حنظل الندامة في نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه، حين لم ينفع ذلك كله. وبعد هذا فهو ذكي حسن الشعر نقي اللفظ.

وقد أوقع التوحيدي بمهاجمة ابن مسكويه ورماه بمدح الجود باللسان وإيثار الشح بالفعل، وادعاء الحكمة والتكلف في الأخلاق. ولننظر كيف يقول في كتاب الوزيرين.

"جرى بيني وبين أبي علي مسكويه شيء: قال لي مرة: أما ترى إلى خطأ صاحبنا — وهو يعني ابن العميد — في إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة! لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق. فقلت بعد ما أطال الحديث وقطع بالأسف: أيها الشيخ! أسألك عن شيء واحد، فاصدق فإنه لا مدب للكذب بيني وبينك: لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه أكنت تخيله في نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أوجاهلا بحق المال؟ أو كنت تقول: ما أحسن ما فعل، وليته أربى عليه! فان كان

الذى تسمع على حقيقته فأعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد أو شئ آخر من جنسه، وأنت تدعى الحكمة، وتكلف فى الأخلاق، وتزيف الزائف وتختار منها المختار، فافطن لأمرك وأطلع على سرِّك^(١) وشرك^(٢) .

٤ — ونحن نفهم سر هذا التعامل من جانب التوحيدى ، فقد كان شديد الحقد على المجدودين من أهل زمانه، وخاصة من اتصلوا بالملوك والرؤساء، ولنا أن نضيف إلى ذلك نجاح ابن مسكويه فى حياته العملية فقد كان الرجل فيما يظهر متين الأخلاق ، ومثانة الخلق قوة مرعبة يُرعد لها الأدباء المساكين الذين أبتلوا بالطمع فى هدايا الملوك والوزراء ، وألفوا الترفل والتودد الى أقطاب الجاه والمال . والأديب الذى يعتمد على نفسه وعلى خلقه وعلى كفايته الذاتية يعيش فى الأغلب غريبا بين معاصريه من الأدباء ، فليس عجيبا أن يتحامل أديب متشرد أفاق كالتوحيدى على أديب موفى مطمئن العيش كابن مسكويه . ولو شئنا لأضفنا أيضا نزعة ابن مسكويه الفلسفية فهى كذلك من أسباب حقد التوحيدى عليه ، فقد كان التوحيدى واسع الثقافة إلى حد مدهش وكان يطمح فى التفرد بالسمعة العلمية والأدبية والفلسفية بين رجال ذلك الجيل ، ولهذا نراه حين يستتر تحامله على ابن مسكويه لا يجد غير هذا الثناء الهزيل إذ يقول :

”وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقى اللفظ“^(٢) .

٥ — ومن دلائل النعمة التى ظفر بها ابن مسكويه فى حياته أن نراه ممدحا يتملقه لثام الشعراء والكتاب ، فقد كتب إليه بديع الزمان الهمداني رسالة عتاب تكلف فيها الود والإخلاص ، وكان بديع الزمان وقاح الوجه سليط اللسان ، لا يعترف لأحد بفضل ، ولا تصدر عنه كلمة الإنصاف إلا مدفوعة برغبة أو رهبة ، ويود لو أمكته المقادير من طمس معالم النباهة والصيت فيما يمتز به من مختلف البلاد : حتى لا يذكر بالعلم والنبل إنسان سواه . وتكاد رسائله وقصائده تُقصر على بث ما كان يعتلج فى صدره من خرازات وعداوات

وأضغان وأحقاد، وقد اتصل بابن مسكويه حيناً، ثم سعى بينهما الواشون فكدروا ما كان
ينتظره البديع من طيب الصلات، فكتب الى صاحبه الرسالة الآتية :

ويا عزّ ان واش وشى بى عندكم فلا تمهليه أن تقولى له مهلا
كما لو وشى واش بعزة عندنا لقلنا ترحز لا قريبا ولا أهلا

بلغنى — أطال الله بقاء الشيخ — أن قبضة كلب وافته بأحاديث لم يعرها الحق نوره ،
ولا الصدق ظهوره، وأن الشيخ أذن لها على حجاب أذنه ، وفسح لها فضاء ظنه، ومعاذ الله
أن أقولها، وأستجيز معقولها . بل قد كان بينى وبينه عتاب لا يتزع كنفه ، ولا يجذب
أنفه، وحديث لا يتعدى النفس وضميرها، ولا تعرفه الشفة وسميرها ، وعريضة كعريضة أهل
الفضل لا تتجاوز الدلال والإدلال ، ووحشة يكشفها عتاب لحظة، كغناء جمجمة، فسبحان
من ربى هذا الأمر حتى صار أمرا، وتأبط شرا، وأوحش حرا، وأوجب عذرا، بل سبحة
من جعلنى فى حيز العذر أشيم بارقة ، وأستخيل صاعقته، أنا المساء إليه، والمجنى عليه ،
والمستخف به، لكن من يلى من الأعداء كما بليت، ورمى من الحسدة بما رميت، ووقف
من الوجد والوحدة حيث وقفت، واجتمع عليه من المكارة ما وصفت ، إعتذر مظلوما،
وأحسن ملوما، وضحك مشتوما . ولو علم الشيخ عدد أبناء الحدد، وأولاد العدد، بهذا البلد،
ممن ليس له همة إلا فى شكاية أو حكاية أو سعاية أو نكاية، لضىن بعشرة غريب إذا بدر،
وبعيد إذا حضر، ولصان مجلسه عمن لا يصونه عما رقى إليه . فهينى قلت ما حكى له ،
أليس الشاتم من أسمع ؟ أليس الجانى من أبلغ ؟ فقد بلغ من كيد هؤلاء القوم أنهم صادفوا
من الأستاذ نفسا لا تستفز، وجبلا لا يهز، وشوا إليه بما أرتوا به نارهم . ورد على ما قالوه
فألبثت أن قلت :

فان يك حرب بين قومي وقومها فانى لها فى كل نائبة سلم

فيعلم الشيخ الفاضل أن فى كيد الأعداء منى جمرة ، وأن فى أولاد الزنا عندنا كثرة ،
وقصصا رهم نار يشبونها، أو عقرب يدبونها ، أو مكيدة يطلبونها ، ولولا أن العذر إقرار بما

قيل، وأكره أن أستقيل، بسطت في الاعتذار شاذروانا، ودخلت في الاستقالة ميدانا، لكنه أمر لم أضع أوله فلا أتدارك آخره .

وقد ختم بديع الزمان رسالته بهذه الآيات :

مولاي إن عدت ولم ترض لى	أن أشرب البارد لم أشرب
إمتط خدى وأنتعل ناظرى	وصد بكفى حمة العقرب
بالله ما أنطق عن كاذب	فيك ولا أبرق عن خلّب
فالصفو بعد الكدر المفترى	كالصحو بعد المطر الصيّب
أن أجتن الغلظة من سيدي	فالشوك عند الثمر الطيب ^(١)

ثم انتظر من ابن مسكويه ان يعتذر عن إعراضه عنه، فأجابه بما نصه بعد الديباجة:
 ”أما البلاغات التي أوما إليها فوالله ما أذنت لها ولا أذنت فيها، وما أذهبنى عن
 هذه الطريقة وما أبعدنى عنها ! وقد نزه الله لسانى عن الفحشاء، وسمعى عن الإصغاء،
 وما يتخذ العدو بينهما مجالا“^(٢).

ومثل هذا الجواب يشعر بأن موقف بديع الزمان من صاحبه كان موقف التابع من
 المتبوع . والمصادر لا تعيننا على تحديد ما كان بينهما من ألوان الصلات، وإن كانت عبارة
 ياقوت صريحة في أنه كان بينهما قبل هذا العتب وداد .

٦ — شغف ابن مسكويه شغفا بالغا بالفلسفة اليونانية وأطلع على أكثر ما عرف
 العرب من مؤلفات اليونان، ويرى القارئ في آثاره ظلالات كثيرة لآراء سقراط وجالينوس
 وأرسططاليس . ويظهر أن الفلسفة اليونانية وصلت الى أعماق نفسه في وضوح وجلاء
 فاقتفى منهاج اليونان في عرض الآراء ونقد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية .
 وكذلك لم يقف في دراسة الأخلاق عند الحدود الدينية التي كان يكتفى بها الصوفية

والناسكون والزاهدون ، بل ساير العقل وصاحبَه وأنس به واطمان إليه ، ثم اتخذه أساسا للأخلاق ، فصار العقل عنده نظيرا للوحى فى عرف المتبتلين ، وما زال يدور حول المعقولات فى نظام السلوك حتى صار الخلق المعقول أحب إليه وأقرب إلى نفسه من الخلق المنقول : فهو لا يفعل الخير لأنه أمر به ولا يجتنب الشر لأنه نهى عنه ، وإنما يفعل ما يفعل ويترك ما يترك وفقا لاطمان إليه عقله وأمر به وجدانه فى حدود النفع والمنطق والذوق . وإلى القارئ وصيته - أو دستوره إن شاء - فى نظام السلوك :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما عاهدَ عليه أحمد بن محمد ربّه وهو يومئذ آمن فى سرّيه ، معافى فى جسمه ، عنده قوت يومه ، لا تدعوه إلى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ؛ ولا يريد بها مراعاة مخلوق ولا استجلاب منفعة ، ولا دفع مضرة : عاهدَه على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره ، فيعف ويشجع ويحكم . وعلامة عفّته أن يقتصد فى مأرب بدنه حتى لا يحمل الشرة على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ؛ وعلامة شجاعته أن يحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب فى غير موضعه ، وعلامة حكمته أن يستبصر فى اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شىء من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أولا نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التى هى العدالة ، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويجتهد فى القيام بها والعمل بموجبها وهى خمسة عشر بابا :

إيثار الحق على الباطل فى الاعتقادات ، والصدق على الكذب فى الأقوال ، والخير على الشر فى الأفعال ، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه ، والتمسك بالشريعة ولزوم وظائفها ، وحفظ المواعيد حتى ينجزها ، وأوّل ذلك ما بينه وبين الله عز وجل ، وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال ، ومحبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك ، والصمت فى أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل . وحفظ الحال التى تحصل

في شيء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال ، والاقدام على كل ما كان صوابا ،
والاشفاق على الزمان الذي هو العمر ليستعمل في المهم دون غيره ، وترك الخوف من
الموت والفقر لعمل ما ينبغي ، وترك التواني ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد
لئلا يشتغل بمقابلتهم ، وترك الانفعال لهم ، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان ،
وذكر المرض وقت الصحة ، والهم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ليقبل الطغي والبغي ،
وقوة الأمل وحسن الرجاء ، والثقة بالله عز وجل وصرف البال إليه ^(١) .

(١) معجم الأدباء ص ٩٥ و ٩٦ ج ٢

٣ - الاخلاق عند ابن مسكويه

١ - الخلق - كما عرفه ابن مسكويه - حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية . فهو بهذا غير التخلق : لأن التخلق يقتضى شعورا بالكلفة عند إرادة العمل الحسن وعند تجنب العمل القبيح . وقد عرض ابن مسكويه لآراء القدماء في أصل الخلق ، فبين أن منهم من ظنوا " أن الناس كلهم يخلقون أخيارا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشرارا يجالسة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التي لا تقمع إلا بالتأديب ^(١) " وأن منهم آخرين " ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهى كدر العالم فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع وإنما يصيرون أخيارا بالتأديب والتعليم ^(٢) " وهناك رأى ثالث اختاره ابن مسكويه وهو الرأى الذى يقول بأنه " ليس شئ من الأخلاق طبعيا للانسان " وإنما طبع الانسان على قبول الخلق فهو يتحول وفقا لما يؤثر فيه من أعمال الأخيار والأشرار . وليس لابن مسكويه فى أصل الخلق رأى خاص ، وإنما يتخير من بين الآراء ، ومزيتة أنه يعتمد على المشاهدة والاختبار ، فيقول مثلا " وهذا الرأى هو الذى نختاره لأننا نشاهده عيانا " وحين يشرع فى بيان مراتب الناس فى قبول الآداب يذكر أنها كثيرة ثم يقول : وهى تشهد وتعان فيهم وخاصة فى الأطفال ، فان أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ، ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذى انتهى فى نشوئه وكأله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه بضروب من الحيل والأفعال المضادة لما فى طبعه ، وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه ، أو ما يظهر فى بعضهم من القحة وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ، ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الانسان فى قبول الأخلاق الفاضلة وتعلم معه أنهم

ليسوا على رتبة واحدة وأن فيهم المتوانى والمنتنع ، والسهل السلس ، والفظ العسر ، والخير والشرير^(١) .

٢ - والواقع أنه ليس لابن مسكويه غير هذه المزية وهي محاولة الانتفاع من المشاهدات والاختبارات . ولكن هذه المزية نفسها تكررت عليه بسبب حيرته في تعليل ما يعرض له من مختلف الآراء : فهو تارة مع جالينوس وتارة مع أرسططاليس ، وطورا مع العقل وطورا مع الشرع ، بحيث تصطدم في كتبه معالم المعقول والمنقول ، ولذلك تراه يرتب أقوال الحكماء ترتيبا سيئا في أكثر الأحوال ، لأنه لا يمضى الى غاية معينة يسوق في سبيلها الحجج والبراهين . وقد يحتطب أحيانا في ليل من الظنون والأوهام فيجمع بين الجسد والردى والطيب والخيث . ولهذا الخبط قيمته عند من يريدون تدين ما فعلت الفلسفة اليونانية بالعقلية العربية ، فقد كانت في أذهان كثير من الناس صورة للغبار الذى يثور عند هبوب الرياح ، وكانت الأذهان العربية هادئة مطمئنة بجفاءها فلسفة اليونان بزوابع وأعاصير أطار ما كان أستقر فيها من أمن وسكون . وقد آن أن يعرف الناس أن الآراء التى تأتى من أقطار أجنبية لا تنفع من يتلقونها إلا بعد أن يهضموها ويسلموها من الافتتان بما فيها من طرافة وبريق ، ومثلكم في ذلك مثل من يشرب الدواء لا تصفو نفسه ولا تذكو قريحته ولا يعتدل مزاجه إلا بعد أن يزول ما أحدث الدواء بأعصابه وحواسه من قلق واضطراب ، وكذلك وقع لمفكرى العرب حين غزتهم الفلسفة اليونانية . فكان منهم المفتون بكل ما (نقل) عن سقراط وأفلاطون وأرسططاليس ، وكان منهم من هضم تلك الفلسفة واستبقى لعقله وروحه ما فيها من تثقيف للعقل وتهذيب للحس وتقويم للوجدان . ونحن نشهد في عصرنا شواهد لذلك ، ففي رجال اليوم من له في كل صباح رأى جديد ، لأنه لا يأخذ عن نفسه وإنما يتلمذ لعدد من الفلاسفة والمفكرين قد يتواقفون وقد يتناقضون ، وهو لم في توافقههم وتناقضهم تابع أمين ، وقد يكون في المساء صدى لكتاب قرأه في الصباح ، وكذلك يفعل فلان وفلان !

ومن معاصرنا من خلص من قيود ما قرأ وعاد يفكر ويتذوق ويمس وهو حر العقل والذوق والاحساس .

٣ - رسم ابن مسكويه لنفسه خطة تجدر بمثله وهي القصد إلى تثقيف الخواص : فهو لا يكتب في الأخلاق للناس أجمعين ، وإنما يتوجه بأرائه وأبحاثه إلى من درسوا المنطق وعرفوا كيف يكون القياس والبرهان . وكان يشعر - فيما يظهر - بأن خواص زمانه كانوا على حافة الشك والارتباب ، لهذا نراه يهتم أولا وقبل كل شيء باثبات وجود النفس وجودا مستقلا عن الجسم أتم استقلال ، بحيث لا تضعف حين يضعف ولا تزول حين يزول . ولم يضطره إلى مواجهة هذا البحث الشائك إلا اهتمامه كما قلنا بتقويم الخواص ، ولو كان يكتب للعوام لأراح نفسه من آصار هذه المخاطرة العقلية ، لأن العوام مطمئنون أو كالمطمئنين إلى خلود الروح وعودتها يوم البعث إلى بقايا جسمها في التراب . وإقناع الخواص بوجود النفس واستقلالها وخلودها هو حجر الزاوية في جذبهم إلى جمال الأخلاق ، لأنه لا يخشى على الخواص إلا شر الريب وعدم الاكتراث ، وهم لا يضلون - وما أكثر ما يضلون ! - إلا ليأسهم من خلود النفس الإنسانية ، وقولهم مع سائر الدهريين "إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين" .

٤ - وابن مسكويه واثق بالمنطق ثقة مطلقة ، ومن أجل ذلك يعتمد عليه في جميع الأحوال ، مطمئنا إلى أنه متى صحت المقدمات حققت النتائج . فلنختبر ما صنع في بيان وجود النفس لنعرف مبلغ ما وصل إليه في إثبات ما يريد ، وهو يذكر "أنا لما وجدنا في الإنسان شيئا ما يضاد أفعال الأجسام بحده وخواصه وله أيضا أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا يشاركه في حال من الأحوال ، وكذلك نجده يباين الأعراض ويضادها كلها غاية المباينة ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة منه للأجسام والأعراض إنما هي من حيث كانت الأجسام اجساما والأعراض أعراضا حكما بأن هذا الشيء ليس بجسم ولا جزء من جسم ولا عرضا ، وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضا فإنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كلال ولا نقص" (١) .

ومعنى هذا أن الإنسان مركب من شيئين : أحدهما الجسم ، وثانيهما النفس ، والجسم محسوس ملموس لا يختلف في تقديره اثنان ، فلم يبق موضعاً للنزاع إلا النفس وهي عنده تضاد الأجسام في الحدود والخواص .

”وبيان ذلك — كما شرح في كتاب تهذيب الأخلاق^(١) — أن كل جسم له صورة ما فانه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى إلا بعد مفارقة الصورة الأولى مفارقة تامة . مثال ذلك أن الجسم اذا قبل صورة وشكلا من الأشكال كالتثليث مثلا فليس يقبل شكلا آخر من التربيع والتدوير وغيرهما إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول ، وكذلك إذا قبل صورة نقش أو كتابة أو أى شىء كان من الصور فليس يقبل صورة أخرى من ذلك الجنس إلا بعد زوال الأولى وبطلانها البتة . فان بقى فيه شىء من رسم الصورة الأولى لم يقبل الصورة الثانية على التمام بل تختلط الصورتان فلا يخلص له إحداهما على التمام . مثال ذلك إذا قبل الشمع صورة نقش فى الخاتم لم يقبل غيره من النقوش إلا بعد أن يزول عنه رسم النقش الأول“ .

هذا هو الجسم ، أما النفس فتقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات ”على التمام والكمال من غير مفارقة للأولى ولا معاقبة ولا زوال رسم ، بل يبقى الرسم الأول تاما كاملا وتقبل الرسم الثانى أيضا تاما كاملا ؛ ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبدا دائما من غير أن تضعف أو تقصر فى وقت من الأوقات عن قبول ما يرد ويطرأ عليها من الصور“ .

٥ — تلك إحدى محاولات ابن مسكويه فى استقلال النفس ، وكلامه فى هذا الباب كلام الواثق من صحة ما يقول ، وليته تذكر أننا حين تؤمن بوجود شىء لا ينهض إيماننا حجة على وجود ذلك الشىء على النحو الذى نتصوره ونراه ، فليس اطمئنان ابن مسكويه إلى أن النفس موجودة مستقلة خالدة بكاف فى محو ما يحيك فى الصدور من الريب فى استقلالها

عن الجسم وتفرد بها دونه بالخلود . وأخشى أن يقف قوم في وجه ابن مسكويه فينكروا عليه ما أدعاه من أن النفس "تدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقها فتور ولا كلال ولا نقص" فقد شاهد ناس أن النفس تتبع الجسم في الصحة والمرض والقوة والضعف والنشاط والجمول، وإن الإنسان يرى المعنويات والمحسوسات بأشكال مختلفة في وجوه متباينة تبعاً لاختلاف الذوق والحس والمزاج . ولاحظ ناس كذلك أننا عبيد لحواسنا وأعصابنا وأن جمهورنا مدين في تكوين ذوقه وحسه وعقله إلى ما يأكل وما يشرب وما يلبس وما يرى وما يذوق ، وأنه كذلك مدين إلى من يصادق ويخاصم في تكيف ما يعتلج بصدره من ألوان المودات والعداوات . وقد راعى ذلك فقهاء الشريعة الإسلامية حين وضعوا آداب القضاء، واستحبوا للقاضي أن يمتنع عن الحكم إذا شعر ببعض عوارض المرض أو الظم أو الجوع، فليس من السهل الاقتناع بأن النفس معصومة من التحول والتغير والفساد، كما ظن ابن مسكويه وكما توهم متابعوه .

إن خلود النفس مشكلة قديمة تعبت في حلها العقول ، والقول الفصل هو كلمة القرآن "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" ولو سكت عنها ابن مسكويه لأراح واستراح . ولكنه ظن المنطق والفلسفة يغنيان في كشف ذلك السر الذي لم يحاول كشفه القرآن .

٦ — فإذا تركنا الجوانب النظرية في أساس الأخلاق ومضينا نتعقب جهود ابن مسكويه في شرح الجوانب العملية رأيناه في أكثر الأحوال من الموفقين، من ذلك أنه عرض لشرح القاعدة التي تقول "الإنسان مدني بالطبع" فأخذ يفصلها بأن ذلك معناه "أنه لم يخلق الإنسان خلق من يعيش وحده ويتم له البقاء بنفسه كما خلق كثير من الوحش والبهائم والطيور وحيوان الماء، لأن كل واحد من تلك خلق مكتفياً بنفسه غير محتاج في بقائه إلى غيره، بل قد أزيحت غلته في جميع ما تتم به حياته خلقه وإلهاماً . أما الخالقة فلا أنه مكتسب بما يوافقه من وبر ووصوف وشعر وریش وما أشبه ذلك، وذو آلة يتناول بها حاجته : إن كان لاقط حب

فمنقار، وإن كان آكل عشب فمشفر وأسنان موافقة للقطع والقلع ، وإن كان سبعا أو آكل لحم فأنياب أو مخالب أو مناسر ... وأما الإلهام فلا نه يتناول من الأغذية ما يوافقه ويتجنب ما يضره ، وينتقل من مصيفه إلى مشتاه ، ويعبد مصالحه كلها من القوت ولكن بغير تعليم ولا تدبير، بل بالإلهام المولود معه ، فكل واحد منها مكثف بذاته في حياته التي قدرت له . فأما الإنسان فإنه خالق عاريا غير مهتد لشيء من مصالحه إلا بالمعانة والتعليم ، ولا يكفيه القليل من المعاونين حتى يكونوا عدة كثيرة وجماعة وافرة، وإذ كان هذا على هذا وكان سبيل الإنسان في حياته وحسن عيشته على خلاف الحيوان كله قيل إنه مدنى بالطبع : أى محتاج إلى ضروب المعاونات التي تتم بالمدينة واجتماع الناس . وهذا الاجتماع للتعاون وهو التمدن سواء كان ذلك في الناس وبرا ومدرا أو على رأس جبل^(١) .

٧ - ويخلص ابن مسكويه من ذلك إلى نتيجتين عظيمتين :

الأولى : أنه من العدل أن نعين الناس بأنفسنا كما أعانونا بأنفسهم ونبذل لهم عوض ما بذلوه لنا .

الثانية : أن الذهاب إلى التزهّد وتحريم المكاسب ظلم : لأن الزاهد مضطر لا محالة إلى استنجد الناس في ضرورات بدنه وحاجاته إلى ما يقيم أوده ، فهو يطلب معاوتهم ثم لا يعاونهم ، وذلك ظلم وعدوان . فان ظن أحد من المترهدين أن مقدار حاجته إلى معونات الناس قليل فيعلم أن ذلك القليل يحتاج فيه إلى استخدام عالم كثير من الناس لا يحصون^(٢) "وإن كان لا يشعر بذلك"^(٢) .

وهذه دقة في فهم الأخلاق ، لأننا قد نحسب أننا نحسن إلى الناس على حين لا نعمل غير قضاء ما علينا لهم من ديون . وكل إنسان في الواقع مدين إلى إخوانه في الإنسانية من قرب أو من بعد ، فالمصباح الذي نقرأ في ضوئه ، ونظام البيت الذي نأوى إليه ، والكتاب الذي نهتدى بهديه ، والشرائع التي نعيش في حماها ؛ كل أولئك جزء من جهود إنسانية عديدة

منها القريب ومنها البعيد، وتلك الجهود تظننا ونحن أجنة في بطون أمهاتنا ، وترعانا حين نولد، ثم تظل تلاحقنا ببرها طول الحياة ، إلى أن تشمل أجسامنا بالكرامة والرعاية يوم نموت . فلنعرف بعض ما أسدته إلينا الإنسانية؛ ولنذكر أن أفضلنا وأكرمنا هو من آمن حق الإيمان بأن الحياة تعاون وتساند وأن المرء بنفسه قليل .

٨ — ولعل أفضل ما كتب ابن مسكويه هو الفصل الذى عقده للكلام عن آداب الصداقة ورعاية الصديق، وهو فى هذا مسبق بعدد عظيم من الكتاب والمفكرين، ولكنه بسط القول فى الصداقة بسطاً شافياً ينساب إلى النفس انسياب الماء إلى الأشجار الظماء ، وهو فى ذلك الفصل خاصة يتكلم بكلام المفكر المحترَّب الذى صادق وعادى وعرف كيف تكون مرارة العداوات وحلاوة الصداقات، وهو يشعرنا بأن الاحتفاظ بالصداقة ليس من الأمور الهينة كما يتوهم الأكثرون . وقد نفتنع بعد قراءة ما كتب بأن تألف العدو أيسر من الاحتفاظ بالصديق . وتلك مسألة فى غاية الدقة : فطالما ضيعنا أصدقاءنا حين ظننا بأن فى الصداقة ما يغنى عن التلطف والتودد ورعاية الحقوق .

٤ - ابنه نباتة الخطيب

١ - اشتهر بابن نباتة في الأدب العربي ثلاثة رجال : أولهم عبد الرحيم بن محمد بن نباتة الخطيب الذي ولد في ميفارقين بديار بكر سنة ٣٣٥ ودفن بها سنة ٣٧٤ ، والثاني محمد بن محمد بن نباتة المصرى الشاعر وصاحب "شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" وهو من ذرية ابن نباتة الخطيب كما أشار إليه في آخر إجازته للصالح الصفدى وهى مذكورة في خزانة الأدب (٦٨٦ - ٧٦٨)^(١) والثالث عبد العزيز بن نباتة السعدى أحد الشعراء المحيدين الذين مدحوا سيف الدولة ابن حمدان .

٢ - وابن نباتة الخطيب الذى نحن بصدده رجل موقف رزق ما لم يرزق أحد من الشهرة العريضة بين الخطباء الواعظين . وقد ذكر ابن خلكان أن الاجماع وقع على أن خطبه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته . وقد اهتم النقاد بتعقب خطبه ومناقشتها ، فعرض له ابن أبى الحديد في شرح نهج البلاغة وعرض له ابن الأثير صاحب المشل السائر في عدة مواطن في آتاه ، واهتم بشرح ديوانه جماعة من المشاهير منهم عبد الله العكبرى (٥٣٨ - ٦١٦) وعبد اللطيف بن يوسف البغدادى (٥٥٧ - ٦٢٩) وعثمان بن يوسف القاىوبى المتوفى سنة ٦٤٤

ويظهر مما كُتب عنه أن الرجل كان قد فنى في الوعظ فناء تاما ، وكان مشغوبا بما يطمئنه على مصيره ومصير عمله ، فكان لذلك يتنى لو يرى الرسول في المنام ، وقد صحت له هذه الأمنية . نقل ابن خلكان عن تاج الدين الكندى باسناده المتصل الى الخطيب بن نباتة أنه قال : لما عملت خطبة المنام وخطبت بها يوم الجمعة رأيت ليلة السبت في منامى كأنى بظاهر ميفارقين

(١) ص ١٨ مقدمة ديوان ابن نباتة لطاهر الجزائى ومقدمة ديوان ابن نباتة للبشتكى . (٢) ص ٥٠٧ ج ١

(٣) ص ١٤٢ ج ١ (٤) ص ١١٨ و ١٦٢ و ٤٦٠

عند الجبانة فقلت : ما هذا الجمع ؟ فقال لى قائل : هذا النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فقصدت إليه لأسلم عليه فلما دنوت منه التفت فرأى فقال : مرحبا يا خطيب الخطباء ! كيف تقول — وأوما إلى القبور — قلت : لا يخبرون بما إليه آلوا ، ولو قدروا على المقال لقالوا ، قد شربوا من الموت كأسا مرة ، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرة ، وآلى عليهم الدهر ألية برة ، أن لا يجعل لهم الى دار الدنيا كرة ، كأنهم لم يكونوا للعيون قرة ، ولم يعدوا في الأحياء مرة ! أسكتهم والله الذى أنطقهم ، وأبادهم الذى خلقهم ، وسيجدهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرقهم ، يوم يعيد الله العالمين خلقا جديدا ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا — وأومات عند قولى تكونون شهداء على الناس الى الصحابة ، وبقولى شهيدا الى الرسول صلى الله عليه وسلم — يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا .

فقال لى : أحسنت ، ادنُ ، فدنوت منه صلى الله عليه وسلم فأخذ وجهى وقبله وتفل

فى فى وقال : وفقك الله !

٣ — ومثل هذه الرؤيا يدل على منحة ابن نباتة وفهمه لواجبات الخطيب ، ورؤيا الرسول لا تدل على شيء أكثر من شغل الرأى واتجاهاته الفكرية ، فالرسول حين تراءى له فى نومه لم يحدثه إلا بما يجب هو أن يتحدث به ، وكان ابن نباتة مغرما بالكلام على الموت والمعاد ، وكذلك وجه الرسول اهتمامه فى المنام إلى سؤاله عن مصير أهل القبور . وملحقات الرؤيا تعطينا صورة من عقلية الواعظين ، ولا تزال تلك الصورة موجودة الى اليوم ، فاجتذاب الرسول لوجه الخطيب وتقبيله إياه ثم تفلته فى فمه ، وبقاء الخطيب بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاما ولا يشتهي مع غلبة ريح المسك على فيه وموته بعد ذلك المنام بقليل : كل هذا من الصور العقلية التى تردد كل يوم بين طبقات الواعظين من الخطباء .

ويظهر أن صيت ابن نباتة وسمعته دفعت من بعده الى تلمس أخباره عن طريق المنام ، فقد قال ابن خلكان : رأيت فى بعض المجاميع ، قال الوزير أبو القاسم بن المغربي : رأيت

الخطيب ابن نباتة في المنام بعد موته فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : دفع لى ورقة فيها سطران بالأحمر وهما :

قد كان أمنُّ لك من قبل ذا واليوم أضخى لك أمنان

والصفح لا يحسن عن محسن وإنما يحسن عن جاني

وهذا المنام الأخير فيه صور غريبة ، فالله عز شأنه دفع إلى ابن نباتة ورقة ، ولكن أى ورقة ؟ هى صحيفة مكتوبة بالمداد الأحمر ، وفيها بيتان من الشعر . فالرأى صوّر له وهمه أن المداد الأحمر أدل على القبول ، وأن البراءة حين ترد شعرا تكون أدل على العناية . وهذه الرؤيا تشبه ما قرأته — ولا أذكر أين — أن رجلا رأى أبا نواس بعد موته فقال له : ما فعل الله بك ؟ فأجاب غفر لى بقولى :

تكثر ما استطعت من الخطايا فانك واجدٌ ربا غفورا

وقد أشرت في كتاب الأخلاق عند الغزالي الى المنامات التى رآها أنصار الغزالي وخصومه بعد موته ثم قلت فى التعقيب عليها : « وأنا لا أتخذ من هذه الأحلام دليلا على أن الغزالي من أصحاب الكرامات ، كما توّه بذلك مترجموه ، كلا ! وإنما أتخذها دليلا على ما وصلت إليه منزلة الرجل فى قلوب المساميين ، فان لما يراه المرء فى منامه صلة قوية بما يلهج به فى يقظته ، وهؤلاء الذين جلدوا فى منامهم لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الغزالي وهم أيقاظ ، وعلى الأخص إذا لاحظنا ما شاع بين المساميين فى تلك العصور الخوالى من سلطة الأولياء ، وتصرفهم المطلق فى عالم الأحياء^(١) » .

٤ — هذا الجوّ الذى أحاط بابن نباتة ، جوّ التقى والصلاح والزهد ، أثر فى خطبه أبلغ تأثير ، فأفاض فى ذكر الموت والبعث والحشر والميزان ، وأطال فيما سيلقى المحسنون من الثواب ، وما سيعانى المسيئون من العقاب . وهناك جوّ آخر أثر فى خطبه وأعطاها صبغة قوية رهيبة ، فلهذا ذلك الجو هو اتصاله بسيف الدولة بن حمدان ، وكان سيف الدولة كثير الغزوات ، فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ويحثمهم على نصره سيف الدولة .

٥ — ولكن ما هي قيمة ابن نباتة الذي حدثنا صاحب المثل السائر أن خطبه كانت منشورة بين أيدي الناس يغرمون بها ويكون عليها ، وأنها كانت في أنفسهم تساوى مقامات الحريري ؟

من الوجهة الفنية يعدُّ ابن نباتة من أعرف الناس بصياغة الكلام ، وهو يراعى فنون البديع مراعاة تامة ، ويحججه حسن مقبول . وربما كان السجع أقرب فنون البديع الى لغة الخطباء ؛ فهو أسرع تأثيرا في الجماهير التي لا تفتن إلا إلى الظواهر البراقة من حلية البلاغة والبيان . وربما كان في اختيار الواعظين للسجع اتصال للتقاليد القديمة التي عرفت عن الكهان ، والكهان هؤلاء كانوا رجالا يؤدّون في البيئات الجاهلية ما يؤدّيه الخطباء الواعظون في البيئات الإسلامية ، والجمهور واحد أمام الفريقين : فهو دائما عامة الناس الذين يجدون فيما تحتوى السجعات من الألحان والأنغام والأوزان مثيرا لما لا يدركون من التزعات الانسانية الكامنة التي يهيجها النغم والإيقاع .

٦ — وابن نباتة يجمع بين السجع والموازنة ، وذلك مما يهتم به الحريصون على التفوق في الصناعة اللفظية ، ولنضرب المثل بقوله :

” حتى إذا استحكمت فيهم طماعية التخليد ، واستولت عليهم رفاهية التمهيد “^(٢) .

وهو في هذه الكلمة قابل بين ” طماعية “ و ” رفاهية “ وبين ” التخليد “ و ” التمهيد “ ... وقوله :

” ولكن صال عليهم القضاء فأطرقوا ، وطال بهم العفاء فأخلقوا “^(٣) .

فقد قابل بين ” صال “ و ” طال “ وبين ” القضاء “ و ” العفاء “ وبين ” أطرقوا “ و ” أخلقوا “ .

وكذلك قوله : ” فسلم عباد الله الى محاسبة النفوس ، قبل مواثبة النحوس ، ومقارنة الرموس ، ومعاينة اليوم العبوس ، يوم غض الرؤوس ، وفض الطروس “^(٤) .

والموازنة في هذه الفقرات ظاهرة لا تحتاج الى تعيين .

ومما يحيدده ابن نباتة تضمين آى القرآن ، وإنه ليحكم ذلك إحكاما تاما حتى تقع الآية في سياق الكلام موقعا لطيفا لا يتنبه له القارئ إلا إذا كان من الحفاظ ، وقد اختار له ابن الأثير العبارات الآتية :

”فياها الغفلة المطرقون، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون، فما لكم منه لا تشفقون ، فوبر السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون“ .
وقوله في ذكر يوم القيامة :

”هناك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابا ، وتكون الأعمال المشوبة بالنفاق سرايا ، يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا“ . وقوله أيضا ”هناك يرفع الحجاب ، ويوضع الكتاب ، ويجمع من وجب له الثواب ، ومن حق عليه العقاب ، فيضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب“ .
وهذه التضمينات كثيرة جدا في خطبه ؛ وشهد لها ابن الأثير بأنها من محاسن ما ينبغي في هذا النوع .^(١)

٧ — ويحارب السجع والموازنة والتضمين يوجد فن آخر لابن نباتة هو الكلف بالخيال . والخيال إذا ورد في أمثال تعابيره المثقلة بالزخرف والصنعة والتجويد يقع من أنفس الجماهير موقع السحر ، لأن رواد المساجد والمعابد يقبلون عليها غالبا بنفوس صافية سريعة التأثر والقبول . ومن نماذج التخييل البارع قوله يتحدث عن الله عز شأنه وهو يباهى ملائكته بأفواج الحجاج في عرفات :

”يحنون إلى حنين الطير إلى أوكارها ، ويفدون على من فجاج الأرض وأقطارها ، أنضاء على الأنضاء ، خواضا لجح الرضاء“^(٢) وأنا يعجبني الخيال في قوله ”أنضاء على الأنضاء“ يريد الحجاج الذين أنضاءهم التسقى والخوف على المطايا التي أنضاءها السير والسرى . وقوله

(١) ص ٤٦٠ من المثل السائر . (٢) ص ١٢٧

”خواضا لجح الرضاء“ فيه أيضا خيال جميل ، وإن كنت لا أستجيد إضافة الجح الى الرضاء، لأن أيام الجح لا تكون دائما في القيظ الشديد .

وقد يسمو به التخيل الى بعض الصور الطريفة كقوله في بعض خطب الجهاد .

”قد دخلت علينا الفتنة من كل باب ، وأطمعنا الدنيا إيطاع السراب ، تهارش على حطامها تهارش الكلاب ، ونلبس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب، ننظر الى المعروف نظر الخزر الغضاب، ونسكن الى المنكر سكون الباني بالخود الكعاب، وقد أظلنا من العدو سحاب ممتدة الأطناب، ودبت في ديارنا منه عقارب الخراب“ (١) ؛

وقوله في خطبة أخرى : ”إن للجنة بابا حدوده تطهير الأعمال، وتشبيده إنفاق الأموال، وساحته زحف الرجال إلى الرجال، وطريقه غمغمة الأبطال، ومفتاحه الثبات في معترك القتال، ومدخله من مشرعة الصوارم والنبال“ (٢) .

٨ — أما من الوجهة العقلية فابن نباتة يقف دائما في حدود الأفكار السطحية، فيبدى ويعيد في ذكر الموت والمعاد ، ويتكلم على فضائل المواسم والشهور : فيستقبل أول السنة ويبين فضل يوم عاشوراء، ثم يخطب في فضل رجب، ثم يودعه ليستقبل شعبان، ثم يودع شعبان ليستقبل رمضان ، وهكذا دواليك من الشئون التي تهتم العوام . وأهم خطبه من الوجهة المعنوية خطب الجهاد ، ولكنها أيضا خطب يملؤها الصخب ويقل فيها الروح الملتهب والرأى السديد . وهى دائما دون خطب على بن أبى طالب التي كانت يحفظها ابن نباتة ويتأثرها في جميع مواقف الخطابية . ومن الصعب أن نجد في خطب الجهاد فقرة تستحق الخلود ، أو تدل على عمق في الفكر أو سمو في الخيال ، وإن كنا نرضى عن مثل قوله : ”فقدّموا مجاهدة القلوب، قبل مشاهدة الحروب، ومغالبة الأهواء ، قبل محاربة الأعداء“ (٣) وقوله : ”واستشعروا السكينة اذا كشفت الحرب نقابها ، وأطار الإقدام عقابها ، وأحرّ اللطام ضرابها ، وأمرّ الحمام شرابها ، ونزلتم للجهاد منزلا قد أشرعت ليله الجنة أبوابها ،

(١) ص ١٨٠ من ديوان الخطب النباتية (٢) ص ١٨٤ (٣) ص ١٨٣

وطالعت الحور الحسان منه أحبابها ، وقيل هذه عروس دار الآمال فكونوا الآن خُطابها ،
 وصرخ الشيطان بطعام أعوانه ، وأرعد وأبرق بأضاليل بهتانه ، وهول باحتشاد عبدة صُلبانه ،
 وضمن لهم ما هو مخفر في ضمانه ؛ وجاء الحق وبطل النفاق ، وانسدت بجيش العدو الجهات
 والآفاق ، فأنحدوا هنالك بصواعق العزمات رهجه ، وأبطلوا بصوادق الحملات حججه ،
 وأضربوا ببيض الصفاح شجبه ، وأركبوا ببذل الأرواح لجهه ، وانهبوا بالموت الصراح مهجه^(١) .

ومهما يكن من شيء فقد استطاع ابن نباتة أن يملك ألباب الجماهير بخطبه ، وعرف كيف
 تساس العامة وكيف تغرس في صدورهم بذور التقى والإباء ، واستطاع أن يؤدى الأغراض
 المرجوة من مثله في تعابير فصيحة لو أنها رزقت من العمق ما رزقته من السلاسة لكانت
 مثلاً في براعة الانشاء . وعذر الرجل أنه كان يخاطب طوائف من الناس العمق في مخاطبتها
 عي ، والتدلى في إفهامها إفصاح . ولكل مقام مقال .

(١)

٥ - أبو محمد به عزم

١ - كان الناس يعرفون عن ابن حزم أشياء قليلة من حياته الخاصة . ولم يعرف الجمهور أكثر من أنه كان أكبر علماء الأندلس في عصره ومن أشهر أئمة الإسلام وأعرفهم بالمذاهب الفلسفية والدينية التي تأصلت جذورها عند علماء المسلمين . وكتابه "الفصل في المال والأهواء والنحل" كان ولا يزال من أهم المراجع لعلوم الفلسفة ومذاهب التوحيد .

ويعد ابن حزم أفصح كاتب عرفته اللغة العربية في الفقه والتشريع .

ولكن تبين أخيرا أنه كان لذلك الامام قلب خفاق ، وأنه حمل راية الحب في زمانه واستهدف على عظمته للقليل والقال . وأول ما عرف ذلك كان في دوائر المستشرقين حين طبع كتابه "طوق الحمامة" في لندن سنة ١٩١٤ بعناية المأسوف عليه الأستاذ تروف . وقد أحدث ذلك الكتاب رجة عنيفة جدا في أوروبا وتناولته المجلات الأدبية بالنقد والتحليل . وكان موجب تلك الضجة أنه لم يثبت أن كتابا ألف في "فن الحب" قبل ذلك الكتاب لافي اللغات القديمة ولا في اللغات الحديثة ، لأن أوروبا في القرن العاشر ليلاد كانت معارفها قليلة جدا في الشؤون الوجدانية . فكان من المستظرف حقا أن يكتشف الباحثون أنه كان في ذلك العصر كاتب عربي يتناول حديث الحب والعشق والهيام في تفصيل شائق جذاب هو آية الآيات في فهم أسرار الأهواء والشهوات والقلوب . وذلك كله يقع من رجل كان إماما من أئمة الدين ، ومثالا يُحتذى في أدب النفس ، وكرم الطبع ، ومثانة الخلق . وما كاد

(١) كان ابن حزم خليقا بأن يكتب في ترجمة حياته فصل خاص ، ولكنا راعينا أن شخصيته فلسفية وفقهية قبل أن تكون أدبية ، ولولا كتابه في الحب لما عرضنا لنثره الفني في هذا الكتاب . ولد أبو محمد على بن حزم سنة ٣٨٣ في قرطبة . وتوفي سنة ٤٥٦ ومن جيد شعره :

وان مكانا ضاق عني لضيق * على أنه فيح مهامه سبب

وان رجالا ضيعوني لضيع * وإن زمانا لم أنل خصبه جدد

ينشر كتاب (طوق الحمامة) حتى أقبل على نقده وتصحيحه جماعة من كبار المستشرقين أشهرهم :
جولدزهيير ، ودوزي ، وبروكلمان ، والدكتور سنوك هوجرنيه ، والمسيو مرسيه . وتسابق
المستشرقون الألمان والنمسيون والهولنديون والفرنسيون والانجليز والأمريكيون إلى استغلال
ذلك الكتاب وتلخيصه أو ترجمته والتعليق عليه .

وكان تصحيحه يعدّ رياضة أدبية لكبار المستشرقين فما زالوا يبدئون ويعيدون حتى جاء
المسيو مرسيه فوضع بحثاً هاماً جداً بالفرنسية استدرك به كل ما فات أولئك المصححين من
الأغلاط . وقد رأى أحد المصريين وهو في باريس أن يداعب المسيو مرسيه فعاد إلى طوق
الحمامة فراجع مراجعته دقيقة كشف بها طائفة من الأغلاط غفل عنها المسيو مرسيه حين
أراد أن ينطق بالقول الفصل في تحرير ذلك الكتاب . ثم قدمت تلك التصحيحات إلى جامعة
باريس فأقرها المسيو دي مومبين والمسيو ما سينيون .

٢ — في كتاب طوق الحمامة كلمة عن غرام ابن حزم ، وهو يتحدثنا بأنه كانت له
صبوات في عهد الطفولة . وأنه قال قصيدة قبل بلوغ الحلم أولها :

دليل الأسى نار على القلب تالفحُ ودمع على الخدين يهيم ويسفحُ
إذا كتم المشغوف سر ضلوعه فان دموع العين تبدى وتفضح
إذا ما جفون العين سالت شؤونها ففى القلب داء للغرام مبرح^(١)

ويرى ابن حزم أن المحبة لا تصح إلا بعد كثرة المشاهدة وتمادى الأئس . ويقول
في ذلك :

”وانى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه
ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة . وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل ،
وبعد ملازمة الشخص لى دهرًا ، وأخذى معه فى كل جد وهزل . وكذلك أنا فى السلو
والتوق : فما نسيت لى ودًا قط . وإن حنينى إلى كل عهد تقدّم لى ليغصنى بالماء ، ويشرقى

بالطعام . وقد استراح من لم تكن هذه صفته . وما ملئت شيئا قط بعد معرفتي به ولا أسرعت إلى الأُنس بشيء قط أول لقائي له ، ولا رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذكنت . لا أقول في الألف والاختوان وحدهم . لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعم وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ولا فارقني الإطراق مذذقت طعم فراق الأحبة . وأنه لشجا يعتادني وولوع هم ما ينفك يطرقني . ولقد نغص تذكرى ما مضى كل عيش أستأنفه . وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء ودفين الأسى بين أهل الدنيا . والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو . وفي ذلك أقول شعرا منه :

حبة صدق لم تكن بنت ساعة	ولا وريت حين ارتياذ زانداها
ولكن على مهل سرت وتولدت	لطول امتراج فاستقر عمادها
فلم يدن منها عزمها وانتقاضها	ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكد ذا أنا نرى كل نشأة	ثم سريعا عن قريب نفادها
ولكنني أرض عزاز صليبة	منيع إلى كل الغروس انقيادها
فما نفذت منها لديها عروقها	فليست تبالي أن يجود عهادها ^(١)

٣ — ويرى ابن حزم أن دوام الوصل لا يودى بالحب . وله في ذلك كلمة لم أقرأ أبلغ منها في شعر ولا نثر . وأنظر كيف يقول :

”إني ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادني إلا ظمأ : وهذا حكم من تداوى بدائه وإن رفه عنه سريعا . ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى فما وجدتني إلا مستريدا . ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسأمة ولا رهقتني فترة . ولقد ضمني مجلس مع بعض من كنت أحب فلم أجل خاطري في فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصرا عن مرادى وغير شاف وجدى ولا قاض أقل لبانة من لباناتي ، ووجدتني كلما ازدددت دنوا ازدددت تلددا^(٢) ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي . فقلت في ذلك المجلس :

(١) طوق الحمامة ص ٢٣ ، ٢٤ (٢) التلدد : التلهف والحيرة .

وددت بأن القلب شقٌّ بمديّة وأدخلت فيه ثم أطبق في صدرى
فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى منقضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حيت فان أمت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

وما في الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدا الرقباء ، وأما الوشاة ، وساما من البين ، ورغبا
عن الهجر ، وبعدا عن الملل ، وفقد العذار ، وتوافقا في الأخلاق ، وتكافيا في المحبة ، وأتاح
الله لهما رزقا دازا ، وعيشا قازا ، وزمانا هاديا . وكان اجتماعهما على ما يرضى الرب من الحال^(١) .

٤ — وكان ابن خزم مغرما أشد الإغرام بتتبع أخبار العشاق والمحبين ممن عاصروه وبخاصة
الكتاب والشعراء والوزراء . وكان يحمد في ذلك متعة نفسية غريبة . ومن تلك الأخبار التي
عرفها بنفسه أو نقلت إليه عن معاصريه كانت مادة كتابه (طوق الحمامة) فهو يتحدث عن
الواقع لا عن الخيال . وقد تلقت كثيرا من محاسن العشاق ومساوئهم ودون في كتابه أخبارا
غريبة عن أهل العشق وأهل العفاف ... ومن ذا الذي لا يستطيع قوله :

” وإني لأعلم من نأت دار محبوبه زما ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر التسليم
وأستيفائه حتى دعت نوى ثانية فكاد أن يهلك : وفي ذلك أقول .

أطلت زمان البعد حـ إذا انقضى زمان النوى بالقرب عدت الى البعد
فلم يك إلا كرة الطرف قريبكم وعادكم بعدى وعادنى وجدى
كذا حائر فى الليل ضاقت وجوهه رأى البرق فى داج من الليل مسود
فأخلفه منه رجاء دوامه وبعض الأراجى لا تفيد ولا تجدى^(٢)

ولننظر بأى رقة يتكلم عن رسائل الحب — وللقارئ أن يسأل نفسه بعد ذلك كيف صحت
التجارب لرجل كان يعيش للفقه والفلسفة والدين فى أواخر القرن الرابع وصدر القرن الخامس — :
” وللكتب آيات . ولقد رأيت أهل هذا الشأن يبادرون بقطع الكتب وبجلها فى الماء
وبحج أثرها قرب فضيحة كانت بسبب كتاب . وفي ذلك أقول :

عزيز على اليوم قطع كتابكم ولكنه لم يلف للود قاطع
فأثرت أن يبق وداد ويمتحي مداد فان الفرع للاصل تابع
فكم من كتاب فيه مئة ربه ولم يدره اذ نمتقه الأصابع

وينبغي أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال وجنسه أملح الأجناس . ولعمري إن الكتاب للسان في بعض الأحيان : إما لخصر في الانسان وإما لحياء وإما لهيبة . نعم حتى أن لوصول الكتاب الى المحبوب وعلم الحب أنه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية ، وإن لرد الجواب والنظر اليه سرورا يعدل اللقاء . ولهذا ما ترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه . ولعهدي ببعض أهل المحبة ممن كان يدرى ما يقول ويحسن الوصف ويعبر عما في ضميره بلسانه عبارة جيدة ويحيد النظر ويدقق في الحقائق لا يدع المراسلة وهو ممكن الوصل ، قريب الدار ، داني المزار ، ويحكي أنها من وجوه اللذة . وأما سقى الخبر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبه بسقى الخبر بالريق . وفي ذلك أقول :

جوابً أتاني عن كتاب بعثته فسكن مهتاجا وهيج ساكنا
سقيت بدمع العين لما كتبتة فعال محب ليس في الود حائنا
فما زال ماء العين يحو سطوره فيأما عيني قد محوت المحاسنا
غدا بدموعي أول الخط بيننا وأضحي بدمعي آخر الخط بائنا

ولقد رأيت كتاب محب الى محبوبه وقد قطع في يده بسكين له فسال الدم وأستمد منه وكتب اليه الكتاب أجمع : ولقد رأيت الكتاب بعد جفوفه فما شككت أنه بصيغ اللك ^(١) .

هـ — وفي هذه الفقرات صور لألوان من الحياة الوجدانية التي كان يحياها أهل الأدب والفلسفة وبعض رجال الدين في تلك العصور .

وفي اهتمام ابن حزم بتدوين تلك الأخبار دليل على أن العرب في الأندلس كانوا ينظرون الى الحب في القرن العاشر بنفس العين التي كان ينظر بها الفرنسيون والانجليز والألمان الى الحب في القرن التاسع عشر .

(١) ص ٣١ و ٣٢ واللك بالفتح نبات يصغ به وبالضم نغله أو عصارته .

ولم تكن تلك النظرة خاصة بعرب الأندلس . وإنما كانت معروفة عند العرب في الشرق .
ومن العجيب أن فقهاء الشريعة الاسلامية هم الذين انفردوا من بين رجال الأدب العربي
بإجادة هذا النوع من التأليف . وخاصة فقهاء الظاهرية كابن حزم ومحمد بن داود صاحب
كتاب الزهرة الذي ألفه لمعشوقه محمد بن جامع .

ودراسة الحب باب من علم النفس لا يتقنه إلا الأقلون . والناس يحسبون الكلام
في الحب لونا من العبث . لأنهم يغفلون عن طبائع النفس الانسانية التي لا تخلو من صبوات
في كهولة أو شباب .

وقد عرف كتاب الغرب وشعراؤه ومفكره قيمة تلك الدراسات النفسية فأضافوا بها
الى علم النفس ثروة عظيمة لا تخطر لكتاب الشرق في بال .

٦ — وقد وصل ابن حزم الى نتائج كثيرة من دراسته للحب والجمال ففهمنا منه مثلا أن
الحسن يتلون وفاقا لألفتنا له : فهو يذكر أنه يفضل الشعر الأشقر : لأن الفتاة التي أحباها لأول
عهده بالحب كانت شقراء الشعر . وفي هذا يقول :

”ولقد شاهدت كثيرا من الناس لا يهتمون في تمييزهم ، ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم
ولا تقصير في حدسهم قد وصفوا أحبا بالهم في بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند
الناس ولا يرضى في الجمال فصارت هجيرا لهم وعرضة لأهوائهم ومنتهى استحسانهم . ثم مضى
أولئك إما بسلق أو بين أو هجر أو بعض عوارض الحب وما فارقههم استحسان تلك الصفات
ولا بان عنهم تفضيلها على ما هو أفضل منها في الخلقة ولا مالوا الى سواها . بل صارت
تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم الى أن فارقوا الدنيا .
وانقضت أعمارهم حينئذ منهم الى من فقدوه وألفة لمن صحبوه .

وما أقول إن ذلك كان تصنعا لكن طبعنا حقيقيا واختيارا لا دخلة فيه ولا يرون سواه
ولا يقولون في طي عقدهم بغيره . واني لأعرف من كان في جيد حبيبه بعض الوقص^(٢) فما

(١) في الأصل (الخلقة) . (٢) الوقص ، بالتحريك ، قصر العنق .

استحسن أغيد ولا غيداء بعد ذلك . وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة الى القصر فما أحب طويلة بعد هذا . وأعرف أيضا من هوى جارية في فيها فوه لطيف فلقد كان يتقذر كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف من منقوصي الحظوظ في العلم والأدب ، لكن عن أوفر الناس قسطا في الإدراك وأحقهم باسم الفهم والدراية . دعني أخبرك أني أحببت في صباى جارية لى شقراء الشعر فما استجسنت من ذاك الوقت سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه، وأنى لأجد هذا في أصل تركيبى من ذلك الوقت لا تواتينى نفسى على سواه ولا تحب غيره البتة .

وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى الله عنه . وعلى ذلك جرى الى أن وافاه أجله^(١) .

ومثل هذا الكلام النفيس يفسد بطول الشرح والتعليق فليتأمله القارئ ان شاء . وليعلم أن هذا منهج جميل في علم النفس وبمثل هذه الملاحظات الشخصية تتكون حقائق كثيرة في تقييد ألوان الطباع والغرائز والنفوس .

٧ — ولنعرض لرأى ابن حزم في طبيعة المرأة لنرى ما فطرت عليه في علاقاتها مع الرجال فقد شق الناس قبلنا في فهم ذلك المخلوق اللطيف الذى يقسم الحظوظ في خبث ولؤم ويقضى بين المحبين بمثل ما تقضى به الحية العمياء حين تدخل أبراج الحمام .

وفى ذلك متعة عقلية وروحية فإن المرأة تبدو للرجل في صور مختلفة بعضها كرية وبعضها مقبول، وفقا لما نلتون به من غدر أو وفاء، وهى في حالها سم حلو المذاق ، فهى سر ما نلقى في دنيانا من رشد وغى، وبؤس ونعيم .

وليعرف القارئ أولا أن مثل هذه الدراسات لا يراد بها أن تكون عونا على فهم المرأة فستظل معقدة مهما كثرت الشروح والتفاسير . ولكن الجميل في مثل هذه الدراسات أنها تقدم الى القارئ صورة حية لنفس صدقت في الحب : هى نفس ابن حزم . وهو رجل قليل الأمثال بين رجال الوجدان .

وإني لأعترف بأنى أرى — حين أدرس مثل هذه الآراء — أن نفس الرجل لم تتغير في تذوق المرأة وأن المرأة لم تتغير في حبها للرجل وطغيانها عليه . فنتحن نحب أن نفترض أن هناك فروقا جوهرية في الأذواق والأحاسيس ، وأن الزمن باعد بين القدماء والمحدثين في فهم طبائع الأشياء . ولكننا حين نستمع ما قال الأسلاف في صدق وإخلاص ، نجد الطبيعة الانسانية هي لم تتغير إلا بقدر ضئيل . وهذا هو السر في تعلقنا بالأدب القديم وحرصنا عليه فقد يكون ”القدم“ لونا لغويا يرجع الى طرائق التعبير . ثم يظل الأدب على اختلاف العصور متقاربا جدا في شرح أسرار النفوس .

كان ابن حزم منذ طفولته مغرما بدرس المرأة ، ولننظر قوله :

”لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى : لآنى ربيت في مجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن . ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب أو حين تبقل وجهى . وهن علمننى القرآن ، ورويننى كثيرا من الأشعار ودربننى في الخط . ولم يكن وكدى وأعمال ذهنى مذ أول فهمى وأنا في سن الطفولة إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك ، وأنا لا أنسى شيئا مما أراه منهن . وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن في جهتهن فطرت به فأشرفت من أسبابهن على غير قليل“^(١) .

ويستخلص من هذه الفقرة أن تربية الأطفال وتعليمهم الخط والقرآن والأدب كان يوكل أحيانا الى النساء في الأندلس في أواخر القرن الرابع . ويستخلص منها أيضا أن النساء في منازل الوزراء — كما هو الحال في جميع بقاع الأرض — كانت تقع منهن هفوات تلفت أنظار الأطفال وتحملهم على الشك وسوء الظن . والطفل كثير التطلع الى أخبار من يعاشر من النساء .

ولم تقف معرفة ابن حزم للمرأة عند تلك الحدود الضيقة التي كان يتلقى فيها الدروس ، بل اتفق له وهو يافع أن أحب جارية كانت له اسمها ”نعم“ وكانت أمنية الممتنى ، وغاية في حسن

الخلق والخلق . وقد بفعته فيها الأقدار واخترمها الليالي وسنه دون العشرين وكانت هي
دونه في السن وفي بفعته بها يقول :

”لقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ، ولا تفترلى دمة على جمود عيني وقلة
إسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد
وطارف ، وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها ولقد عفا حبي لها
على كل ما قبله وحرم ما كان بعده“^(١) .

٨ — تحت ابن حزم كثيرا عن وفاء المرأة وغدرها ، وتلك مسألة لاحكم فيها لغير الطباع
والظروف . وأروع ما حدثنا به القصة الآتية :

”أدركت بنت زكريا بن يحيى التيمي ، وكانت متروجة بيحيى بن محمد بن الوزير يحيى
ابن إسحاق فعاجلته المنايا وهما في أغص عيشهما ، وأنضر سرورهما . فبلغ من أسفها عليه
أن باتت معه في دنار واحد ليلة مات . وجعته آخر العهد به وبوصله ، ثم لم يفارقها الأسف
بعده الى حين موتها“^(٢) .

وهذه قصة تستثير الدمع ، وفيها أبلغ معاني الوفاء .

ويشبه هذه القصة الموجهة قوله في كلمة ثانية :

”وأنا أخبرك عن أبي بكر أخى رحمه الله وكان متروجا بعاتكة بنت قند صاحب الثغر
الأعلى أيام المنصور أبى عامر . وكانت التى لا مرمى وراءها فى جمالها وكريم خلاها .
ولا تأتى الدنيا بمثلها فى فضائلها . وكانا فى حد الصبا وتمكن سلطانه . يغضب كل واحد منهما
للكمة التى لا قدر لها : فكانا لم يزالا فى تغاضب وتعاتب منذ ثمانية أعوام . وكانت قد شفها
حبه وأضناها الوجد فيه وأنخلها شدة كلفها به : حتى صارت كالخيال المتوسم ، لا يلهمها من الدنيا
شيء ، ولا تسر من أموالها بكثير ولا قليل إذ فاتها اتفاقه معها ، وسلامته لها ، الى أن توفى أخى
رحمه الله : فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول الى أن ماتت بعده بعام

في اليوم الذي أكل فيه هو تحت الأرض عاما . ولقد أخبرتني عنها أمها وجميع جواربها أنها كانت تقول بعده : ما يقوى صبرى ويمسك رمقى في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سرورى وتيقنى أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبدا، فقد أمنت هذا الذى ما كنت أتخوف غيره . وأعظم آمالى اليوم الخلاق^(١) به .

٩ — والمرأة — كما عرفها ابن حزم — أكثر مواساة وإسعادا في الحب من الرجل ، وعند النساء من المحافظة على سر الحب والتواصى بكتمانها ما ليس عند الرجال . ويقول في ذلك :

”وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين إلا وهى عند النساء ممقوتة مستنقطة . وإنه ليجد عند العجائز في هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات . لأن الفتيات ممن رجا كشفن ما علمن على سبيل التغاير، وهذا لا يكون إلا في الندرة . وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن فانصرف الاشفاق محضا الى غيرهن .

وإني لأعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم فشاع على إحدى جواربها أنها تعشق فتى من أهلها ويعشقها، وأن بينهما معانى مكروهة وقيل لها إن جاريتك فلانة تعرف ذلك وعندنا جلية أمرها . فأخذتها وكانت غليظة العقوبة فأذاقتها من أنواع الضرب والأذى ما لا يصبر على مثله جلدااء الرجال رجاء أن تبوح لها بشيء مما ذكر لها فلم تفعل البتة ... وإني لأعلم امرأة جليظة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير وقد ظفرت بكتاب لفتى الى جارية كان يكلف بها وكان في غير ملكها فعرفته الأمر فرام الإنكار فلم يتهبأ له ذلك . فقالت له : مالك ؟ ومن ذا الذى عَصِمَ ؟ فلا تبال بهذا فوالله لا أطلع على سر كما أحدا أبدا، واو أمكننى أن أبتاعها لك من مالى ولو أحاط به كله لجعلتها لك في مكان تصل إليها فيه ولا يشعر بذلك أحد^(٢) .

وهذه الفقرة تشعنا أن الدنيا تغيرت وأن زمن الخير مضى وراح !

١٠ - وقد فكر ابن حزم في تعليل هذا الخلق وهو يرى أن السر في تمكن طبع المواساة من النساء أنهن متفرغات البال من كل شيء إلا من الحب ودواعيه، والغزل وأسبابه، والتأليف ووجوهه . ولا كذلك الرجال : فانهم مشغولون بطلب العلم وكسب المال ومكابدة الأسفار، ومباشرة الحروب، وملاقة الفتن، وتحمل المخاوف، وعمارة الأرض . وهذا كله صارف للنفس عن فهم معاني المواساة والإسعاد . ومن هنا يتحدثنا ابن حزم أنه قرأ في سير ملوك السودان أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشغلن بها أبد الدهر لأنهم يقولون ان المرأة اذا بقيت بغير شغل إنما تتشوق الى الرجال^(١) .

وهذا الذي يشير اليه ابن حزم هو الحقيقة الباقية : فالفراغ كان ولا يزال هو الأصل في فساد النساء . وهو كذلك الأصل في فساد الرجال : فان العلائق الدنسة المنحطة لاتقع إلا من الفارغين . ومن أجل ذلك يظن كثير من المفكرين أن النساء اللاتي ينهضن ببعض الواجبات الفردية أو الاجتماعية لا يتعرضن لمثل ما يتعرض له النساء الفارغات مهما زعموا أن الاتصال بالناس هو أصل الفساد وأن التحجب هو أصل الصيانة والعفاف .

ولا يتوهم أحد أن المراد من شغل المرأة هو القضاء على الصلات الجنسية ، فان تلك الصلات أساس المجتمع ، وهي كذلك أصل الحياة ومنها تفرعت البنات والأمهات . وإنما المراد أن نقضى بالرياضات المعقولة على الترق والطيش والاسراف في الشهوات . وملاك الأمر في هذا كله الحياء وهو خلق يستفاد من إدراك المسئوليات والتبعات . وذلك لا يتيسر للفارغين العاطلين من رجال أو نساء .

١١ - ومن رأى ابن حزم أن المرأة والرجل سواء في الضعف . وليس أحدهما بأقوى من الآخر على ضبط النفس . فما من رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثم مانع إلا وقع في شرك الشيطان ، ولا امرأة دعاها رجل باسم الحب إلا وأمكنته وان طال الزمان .

ولكن هل معنى ذلك أن الرجال والنساء جميعا معرضون للفساد ؟ اسمع ما يقول ابن حزم في هذا المعنى فإنه خير ما قرأت في الأدب القديم والحديث :

”ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجودا وأعوذ بالله أن أظن غير هذا، وإني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة - أعني الصلاح - غلطا بعيدا . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي اذا ضُبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع امتسكت . والفاسدة هي التي اذا ضُبطت لم تنضبط ، واذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض للمناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع بصره الى الصور البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره الى الوجوه البديعة الصنعة . ويتصدى للشاهد المؤذية ، ويجب الخلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك . والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء .“^(١)

١٢ - كان ابن حزم - كما أشرنا - مغرما بدرس المرأة ، ونضيف إلى ذلك أنه حدثنا بأنه قضى حياته في البحث عن أخبار النساء وكشف أسرارهن وكن قد أنسن منه بكتمان فكن يطلعنه على غوامض أمورهن : فأطلع منهن على عورات كثيرة وعرف من تنبهن في الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباء . ومثل هذا السلوك مهلكة للرجل فان التحدث إلى النساء والاطلاع على أسرارهن باب إلى الغواية . ولكن اسمع ما يقول في ذلك :

« ومع هذا يعلم الله وكفى به علما أني برئ الساحة سليم الأديم صحيح البشرة نقى الحجزة^(٢) وإني أقسم بالله أجل الأقسام إني ما حلت مؤثري على فرج حرام قط ولا يحاسبني ربي بكيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا . والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم^(٣) فيما بقى » .

(١) ص ١١٦ (٢) الحجزة ، بالضم ، معقد الإزار ، ومن السراويل موضع النكة . (٣) ص ١١٨

والظاهر أن ابن حزم كان يحد حرجا من الكتابة في الحب والحديث عن الجمال وكان أهل زمانه يهتمونه بالميل إلى الإثم والفسوق . بغاء يقسم بالله أنه برئ الساحة سليم الأديم .
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للراء مذهب

وقد يهز ناس أكتافهم حين يسمعون مثل هذا القسم من رجل قضى حياته في درس أسباب الهوى وفهم أسرار الجمال لأنهم لا يفهمون كيف يكون الحسن نفسه أهلا للدرس . ومن هنا آستبعد جماعة من الفقهاء أن يكون (طوق الحمامة) من وضع ابن حزم : ظنا منهم أنه لا يهتم بمثل هذه الأبحاث إلا الفاسقون . وكان ابن حزم من أئمة الاسلام : فلا يعقل في ظنهم أن يشغل بسفاسف الحب والجمال !

وهذا الغلط يرجع إلى حقيقة ثابتة : فإن الفسق حجاب كثيف يحول دون فهم الحسن والعشق . وأكثر الناس لا يتثلون الحب إلا موصولا بالفسوق . وهؤلاء عذرهم واضح إذا أنكروا على مثل ابن حزم أن يشغل نفسه بالكلام عن الحب والمحبين .

أقسم ابن حزم أنه لم يرتكب كبيرة منذ عقل «والحتر مؤتمن وإن لم يقسم» وهذا التصون من جانب ابن حزم هو سر عبقريته . فإن الجمال أعز وأمنع من أن يدرك أسرارها من يسومونه الهوان حين يطعمون في الدون من ملذات الحياة ؟

الجمال أهل للدرس . وليس بكثير عليه أن تنقضى في درسه أعمار الأئمة وعظماء الباحثين فإنه أشرف وأنفس ما في الوجود .

والذين يستهجنون درس الجمال لا يدركون كيف كانت تكون المصيبة لو أنصرف الباحثون إلى درس ما في وجوههم من دمامة، وما في طباعهم من عوج، وما في عقولهم من آلتواء . إنما مثل الجمال كمثل النور المشرق الوهاج لا يثبت في مواجهته إلا أعمى العيون . فلا يحسب قوم أننا نرتاب في عمى بصائرهم حين نراهم يستكثرون أن يشغل مثل ابن حزم بدراس أسرار الجمال !

(١)

٦ - أبو منصور الثعالبي

١ - كان عبد الملك بن محمد الثعالبي من أظهر الشخصيات في عصره . وقد صدق صاحب الذخيرة إذ قال فيه « كان في وقته راعى تلعات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم ؛ ورأس المؤلفين في زمانه ، وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الابل ، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب ، طلوع النجم في الغياهب » .

وعبارة ابن بسام هذه قد تبدو كأنها نوع من المدح الفضفاض الذي يقال بلا حساب . ولكن الواقع أن الثعالبي فوق كل مدح ، وفضله على اللغة العربية أكبر من أن يقدر . وما ظنك برجل لو ضاعت مؤلفاته لفقدت اللغة العربية جزءا عظيما جدا من ثروتها الأدبية ومن الذي يستطيع أن يحدد خسارة الأدب لو ضاعت يتيمة الدهر أو ثمار القلوب ؟

ولد الثعالبي سنة ٣٥٠ وتوفي سنة ٤٢٩ والثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب . قيل له ذلك لأنه كان فزاء قبل أن يظهر أدبه ويعلو نجمه ، ويبعد صيته . اتصل بطائفة من رجال الأدب والملك في عصره ، منهم عبيد الله بن أحمد الميكالي ، ومأمون بن مأمون خوارزم شاه . وكان فيما يظهر مرضيا عنه من جميع من صحبهم من الرؤساء والوزراء .

٢ - كان الثعالبي شاعرا وكاتباً ، وإن لم يكن شعره في الطبقة العالية . وقد يستجاد قوله في النسب :

لما بعثت فلم توجب مطالعتي وأمعنت نار شوقي في تلهيها
ولم أجد حيلة تبقى على رمقي قبلت عين رسولي إذ رآك بها

(١) كان مكان الثعالبي بين كتاب النقد الأدبي أليق من مكانه بين كتاب الآراء والمذاهب . ولكنا لاحظنا أن له

اتجاهات نفسية تقربه من كتاب هذا الباب . (٢) ص ٥٢١ ج ١ وفيات .

أما نثره بغيره، يغلب عليه السجع ، ولكنه برئ من التكلف ومن الغموض . وانظر قوله في وصف عبيد الله الميكالي : « ومن أراد أن يسمع سر النظم ، وسحر النثر ، ورقية الدهر ، ويرى صوب العقل ، وذوب الظرف ، ونتيجة الفضل ، فليستشده ما أسفر عنه طبع مجده ، وأقره على فكره ، من ملح تمتزج بأجزاء النفوس لنفاستها ، وتشرب القلوب لسلاستها ... وآيم الله ما من يوم أسعفني فيه الزمان بمواجهة وجهه ، وأسعدني بالاقتراس من نوره ، والاعتراف من بحره ، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنتثر من شمائله ، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله ، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألاحظه ، وآتتهبت فرائد الفوائد من ألفاظه ، إلا تذكرت ما أنشدنيهِ أدام الله تأييده لابن الرومي :

لولا عجائب صنع الله ما نبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامي عنده بغير وزآباد ، إلهدى قراه برستاق جوين ، سقاها الله ما يحكي أخلاق صاحبها من سبيل القطر ! فانها كانت بطلعتنه البدرية ، وعشرته العطرية ، وآدابه العلوية ، وألفاظه اللؤلؤية ، مع جلائل إنعامه المذكورة ، ودقائق إكرامه المشهورة ، وفوائد مجالسه المعمورة ، ومحاسن أقواله وأفعاله التي يعياها الواصفون ، أنموذجات من الجنة التي وعد المتقون . فاذا تذكرتها في تلك المراجع التي هي مراتع النواظر ، والمصانع التي هي مطالع العيش الناضر ، والبساتين التي إذا أخذت بدائع زخارفها ، ونشرت طرائف مطارفها . طوى لها الديباج الخسرواني ، ونفى معها الوشي الصنعاني ، فلم تشبه إلا بشيمه ، وآثار قلمه ، وأزهار كلمه ، تذكرت سحرا وسميا ، وخيرا عميا ، وارتياحا مقيا ، وروحا وريحانا ونعيا .^(١)

٣ — أهمية الثعالبي من الوجهة الفنية لا ترجع إلى شغله بأزمات النفوس ، وشموات القلوب ، ونزوات الرؤس ، وثورات العقول . وإن كان يظهر من ثنايا كلامه أنه رجل خبر النفس الانسانية ، وعرف ما تُرزأ به من بلايا الحب والبغض ، والرغبة والاشفاق ، والطمع والاختفاق ، وتمرس بأهوال الاقبال والادبار ، والغنى والفقر ، والتعظيم والبؤس ، وعرف كيف يصطرع الشك واليقين ، والهدى والضلال .

وإنما هو كاتب شغل بتدوين الفنون الأدبية واللغوية، فقدم لأهل عصره ولقراء اللغة العربية في مختلف الممالك وعلى اختلاف الأجيال غذاء قويا للعقول والمشاعر والأذواق، ووضع أمام قرائه صوراً مختلفة للقرائح والعبقريات التي عرفها بنفسه أو سمع بأخبارها، أو قرأ آثارها، حتى يمكن الحكم بأن القرن الرابع كان يحى أو يكاد لو لم يظفر بذلك الحافظ الأمين.

٤ - للثعالبي مؤلفات كثيرة . منها كتاب الكنايات ، وضعه للكناية عما يستهجن ذكره ، ويستقبح نشره ، أو يستحيا من تسميته ، أو يتطير منه ، بألفاظ مقبولة تؤدى المعنى ، وتحسن القبيح ، وتلطّف الكثيف ، فيحصل بها المراد مع العدول عما ينبو عنه السمع ، ولا يأنس به الطبع .

وقد ذكر أنه لم يسبق بتأليف مثله . وهذا إن صح كان دليلاً على تفوقه في الابتكار . ولكنى رأيت أحمد بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٤٨٢ يذكّر في مقدّمة كتابه في الكنايات أن تصنيفه كذلك مبتكر مخترع لم يسبق إليه ، ولم يراحم من قبل عليه ، مع أن الثعالبي سبقه بنحو ثمانين سنة ، ألا يمكن أن يكون الثعالبي أيضاً يدعى السبق أدعاء ؟ وأن المؤلفين من قبله قد نحووا ذلك المنحى في جمع أنواع التعريض والكنايات ؟ ذلك ما لا نستطيع الجزم به ، وإن كنا أثبتنا هذا الفرض لمناسبة ما أدعاه الجرجاني من الابتكار مع أنه مسبوق .

كتاب الكنايات كتاب جيد ممتع ، لا تمل معاودته ، ولا تنصرف النفس عن الرجوع إليه . وهو يمثل براءة العرب وافتنائهم في التعبير . ولعل أجمل ما فيه ما يستحيا من نقله . ولكننا نذكر بعض الكنايات المستملحة التي أودعها الثعالبي كتابه مع الاعتراف بأننا نخيرنا أقل ما فيه روعة ، إثارةً للتحفظ والوقار .

حكى الصولى عن المكتنى في حديث له قال : سهرت البارحة فذكرت بعض أدوية السهر : فأنست فنمت . قال : فقلنا له : والله ما سمعنا بأحسن من هذه الكناية قط . فقال : والله ما سمعتها قبل وقتي هذا وإنما ساقها اللفظ .^(١)

(١) ودواء السهر كناية عن النكاح وعن السكر .

وكتب صاحب : إن سيدى أمتطى الأشهب فكيف وجد ظهره، وركب الطيار
فكيف شاهد جريه، وهل سلم على حزونة الطريق، وكيف تصرف، أفى سعة أم ضيق ؟
(وهذه قطعة من خطاب كتبه الى صديق دخل على عروسه) .

قال : ومن طريف الكناية عن أخذ العذرة ما قرأته في أخبار بشار بن برد حين قال له
يزيد بن منصور في دار المهدي : يا شيخ ما صنعتك ؟ قال : ثقب اللؤلؤ . وأرى صاحب
أخذ منه قوله لأبى العلاء الأسدى وقد دخل بأهله :

وقد مضى يومان من شهرنا فقل لنا هل تُقْب الدُرُّ
وله يقول أيضا :

قلبي على الجمرة يا بابا العلا فهل فتحت الموضع المقفلا
وهل فككت الكيس عن ختمه وهل كملت الناظر الأحوال
ولابن العميد في هذا المعنى :

أنعم أبا حسن صباحا وأزدد بزوجتك آرتياحا
قد رُضت طرفك خاليا فهل آستلنت له جماحا
وطرقت منغلقا فهل سنّى الإله له أنفتاحا

وأشد أبو الفضل الميكالى لنفسه في مداعبة كانت له بين أهله :

أبا جعفر هل فضضت الصِّدف وهل إذ رميت أصبت الهدف
وهل جبت ليلا بلا حشمة لهول السرى سُدفًا في سُدف

قال الثعالبي : وبلغنى عن ابن عمر القاضى أنه كان لا يجلس للخصوم حتى ينال من الطعام
والشراب ويلم بأهله احتياطا على دينه وتعقفا بالحلل عما عساه تُتوق نفسه اليه من الحرام
إذا بدرت منه لحظة لمن عساها تتحاكم اليه من النساء الحسان . فقرأت لأبى إسحاق الصابى
فصلا في هذا المعنى بعينه من كتاب عهد سلطاني لبعض القضاة تعجبت من حسن عبارته ،
ولطف كنيته ، وهو :

(١) العذرة : البكارة .

”وأمره أن يجلس للخصوم وقد نال من المطعم والمشرب طرفاً يقف به عند أول الكفاية، ولا يبلغ به إلى آخر النهاية، وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة كلها، وعوارض البشرية بأسرها، لئلا يلم به ملم، أو يطيف به طائف، فيحيلان عن رشده، ويحولان بينه وبين سداده“^(١).

٥ — ومن مؤلفات الثعالبي « كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب »^(٢) وهو كتاب بناه على ذكر أشياء مضافة ومنسوبة إلى أشياء مختلفة يتمثل بها ، ويكثر في النظم والنثر وعلى السن الخاصة والعامة استعمالها ، كقولهم غراب نوح ، ونار إبراهيم ، وذئب يوسف ، وعصا موسى ، وخاتم سليمان ، وحمار عزيز ، وكقولهم كثر النطف ، وقوس حاجب ، وقرطاً مارية ، وصحيفة المتلمس ، وحديث خرافة ، ومواعيد عرقوب ، وجزاء سنار ، ويوم عبيد ، وعطر منشم ، ونسر لقمان ، الخ .

ونحن نقول بدون تحفظ إن هذا الكتاب من أنفس ما كتب باللغة العربية . ولغة الثعالبي فيه تمتاز عن لغته في سائر كتبه بالخلق من السجع ، والجرى على السجية السمحة بلا تعثر ولا التواء . وقد جمع الثعالبي في كتابه هذا أكثر ما عرف لعهد من الطرف والنوادر والفكاهات والأفاقيص . وهو يصور علم معاصريه وجهلهم أتم تصوير . ولهذا الملاحظة قيمتها ، فليس كل ما في كتاب ثمار القلوب حقائق ثابتة ، وإنما هو مجموعة من الحقائق والأكاذيب التي قبلها معاصروه ، وعدوها من العلم الصحيح .

فن أغلظه الكلام عن ثعابين مصر إذ ارتضى قول الجاحظ : الثعابين لا تكون إلا بمصر واليهما حول الله تعالى عصا موسى عليه الصلاة والسلام . قال تعالى : ﴿ فأتى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ ، يعنى أنه حولها ثعباناً . والثعبان عجيب الشأن في إهلاك بني آدم ، فليس له عدو إلا النمس وهي إحدى عجائب الدنيا ، وذلك أنها دوية متحركة ، فإذا رأت الثعبان دنت منه فينطوى الثعبان عليها يريد أن يعضها ويأكلها فتحبس في بطنها ريحاً ،

(١) أنظر ص ١١ و ١٢ و ١٣ (٢) طبعه المرحوم محمد بك أبو شادي سنة ١٣٢٦ هـ .

وتزفر زفرة فتقتد الثعبان قطعتين ، ولولا النمس لأكلت الثعابين أهل مصر . وهى هناك أنفع لأهلها من القنافذ لأهل سيجستان .

وهذه فكرة غير صحيحة ، فالثعابين موجودة فى مصر وفى غير مصر . وليس للثعابين فى مصر كل هذا الخطر ، فقد تمضى القرون ولا يسمع بملدوغ . وإن كان فى فطرة الأهالى عداوة الثعبان ومهاجمته حيث وجدوه ، وهى فطرة الناس فى جميع البلاد .

وقد عرض الثعالبي لصناعة أهل الصين فدلنا على أن معاصريه لم يكونوا بارعين فى النقش والتصوير إذ قال : ”وأهل الصين مختصون بصناعة اليد والحذق فى عمل الطُرف، يقولون: أهل الدنيا ما عدانا عُنى ، إلا أهل بابل، فانهم عُور . ولهم الإغراب فى نحرط التماثيل، والابداع فى عمل النقوش والتصاوير، حتى أن مصوِّرهم يصوِّر الانسان ولا يغادر منه شيئا، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوِّره ضاحكا أو باكيا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك النجل، وبين المبتسم والمستغرب، وبين ضحك المسرور وضحك الهازئ، فيصوِّر صورة فى صورة ^(١) .

وهذا الذى يراه الثعالبي غريبا من أهل الصين عادى لا غرابة فيه عند الأمم التى تُعنى بالتصوير، ولكن عذر الثعالبي وعذر معاصريه وأسلافه أن النقش والتصوير كانا مما يحاربه رجال الدين، فبقيت لذلك صناعات اليد خاملة أو ضعيفة عند كثير من الناس .

٦ — ومن دقائق الإضافات فى ثمار القلوب أنها ترىنا فهم العرب لكثير من الطباع الانسانية والحيوانية . من ذلك (عرق الخال) فإن العرب تقول : عرق الخال لا ينال . يريدون أن عرق الخال أنزع من عرق العم . قالوا : والدليل على أن نصيب الأمهات فى الأولاد أكثر وأنها على الشبه أغلب ، أن أكثر ما تلد الأمهات الإناث . وكذلك جميع الحيوان . فإذا أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فأحص سكان عشر دور من يمينك وعشر من شمالك وعشر من خلفك وعشر من أمامك ، فانظر أيها أكثر ، رجالهم أم نساؤهم ، واعتبر ذلك فى الابل

والبقر والشيء . وهم يعللون ذلك بأن الولد لا يخلق من ماء الأب دون ماء الأم ، والأب إنما يقذف مثل المخطئة أو البصقة ثم يعتزل أو يغيب أو يموت أو يكون حاضرا ، والأم منها الرحم وهو القالب الذي يطبع على الولد وتفرغ فيه النطفة كما يفرغ الرصاص المذاب في القالب . فاذا وقع ماء الرجل وماء المرأة في القالب وفي قرار الرحم فامتزجا تشعب خلق الولد على قدر تشعب الرحم ، ثم لا يقتضى إلا من دم الأم ، ولا يمص إلا من قواها ، ولا يجذب إلا من الأجزاء التي فيها من لطائف الأغذية . وله ذلك مادام في جوفها . فاذا ظهر غذته بلبنها ، ولا يشك الأطباء في أن اللبن دم استحال عند خروجه ، فهي تغذوه بدمها مرتين ، وتزيد في خلقه من أجزائها دفعتين ، ولذلك صار حب النساء للأولاد أشد من حب الرجال .^(١)

وهذا رأى قد يرتاب علماء اليوم في بعض تفاصيله ، ولكنه في جملته يدل على دقة الملاحظة عند علماء العرب وعند جمهور العرب نفسه ، فقد تغنى الشعراء في الجاهلية وفي صدر الاسلام بفضل الخال وعدوه من جملة الآباء .

٧ — وفي ثمار القلوب إشارة الى كتيب للثعالبي اسمه (حشو اللوزينج) يبين غرامه بتصيد دقائق الأساليب . وحشو اللوزينج يضرب مثلا للشيء يكون حشوه أجود من قشره . وذلك أن حشو اللوزينج خير منه فيشبه به الحشو في الكلام يستغنى عنه وهو أحسن منه . وهو نادر في كلام العرب ، ومن أشهره قول عوف بن محلم :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى الى ترجمان

فقوله (وبلغتها) حشو مستغنى عنه ، ومعنى الكلام يتم بدونه ، ولكنه أحسن من جملته . قال الثعالبي : سمعت أبا الفرج يعقوب بن ابراهيم يقول : سمعت أبا سعد رجاء يقول : دخلت يوما على أبي الفضل بن العميد فقال لى : إمض الى أبي الحسين بن سعد فقل له : هل تعرف لقول عوف (إن الثمانين وبلغتها) ثانيا في كون الحشو أحسن من المحشو ؟ قال : فسرته اليه وبلغته الرسالة فقال : سألتني عنه محمد بن علي بن الفرات فسألت أبا عمرو غلام ثعلب

فقال سألت عنه ثعلبا فلم يأت بشيء، ثم بلغني أن عبيد الله بن عبد الله سأل المبرد عنه فأشده قول عدى بن زيد لابنه زيد بن عدى في حبس النعمان :

فلو كنت الأسير — ولا تكنه! — اذن علمت معذ ما أقول

قوله (ولا تكنه) حشو مستغنى عنه، ولكنّه في الحسن نظير (وبلغتها) .

واستطرد الثعالبي فنقل عن كتابه حشو اللوزينج أن المأمون قال يوما ليحيى بن أكرم : هل تغديت اليوم؟ فقال : لا ، وأيد الله أمير المؤمنين! فقال المأمون : ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها! وذلك أنه لو قال : لا أيد الله أمير المؤمنين، لكان أشبه بالدعاء عليه لاله، ولكنه استظهر بالواو وجعلها حاضرة بين "لا" و"أيد الله أمير المؤمنين" حذرا من وقوع الشبهة. وكان الصاحب يقول : هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ في حدود المرد الملاح .

وعناية الثعالبي بالبحث عما عجز عنه أئمة اللغة والأدب واضح الدلالة على شغفه بأسرار البيان، لا سيما وقد أطل التتقيب عن دقائق التعابير التي وقعت لمعاصريه كالصاحب والميكالي والحوارزمي وبديع الزمان .

٨ — وفي ثمار القلوب تفسير روائى لبعض الأمثال، كقولهم (ماء عناق) وهو مثل يضرب للدهاية . وخلاصة حديثه أن رجلا كان يسقى وبنته تلقاء وجهه فنظر فاذا برجل قد عانق امرأته يقبلها ، فأخذ العصا وأقبل مسرعا، فلما رأته المرأة أخفت الرجل فيما بين المتاع ، فنظر يمنة ويسرة فلم ير شيئا، فنظر في الأرض فلم يبصر أحدا، فكذب بصره وكر راجعا . فلما كان الورد الثانى قالت المرأة: هل لك فى أن اكفيك السقى وتتورع اليوم؟ قال : نعم إن شئت . فأقام فى البيت، وانطلقت تسعى، وتحينت منه غفلة، فأخذت العصا وأقبلت حتى علت بها رأسه . فقال : ويلك ! مادهاك؟ قالت : أين المرأة التى رأيتك معها معانقا لها ؟ فقال : والله ما كان عندى امرأة! قالت : بل أنا نظرت إليها بعينى وأنا على الماء . فتعالفا . فلما أكرث قال : إن تكونى صادقة فإن ماءكم هذا ماء عناق .

وفي كتاب ثمار القلوب كثير من أمثال هذه الأفاصيص . وهي فكاهات اخترعها الكتاب تفسيرا للأمثال التي جهلوا مواردها ، وربما اخترعوا المثل والقصة وأذاعوها في الناس ، فيظن من لا رأى له أنها من أثر الواقع لا من صنع الخيال .

٩ — وأشهر مؤلفات الثعالبي "يتمية الدهر" وهو كتاب عظيم أودعه أخبار من عصره من الشعراء . ألفه سنة ٣٨٤ ، ثم استمر في تحريره والإضافة إليه عدة سنين ، فكان يبنى فيه وينقض ، ويحو ويثبت . وصار مثله فيه كمثل من يتأنق في بناء داره التي هي عشه ، وفيها عيشه ، فلا يزال ينقض أركانها ، ويعيد بنائها ، ويستجدّها على أنحاء عدة وهيآت مختلفة ، فان مات فيها مغفورا له انتقل من جنة إلى أخرى وورد من جنة الدنيا على جنة المأوى ، كما قال ^(١) .

وقد قسم الكتاب أربعة أقسام يشتمل كل قسم منها على أبواب وفصول :
القسم الأول في محاسن أشعار آل حمدان وشعرائهم وغيرهم من أهل الشام وما يجاورها ومصر والموصل .

والثاني في محاسن أشعار أهل العراق والدولة الديلمية من طبقات الأفاضل وما يتعلق بها من أخبارهم ونوادرهم وفصوص من فصول المترسلين منهم .
والقسم الثالث في محاسن أشعار أهل الجبل وفارس وجرجان وطبرستان من وزراء الدولة الديلمية وكتّابها وقضاتها وشعرائها وسائر فضلائها .

القسم الرابع في محاسن أهل خراسان وما وراء النهر من الدولة السامانية والغزنية والطارئين على الحضرة ببخارى من الآفاق والمتصرفين على أعمالها ، وما يستظرف من أخبارهم ، وخاصة أهل نيسابور والغرباء الطارئین عليها والمقيمين بها .

١٠ — والثعالبي في يتمية يؤثر السجع ، ولا يتركه إلا في أحوال قليلة ، ولكن سجمه على كل

حال مقبول .

وهو قليل التعليل لأحكامه على الكتاب والشعراء . فإذا بدا له أن يعلل ويحلل وينقد فعل بلا تعمق ولا استقصاء ، ومن أمثلة تعليله قوله في تفضيل شعراء الشام وما يقارنها على شعراء سائر البلدان .

”والسبب في تبرز القوم قديما وحديثا على من سواهم في الشعر قريهم من خطط العرب ، ولا سيما أهل الجحاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق يجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم أيهم“^(١) .

وفي بعض الأحيان يطيل في ترجمة الشعراء والكتاب ، ولا يفعل ذلك إلا حين يعرض لمن كثر خصومهم وأنصارهم وتشعبت فيهم الأقاويل ، كالمثنوي والصاحب وأبي فراس . وفيما عدا ذلك يلم إلماما خفيفا قد يصل به إلى ترجمة كاتب أو شاعر في نصف صفحة . وذلك جانب من الضعف في ذلك الكتاب النفيس .

١١ — الثعالب في اليتيمة مفتون بالاسراف في إطراء من يتحدث عنهم من مشاهير الرجال . وله في ذلك تعابير تكاد تكون واحدة يدور بها هنا وهناك . فأبو علي الزوزني الكاتب ”يغرس الدر في أرض القراطيس ، وينشر عليه أجنحة الطواويس“^(٢) .

وأبو الفرج البغيا ”ظرف الظرف ، وينبوع اللطف ، له كلام ، بل مدام ، بل نظام من الياقوت بل حب الغمام“^(٣) .

وأبو القاسم الاسكافي ”لسان خراسان وغرتها وعينها وواحدتها وأوحدتها في الكفاة والبلاغة ومن لم تخرج مثله في البراعة والصناعة“^(٤) .

وبديع الزمان ”نادرة الفلك ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة ، وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس“^(٥) .

وعبد الرحمن الشيرازي ”روضة مجد وشرف ، وحديقة فضل وأدب“^(٦) .

(١) ص ٦ (٢) ص ٧٠ ج ٤ (٣) ص ١٧٣ ج ١ (٤) ص ٢٩ ج ٤
(٥) ١٦٧ ج ٤ (٦) ص ٩٧ ج ٣

١٢ - ومع أن الثعالبي يميل إلى الطنطنة في التعريف بالكتاب والشعراء فإنه لا يلتزم هذه الخطة وإنما يعود إليها في الحين بعد الحين، ويغلب على ظني أنه لا يفعل ذلك إلا حين تكون نفسه مستعدة لتنميق الإنشاء، وإذ ذلك لا يكون مشغولاً بتقديم الصفات الحقة لمن يترجم لهم، وإنما يشغل بعرض مواهبه هو وقدرته على التصرف في فنون الكلام، فتارة يقول في ابن نباته السعدي "من فحول شعراء العصر وآحادهم، وصدور مجيديهم وأفرادهم، الذين أخذوا برقاب القوافي، وملكوا رق المعاني، وشعره مع قرب لفظه بعيد المرام، ممتز النظام، يشتمل على غرر من حر الكلام، كقطع الرياض غب القطر، وفقر كالغنى بعد الفقر، وبدائع أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب، وأرق من نسيم الأسحار وشكوى الأحياب"^(١).

وحينا يقول في محمد بن حامد "يجمع بين قول فصل، وأدب جزل، ويؤلف بين أشتات المناقب، وينظم عقود المحامد، وله خط يستوفي أقسام الحسن، وتكثر الورد، ونظم كنظم الدر"^(٢).

وآنا يقول في المتنبي "نادرة الفلك، وواسطة عقد الدهر، في صناعة الشعر، شاعر سيف الدولة المنسوب إليه المشهور به، إذ هو الذي جذب بفضبعه، ورفع من قدره، ونفق شعر شعره، وألقى عليه شعاع سعادته، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر، وسافر كلامه في البدو والحضر، وكادت الليالي تنشده، والأيام تحفظه"^(٣).

١٣ - ولنقيد هنا أن الثعالبي كثير الاستغلال لألفاظ معاصريه، فهو لا يملك كل ما في ثره من الاستعارات والتشبيهات. وله عذره في ذلك فقد شغل بجمع طرائف التعبير، حتى لم يكن الحكم بأن أخيلة غيره كانت تسبق إليه من حيث لا يحتسب، وإن كنا لا نبرئه من قصد السرقة ونية الانتهاب^(٤).

(١) ص ١٤٣ ج ٢ (٢) ص ١٦٠ ج ٤ (٣) ص ٧٨ ج ١

(٤) أنظر مقدمة سحر البلاغة ص ١١٤، ١١٥ ج ١ زهر الآداب.

١٤ — وأخيرا نذكر أن من أقبل عيوب كتاب اليتيمة إغفال الوفيات، فقد يندر أن يذكر مؤلفه في أى عام مات من يحدثنا عنه، وفي أى عهد لقيه أو سمع به، ولو أن الثعالبي عني بتدوين الوفيات لأدى لتاريخ الأدب حقا من أوجب الحقوق .

١٥ — ومن أهم مؤلفات الثعالبي كتاب "فقه اللغة" وهو كتاب جيد في ثلاثين بابا رتبت فيه الألفاظ على حسب المعانى . وليس كتاب فقه اللغة في جملته من صنع الثعالبي، فقد نقل فصولا برمتها عن أمثال ابن دريد والخوارزمي وأبي الحسن الجرجاني، وابن الأعرابي . ولكن له فضل الترتيب والتبويب . ويزيد هذا الفضل اذا لاحظنا أن المصادر التي نقل عنها ضاعت ولم يبق لها أثر إلا في كتابه . وهو يذكر في الفصول التي ينقلها عن غيره أنه عرضها على مظانها فصح أكثرها أو قارب الصحة . وقد يجد مؤلفا وضع في تفصيل طائفة من المعانى فيعمد اليه فيخرج منه ما يراه أصح لكتاب^(١)ه . وفي الكتاب فصول مهمة فيما يجرى مجرى الموازنة بين العربية والفارسية والرومية^(٢) .

ويلاحظ على كتاب فقه اللغة أنه مختصر في موضوعه، وأنه خال من الشواهد، بحيث يظن أن المؤلف حكم فيه هواه، ولو أنه ضرب الأمثال من الشعر والنثر لتحديد المعانى التي رعى الى تحديدها في كتابه لأصبح ذلك السفر كتاب أدب ولغة، ولكان متعة لا تملها النفس، وأساسا لدرس تطورات المعانى والألفاظ والتعابير^(٣) .

ونحن — بعد ما وجهناه من النقد الى الثعالبي — نعترف بأنه رجل خفيف الروح نقرأ كتبه ورسائله برغبة ولذة وشوق، وهو لذلك عميق الأثر في نشر ما عُرف لعهد من أنواع الثقافة الأدبية . طيب الله ثراه !

(١) ص ٤٣٢ (٢) ص ٤٣٩ (٣) ٤٥٠ — ٤٥٦

(٤) مضت بعض الملاحظات على هذا الكتاب فيما كتبناه عن ابن فارس . راجع ص ٣٩ من هذا الجزء .

البَابُ السَّادِسُ

كِتَابُ الرَّسَائِلِ وَالْعَهْدِ

١ - أبو الفضل بن العميد

١ - أبو الفضل بن العميد هو محمد بن الحسين سيد كتاب اللغة العربية في القرن الرابع ، وأعرف الوزراء لعهدده بسياسة الملك ، وبناية المجد ، وكان معاصروه يسمونه "الجاحظ الثاني" لتوسعه في العلوم العقلية والنقلية ، واطلاعه على ما دوّن الأقدمون في الأدب واللغة والفلسفة والتشريع . وما أحسبهم سموه الجاحظ الثاني في الكتابة ، لأنه أكتب من الجاحظ وأعرف منه بأسرار الكلام البليغ .

٢ - وقد اهتم كثير من كتاب التراجم بالكلام عن أبي الفضل بن العميد : فتحدث عنه الثعالبي وياقوت^(١) وابن خلكان^(٢) بشيء من التفصيل ، وعرض له التوحيدى في غير موضع ، ولكن أبجل ما قرأنا في ترجمته هو الفصل الممتع الذى عقده للكلام عنه أبو على بن مسكويه في كتاب (تجارب الأمم)^(٣) بعد أن لازمه ليل نهار في صحبة دامت سبع سنين .

٣ - كان ابن العميد باتفاق من ترجموا له أكتب أهل عصره ، وأحفظهم للغة والغريب ، وأكثرهم توسعا في النحو والعروض واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وأعرفهم بشعراء الجاهلية والإسلام ، وأدراهم بتأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه ، وأبصرهم باختلاف فقهاء الأمصار ، وأنفذهم سهما في الهندسة والمنطق وعلوم الفلسفة والآليات .

ولا يحسب القارئ أن من الكثير أن يتصف رجل واحد بكل هذه المزايا . فقد كان ابن العميد خصب ذهن جدا ، وكان يؤمن بأن المجد يفرض على طلابه وصل النهار بالليل في الدرس والتحصيل وتدير الأمور ، ولم تشغله الوزارة عن الاختلاف إلى مجالس العلماء والاستفادة ممن عرفوا بسعة العلم ودقة البحث ، وإنهم ليدكرون أنه كان يقرأ كتاب الطبائع

(١) بنية الدهر ص ٢ - ٢٥ ج ٣ (٢) في مواطن كثيرة من (إرشاد الأريب) .

(٣) ج ٢ ص ٤٦٣ - ٤٦٦ (٤) ج ٢ ص ٢٧١ - ٢٨٢

للمحافظ على أبي بكر الخياط فاتفق أنه كان عنده في بعض الأيام وقد نزع نعله فأخذه كلب في الدار وأبعده عن موضعه، وأراد أبو بكر الطهارة فقام ولم يره، وطلبه فلم يجده، فرأى ابن العميد أن يقدم إليه نعل نفسه؛ فعَدَّ ناس ذلك إسرافاً من ابن العميد، فلما بلغت هذه المؤاخذه قال: كيف ألام على تعظيم رجل ما قرأت عليه بيتاً من (الطبائع) إلا عرف ديوان قائله وقرأ القصيدة من أولها حتى ينتهي إليه. ولقد كنت وغيرى تهتم أبا عثمان الجاحظ فيما يستشهد به من غريب الشعر حتى دلنا على مواضعه... أفما يستحق من هذه الصفة صفة هذه الكرامة اليسيرة في جنب هذه الفضيلة الكبيرة؟^(١)

ولهذا الخبر قيمته الأدبية فضلاً عن قيمته الخلقية، فهو من جهة الخلق دليل على تواضع ابن العميد وبره بالعلماء، ولكنه من الجهة الأدبية دليل على ميله إلى التعمق وشغفه بالاستقصاء، فكان من همّه أن يحفظ دواوين القدماء وأن يستدرك على قاصديه من أهل الأدب والرواية ما يقع في كلامهم من لحن أو حذف أو تصحيف.

٤ — ولم تكن معارف ابن العميد على كثرتها من النوع الذي يقدر بالميكال، بل كانت في غاية من الدقة ولطف الجوهر: فقد حدثنا الصاحب بن عباد أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه ابن العميد "فانه يتجاوز قد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات، ولا يرضى بهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن" إلى أن قال: "وسمعتُه — أيده الله — يقول إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر، ويبدأ النسيج، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده، والمعنى الذي اعتمده، وينظر في أى الأوزان يكون أحسن استمراراً ومع أى القوافي يحصل أجمل اطراد"^(٢).

وهذا كما يرى القارئ فهم دقيق، وسمو بالنقد إلى أبعد مما كان يتطلع إليه الناقدون من وزن المعاني والألفاظ، فالرجل يرى أن جودة الشعر تتصل بوزنه وقافيته ولفظه ومعناه

(٢) أنظر رسالة الصاحب عن المتنبي ص ٨

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ٩ و ١٠

وكلماته وحروفه ، ثم تختلف عنده القوافي والأوزان باختلاف المعاني والأغراض ، وتلك نظرة لا يدركها إلا الفحول .

وهناك خبر صغير يبدو قليل الأهمية ، ولكنني وقفت عنده طويلاً : فقد ذكر يوماً أبو بكر الخياط بحضرة ابن العميد فقال : أفادني في نقد الشعر ما لم يكن عندي : وذلك أنه جاءني يوماً باختيار له فكنت أرى المقطوعة بعد المقطوعة لا تدخل في مرتضى الشعر فأعجب من إirاده لها واختياره إياها فسألته عنها فقال : لم يقل في معناها غيرها فاخترتها لانفرادها في بابها .^(١)

فهل رأى القارئ أدق من هذه النظرة في تعقب الأشعار والأجاديث ؟

٥ — وكان ابن العميد يجمع إلى سعة العلم أدب النفس ، على قلة ما يتفق من ذلك في طباع الناس ، فكان "قليل الكلام ، نزر الحديث ، إلا إذا سئل ووجد من يفهم عنه : فانه حينئذ ينشط فيسمع منه ما لا يوجد عند غيره ، مع عبارة فصيحة ، وألفاظ متخيرة ، ومعان دقيقة ، لا يتحس فيها ولا يتلعم ... وكان لحسن عشرته ، وطهارة أخلاقه ، وتزاهة نفسه ، إذا دخل إليه أديب أو عالم متفرد بفن سكت له وأصغى إليه ، واستحسن كل ما يسمعه منه استحسان من لا يعرف منه إلا قدر ما يفهم به ما يورد عليه"^(٢) .

وهذا أدب لا يصبر عليه إلا كبار النفوس .

على أن أدب النفس في صدر ابن العميد لم يقف عند هذه المعاني السلبية ، بل تعداه إلى الجراءة القاهرة والإقدام الغلاب "فاذا حضر المعارك وياشر الحروب فانما هو أسد في الشجاعة لا يصطلي بناره ، ولا يدخل في غباره ، ولا يناوئه قرن ، ولا يبارزه بطل ، مع ثبات جأش ، وحضور رأي ، وعلم بمواضع الفرص ، وبصر بسياسة العساكر والجيوش ، ومكابدة الحروب" وكان الى هذه الخلال حسن التدبير الى حد الإعجاز ، فقد تولى الوزارة لركن الدولة بعد أن تقدمه قوم غالبيتهم الجند على أمرهم ، وصارت مملكة ركن الدولة تحت سلطانهم ملعباً للفتن والدسائس وميداناً للفوضى والاضطراب ، فلما تولى ابن العميد الوزارة استقام الأمر ،

(٢) راجع تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٧ و ٢٧٨

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٠

واستطاع بحزمه وقوة نفسه أن ينظم الأمور وبضبط الأعمال "وبسط عدله وأقام هيئته في صدور الجند والرعية حتى كان يكفيه رفع الطرف الى أحدهم على طريق الإنكار فترتعد الفرائص وتضطرب الأعضاء، وتسترنى المفاصل" كما عبر ابن مسكويه، وهو عندنا صادق فيما وصف به ابن العميد .

٦ - وكان ابن العميد من الوزراء الممدحين، فقصده الشعراء من كل صوب ، وساقوا اليه جياذ المدائح، وللتنبي فيه قصيدة رائية يحفظها أكثر الناس .

ولنشرها إلى أن ابن نباتة السعدي ورد عليه وهو بالرى وأمتدحه بقصيدته التي أولها^(١) :

برحُ اشتياق وادكار	ولهب أنفاس حرار
ومدامع عبراتها	ترفض عن نوم مطار
لله قلبي ما يحن	من الهموم وما يوارى
لقد أنقضى سكر الشبا	ب وما انقضى وصب الخمار
وكبرت عن وصل الصفا	ر وما سلوت عن الصغار
سقيًا لتغليسي إلى	باب الرصافة وابتكارى
أيام أخطر في الصبا	نشوان مسحوب الإزار
حجى الى حجر الصرا	ة وفي حدائقها اعتمارى
ومواطن اللذات أوطا	نى ودار اللهو دارى
لم يبق لى عيش يلد	سوى معاقرة العقار
أحيا بالحن قر	تُ بهن ألحان القمارى
وإذا استهل ابن العميد	تضاءلت ديم القطار
خرقُ صفت أخلاقه	صفو السبك من النضار
فكأنما زفت موا	هبه بأمواج البحار

(١) راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٦

وكان نشر حديثه نشر الخزامى والعرار
 وكأنتا مما تُفترق راحتاه في تشار
 كلف بحفظ السر تحسب صدره ليل السرار
 إن الكبار من الأمور تنال بالهمم الكبار
 وإلى أبي الفضل اتبعت هو اجس النفس السوارى

ولكن صلة ابن العميد تأخرت عن هذا الشاعر فشفع هذه القصيدة بأخرى وأتبعها برقعة فلم يزده ابن العميد على الإهمال مع رقعة حاله التي ورد عليها إلى بابه فتوصل إلى أن أدخل عليه يوم خميس وهو في مجلس حافل بأعيان الدولة وتمتدّى أرباب الديوان فوقف بين يديه وأشار إليه بيده وقال :

”أيها الرئيس ! انى لزمك لزوم الظل ، وذلت لك ذل النعل ، وأكلت النوى المحرق
 انتظارا لصلتك ، والله ما بي من الحرمان ، ولكن شماتة الأعداء : وهم قوم نصحوني فأغشيتهم ،
 وصدّقوني فاتهمتهم ، فبأى وجه ألقاهم ، وبأى حجة أقاومهم ، ولم أحصل من مديح بعد مديح ،
 ومن ثر بعد نظم ، إلا على ندم مؤلم ، ويأس مسقم . فان كان للنجاح علامة فأين هي وما هي ؟
 إلا أن الذين تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك ، وان الذين هجوا كانوا مثلك ، فزاحم
 بمناجك أعظمهم شأنًا ، وأنورهم شعاعًا ، وأمدّهم باعًا ، وأشرفهم بقاعًا “ .

فأرشد ابن العميد ولم يدر ما يقول ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : هذا وقت
 يضيق عن الإطالة منك في الاستراحة ، وعن الإطالة منى في المَعذرة ، وإذا تواهبنا ما دفعنا
 إليه استأنفنا ما نتحامد عليه . فقال ابن نباتة : أيها الرئيس ! هذه نفثة مصدور منذ زمان ،
 وفضيلة لسان قد نرس منذ دهر . والنقى اذا مطل لثيم ! فاستشاط ابن العميد وقال : والله
 لا ما استوجب هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى ؟ ... ولست ولىّ نعمة فأحتملك ،
 ولا صديقي فأغضى عليك ؛ وان بعض ما أقررت في مسامعي ينغص مرة الحلم ، ويبدد شمل

الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب، ولا استدعيتك برسول، ولا سألتك مدحى ولا كلفتك تقرىظى !

فقال ابن نباته : صدقت أيها الرئيس ! ما استقدمتنى بكتاب، ولا استدعيتنى برسول، ولا سألتنى مدحك، ولا كلفتنى تقرىظك، ولكن جلست فى صدر ديوانك بأبهتك ، وقلت لا يخاطبنى أحد الا بالرياسة، ولا ينازغنى خلق فى أحكام السياسة، فأنى كاتب ركن الدولة، وزعيم الأولياء والحضرة، والقيم بمصالح المملكة ، فكأنك دعوتنى بلسان الحال ، ولم تدعنى بلسان المقال !

فثار ابن العميد مغضبا وأسرع فى صحن داره الى أن دخل حجرته، وتقوض المجلس، وماج الناس، وسمع ابن نباته وهو فى صحن الدار ماراً يقول : والله إن سف التراب والمشى على الجمر أهون من هذا ! فلعن الله الأدب اذا كان بائعه مهيناه، ومشتريه مما كسا فيه ! فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه حلمه آتسسه من الغد ليعتذر إليه ويزيل آثار ما كان منه : فكأنما غاص فى سمع الأرض وبصرها، فكانت حسرة فى قلب ابن العميد الى أن مات .

وقد نقلنا هذا الخبر على طوله لأهمية خاصة سيعرفها القارئ بعد لحظة، فان راويه وهو ابن خلكان عاد فحدثنا انه وجد هذه القصيدة وهذا المجلس منسويين الى غير ابن نباته، وانه كشف ديوان ابن نباته فلم يرفيه هذه القصيدة وانه وجدها فى (مثالب الوزيرين) للتوحيدى منسوبة لأبى محمد عبد الرازق بن الحسن البغدادى وهذه المخاطبة لشاعر من أهل الكرخ .

ونحن نأسف مر الأسف على أن لم نتمكن من الاطلاع على كتاب (مثالب الوزيرين) ونخشى أن يكون ضائع أبداً الابدن، مع أنه كان موجودا بالاستانة منذ ثلاثين عاماً، ولو أتيج لنا الاطلاع على هذا الكتاب لاستطعنا تخطئة ابن خلكان، فاننا نجزم جزمًا قاطعاً بأن هذا المجلس الذى نقلناه آنفا من صنع التوحيدى، ولا يضيرنا أن النسبة لم تصح بطريقة

علمية ، فانا نعرف التوحيدى معرفة قوية لطول ما صاحبهنا وعاشرناه ، ولو أقيت جملة من كلامه فى أ كداس من الأوراق لميزناها لأول نظرة . فليكن الشاعر من يكون ، وليكن المحاطب من يكون ، فان واضع المجلس هو التوحيدى على كل حال ، ولا يبقى إلا أن نرجح أنه أداره على ابن العميد لا على غيره ، لأن هذه الحفيظة من التوحيدى ما كانت لتثور فى هذه القوة على رئيس غير ابن العميد الذى شغل بئله وتجرىحه حيناً من الزمان .

٧ - وكان لابن العميد ولد ذكى القلب ، قوى الحس ، مشرق الذكاء ، فأهتم بتأديبه وأحضره كبار الأساتذة ، وجعل عليه فى صباه جماعة من ثقاته يشرفون عليه فى منزله ومكتبه وينهون إليه أنفاسه ، فرفع إليه بعضهم انه أشتغل ليلة بما يشتغل به الأحداث من عقد مجلس مسرة وإحضار الندماء فى خفية شديدة واحتياط من أبيه ، وأنه كتب إلى من سماه يستهديه شراباً فحمل إليه ما يصلحهم من الشراب والنقل والمشموم ، فدس ابن العميد الى ذلك الانسان من جاء بالرقعة الصادرة عن ابنه أبى الفتح فاذا فيها بخطه :

بسم الله الرحمن الرحيم

” قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاء سيدى ومولاي رقدة من عين الدهر ، واتهزت فيها فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابى فى سمط الثريا ، فان لم تحفظ علينا النظام ، باهداء المدام ، عدنا كبنات نعش والسلام^(١) “ .

فاستطير ابن العميد فرحاً بهذه الرقعة البديعة وقال : الآن ظهر أثر براعته ، وثقت بحريه فى طريق ، ونيايته منابى . ووقع له بالفى دينار .

ولكن هذا الفرح لم يدم طويلاً ، لأن ذلك الوليد أخذ يمعن فى أسباب الزهو والخيلاء فكان يحمل رؤساء الجند وقوادهم على الخيول الفره بالمراكب الثقالة ليلاموا له الرئاسة . ” حتى لا يأنف أحد من تقييل الأرض بين يديه والمشى قدماه إذا ركب ، مما لا يؤثره

(١) نسخة من نسخة

الأستاذ الرئيس ولا يرضاه لسيرته ، وكان يعظه وينهاه عن هذه السيرة ، ويعلمه أن ذلك لو كان مما يترخص فيه لكان هو بنفسه قد سبق إليه “ .

قال ابن مسكويه : « ولقد سمعته في كثير من خلواته يشرح له صورة الديلم في الحسد والجشع ، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم الى التحاسد ، ولا يتكبر عليهم ، ولا يكون إلا في مرتبة أوسطهم حالا ، وإن من دعاهم واحتشد لهم وحمل على حالة فوق طاقته لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته والسعى على إزالتها وترقب أوقات الغرة في آمن ما يكون الانسان على نفسه منهم فيفتكون به في ذلك الوقت^(١) » .

ولكن تلك العظات لم تكن شيئا في تقويم ذلك الفتى ، فكان أبوه يأخذه معه في أسفاره حتى لا تكون سيرته سببا في تغيير ركن الدولة على وزيره . واتفق أن خرج أبو الفضل في إحدى سفراته واستصحب معه ابنه أبا الفتح ، فلما كان في بعض الطريق — وكان يركب العماريات ولا يستقل على ظهور الدواب لإفراط علة النقرس وغيرها عليه — التفت حوله فلم يرف في موكبه أحدا ، وسأل عن الخبر فلم يجد حاجبا يخبره ولا من جرت العادة بمسارته غير ابن مسكويه . فسأله فأخبره أن الجند بأسرهم مالوا مع أبي الفتح الى الصيد . قال ابن مسكويه : « فاستشاط من ذلك وساء أن يجري مثل هذا ولا يستأذن فيه . وقد كان أنكر خلو موكبه وهو في وجه حرب ، ولم يأمن أن يستمر هذا التشتت من المعسكر فتم عليه حيلة . فدعا أكبر حجابيه ووصاه بأن يحجب عنه ابنه أبا الفتح ، وأن يوصى النقباء بمنع الديلم من مسارته ومخالطته ، وظن أن هذا المبلغ من الانكار سيغض منه وينهى العسكر من اتباعه على هواه فلم يؤثر كلامه هذا كبير أثر . وعاد الفتى الى عادته واتبعه العسكر ومالوا معه الى اللعب والصيد والأكل والشرب ، وكان لا يخلهم من الخلع والالطاف ، فشق ذلك على الأستاذ الرئيس جدا ، ولم يجب أن يخرق هيئة نفسه بإظهار ما في قلبه ، ولا أن يبالغ في الانكار وهو في مثل ذلك الوجه فيفسد عسكرو ويطمع فيه عدوه ، فدارى أمره ، وتجرع غيظه ، وأداه ذلك الى زيادة في مرضه حتى هلك

بهذان وهو يقول في مجلس خلواته : ما يهلك آل العميد ولا يمحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي (يعني ابنه) ويقول في مرضه : ما قتلتى إلا جرع الغيظ التي تجرعتها منه^(١) .

وكانت وفاته رحمه الله بالرى سنة ٣٥٩ بعد أن عانى ما عانى من القولنج والنقرس يعاودانه صباح مساء . ويقال إنه رأى اكارا في بستان يأكل خبزا ببصل ولبن وقد أمعن فيه فقال : وددت لو كنت كهذا الاكارا كل ما أشتهى ! وكذلك كانت العافية أنفع وأجمل من الملك والجاه والمال . وهل تبسم الدنيا لانسان عليل ؟

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٣

٢ - نثر ابن العميد

١ - كان رجال القرن الرابع يقولون : "بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد"^(١) وهي مبالغه تذكر بما قيل في ذلك العهد : "بدئ الشعر بملك، وختم بملك" يريدون أنه بدئ بامرئ القيس وختم بأبي فراس . وهذه وتلك من المبالغات التي تجري على ألسنة المترفلين من الحواشي والأتباع ، فقد كان لابن العميد أشياح يقولون بإمامته في النثر كما كان لأبي فراس أشياح يقولون بإمامته في الشعر . وكلتا الكلمتين على ما فيهما من مبالغة ظاهرة ترجعان الى أصل من الحق أصيل : فقد كان ابن العميد وأبو فراس من أفذاذ الرجال، ولكل منهما روح قوى قهار يعز على من رامه ويطول .

والقارئ يعرف أننا ننكر أن تكون الكتابة بدئت بعبد الحميد، ولكننا لا ننكر أن عبد الحميد كان إماما لأهل عصره ، وأنه أدخل في الكتابة أساليب وتعايير وتقاليده لم يكن يعرفها الأولون ، وكذلك كان ابن العميد إماما لكاتب القرن الرابع . وما نظن أنه أدخل في فنون الكتابة ما أدخله عبد الحميد ، ولكنه يمتاز بميزة عجيبة : هي إعزاز القلم ورفعته الى أشرف الدرجات : فإننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظمة عقلية يختر لها الجارية ساجدين . وهو حين يكتب لا يطالعك بفنه ، كما كان يفعل معاصروه ، وإنما يطالعك بقلبه وروحه وعقله بحيث تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق أو روح يثور . فليست الكتابة عند ابن العميد زخرفا براقا يلهو به ولا ثروة لغوية يكثر بها الكتاب ، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية يرمى بها كما يرمى البركان بأقباس الهلاك ، وقد يرق فتجسب نثره نجوى حيين في هدأة الليل، وهو في رفته وجزالته ، وغضبه وحنانه، عبقري لا يعبت برجع الحديث المعاد، وإنما يجتهد بأبداع الرأي الصائب والقول الرصين .

٢ — لم تصل إلينا مجموعة الرسائل التي حفظت عن ابن العميد ، ولكن بقيت منها شواهد تعطي عن ثره فكرة قريبة من الصواب . ونثره باعتبار موضوعاته يرجع الى فنين : الأول رسائله الرسمية التي كتبها بصفته وزيراً لركن الدولة ، والثاني رسائله الشخصية التي عبر فيها عن ذات نفسه وهو يرسل أصدقائه وأحبابه . ولكل من الفنين في ثره لون خاص . ولنسارع فنقرر أن الرسائل التي كتبها على لسان ركن الدولة ليست كالرسائل التي كتبها الصابي مثلاً على لسان بعض الخلفاء والوزراء . لا ، فان ابن العميد حين يتكلم عن مليكه يتكلم بقوة وحرية ، ويعبر عن إرادته الذاتية أكثر مما يعبر عن يكتب باسمه . ويرجع ذلك الى أن ابن العميد كان كل شيء في الملك الذي يسيطر عليه باسم ركن الدولة ، وكان الى جانب هذا مخلصاً إخلاصاً قوياً يحول مشا كل الحكم عند أمثاله من الوزراء الى معضلات شخصية تنور لها نفس الوزير قبل أن يحس بها صاحب التاج . ولنتظر كيف يخاطب بعض الخوارج على ركن الدولة فلا تدرى أيرمى عن غضب أم يصدر عن عقل :

”كأبي وأنا مترج بين طمع فيك ، وآس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أسرها يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بجاذب غول وخيانة ، وتنبعهما بأنف خلاف ومعصية . وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويحق كل ما يري لك ، ولا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم رجلاً لصدمك ، وأخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك ، وأمنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأي ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكرر الماء ثم يصفو “ .

وفي هذه المقدمة يرى القارئ كيف يتلطف ابن العميد فيستدرج ذلك العاصي ويقفه موقف المتردد بين يومه وأمسه ، وحاضره وماضيه ، ثم يعرض عليه وجوه حاله في الطاعة والعصيان فيقول :

”وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حالها ، وحلبت شطريها ، فنشدتك الله إلا ما صدقتني عما سألتك : كيف وجدت ما زلت عنه ، وكيف تجد ما صرت إليه ؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليبل ، وغذاء غذى ، وماء روى ، ومهاد وطى ، وكنّ كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، عززت به بعد الذلة ، وكثرت به بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد المعسرة ، وأثريت بعد المتربة ؟ ففيم أنت الآن من الأمر ؟ وما العوض عما عددت ، والخلف مما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كفك ، وغمست في خلافها يدك ؟ وما الذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظُلُّ ذو ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ؟ قل نعم كذلك ! “.

وابن العميد يعرف قوة نفسه ، وبأس قلمه ، ولذلك يقول وقد بلغ هذه النقطة من الخطاب : ”تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها ، وألمس جسدك وأنظر هل يحس ؟ وأجسس عرقك هل ينبض ؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك ، وهل حلى بصدرك أن تظفر بفوت سريح ، أو موت مريح ^(١) ؟ “.

٣ — وهذا النمط من الكتابة القوية يمثل قدر البلاغة في أنفس الناس لذلك العهد : فهم يرون رسائل التهديد والوعيد طلائع من الأقلام تتقدم طلائع السيوف . وهذا في الواقع متابعة موفقة لذلك العرف الذى سنّه كتاب الدولة الأموية وأقرّه كتاب الدولة العباسية ، وهو أسلوب في الدعاية كان يجرى عن طريق الرسائل كما تجرى الدعاية اليوم عن طريق الصحف السياسية . والدنيا هي الدنيا والناس هم الناس ، وإن تغيرت طرائق التخويف والترهيب وفقاً لتغير وسائل النشر والتبليغ .

٤ — أما رسائله الشخصية فهي فن من الشعر الوجداني البليغ ، هي قصائد منثورة في موضوعات شعرية ما كان يصلح لها غير القصيد ، وأظهر ما كتب فيه ابن العميد من

(١) راجع بقية الرسالة في البهيمه ج ٣ ص ١٢

الوجدانيات : هو العتاب . ولكن أى عتاب ! ان الرجل يتحدث اليوم عن مشاعرنا وعواطفنا وبيننا وبينه عشرة قرون . لقد كان هذا الرجل يفهم الصداقة فهما دقيقا جدا ، والظاهر أنها كانت تتحول فى قلبه الى عشق ، لأنه فى عتابه يتنفس عن قلب العاشق أضعاف ما يتنفس عن روح الصديق . وهو فى عتابه مختلف الأشجان والنوازع : فله أوقات يشور فيها ثورة جارفة فىرى بإخاء من يعاتب فى بحيم النسيان ، كقوله وقد مزج بين العتب والهباء :

”وقد ندمت ... ولكن أى ساعة مندم ! بعد إفناء الزمان فى ابتدائك ، وتصفحى حالات الدهر فى اختيارك ، وبعد تضييع ما غرسته ، ونقض ما أسسته ، فان الوداد غرس اذا لم يصادف ثرى ثريا ، وجوا غديا ، وماء رويا ، لم يرح زكاؤه ، ولم يحرم ماؤه ، ولم تتفتح أزهاره ولم تجن ثماره ، وليت شعرى كيف ملك الضلال قيادى حتى أشكل على ما يحتاج اليه المزوجان ولا يستغنى عنه المتآلفان ، وهى ممازجة طبع ، وموافقة شكل وخلق ، ومطابقة خيم وخلق ، وما وصلتنا حال جمعتنا على ائتلاف ، وحمطنا من اختلاف ، ونحن فى طرفى ضدين ، وبين أمرين متباعدين . واذا حصلت الأمر وجدت ما بيننا من البعاد ، أكثر مما بين الوهاد والتجاد ، وأبعد مما بين البياض والسواد ، وأيسر ما بيننا من النفار ، وأقل ما بيننا من التضار ، أكثر مما بين الليل والنهار ، والإعلان والإسرار“ .^(١)

وهذه قطعة من رسالة طويلة يعاتب بها أبا عبد الله الطبرى ، ولا يتوهمن القارئ أن هذه العبارات الجافية تدل على أن ابن العميد خلص قلبه من علاقات ذلك الصديق : هيهات ! فنحن نعرف ما تشير اليه أمثال هذه الثورات : فان المرء لا يغضب مثل هذا الغضب الأسود إلا حين يهاجم من لا يستطيع الخلاص من أسر وداده ، ودليل ذلك أننا نراه يعاتبه فى الرسالة نفسها معاتبه المغلوب فيقول :

”ولو بقيت من الصبر بقية لسلوت ، ولو وجدت فى أثناء وجدى مخرجا يتخلله تجلبد لأمسكت ، فقديما لبست الصديق على علاته ، وصفحت له عن هناته ، ولكنى مغلوب على العزاء

مأخوذ على عاداتي في الاغضاء، فقد سلّ من جفائك ما ترك احتمالي جفاء، وذهب في نفسي من ظلمك ما أنزف حلمي فجعله هباء، وتولى على قبح فعلك في هجر يستمر على نسق، وصد مطرد متسق، ما لو فض على الوري وأفيض على البشر لامتلأت صدورهم ... الخ^(١) .

وكان ابن العميد فيما يظهر موصول القلب بأبي عبد الله الطبري هذا، وقد غالب نفسه في وداده أعنف مغالبة، واستطاع أخيرا أن يتوهم أنه تعزى عنه فكتب إليه في جواب خطاب: "وصل كتابك فصادفني قريب العهد بانطلاق، من عنت الفراق، ووافقتي مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق : فإن الدهر جرى على حكمه المألوف في تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف في تبديل الأشكال، وأعتقني من محالّتك عتقا لا تستحق به ولاء، وأبرأني من عهدتك براءة لا تستوجب دركا ولا استثناء، ونزع من عنق ربة الذل في إخائك، بيدي جفائك، ورش على ما كان يضطرم في ضميري من نيران الشوق بالسلو وشن على ما كان يلتهب في صدري من الوجد ماء اليأس، ومسح أعشار قلبي فلام فطوري بجمل الصبر، وشعب أفلاذ كبدي فلاحم صدوعها بحسن العزاء، وتغلغل في مسالك أنفاسي فعوّض عن التزاع اليك نزوعا عنك، ومن الذهاب فيك رجوعا دونك، وكشف عن عيني ضبابات ما ألقاه الهوى على بصرى، ورفع عن غيابات ما سدله الشك دون نظري، حتى حذر النقباب عن صفحات شيمك، وسفر عن وجوه خليقتك، فلم أجد إلا منكرا، ولم ألق إلا مستنكرا، فوليت منها فرارا وملئت رعبا . فأذهب فقد أقيت حبلك على غاربك، ورددت إليك ذمم عهدك^(٢) ! " .

أليست هذه قصيدة رثاء يسكب دمعها على جدث الود المفقود ؟ إن الناقد يرى ابن العميد اقتبس أكثر معانيه في هذه الرسالة من روائع الشعر القديم، ولكن لينظر منصفًا كيف اتصلت هذه المعاني بنفسه أشدّ اتصال، وكيف جرت على أسلّة قلمه وكأنها فيض الفطرة وجود الطبع، حتى ليخفى ما طرزت به حواشيا من آثار الاقتباس .

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٣٥ (٢) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٣٤

٥ — ولكن ابن العميد لا يستطيع في كل مرة أن يلقي حبل من يود على غاربه ويرد إليه ذم عهده، فليس القلب في كل لحظة بمطواع حتى يزهد في كل نافر صدوف، وكذلك نجد ابن العميد على قوة نفسه وسعة ماله ورفعة جاهه يقف وقفة الخاشع الذليل فيعاتب بعض إخوانه بمثل هذا الكلام :

”ما هذا التغالى بنفسك، والتعالى على صديقك؟ ولم نبذتنى نبذ النواة، وطرحتنى طرح القذاة، ولم تلفظني من فيك، وتمجنى من حلقك، وأنا الحلال الحلو والبارد العذب، وكيف لا تخطرني ببالك خطرة، وتصيرني من أشغالك مرة : فترسل سلاما إن لم نتجشم مكتبة، وتذكرني فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة . وأحسب كتابي سيرد عليك فتذكره حتى تثبت، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصوّر شخصه حتى تُذكر، فقد صرت عندك ممن يحا النسيان صورته من صدرك، وأسمه من صحيفة حفظك . ولعلك أيضا تتعجب من طمعى فيك وقد توليت، وأسمأتني لك وقد تأيت، ولا عجب فقد يتفجر الصخر بالماء الزلال، ويلين من هو أقسى منك قلبا فيعود الى الوصال . وآخر ما أقوله أن ودى وقف عليك، وحبس في سبيلك، ومتى عدت اليه وجدته غضا طريا، بخزبه في المعاودة فإنه في العود أحد“ .^(١)

ولعل القارئ يسأل : أتصدر أمثال هذه المكاتبات الرقيقة عن وزير؟ ونجيبه بأننا نرجح أنه كتب أمثال هذه الرسائل الغضة في صباه . على أننا لا نستكثر أن تصدر عنه وهو وزير، فلوزراء كسائر الناس جوانب وجدانية تلقى على حياتهم ظلالا من الرفق والحنان، خصوصا إذا تذكرنا أن كلمة ”وزير“ كان يلحظ فيها دائما معنى ”كاتب“ وكان الإبداع في الكتابة من المؤهلات الأساسية في الوصول إلى مناصب الوزراء .

٦ — ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أن ابن العميد كتب إلى عبد الله الطبرى كتاب نصح يدل على معرفة وبصر بالشؤون السياسية، كتبه حتما بعد أن اتصل بالملوك والرؤساء . والطبرى

هذا هو صديقه الذى حدثناك آنفا عن معاتبته إياه فى نفحات وجدانية تم عن ود رقيق ، وفى هذا ما يشعر بأنه ما كان يتورّع وهو فى أوج مجده عن بث نوازع القلب والوجدان .

وانه ليشرح لصديقه ما يجب أن يتحلّى به فى الحياة الرسمية فيقول بعد تمهيد :

”وأركب فى الخدمة طريقة تبعدك من الملل ، وتوسطك فى الحضور بين الإكثار والإقلال ، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال ، فلأن تدعى من بعيد خير من أن تُقصى من قريب . وليكن كلامك جوابا تتحرّز فيه من الخطل والإسهاب ، ... ولا يستفزك طرب الكلام على ما يفسد تمييزك . والشفاعة لا تعرض لها فانها مخلقة للجاه ، فان اضطرت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها ، وتحصل وزنها ، وتطالع موضعها ، فان وجدت النفس بالإجابة سمحة ، وإلى الاسعاف هشة ، فأظهر ما فى نفسك غير محقق ، ولا توهم أن عليك فى الرد ما يوحشك ، ولا فى المنع ما يغيظك ، وليكن انطلاق وجهك إذا دُفعت عن حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخف كلامك ولا يثقل على سامعه منك“ ^(١) .

وهذا الصديق الذى يوصيه ابن العميد بالرفق فى مصاحبة الأمراء والرؤساء هو نفسه الذى وصفه بالبعد عن الأواصر الغريزية التى توجب المودة : من ممازجة الطبع ، وموافقة الشكل ، ومطابقة الخلق . وتلك كما قلنا علالة يوهم بها ابن العميد قلبه أنه خلا من ودّ ذلك الصديق ، وإلا فقد رأيناه فى كلمة ثانية يذكر أنه صنو نفسه فيقول :

”لكن ما بقى أن يصفولى عيش مع بعدى عنك ، ويخلو ذرى مع خلوى منك ، ويسوغ لى مطعم أو مشرب مع انفرادى دونك ، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى ، ناظم لشملى أنسى ، وقد عدمت رؤيتك ، وحرمت مشاهدتك . وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس ميت بلا نظام“ ^(٢) .

٧ — ومما أمتاز به ابن العميد إجادة الرسائل الاخوانية ، وهو فى برع فيه كتاب القرن الرابع وصيروه سنة يحرى عليها الأصفياء والألاف . وقد تأملت فرأيت معانى ابن العميد صارت

وردا سائغا لمعاصريه كالميكالى والبيغا وبديع الزمان . وليس غريبا أن يصير قدوة في هذا الباب : فقد كان له بين ضلوعه قلب وفي أمين ، وكان يتحدث في الصداقات والمودات عن ود صادق ووفاء صريح . وقد كنا نعجب لخيال ابن زيدون إذ يقول :

يُدنى مزارك حين شط به النوى وهم أكاد به أقبل فاك

حتى رأيناه ممثلا أوضح تمثيل في قول ابن العميد :

” قد قرب — أيدك الله — محلك على تراخيه ، وتصاقب مستقرتك على تنائيه ، لأن الشوق يمثلك ، والذكر يخيلك ، فنحن في الظاهر على اقتراق ، وفي الباطن على تلاق ، وفي التسمية متباينون ، وفي المعنى متواصلون . ولئن تفارقت الأشباح ، لقد تعانقت الأرواح ^(١) “ .
وهو معنى جيد آتته البيغا في إحدى رسائله الاخوانية ^(٢) .

ولا يقف ابن العميد في ملاطفة إخوانه عند هذا الحد ، بل يتأنق في وصف كتبهم اليه فيقرظها في حنان هو أشبه بالنسيب ، كقوله في وصف خطاب وصل اليه من أحد الأصدقاء :

” وصل كتابك الذى وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك ، وضروب برك وتعهدك ، فأرتحت لكل ما أوليت ، وآتتهجت بجميع ما أهديت ، وأضفت إحسانك في كل فصل الى نظائره التى وكلت بها ذكرى ، ووقفت عليها شكرى . وتأملت النظم فلكنى العجب به ، وبهرنى التعجب منه . وقد رمت أن أجرى على العادة : في تشبيهه بمستحسن من زهر جنى ، وحلل وحلى ، وشذور الفرائد ، في نخور الخرائد :

والعذارى غدون في الحلل البيض وقد رحن في الخطوط السود

فلم أره لشيء عدلا ، ولا أرضى ما عدته له مثلا ، والله يزيدك من فضله ، ولا يخلق من إحسانه ، ويلهمك من بر إخوانك ما تتم به صنيعك لديهم ، ويرب معه إحسانك إليهم ^(٣) “

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ١٨٧ (٢) أنظر صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٤ (٣) ص ١١٢ ج ١

وقد يُغلب على أمره فيختم خطابه بكلمة نعرف منها صراحه أن إعجابه بالمكتوب صورة
لإعزازه للكاتب، كقوله في خاتمة خطاب :

”وقد قرأت كتابك — جعلني الله فداك — فأمثأت سرورا بملاحظة خطك، وتأمل
تصرفك في لفظك ، وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندي، وما أمدحهما فكل أمرك
ممدوح في ضميري وعقدي ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديري فيك، فإن كان
كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصري“^(١) .

هذا ولابن العميد رسائل في الحب تضارع في روعتها قصائد التشبيب وتتصل برسائله
الإخوانية أوثق اتصال، وله في التهاني رسائل تغلب عليها الصنعة، ولكنها كأكثر ثمره قوية
محكمة تدل على صاحبها وتذكر بأدبه البارع واطلاعه على ما أنشأ الأقدمون من أفانين البيان ،
وما نحسب معاصريه أسرفوا في مجاملته حين لقبوه بالأستاذ الرئيس .

(١) زهر الآداب ص ١٨٠ ج ٤

٣ - أبو حفص بن برد

١ - أبو حفص أحمد بن برد الأكبر كاتب أندلسي من أقطاب النثر الفني في القرن الرابع، توفي بسرقسطة سنة ٤١٨ هـ كما في الذخيرة وإرشاد الأريب^(٢)، لاسنة ٤٢٨ هـ كما وقع خطأ في كتاب الدكتور أحمد ضيف عن بلاغة العرب في الأندلس . وقد عاش ابن برد نحو ثمانين سنة، ولكن أخباره ضاعت فلم يعرف منها إلا القليل ، مع أنه كان من أشهر الوزراء في الأيام العاصرية .

٢ - ولم نجد على كثرة البحث ما يعين مذاهب ابن برد الأدبية . وقد اكتفى أكثر من عرضوا لترجمته بالعبارات الفضفاضة التي لا تحدد شيئاً : فذكر ياقوت أنه كان "كاتباً بليغاً"^(٣) وذكر ابن بسام أنه كان في زمانه "واسطة السلك، وقطب رحي الملك" وأنه "برز على نظرائه وأشكاله" وأنه "كتب عن عدة من الأمراء فأسمع الصم بيانا ، واستنزل العُصم إبداعاً وإحساناً"^(٤) وذكر صاحب المطمح أنه "غذى بالأدب، وعلا إلى أسمى الرتب" وأنه "بديع الإحسان، بليغ القلم واللسان" وأنه "مايح الكتابة، فصيح الخطابة"^(٥) ونفر حفيده ابن برد الأصغر بالانتساب إليه فقال :

من شاء خُبري فأنا ابن برد حدّ حسامي قطعة من حدّ
وأرفع الناس بناءً جدى من نظم الألفاظ نظم العقيد
ونقد الكلام حق النقد وكف بالأقلام أيدي الأسد^(٦)

وهذه كلها صفات تدل على عظمة ابن برد في أنفُس من قرأوا له ، وكتبوا عنه، ولكنها لا تعين منحاها في مذاهب البيان .

(١) ج ١ ص ٤٩ (٢) ج ٢ ص ١٠٦ (٣) ج ٢ ص ١٠٦ (٤) ج ١ ص ٤٩

(٥) أنظر فتح الطيب ج ٢ ص ٣٦٧ (٦) الذخيرة ج ١ ص ٢٥٧

٣ - وعذر من ترجوا لأبن برد أن معظم رسائله كان ضاع ، حتى أن مواطنه بن
 بسام على قرب عهده به صرح بأنه لم يجد من رسائله إلا مالا يكاد يعرب عن فضائله ،
 وربما كان ذلك هو السبب فيما وقع لبعض كتاب التراجم من الخلط بين آثار ابن برد الأكبر
 وابن برد الأصغر . فانا نجد صاحب المطمح ينسب رسالة السيف والقلم الى ابن برد الأكبر ،
 وينسبها ياقوت الى ابن برد الأصغر (٣) - والأبيات الآتية :

لما بدا في لازور دى الحرير وقد بهر
 كبرت من فرط الجمل ل وقلت ما هذا بشر
 فأجابني لا تتكبرن ثوب السماء على القمر

نسبها صاحب المطمح الى ابن برد الأكبر (٤) . ونسبها ياقوت الى ابن برد الأصغر (٥) .

٤ - تولى ابن برد رياسة ديوان الإنشاء لمحمد بن عبد الرحمن المستكفي ، وكتب
 كذلك لعدد من الأمراء ، فكان لتوليهِ رياسة ديوان الإنشاء أثر قوي في حرصه على أدوات
 الكتابة ، وكانت تلك الأدوات مما شغل كتاب القرن الثالث والرابع : فكتب فريق منهم
 كتباً خاصة فيما يجب أن يراعيه الكاتب ، كما فعل ابن المدبر حين ألف "الرسالة العذراء" وإنا
 لنجد ابن برد يكتب عن المظفر بن أبي عامر رقعة وجهها الى القواد والكتاب فيقول :

"ومن أعجب العجب ما يجترئ عليه بعض خدمتنا من نبذ عهدونا . ولا أحسب الذي
 غرهم بنا إلا ما وهب الله تعالى لنا مع القدرة من الحلم والكظم ، وقد كانت سجية غالبية ،
 وخليفة لازمة ، قرب شبع تحت مخيل النعماء ، وكم غصص في شهى الغذاء ، ومن شرق في نير
 الماء ... ونصب أعينكم عهد المنصور صدره التوبيخ باستكتاب الجهلة ممن قلت معرفته ،
 وأتضعت همته ، ولم يبلغ أن يحكم الخط فيقوم حروفه ، ويراعى المداد فيجيد صنعتة ، ويميز
 الرق فيحسن اختياره ، وعزه العزم النافذ ، والحكم الصادع ، بأن تكون صدور كتب

(١) الذخيرة ج ١ ص ٤٩ (٢) راجع فتح الطيب ص ٣٦٧ ج ٢ (٣) ص ١٠٦ ج ٢

(٤) فتح الطيب ص ٣٦٨ ج ٢ (٥) ص ١٠٦ ج ٢

الاعتراضات وعنوانها وتواريخها والأعداد في رؤوس غصونها بخطوط أيدي القواد والعمال ، من كان منهم كاتباً فليكتب بيده ، ومن لم يكتب فليخط كاتب معروف بالخط عنه ، وأن تكون تسمية طبقات الأجناد فيها قائمة الخطوط ، بينة الحروف ... على أنه إن ورد لأحد منهم بعد وصول العهد إليه كتاب اعتراض عمل في رق ردىء ، أو خط فيه لحن ، أو كتاب على بشر في عدد ، أو رسم مالم يخف أو يقع في بشر الكتاب ... فيعاجل بعقوبة العزل^(١) .

ولم يكتف بذلك ، بل مضى يقول :

”وإن قوماً منهم عادوا لما نهوا عنه : فكتبوا الخط الرقيق في دنى الرقوق ، رقة من همهم ويدانة في اختيارهم ، وجهلاً بأن الخط جاء الكتاب ، وسلك الكلام : به ينتظم مشوره وتفصل شذوره ، ونبله من نبل صاحبه ، وهجته لاحقة بكتابه ، إلى ما أقترفوه من العصيان ، وأقدموا عليه من خلاف السلطان ، وأنا أعطى الله عهداً لئن ارتفع إلى بعد بلوغ عهدي هذا أقصى حدود المملكة وانتهائه أبعد أقطار الطاعة كتاب على الصفات المذمومة : من رق أو مداد أو خط لأفين لصاحبه بما قدم إليه من الوعيد“^(٢) .

وهذه الفقرات تمثل رأى الكاتب قبل أن تمثل رأى من كتبت باسمه ، وهى مظهر من عناية ابن برد بأدوات الكتابة وأدب الكتاب .

٥ - وقد حفظت عن ابن برد رسائل تصور ما كان من النزاع بين العرب والبربر في الأندلس . ودراسة ما كان بين هذين العنصرين من الفتن والمنازعات باب من أهم أبواب التاريخ الأندلسي ، ولها كذلك نفع في تحديد الاتجاهات الأدبية في تلك البلاد . والبربر يسمون «العبيد» أحياناً في لغة ابن برد ، ولا نستطيع أن نفترض غير ذلك : لأننا لا نعرف عصبة ناوأت العرب في الأندلس غير عصبة البربر ، وقد كتب ابن برد على لسان سليمان بن الحكم عدة رسائل الى من سماهم ابن بسام «جماعة العبيد» جاء في إحداها :

(١) النخبة ج ١ ص ٤٩ (٢) ص ٥٠

” ولم تزل الأئمة مقبلة على مواليتها مختصة لعبيدها تقدّمهم في الثقة، وتقربهم بالمودة، وتعتمد لهم حوادث الأمور، وتقذف بهم في معضلات الخطوب، فيتولون من اجتهدهم لهم ما أوجب لهم منهم المحبة، حتى شرف القوم ونبلوا، وسموا ذكراً، ونسبوا إلى مشهور أنسابهم، ومذكور بيوتاتهم ... وقد أفضى الأمر إليكم معشر الموالى، وهذا اسمكم وقد رفع الله عنكم العبودية به، وأخرجكم عن رق الملك، وصيركم منا، وخطبكم بنا، وأفضى بأنسابكم إلينا، والولاء لحمة، ومولى القوم منهم، ملعون من أنتى لغير أبيه، أو ادعى غير مواليه، هذا حكم الاسلام، على لسانه عليه السلام. وأما حكم الدنيا وسيرة أهل السداد والصلاح فيها فلا يجزئ أيضاً، إلا أن يكون ضلعكم معنا، وميلكم إلينا وتعصبكم لنا، فنحن أحق الناس بكم، وأجدر أن نعمل عمل آبائنا في أمثالكم من مواليتهم، فإن نعمتم حالا فزقت الشمل، أو لقيتم أمرا صدع الجمع، فتلك الفتنة التي يعق فيها الابن أباه، ويقتل لها المسلم أخاه... ولعلنا فيما ساءكم من تلك الهنات، ونالكم من الفجعات، أوجع قلوبا، وأشد غموما، فسبحان من لو شاء لأطلعكم على غيبنا وعرفكم إشفافنا عليكم. وكيف لا يكون ذلك كذلك، وما زلتم الشعار والدثار: لا تؤثر عليكم، ولا نثق إلا بكم، فإن يكن الشيطان قد نزع بما نزع به بين أبى آدم فن بعدهما من ذريته فقد آن أن تثوب الحلوم: فتعود السيوف في أغمادها، والنبال في كائنها. ونحن نعاهد الله أن لا نؤاخذ أحدا بذنب، ولا نناله بعقوبة، ولا نطوى على إحنة، بل نغفو ونصفح^(١)“.

ونجد في رسالة أخرى حديثا عن كتاب وجهه زعماء البربر إلى سليمان يصرحون فيه بأن خلافة الأمويين مادامت إلا بطبقتهم، ولا عزت إلا بدعوتهم، ونجد ابن برد يمين عليهم باسم سليمان فيذكر أن طبقتهم لم تظفر إلا حديثا، وأن عددهم لم يكثر إلا قريبا، وأنه أدخلهم في الدين وآستنقذهم من الضلالة، وأخرجهم من الكفر، ثم اصطنعهم ونوه بهم بالتصرف في الخدمة، إلى أن يقول:

”وأقسمت على أن من حبسناه من رؤسائكم كان أولى بالسياسة، فأنتي لكم ذلك ؟ وإنما أنتم مدبرون مسوسون، وأتباع مربوبون، وبناء التدبير نازح عنكم، والسياسة القويمة محجوبة دونكم، ومتى بلغكم عن عبد ثرب على مولاه فأفلح، أو سمعتم ببجد شغب على مدبريه فأنجح، والله تعالى دينه وخلائفه في غنى عن عند عليه وحاده، وأنجر في الاسلام وشاقه، وخرج عن الجماعة، وشق عصا الإمامة، وأستخف بحقوق الأئمة، ونازع الأمر أهله . ولولا أن أمير المؤمنين يعلم أن ملائكم لم يجتمع على هذا الكتاب، وأن أهل السداد منكم لم يرضوا هذا الخطاب، لكان له في ذلك نظريقيم الأود، ويعدل الميل... وأعلموا أن السداد والحلم والكظم من أخلاقه، والرفق والأناة من شيمه، فأقبلوا أدبه، وانتفعوا بموعظته، فلو كشف لكم الغطاء، واجتلى عليكم الغيب، لعلمتم أن أمير المؤمنين لا ينام عن مصالحكم ولا يني في منافعكم، ولا يسعى إلا فيما يرد ألفتكم، ويجمع كلمتكم“ .

وهذا كله كلام طيب، ولكن أين دلالتة على قوة ابن برد النفسية ؟ إنه كلام كسائر مأسطر كتاب الدواوين، فليس فيه اتجاهات فلسفية ولا اجتماعية أكثر مما كان يكتب عادة على السنة الأمراء والسلاطين، وقد اتفق لابن برد أن يجهد نفسه في الكلام عن معنى الرعية فلم يزد على أن قال :

”إن الرعية من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح، وصلاحها وفسادها متصلان، ونماؤها ونقصانها منتظران : إذ كانت الرعية عنصر المال، ومادة الجباية، وفيهما قوام الملك وعز السلطان، ورزق الأجناد التي بها يقاتل العدو، وينصر الدين، وتحمي الحرم“ .^(٢)

وهذا أيضا كلام طيب ولكنه أقل مما سبق إليه في مثل هذه الشؤون .

٦ — وقد اقترن اسم ابن برد في تاريخ الأندلس بكتابة العهد : عهد الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم الأموي، وكان لهذا العهد صدى في كتب المتقدمين : فتحدث عنه ابن بسام والمقرئ والقلقشندي وابن خلدون .^(٣) وليس لهذا العهد قيمة إلا من الوجهة التاريخية لما

(١) ج ١ ص ٥٣ (٢) ص ٥٤ (٣) يكفي أن تراجع فتح العليب ص ٢٧٧ و ٢٧٨ ج ١

فيه من الدلالة على صولة العامريين وضعف الخلفاء ، ولكنه من الوجهة الأدبية والنفسية دليل على أن ابن برد كان من أتباع الغالب على أى حال . ألم يذكر على لسان هشام انه ” بعد أطراح الهوى ، والتحرى للحق ... وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، لم يجد أحدا أجدر أن يوليه عهده ، ويقوض اليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف مرتبته ، وعلو منصبه ، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه ونقاوته : من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور “ .

ولم يقف ابن برد عند هذا ، بل استرسل فزعم ان ذلك القحطاني المتسلط هو الذى أشار اليه الحديث النبوى الذى يقول ” لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قطان يسوق الناس بعصاه “ فكان ابن برد على هذا من أنصار ” التهريج “ فى الوضع والتأويل !

٧ - ومن أسوأ ما وقع لابن برد كتابه عن المظفر حين قتل وزيره عيسى بن سعيد ^(١) وهو كتاب فاجر جاءت فيه هذه الكلمات :

” أيها الناس ! ان من علم منكم حالة الخائن عيسى بن سعيد بالمشاهدة ، ورأى النعمة عليه بالمحاضرة ، فقد اكتفى بما شاهد ، وأجترأ بما حاضر ، ومن غاب عنه ذلك من عوامكم : لا تتراح منزل ، أو لاتصال شغل ، فليعلم أننا أخذناه من الحضيض الأوهد ، وانتشلناه من شظف العيش الأنكد ، فرفعنا خسيسه ، وتممنا نقيصته ، وخولناه صنوف الأموال ، وصيرنا حاله فوق الأحوال ، فلم يقم لله بحق ، ولا قابل إحسانه بصدق ، ولا عامل رعيننا برفق ، ولا تناول خدمتنا بحق ، بل أعلن بالمعاصى ، واستذل الأعززة وذوى المروءة ، ونافرهم ، وأنس بأضدادهم ، ونبذ عهودنا ، وخالف سبلنا ، وكدر على الناس صفونا ، حتى اذا ملكه الأشر ، وتمادى به البطر ، وعلت به الأمور ، وغره بالله الغرور ، حاول شق عصا الأمة ، وهذ ركن الخلافة والأمانة ، بما آحتجن من حرام المال ، واستمال من طغام الرجال ، فحجته نعمنا عنده ، وخصمته عوارفنا لديه ، وكشف لنا سر نيته حتى صرعه بغيه ، وأسلمه غدره ، وأخذ الله بما اجترم ، وأوبقه بما اكتسب ، فأعجلناه عن تدييره ، وصار الى نار الله وسعيه “ .

وإنما وصفنا هذا الكتاب بالفجور لأن ذلك الوزير أخذ للقتل من مجلس شرا به وكان فيه أبو حفص بن برد، ولو صدقنا ابن بسام لكان ذلك الوزير من صرعى النائم والوشايات.

٨ — وخلاصة ما سلف أن ابن برد كان قوة أدبية ، وكان من كبار الكتاب في دولة العاصرين ولكن أدبه ضاع في الدفاع عن الحق حيناً ، والتزلف إلى الباطل أحياناً . وكان لا يعرف ما يأتي وما يدع : لأن ظروف السياسة لعهد لم تكن تمكن كاتباً ولا شاعراً من أن يكون أدبه صدى لخالص النية وطاهر الوجدان . وكان ابن برد كاتباً ووزيراً ، والكتابة والوزارة وسيلتان من وسائل الظلم والبغى عند من تغويهم منافع العيش ، وتضلهم أباطيل هذه الدنيا الغرور .

٩ — وهذا الجانب النفعي هو الذي عرفناه أو عرفنا رسومه من ابن برد، لأن من ترجموا له لم يجدوا فيما يظهر غير بقايا من رسائله الرسمية، أما اللون الجميل من أدب الكتاب الذي يتحدث عن الاخوانيات وعن أنفس الكتّاب في صدق وإخلاص فلم تبق منه بقية شافية، لأن الأدب السياسي كان طغى على ما سواه من ألوان الأدب في تلك الأيام ، ولأن الشعر كان استبد أو كاد بالحديث عن سرائر النفوس ، ودقائق الأحاسيس ، وما كان الناس ينتظرون أن يحدثهم الشعر إلا عما يصدر عن الخلفاء والأمراء والوزراء من رقاع الإغراء والوعيد . وكذلك استذل الكتاب حيناً لأهواء المسيطرين : فلم يكن أدبهم صورة لنفوسهم وقلوبهم وأذواقهم ، وإنما كان في الأغلب صدى بلحجلة الاستبداد والطغيان . وآفة الأدب أن يكون صدى لغير ما يجيش في صدور الكرام من نوازع الصدق واليقين .

٤ - أبو المغيرة به حزم

١ - في الأصل الفرنسى فصل عن أبى عامر بن شهيد، وكان لذلك الفصل أثر طيب في تقويم الكتاب ، لأن ابن شهيد من الأعلام التي لم يتنبه اليها المستشرقون الفرنسيون . أما الرجل الذي أتحدث عنه في هذا الفصل فهو شخصية قوية جذابة لم يتنبه اليها أحد من الباحثين ، ولم يُعرف عنها كثير ولا قليل ، وهو ابن حزم ! وهنا يلتفت القارئ باسمها بسملة السخرية : لأن ابن حزم معروف ، طبق صيته الشرق والغرب ، فلنسارع إذن بتقرير ما هذاننا اليه البحث من أن "ابن حزم" يطلق على شخصين أحدهما معروف وهو أبو محمد على بن أبى عمر أحمد بن سعيد الفقيه الأديب ، وثانيهما مجهول وهو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم الشاعر الكاتب ، وهما من بيت واحد وابنا عم ، ويمكن الحكم بأن أولهما أفعه وأعلم ، وثانيهما أكتب وأشعر .

٢ - لم أجد من المصادر ما يغنى في تحديد الزمن الذي عاشه أبو المغيرة بن حزم ، ولكن من المؤكد أنه شهد سرار القرن الرابع وبجزء القرن الخامس ، ومن أخباره أنه تولى الوزارة للمستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام ، وربما كان السبب في نحروله أنه اعتبط شابا "ولو طال به مداه ، لم يذكّر معه سواه" كما قال ابن بسام ، يضاف الى ذلك أن شخصية ابن عمه أبى محمد بن حزم طغت عليه فأغرقتة في لجج من النسيان . ومن عجيب المصادفات أن أبى محمد كان يتوقع له هذا الخمول ، ذلك بأنه جرت بينهما مقارعات فكتب اليه أبو محمد يقول :

كفانى بذكرى الناس لى ومآثرى ومالك فيهم يا ابن عمى ذاكر

(١) أبو المغيرة بن حزم هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن (فتح الطيب ج ٢ ص ١٠٨ طبع ليدن) وجاء في الفتح (ص ١٨٥ ج ١) أن أبى محمد بن حزم فارسى الأصل وليس من « بنى حزم » وهى أسرة عربية أندلسية .
(٢) قال المقرئ في الحديث عن المستظهر : "وكان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العجب كل مذهب كأبى عامر ابن شهيد المنهك في بطالته ، وأبى محمد بن حزم المشهور بالرد على العلماء في مقالته ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغزل المتوفى في حالته" فتح الطيب ج ١ ص ٣١٩ (٣) اعتبط بالبناء للجهول : مات .

عدوى وأشياعى كثير كذاك من غدا وهو نفاع المساعى وضائر
ومالك فيهم من عدو فيتنى ولا لك فيهم من صديق يكثر
وقولى مسموع له ومصداق وقولك منبت مع الريح طائر
وانى وان آذيتنى وعققتنى لمحتمل ما جاءنى منك صابر

وقد أجابه أبو المغيرة بقصيدة لاذعة نكتفى منها بهذه الأبيات :

وغاصب حق أوبقته المقادر يذكرنى حاميم والريح شاجر
غدا يستعير الفخر من خيم خصمه ويجهل أن الحق أبلج ظاهر
ألم نتعلم يا أخا الظلم أننى برغمك ناه منذ عشر وأمر
تدلل لى الأملاك حر نفوسها وأركب ظهر النسر والنسر طائر
وأبعث فى أهل الزمان شواردا تؤلفهم وهى الصعاب النوافر
فان أثو فى أرض فلانى سائر وإن أنا عن قوم فانى حاضر

والذى يوازن بين هاتين القطعتين يتبين أن شعر أبى محمد يشبه شعر الفقهاء، وهو من رجال الفقه والأصول، وأن شعر أبى المغيرة يسمو به الى طبقات الفحول من الشعراء .

٣ - والواقع أن أبا المغيرة كان مفتونا بالدراسات الأدبية، ومصرفا عن الدراسات الفقهية، حتى لنجده يسخر من علوم ابن عمه فيقول :

”نسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك التى صرت رئيس مدارسهم ، وكبير أحراسهم ، تحدثهم عما كان فيهم من العبر، وتخبرهم بما تعاقب عليهم من الصفاء والكدر ، فتارة عن السامري والعجل، وتارة عن القمل والنمل ، وطورا تبكيهم بحديث التيه ، وطورا تضحكهم بقوم جالوت وذويه، حتى كأن التوراة مصحفك، وبيت الحزان معتكفك “ .

وهذا التعريض يذكركنا بما أخذ ابن شهيد على الجاحظ من الاهتمام بغرائب الزواحف والدواب^(١) .

(١) راجع ص ٥٧ من هذا الجزء .

٤ — وليس هذا كل ما يميز ابني حزم أحدهما عن الآخر في اتجاه الأذواق، بل يتحدثنا ابن بسام بأن أبا المغيرة "كان أنه من أبي محمد في حضور شاهده، وذكاء خاطره، وحسن هيئته، وبراعة ظرفه، وجودة أدبه".

وتلك صفات كان يتميز بها الأديب على الفقيه في أكثر الأحيان.

٥ — تدل أخبار أبي المغيرة ورسائله وقصائده على أنه كان دقيق الحس في اختيار أطايب الحياة، وفي كلامه فقرات في الدعوة إلى مجالس الأنس تذكر بأدباء الشرق كالميكالي وابن العميد، ولننظر كيف يقول:

"فالأرض قد نشرت ملاءها، وسحبت رداءها، ولبست جلبابها، وتقلدت سحابها، وبرز الورد من كمامه، واهتر الروض لتغريد حمامه، والأشجار قد نشرت شعورها، وهزنت رؤوسها، والدنيا قد أبدت شمسها، وأماطت عبوسها، وكأني بها قد أطلعت من كل ثمر ضروبا، وأبدت من جناها منظرا عجيبا، وإن كنا لا نشارك في تلك إلا باللسان لا بالعيان، وبالطرف لا بالكف، وللدهر قسم من أقسام اللذة، وصنف من أصناف الشهوة:

شهدنا إذ رأيناهم بأننا على اللذات في الدنيا شهود"^(١)

٦ — على أنه كان — كسائر من تغويهم شهوات الحواس — سيئ الظن بالناس، لأن الخلق لا تتكشف طبائعهم إلا لمن يأنس اليهم في مجالس السلاف وملاعب الجمال، ومن أجل ذلك نراه ينظر إلى العالم نظرة مُشربة بالتحفظ والكتمان، ويقرر أن في الاحتماء حسم الداء، وأن لا عدو للإنسان إلا نفسه، ولا حية ولا عقرب إلا جنسه، ثم يقول:

"وليس في الحيوان أخبث من الإنسان، فالاحتراس كل الاحتراس، والمعاشرة الجميلة للناس، لا تُلدغَنَّ من حجر مرتين، واذكر المثل السائر في الملاعب بين وتدين، والعاقل من حملة كل بلد، ونفق عند كل أحد، وأعقل منه من عرف الناس، ولم يعرفوه، فاستراح من أجنبي متكلف، إلى قريب غير منصف، ولم يفتقر إلا إلى ربه، ولم يأنس إلا بنور لبه"^(١).

وهذه الفقرة تمثله كأحكم الحكماء لو كان إلى السلامة من شر الناس سبيل . ولكني ما أحسبه دعا تلك الدعوة إلا بعد أن رأى وذاق كيف يكون الغدر والخيانة والعقوق ، لأن الحكماء لا يعطون إلا بعد أن تكوى أيديهم وتشتعل رؤوسهم وهم يقاسون ما تطوى عليه صدور الأصحاب والآلاف والأصدقاء من مظلمات النيات ومنكرات الأغراض ، والطبيعة الانسانية لثيمة تبيح كل شر ، وتسمح بكل بغيض من جنى اللؤم ممقوت ، ويكاد الرجل لا يلقى الشر إلا من أصفياه ولا ينجى الشوك إلا حيث يغرس الأزهار والرياحين .

٧ - على أن له - مع سوء ظنه بالناس - كلمات تكشف عن تعلقه بأصدقائه ، وحنينه اليهم ، وعطفه عليهم ، فنراه يقول في بعض رسائله :

”وما أعلم نائبة كفراقك أهدأ لمتن ، ولا نازلة كئيبك أجلب لحزن ، وما كنت أريم ربك لو كان لي الخيار ، أو أبرح منزلك لو ساحتني الأقدار“ .

ويقول من رسالة ثانية :

”وان رأيت تأنيسى بكتاب أجتلى منه وجوه البدور ، وجواهر النحور ، ودرر الثغور ، وأجتنى ثمر السرور ، وأرتع منه في رياض العلوم ، ما بين منشور ومنظوم ، نفست خناق مشتاق ، وأنست من وحشة الفراق ، منفردا غربيا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم ، فقد صرت ولا أحيل على الأثر بعد العين ، كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامى بدار نخلة إلا ك مقام المسيح بين اليهود“

وللقارئ أن يلاحظ أن ما اخترناه من الرسالة الثانية يصرح بضجر أبي المغيرة وتبرمه .”حدود ، اذ يعيش منفردا غربيا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم . وتلك غاية في البؤس والعقوب لا غنى لروحه عن حلاوة المودة وعذوبة الوفاء .

يهجو ابن عمه : حمله ضجره على الأكار من شكوى الزمان ، فتارة يشكو غربة قومه

(١) الذخيرة ج ١ أهل الشرق عن علومهم وفنونهم وآدابهم فيقول :

القارئ إن شاء . ٧٥

”لقد نادينا لو أسمعنا، وطرنا لو وقعنا، وما أشبهنا بالغريبة التي خيرها يدفن، وشرها يعلن، يتعب أحدنا نفسه، ويذهب حسه، ويعارض السيف بفهمه، والبحر بعلمه، والنار بذكائه، والزمان بمضائه، ونتألم فكره محجوبة، وبنات صدره غير مخطوبة، إن يسمعوا رية طاروا بها فرحا، وإن رأوا فضيلة وجعوا لها ترحا“^(١).

وتارة يتحدث عن بلائه بالناس فيقول :

«بانعكاس الزمان، انعكست أمثال البيان، كما روى عن الفقي المدعى للكتابة عند عمرو ابن مسعدة أنه عاياه بكتاب من صاحب البريد بنجر بقرة ولدت غلاما فأنشأ خطبة مفتتحها ”الحمد لله خالق الأنعام، في بطون الأنعام“ بخذب الرقعة من يده وبالغ في إجزال صفده. وإذا تأملت انقلاب الزمان، وما وقع لي مع فلان انقلبت الخطبة فصارت ”الحمد لله خالق الأنعام، في بطون الأنعام“ وكما قد كشفت عن عوراته، وما زالت مكشوفة، وعرفت بسواته، وما زالت معروفة، إخبارا عنه، وتحذيرا منه، وإعلاما بما يستره ذيله، ويشتمل عليه ليله، من قبائح يجلبها العار، ويكتبها الليل والنهار».

وأصرح من هذا قوله في وصف غدرات الأيام :

”فحين شمخ بالظفر أفتى، واهتر لنيل الأمل عطفي، والدهر يضحك سرا، ويتأبط شرا، وقد أذهلني الجذل عن سوء ظني به، وأوهمني نزوعه عن ذميم مذهبه، أتت ألوانه، وفسا ظربانه، ونادى ليقيم من قعد، ويتنبه من رقد، إنما فترت تلك الفترة، ليكون ما رأيت عليك حسرة، وسمحت لك مرة، لتذوق عليها كأسا مرة، فرأيت وقد غطى على بصرى، وعقلت وكنت في عماية من ظفري، وقلت هو الذي أعهد من لؤمه، وأعرفه من شقلى من وهب الالسلب، ولا أعطى الا ساعة كالبهام القطا، فياله من قادر ما الأئمة، فاستراح ما أحد شفرته“.

٩ — وقد قاده هذا المزاج الى الإقذاع في الهجاء . وله في الذم فقرات مكشوفة يتقزز منها القارئ ، وقد ختم إحدى أهاجيه بهذه العبارة ” قبح الله زمانا يقرب الى اللئيم حصانا ، والى الكريم أتاناً “ وربما كان أقبح أهاجيه ما قارع به ابن عمه أبا محمد بن حزم ، كقوله يصف كتابا وصل اليه منه ” معنى كصدا الأسنان ، ولفظ كنفحات الأكفان ، وأعراض لا مدب فيها لسهم مقرطس ، وأعلام لا وضع فيها لصبح متنفس ، ورطانة تمجها الأسماع ، وتخبوها الطباع ، فوقفت متبلدا ، وعدت على نفسى وقرىحتى مترددا ، فقلنا أيها الانسان ، لست بالنبي سليمان ، متى وعدناك أن تفهمك كلام النحل ، وسرار النمل ؟ ألم نسلك بك شعاب الكلام فتغلغلت ؟ ألم تسر في صحرائه فأوغلت ؟ ألم تجل في ميدانه فسبقت ؟ ألم تسرف في ظلماته فأشرقت ؟ هل أحسست بنكول جنان ، أو قصور لسان ، فيما نظمت كالعقود ، على ترائب الفتاة الرود ، ونثرت كالنجوم ، في صفحة الليل البهيم ، فقلت : بلى ! قلنا : فأعرض عن رطانة الزط ، وصفير البط ، ولا تمعج على طلل بائد ، ودار قد أتى الله بنيانها من القواعد ! فقلت : لقد أسرفتما طاعنين ، إن كاتب الصحيفة لندرة الزمان ، ولعالم نوع الإحسان . إلا أنه ربما كذب العنوان . فأعدت النظر فاذا بك — أبا محمد — صاحبه ! كتاب بنى على الظلم العبرى ، والبهتان الجلى ، ومكابرة العيان ، ومدافعة البرهان ، قد طمس الله أنواره ، وأظهر عواره ، بجاء كالفلاة القوراء : لا ماء ولا شجر ، والليله الظلماء : لا نجم ولا قر^(١) .

وهذا التهاجى بين أبناء العم لا غرابة فيه ، فان الأدب العربى يزخر بهذا النوع من تظام الأقرباء : لأن نائرة الحقد أشد ما تكون تأججا واضطراما بين الأقربين وهى عند العرب من أقوى بواعث الطموح الى المجد ، ومن أشد الحوافز لإيقاد ما نحمد من جذوات النفوس والعقول . ومن هنا نرى أهاجى أبى المغيرة لابن عمه أمر وأقسى من أهاجيه لغيره ، فانه يهجو أبى عمه بحفيظة وحقد على حين لا يخرج مهاؤه لغيره عن المزاح الثقيل ، كقوله فى التهمك

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٨ وفى فتح الطيب ج ١ ص ٥١٣ فقرات من تهاجى هذين الكاتبين ، فليرجع اليهما القارئ إن شاء .

ببعض المتطبين : ” وأشرح لي خبر فلان ، وأين بلغ من تكسبه ، وحيث آتته من تطيبه ، وكيف ظروفه وخزائنه ، ولعوقاته ومعاينه ؟ وهل ينفذ طبه ، وينفق حبه ؟ وصف لي ما يقوله على الماء ، ويديه من الأدوية ، وأهد إلى ما ينق من المقال ، على الكبد والطحال ، ويرقشه من الكلام ، في الفالج والزكام ، فالحمد لمن قرن له ذلك إلى القيام ، بشريعة الإسلام ، والتمهر في الأحكام ، ومعرفة الحلال والحرام ، والفالج عند الخصاص ^(١) .

١٠ — ومع أن أبا المغيرة من الشعراء الفحول فانا نراه يتخذ النثر أداة للتعبير عن الأبواب الخاصة بالشعر كالغزل والمدح وهو في ذلك يحاكي بديع الزمان الذي يحرص أشد الحرص على أن يؤدي بالنثر كل ما يؤدي بالقصيد . وإنما خصصنا بديع الزمان بالذات لأننا نرى في ثرا أبي المغيرة نفحة همدانية . ويكاد الرجلان يتشابهان ، لولا جزالة ابن حزم ورقة بديع الزمان . والظاهر أن رسائل الهمداني كانت وصلت مسرعة إلى الأندلس ، وأطلع عليها المتأدبون هناك ، وإلى القارئ رسالة لأبي المغيرة تمثل روح الهمداني أصدق تمثيل :

” فكم ليث كان في غابة سمعت صريف أنيابه ، وقرر أنست في ييابه ، إلى عواء ذئابه ، لأمر إلا بالنص المستلب ، ولا ألقى غير الخارب المنتهب ، والشعار عند النائبة ألقاها فأتخطاها ، والنازلة أراها فأتعداها ، قول أبي الطيب :

فان أسلم فما أبقى ، ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام

وأنا أرقب من الزمان صنيعه ، وأتوقع من الحمام وقوعه ، وهو يذهب بي إلى قبلة الآمال وأنا لا أصدق ، ويسوقني إلى محط الرجال وأنا لا أحقق ، ويؤم بي البحر الذي لا تحصى فرائده ، والغيث الذي لا يجذب رائده ، حتى أداني إلى الحضرة العليا ، والمحلة الشماء ، فكبرت لي بكارا لما صرت إليه ، وهلت إعظاما لما سقطت عليه ، وعلمت أني في الحرم الذي لا يضار جنبه ، ولا يطار غرابه ، ولا يخضد شجره ، ولا يمنع ثمره ، ولم ألبث أن نزلت باليفاع الخصب ، وتمكنت من الرشاء والقلب ^(١) .

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٤ و ٧٥ والرشاء الحبل ، والقلب البئر .

ولم يقف تأثره ببديع الزمان عند محاكاته في المذهب والأسلوب ، بل تعداه الى معارضة ما اشتهر من رسائله ، فقد وضع الهمداني رسالة شائعة في إنسان جمع بين اللؤم والجمال ، ثم دالت دولة شبابه فعاد من الصاغرين ، وهي رسالة مشهورة اهتم بمعارضتها كثير من الكتاب آخرهم المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش ، والظاهر أنها بهرت أهل الأندلس فعارضها أبو المغيرة بن حزم برسالة طويلة تقتطف منها الفقرات الآتية :

”ورد كتابك ينشد ضالة ودنا ، ويرقع خلق عهدنا ، ويطلب ما أفانته جزيرتك الينا ، وذهبت به جنائتك علينا ، أيام غصنتك ناضر ، وبدرك زاهر ، لا نجد رسولا اليك إلا نظرة تحرق حجاب الدموع ، ونفرة تقيم مناد الضلوع ، فان رمنا شكوى ينفث بها مصدرونا ، ويستريح اليها مهجورنا ، لقينا دونك أمنع سد ، وأقبح صد ، وأقبح زند ، وأبرج رد ، حتى إذا طفئت تلك النيران ، وأنتصف لنا منك الزمان ، بشعرات أعشت هلاك كسوف ، وقلبت ديباجتك صوفا ، وأعادت نهارك ليلا ، وناحت عليك تلهفا وويلا ، وأطار حمامك غرابك ، وحجب ضياك ضبابك ، فصار عرسك مائما ، وعاد وصلك محزما :

وبت مداما تسر الزيف فاصبحت تجرع خلا ثقيفا

وصرت حجازا جديب المحل وقد كنت للطالب الخصب ريفا

أقبلت تسلل الينا لو اذا ، وتطلب منا عواذا . قد أنساك ذل العزل عز الولاية ، وأولاك طمعا نسيانك تلك الجناية ، أيام ترشقنا بسهام لحاظك رشقا ، وتقتلنا بسيوف ألفاظك عشقا ، وتميس غصنا ، فتثير حزنا ، وتطلع شمسا ، وتغييب نفسا ، فالآن نلقاك بدمع قد جف ، ووجد قد كف . وعزاء قد أبد ، وصبر قد غار وأنجد ، وننظر منك الى روض قد صوح ، وسار قد أصبح ، وأعجم قد أفصح ، ومبهم قد صرح ... الخ“ .^(١)

١١ - نثر أبي المغيرة في جلته متين رصين ، لولا ما يتطرق اليه أحيانا من قبح العمل ، ودمامة التكلف ، وهو في الأغلب مسجوع . وفي الذخيرة شواهد على تكلفه ، وهو تكلف ممض ، نكتفي بالإشارة إليه ، ولا نعرض له بتحليل ولا تلخيص ، ومن المرجح أن تلك الرسائل المتكلفة كانت مما كتبه قبل أن ينضج ويسلس له البيان .

٥ - أبو الفرج البغيا

١ - البغيا هو عبد الواحد بن نصر المخزومي . وانما لقب بالبغيا للثغة ظريفة كانت تزين لسانه ، نشأ في نصيبين وأتصل بسيف الدولة في شبابه ، فلما مات صاحبه تنقلت به الأحوال بين الموصل وبغداد ، فنادم الملوك والرؤساء ، وقضى حياته مقسم الحظ بين النجاح والإخفاق : ينعم تارة ويشقى أخرى ، حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨ قال الثعالبي : ”وأحرما بلغني من خبره ما سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكالي يورده من ذكر التقائه معه عند صدره من الحج وحصوله ببغداد في سنة تسعين وثلثمائة ورؤيته بها شيخا على السن ، متطاول الأمد ، نظيف اللبسة ، بهي الركبة ، مليح اللثغة ، ظريف الجملة ، قد أخذت الأيام من جسمه وقوته ، ولم تأخذ من ظرفه وأدبه ... ثم عرض على القاضي أبو بشر الفضل بن محمد بيجرجان سنة إحدى وتسعين كتاب أبي الفرج الوارد عليه من بغداد مشتملا من النظم والنثر على ما أثر فيه حال من بلغ ساحل الحياة ، ووقف على ثنية الوداع“ .

٢ - كان البغيا من أركان الحياة الأدبية في زمانه ، ولكن المؤلفين لم يتحدثوا عنه إلا قليلا ، فكان من نتائج ذلك أن قلت المصادر التي تكفي لتعيين اتجاهاته الأدبية ، وإقلال المؤلفين من الحديث عنه يعين بعض صفاته ، لأن المؤلفين يهتمون في الأغلب بتقيد ما يصل اليهم من أخبار المشاغبين من الكتاب والشعراء ، فأكثر من عرفت حالهم من رجال الأدب كانوا في حياتهم رجال دسائس ومكائد وسفاهات : وأكثر ما يكونون من طبقات الوزراء أو أمناء الملوك والوزراء .

فإن ظفرت بكتاب خامل الذكر أو شاعر مجهول القدر فلا تنس أن تلاحظ أن هذا لم يكن إلا لأن ذلك المغبون كان في حياته هادئ النفس قليل المطامع محدود الآمال . ومجموعة

ما وصل إلينا من شعر البيغا ورسائله وقصصه تدلنا على أنه لم يتصل بملوك زمانه على نحو ما كان يتصل بالصاحب بن عباد أو أبو الفضل بن العميد .

وانما كانت صلاته بالملوك والرؤساء عند الحدود الضيقة حدود السمر والأنس حول بساط السلاف .

٣ -- وإنا لنراه يدور حول شهواته وأغراضه النفسية في أكثر ما أثر عنه من المقطوعات والرسائل والأقاصيص ، بحيث نستطيع أن نقدر أنه كان لا يرجو من صلات الملوك والوزراء والرؤساء أكثر من أن ينضو عن نفسه ثوب الفافه والإملاق ، وأن يكون في يده من الذهب ما يقتنص به شوارد اللذات ، وأوابد الأهواء :

وفي هذا الذي نقضى به تعليل لصفاء شعره الوجداني ، فقد كان شعر البيغا يُغنى به وكان من مُتَع السامرين في الشام والعراق ، ولنتظر كيف يقول في محبوب رمدت عيناه :

بنفسى ما يشكوه من راح طرفه	ونرجسه مما دهى حسنه ورد
أراقت دمي ظالما محاسن وجهه	فاضحى وفي عينيه آثاره تبدو
غدت عينه كأنه حتى كأنما	سقى عينه من ماء توريده الخلد
لئن أصبحت رمداء مقلة مالكي	لقد طال ما آستشفت بها مقل رمد ^(١)

ولنتظر كذلك كيف يقول في محبوب فصده مبضع الطيب :

بأبي الغائب الذى لم يغب عنى	فأشكو إليه هم المغيب
باشرتة كف الطيب فلونا	ت الأمانى قبلت كف الطيب
فعلت في ذراعه ظبة المبه	ضع أفعال لحظه بالقلوب
فأسالت دما كأن جفونى	عصفرتة بدمعها المسكوب
طاب جدا فلو به سمح الده	ر لأمسى عطرى وأصبح طيب ^(١)

وهذه معان دقيقة لا يحسنها إلا من يفرغ لأمثالها من شعراء الوجدان .

وإننا لتأمل في شعره فنجدته يرتقب فرص زمانه فيقول مثلاً في الورد والربيع والشراب :

زمن الورد أطرف الأزمان	وأوان الربيع خير أوان
أدرك النرجس الجنى وفزنا	منهما بالحدود والأجفان
أشرف الزهر زار في أشرف الدهر	فصل فيه أشرف الإخوان
وآجل شمس العقار في يد بدر الـ	حسنى يخدمك منهما النيران
وأدركها عذراء وآتمز الامـ	كان من قبل عائق الإمكان
في كؤوس كأنها زهر الخشـ	خاش ضمت شقائق النعمان
وآخذعها عند البزال بالفا	ظ المشاني ومطربات الأغاني
فهى أولى من العرائس إن زفـ	ت بعزف النايات والعيـدان ^(١)

وللقارئ أن يتأمل احتفاء الشاعر بالصبياء ودعوته الى أخذاعها كما تختدع العروس بالنأي والعود .

٤ — ومما يؤكد أن أطماع البغيا من الاتصال بالملوك كانت طفيفة لا تعدو مطالب الرزق أن نراه يقول :

ما الذل إلا تحمل المنـ	فكن عزيزاً إن شئت أو فهن
إذا اقتصرنا على السير فما العـ	ة في عتبنا على الزمن ^(٢)

وفي هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

صحبت الدهر في سهل وحزن	وجربت الأمور وجربتنى
فلم أرمذ عرفت محل نفسي	بلوغ منى يساوى محل منى
ولم تتضمن الدنيا لحظى	منال مسرة إلا بحزن
وليس على غير الجسد فيما	سعيت له لأستغنى وأغنى
فان أحرم فلم أحرم لعجز	وان أبلغ فنفسى بـلغتني ^(٢)

وأدل من هذا على اهتمامه بالوجدانيات أن التنوخي يحدثنا أنه روى عنه قول سيف الدولة:

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما عفت منه أبيات وسدت مشارعُ

فقلت الى أن يرجع الماء جاريا وتعشب جنباه تموت الضفادع^(١)

وحرص البيغاء على رواية مثل هذين البيتين يمثل حسرته على أيامه السوائف ولياليه الخوالى.

٥ - وخلوص البيغاء من مشا كل دنياه مكنه من أن ينظر الى أهل الأدب نظر العطف والإخاء . ومن شواهد ذلك شوقه الى رؤية أبي اسحاق الصابى ، وقد اتفق له أن زار بغداد والصابى معتقل منذ مدة طويلة فلم يصبر عنه فزاره في محبسه ، ولكنه شغل عن معاودته فكتب اليه الصابى :

أبا الفرج أسلم وأبق وأنعم ولا تزل يزيدك صرف الدهر حظ اذا نقص

مضى زمن تستام وصلي غالبا فأرخصته والبيع غال ومرتخص

وأنستنى في محبسى بزيارة شفت كمدا من صاحب لك قد خلص

ولكنها كانت كسوة طائر فواقا كما يستفرص السارق الفرص

وأحسبك أستوحشت من ضيق محبسى وأوجست خوفا من تذكر القفص

كذا الكرز^(٢) اللاح نجو بنفسه اذا عاين الأشرار تنصب للقفص

فخوشيت يا قس الطيور فصاحة اذا أنشد المنظوم أو درس القصص^(٣)

وقد أجابه البيغاء بأبيات جاء فيها قوله :

فان كنت بالبيغاء قدما ملقبا فكم لقب بالجور لا العدل مختص

وبعد فما أخشى تقنص جارح وقلبك لى وكر وأيك لى قفص^(٤)

٦ - وما أحب أن تشغلنى الرغبة فى الإيجاز عن إثارة بعض ما دار بين الصابى والبيغاء

من المراسلات ، ولأكتف بما كان بينهما من وصف "البيغاء" فإن صاحبنا أبا الفرج لما لقب

(١) ص ١٣٤ نشوار المحاضرة . (٢) الكرز، بضم الكاف، الصقر .

(٣) ص ١٨٧ ج ١ بيمة . (٤) ص ١٨٨ ج ١ بيمة .

بالبغيا للثغته استطاع الصابي أن يحاوره محاورة طريفة في وصف البغياء فهو مثلاً يعتذر عن إهماله الرجوع إليه لزيارته في السجن بقوله :

وأحسبك أستوحشت من ضيق محبسى وأوجست خوفاً من تذكر القفص

وللنظر كيف يقول في وصف البغياء :

أنتها صبيحةً مليحة	ناطقةً باللغة الفصيحة
عدت من الأطيّار واللسان	يوهمنى بأنها انسان
تنهى الى صاحبها الأخبارا	وتكشف الأسرار والأستارا
سكّاء إلا أنها سمّعة	تعيد ما تسمعه طبيعة
وربما لُقنت العضيّة	فتتدى بديهةً سفية
زارتك من بلادها البعيدة	وأسوطنت عندك كالعبيدة
ضيف قراه الجوز والأرز	والضيف في أبياتنا يعز
تراه في مقارها الخلق	كلؤلؤ يلقط بالعقيق
تنظر من عينين كالفضين	في النور والظلمة بصّاصين
تميس في حلتها الخضراء	مثل الفتاة الغادة العذراء
خريدة خدورها الاقفاص	ليس لها من حبسها خلاص
تحبسها وما لها من ذنب	ولانما تحبسها للحب
تلك التي قلبي بها مشغوف	كنت عنها وأسمها معروف
نشارك فيها شاعر الزمان	والكاتب المعروف بالبيان
وذاك عبد الواحد بن نصر	تقيه نفسى عاديّات الدهر ^(١)

وقد أجاب البغياء على هذه الأرجوزة البديعة بأرجوزة أطول ولكنها تافهة لم يعجبنا منها

إلا قوله في البغياء :

ترهى بدوآج من الزمرد ومقالة كسبج في عسجد
 وحسن منقار أشم قان كأنما صيغ من المرجان
 صيرها انفرادها في الحبس بنطقها من فصحاء الانس
 تميزت في الطير بالبيان عن كل مخلوق سوى الانسان
 تحكى الذى تسمعه بلا كذب من غير تغيير لحد أو لعب
 غذاؤها أزكى طعام رغدا لا تشرب الماء ولا تخشى الصدى
 ذات شعى تحسبه ياقوتا لا ترتضى غير الأرزقوتا
 كأنما الحبة في منقارها حباية تطفو على عقارها
 إقدامها ببأسها الشديد أسكنها في قفص الحديد^(٣)

٧ — وهذا الوصف وصف البيغاء الذى أجاد فيه الشاعر ان أتاحته لنا لثغة أبى الفرج التى أبدع فى وصفها الصابى حين قال :

وما هجنت منك المحاسن لثغة وليس سوى الانسان تلقاه ألثغا
 أتعرفها فيما تقدم خاليا لعير اذا ما صاح أو حمل رغا
 فيالك حرفا زدت فضلا بنقصه فأصبحت منه بالكمال مسوغا^(٤)

واللثغة تكون أحيانا أملح من النطق الصحيح : فيكون النقص بها فضلا كما أشار الصابى وان كما لا نرتضى بقية التمثيل .

٨ — ولا يفوتنا أن نقيدها أن شعر أبى الفرج تغلب عليه النزعة الوصفية وذلك يتصل بمذهبه فى النثر أشد اتصال، وهو وإن لم يستطع مصاولة فحول القرن الرابع كالرضى والمتبنى وأبى فراس يبدع أحيانا ويروع حتى لنعده فى طليعة الشعراء . ولننظر كيف تتدفق الحياة فى قوله يصف قتلى الحرب :

فتركهم صرعى كأنك بالظبا عاطيتهم فى الروع كأس مدام

(١) الدراج على وزن رمان وغراب الخفاف الذى يلبس (قاموس) . (٢) الشمى كهدى غصل الشعر المشعان، والشعوانة الجمة منه (قاموس) . (٣) ص ١٩٠ ج ١ قيمة . (٤) ١٩١ ج ١ قيمة .

(١)
 منها جرين على الدنو كأنما أنفت رؤوسهم عن الأجسام
 وقوله يخاطب سيف الدولة ويذكر وقعة كانت له مع بني كلاب وعفوه عنهم :
 إذا آستلك الجانون أغمذك الحلم وان كفك الإبقاء أنهضك العزم
 ومن مختار هذه القصيدة :

ومن لم يؤدبه لفطر عتوه إذا العرب لم تجز اصطناع ملوكها
 — إذا ما جنى — الإنصاف أدبه الظلم بشكر تعاوت في سياستها العجم
 أعددها الى عادات عفوك محسنا كما عودتها قبل أباؤك الشم
 فان ضاق عنها العذر عندك في الذي جتته فما ضاق التفضل والحلم^(٢)

وله أوصاف حية جدا تكاد تنطق بمعاني الموصوف، من ذلك قوله في وصف معصرة :

ومعصرة أنخت بها وقرن الشمس لم يغيب
 نخلت قزازها بالرا ح بعض معادن الذهب
 وقد ذرفت لفقد الكر م فيها أعين العنب
 وجاش عباب واديه بمنهل ومنسكب
 ويا قوت العصير بها يلاعب لؤلؤ الحب
 فيا عجبا لعاصرها وما يفنى به عجبي
 وكيف يعيش وهو ينحو ض في بحر من اللهب^(٣)

وقوله في وصف الخيل على صهواتها الفرسان :

وكل بعيد قرب الحين نحوه سلاهبك الجرد الخفاف قريب
 تباشر أقطار البلاد كأنها رياح لها في الخافقين هبوب
 تماشي بفتيان كأن جسومهم لحقها فوق السروج قلوب^(٤)

(١) ص ١٦١ نشوار المحاضرة (٢) ص ٥٦ نشوار (٣) ص ١٩٥ ج ١ بنية .

(٤) ص ٢٠٣ ج ١ بنية .

٦ - نثر أبي الفرج البغيا

١ - يمتاز نثر البغيا بعدة ميزات : أظهرها أنه يمثل عصره من الوجهة الفنية، ويمثل الكاتب في ميوله الذوقية والوجدانية . فهو من جهة الصورة نثر مسجوع تغلب عليه الفطرة حيناً ويسوده التكلف أحياناً . وهو من جهة الموضوع يتصل في أكثر نواحيه بما يمس الكاتب من حيث هو رجل مودات ومجاملات، وقُلَّ أن يمثل صاحبه رجل فكرة اجتماعية أو فلسفية، على نحو ما نجد عند بعض كتاب القرن الرابع . ولذلك نقرأ نثر البغيا في طمأنينة وسكون تترأى أمام خيالنا أشباح المشاكل الطريفة التي تشغل بال الرجل المهذب الذي يحرص على مجاملة الأوداء والأصدقاء والرؤساء، بدون أن يعنى كثيراً بما تصطرع حوله الأفئدة وتتصاول في حماه العقول .

٢ - وأول ما يطاتنا من نثر البغيا هو رسائله الإخوانية، كما كان يعبر القدماء، وهي الرسائل التي بث فيها شوقه الى أصحابه والآله وإخداه ، بطريقة وجدانية تقرب في روحها من قصائد النسيب، كأن يقول :

”شوق المملوك إليه شوق الظمان الى القطر، والسارى الى غرة الفجر“^(١).

أو يقول :

”شوق إليه شوق من فقد بالكره سكنه ، وفارق بالضرورة وطنه“^(٢).

وقد يحاول تحليل صبره على بعد مودوده فيقول :

”ولولا أن المملوك ينجذ نار الاشتياق، ويرد أوار الفراق، بالتخييل المثل لمن نأت محلته، والتفكر المصور لمن بعدت شقته، لألهمت أنفاسه، وأسعرت حواسه، وهَمَّتْ دموعه ، وأنقضت ضلوعه . والله المحمود على ماوفق له من تمازج الأرواح، عند تباين الأشباح“^(٣).

(١) صبح الأمل ج ٩ ص ١٤٣

وله في هذا المعنى الطريف كلمة مستجادة تهش لها النفس ، وتسكن إليها الروح ، وأنظر كيف يقول في رفق أشبه بتناجي المحبين :

”إن ترايلت الأشباح ، فقد تواصلت الأرواح ، وإن نزحت الأشخاص وبعدت ، فقد دنت الأنفس وتقاربت ؛ فلا تُمِصُّ الفرقة وتؤلم ، وتنغصص النوى وتكلم . وقد ينال بتناجي الضمائر ، وتحاور السرائر ، مالا تصل إليه الإشارة ، ولا تدل عليه العبارة ، إذ الأنفس البسيطة أرق مسرى ، وأبعد من الألسنة مرمى“^(١) .

ونحن نفهم هذا : فقد نعيش على صلة الأرواح مع أصدقاء أقصتهم الليالي عيشا لانجده في وجوه من نساكنهم ونلاقيهم صباح مساء . والودّ ود القلوب .

٣ — وفي رسائل البغيا تفسير لبعض الجوانب الاجتماعية ، وتأكيدها لما عرف عن العرب من بعض الخللال ، من ذلك رسالته في التهئة بمولودة : فهي تأكيد لما درج عليه العرب والهنود من بغض البنات . ولهذا نراه في هذه الرسالة يقف موقف الواعظ لا موقف المهني ، فيقول :

”لو كان الانسان متصرفا في أمره بارادته ، قادرا على إدراك مشيئته ، لبطلت دلائل القدرة ، وأستحالت حقائق الصنعة ، ودرست معالم الآمال ، وتساوى الناس ببلوغ الأحوال ، غير أن الأمر لما كان بغير مشيئته مصنوعا ، وعلى ما عنه ظهر في الابتداء مطبوعا ، كان المخرج له الى الوجود من العدم ، فيما آرتضاه له غير متهم . ومولانا — أيده الله ! — مع كمال فضله ، وتناهى عقله ، وحدة فطنته ، وثاقب معرفته ، أجل من أن يحهل مواقع النعم الواردة من الله تعالى عليه ، أو يتسخط مواهبه الصادرة اليه ، فيرمقها بنواظر الكفر ، ويسلك بها غير مذاهب الشكر . وقد أتصل بي خبر المولودة ، كرم الله غرتها وأطال مدتها ، وعرفت مولانا البركة بها ، وبلغه أمله فيها ، وما كان من تغيره عند آتضاح الخبر ، وإنكار ما اختاره له سابق القدر ، فعجب المملوك من ذلك وأستنكره ، من مولانا وأنكره : لضيق العذر في مثله عليه . وقد علم

مولانا أنهن أقرب الى القلوب، وأن الله تعالى بدأ بهن بالترتيب فقال جل من قائل ﴿يَهَبْ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبْ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى، وبجسن التقبل أخرى، ولكم نسب أفدن، وشرف آستحدثن؛ من طرق الأصهار، والاتصال بالأخيار، والمتمس من الذكر نجابته، لا صورته وولادته، ولكم ذكر الأئني أكرم منه طبعاً، وأظهر منه نفعا، فمولانا يصور الحال بصورتها، ويجدد الشكر على ما وهب منها، ويستأنف الاعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته، والأولى بمثله، ان شاء الله تعالى^(١).

ويظهر أن هذا النوع من التهناني كان من الموضوعات الملحوظة في القرن الرابع، فقد عقد له الحصري فصلا في زهر الآداب. ومن طريف ما جاء فيه تفضيلا للأئني على الذكور قول بعض الكتاب :

”الدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها؛ والنار مؤنثة والذكور يعبدونها؛ والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية؛ والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب، وزينت بالنجوم الثواقب؛ والنفوس مؤنثة وهي قوام الأبدان، وملاك الحيوان؛ والحياة مؤنثة ولولاها لم تنصرف الأجسام، ولا عرف الأنام؛ والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون، وفيها ينعم المرسلون“^(٢).

ويتصل بهذا المعنى ما أقترحه سيف الدولة على البيضا من الكتابة الى من تزوجت أمه وكان العرب يكرهون أن تتزوج أمهاتهم^(٣) كرها شديدا. وقد آتفق لعمر بن مسعدة أن سأل سائل : كيف تكتب لمن تزوجت أمه! وهذا دليل على أن كتاب القرن الثاني كانوا يعدون ذلك من فنون الانشاء. أما في القرن الرابع فكان ذلك الفن ظاهرا أشد الظهور، وفصل الكلام عنه مؤلف زهر الآداب: فذكر أن من الحق ما يستحسن تركه، ويستعجن عمله، وأشار الى أنه رأى من لا يحضر تزويج كريمته ويولى أمرها غير نفسه، وأنه عرف من تزوجت أمه

(٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٥ الطبعة الثانية .

(١) صبح الأعشى ص ٦١ و ٦٢ ج ٩

(٣) صبح الأعشى ص ١٤٥ ج ١

فعظم لذلك همه، وأنفرد عن أودائه، وتواري عن أصفياه . حياةً من لقائهم، وكرها لتهنئتهم أو عزائهم . ثم بين نماذج ما يكتب في مثل هذه الحال . وإلى القارئ نص رسالة البغا التي اقترحها سيف الدولة بن حمدان :

”من سلك اليك — أعزك الله! — سبيل الانبساط، لم يستوعر مسلكا من المخاطبة فيما يحسن الانقباض عن ذكر مثله . وأتصل بى ما كان من خبر الواجبة الحق عليك، المنسوبة بعد نسبك اليها اليك — وقر الله صياتها — فى اختيارها ما لولا أن الأنفس تتناكره، وشرع المروءة يحظره، لكننت فى مثله بالرضا أولى ، وبالأعتداد بما جدد الله فى صياتها أخرى، فلا يسخطنك من ذلك مارضيه وجوب الشرع ، وحسنه أدب الديانة، ومباح الله أحق أن يتبع وإياك أن تكون ممن لما عدم اختياره تسخط اختيار القدر له ، والسلام“ .^(٢)

ولا يفوتنا أن نذكر أن البغا تأثر فى رسالته هذه خطوات ابن العميد فى نفس الغرض، ولكن رسالة ابن العميد أكثر وحشية وأدل على كره العرب لتزوج الأمهات . وأى وحشية أخشن وأغلظ من أن يخاطب من تزوجت أمه بمثل هذه اللهجة فيقول :

”وهناك الله الذى شرح للتقوى صدرك، ووسّع فى البلوى صبرك، ما ألهمك من التسليم بمشيئته ، والرضا بقضيته ... وجعل الله تعالى حده ما يجزّعه من أنف ، وكظمته من أسف معدوداً يعظم الله عليه أجرك ، ويحزل به ذنرك ، وقرن بالحاضر من أمتعاضك لفعْلِها ، المنتظر من آرتماضك لدفنها، وعوضك من أسرة فرشها، أعواد نعشها، وجعل ما ينعم عليك بعدها من نعمة، معزى من نقمة، وما يوليك بعد قبضها من منحة، مبرأ من محنة“ .^(٣)

ونحن حين نصف ذلك بالوحشية متأثرون بروح العصر الذى نعيش فيه ، ولو خلونا الى فطرتنا لرأينا ابن العميد يعبر عن نوازع إنسانية، ولا نقول شرقية، لأن الغيرة على الأمهات غيرة فطرية لا يسلم منها انسان ولا حيوان، فلتقف عند تدوين ما يدل عليه الأدب من مظاهر

(١) زهر الآداب ص ٦٢ و ٦٣ ج ٢ الطبعة الثانية . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ٧٩ .

(٣) الارتماض : الحزن . (٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٣ .

الاجتماع والأخلاق وقفة النزاهة والحياد . وما خصصنا العرب والهنود بكرة البنات إلا لظهور ذلك في أديهم ظهوراً قوياً ، وإلا فقد استجوبنا الناس من جميع الأجناس فرأيانهم يؤثرون البنين على البنات . وما نحن على الفطرة الانسانية بمسيطرين .

٤ — ومن النواحي الطريفة في نثر البيضا رسائله في استهزاء الشراب . وكان هذا الفن من الكتابة مما يؤثره كتاب القرن الرابع ، ولهم فيه فقرات حسان تدل على فتوة القلوب ، وشباب الأرواح . وفي طي ذلك الاستهزاء معنى لطيف : فقد كان المستهذى يشير غالباً إلى أن لديه "زائرين أعزاء" يسره أن يجمع شملهم حول بساط السلاف ، وقد يومىء إلى أن لديه (محبوباً) أسعده بزيارته وأنه يحب أن لا يكون المجلس محروماً من نفحة الصبأ . وأنظر ماذا يقول أبو الفرج سامحه الله :

"من كان للفضل نسباً ، وللفلك الفتوة قطباً ، لم تفزع القلوب من الهم إلا إليه ، ولم تعول الأنفس في استماعة المسار إلا عليه . وقد طرقتني من إخواني من كان الدهر يماطلي بزيارته ، وينفـس^(٢) على بقر بهر ومشاهدته ، فصادفني من المشروب معسراً ، ووجدت الانبساط في التماسه من غيرك على متعذراً ، وإلى تفضلك تفزع مروءتي في الاسعاف منه بما يلم شعث الألفة ، ويجمع شمل المسرة . ويجعلنا لك في رق الاعتداد بالمنة ، ويقضى عني بتفضلك حقوق المودة"^(٣) . وفي المعنى نفسه يقول من كلمة ثانية :

"ألطف المنن موضعاً ، وأجلها من الأنفس موقعا ، ماعمر أوطان المسرة ، وطرد عوارض الهم والفكرة ، وجمع شمل المودة والألفة ، وأدى إلى آجتناء ثمرة اللذة . وبذخائك من المشروب مع هذه الأوصاف ما يسترق حُر الشكر ، ويحرز قصب السبق إلى الثناء وجميل الذكر ، فإن رأيت أن تتجدد بالممكن منه مروءتي ، على قضاء حق من أوجب على المننة بزيارتي ، فعلت"^(٤) .

(١) بغض العرب للبنات معروف وقد سجله القرآن ، أما بغض الهنود للبنات فيكفي في بيانه قول مؤلف كلية ودمنة "وكان يقال : إن العاقل يعد أبويه أصدقاء ، والأخوة رفقاء ، والأزواج ألقاء ، والبنين ذكراً ، والبنات خصماً ، والأقارب غرماً ، ويعد نفسه فريداً" . (٢) ينفس : يحسد . (٣) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣ (٤) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

وعلام يدل هذا النوع من الاستهداء ؟ يدل أولاً على أن الشراب كان إذ ذاك مما تفرضه المروءة — كما يعبر أبو الفرج — في السهرات الاخوانية ، ويدل ثانياً على أن الشراب لم يكن من الكثرة بحيث يحده الراغب حيث شاء ، كما يقع ذلك اليوم في أكثر الحواضر الشرقية ، وإنما كان مما يذخره المترفون ، حتى أستطعنا أن نرى أكثر الأدباء يستهدونه وينمقون في طلبه الرسائل الملاح . والاستهداء والاستجداء كلمتان متقاربتان في الرسم والنطق المدلول^(١) .

هـ — وهناك استهداء أظرف وأشرف : وهو استهداء الدواة والمداد ، ونحن نعلم قيمة ذلك في أنفس الكتاب . وقد استهدى البغيا دواة فقال :

”أنفس الذخائر وأشرف الآمال ما كان للفضل نسباً ، وللصناعة والحظوة سبباً ،
وبالدوى تجتنى ثمرة الصناعة ، ويحتلب دُرُّ الكتابة ، وقد أوحش المملوك الدهر مما كنت
أقتنيه من نفائسها ، وضايقه في وجود الرضى على الحقيقة منها ، فإن رأى مولانا أن يميّط
ببعض ما يستخدمه من حالها أو عاطلها سمة عطلة المملوك ، ويسمح بإهدائها إلى أهل
تصرفه ، ويقابل بالنجح والتقبل رغبته ، فعل ، إن شاء الله تعالى“^(٢) .

واستهدى مداداً فقال :

”التنافس — أيدك الله ! — في أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاخر في ظهور
النعمة ، والتخير لبيان الإمكان والقدرة . وإلا فسائر الدوى سواء فيما تصدره الأقلام عنها ،
وتستمدّه بطون الكتب منها . وأولى آلاتها بأن تتوفر العناية عليه ، وينصرف التخير بالضرورة
إليه ، المداد الذي هو ينبوع الآداب ، وعتاد الكتاب ، ومادة الأفهام ، وشرب الأقلام ...
ولا معدل بى عن استماعة خرائك — عمرها الله ! — الممكن من جيده ، فإن رأيت أن تستنقذ
دواتى من نحول العطلة ، وتنزه قلمى عن ظمأ الغلة ، وتكشف عنها سمة النقصان والخلة ،
فعلت إن شاء الله تعالى“^(٢) .

(١) في هذه اللفظة شئ من الحق ، وكل ما بين الكلمتين من الفرق أن الاستجداء يكون فيما يحتاج إليه المعوزون كالطعام
وأن الاستهداء يكون فيما يحتاج إليه المترفون في أذواقهم وإن كانوا فقراء . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢١

ولنلاحظ أن البيغا لا يستهدى دواة كيف وقعت ، ولا مدادا كيف كان ، وإنما يستهدى دواة (نفيسة) ولو كانت عاطلة ، ويستهدى مدادا (جيدا) ينزه قلمه عن ظمأ الغلة ، وهذا تعبير يتنفس عن شعر بليغ . واختيار الدواة والمداد كان ولا يزال من أوضح الدلائل على أذواق الكاتب . وللدواة النفيسة والمداد الجيد تأثير قوى جدا في بعث نشاط الكاتب . وكذلك تفعل الأقلام الجيدة . وهذا كلام فصلناه في المقدمة الفرنسية التي صدرنا بها (الرسالة العذراء) فإرجع إليه القارئ هناك^(١) .

٦ — وقد لاحظنا أن البيغا يكتب في الموضوع الواحد غير مرة ، وفقا للظروف . من ذلك رسائله في التهئة بالزواج^(٢) والتهئة بولاية عمل^(٣) والتهئة بالقدوم من سفر والتهئة بالمواسم والاعياد .

وهذا كله طبعى ومقبول ، ولكن الطريف أن يتكرر كلامه في التهئة بالصرف عن الولاية ، فقد نفهم أن يهنا المرء بولاية عمل ، ولكنا لا نفهم كيف يهنا بالعزل ، وما ننكر أن يقع ذلك ، ولكنه في رأينا من التكلف الممجوج ، وإن كان يدل على لباقة وذكاء . ولننظر كيف يحتال البيغا في مثل هذه الحال :

”من حل محله — أيده الله تعالى ! — من رتب الرياسة والنبيل ، كان معظما في حالتي الولاية والعزل . لا يقدح في قدره تغير الأحوال ، ولا ينقله عن موضعه من الفضل تنقل الأعمال ، إذ كان استيحاها للقاء من بركات نظره ، بحسب أنسها — كان — بما أفادته من محمود أثره“^(٤) .

”لو كان لمستحدث الأعمال ومستجد الولايات زيادة على ما آتخصك به من كمال الفضل ، ومأثور النبيل ، لحاذرنا انتقال ذلك بانتقال ما كنت تتولاه بمحمود كفايتك ، وتحوطه

(١) وللقارئ أن يراجع كذلك ما أثبتته صاحب زهر الآداب من (أوصاف آلات الكتابة والدوى والأقلام)

ص ٢٢٩ و ٢٣٠ الطبعة الثانية . (٢) أثبت له صاحب الصبح أربع رسائل ص ٥٤ و ٥٥ ج ٩

(٣) أثبت له مؤلف الصبح ثلاث رسائل ص ٢٢ و ٢٣ ج ٩ (٤) أثبت له أربع رسائل ص ٣٤ و ٣٥ ج ٩

(٥) الصبح ج ٩ ص ٧٧

بنواظر نزاھتك وصيانتك، ... فالأسف فيما تنظر فيه عليك لا منك، والفائدة فيما تتقلده بك لا لك : ولذلك كنت بالصرف مهناً مسروراً، كما كنت في الولاية محموداً مشكوراً^(١) .

٧ — وهذا الاستطراف لا يفارق البغيا : فقد كتب عدة رسائل في التهنية بالشفاء من المرض، يدور أكثرها حول معنى واحد : هو أنه يشارك صديقه في العلة والشكوى . ويعجبنا من ذلك قوله :

”ما كنت أعلم أن عافيتي مقرونة بعافيتك، ولا سلامتي مضافة لسلامتك ، الى أن تحققت ذلك من مشاركتي إياك في حالي الألم والصحة ، والمرض والمحنة، فالحمد لله الذي شرف طبيعى بمناسبتك، وجعل خلقي بملاءمتك، فيما ساء وسر، وإياه تعالى أشكر على ما خصني به من كمال عافيتك، وسبوغ سلامتك، وسرعة إقبالك^(٢)“ .

ولكننا نبسم حين نراه ينهى صديقا بالمرض فيقول :

”في ذكر الله سيدى بهذا العارض — أماطه الله وصرفه ، وجعل صحة الأبد خلفه — ما دل على ملاحظته إياه بالعناية، إيقاظاً له من سنة الغفلة، إذ كان تعالى لا يذكر بطروق الآلام، وتبنيه العظات، غير الصفوة من عباده، الخيرة من أوليائه، فهناه الله الفوز بأجر ما يعانیه، وحمل عنه بالطفاه ثقل ما هو فيه^(٣)“ .

ولكن لا عجب فالمرض والعزل من الطوارئ التي تحتاج الى التلطف في المواساة، وإخراجها مخرج التهنية فيه طرافة تغرى بالعزاء .

٨ — وقد يتفق للبغيا أن يكرر العبارات والألفاظ حين يعاود الكتابة في موضوع واحد كقوله في التعزية :

”اتصل بى خبر المصيبة : فجدد الحسرة ، وسكب العبرة، وأضرم الحرقه، وضاعف اللوعة^(٤)“

فتراه يعيد هذه التعابير في كلمة ثانية فيقول :

” اتصل بى خبر المصيبة : فأضرم الحسرة ، وسكب العبرة ، وقدح اللوعة ، وامترى الدمعة^(١) .“

وله فى هذا عذره : فان اللغة محدودة ، وبعض المعانى يعسر الاقتنان فى تلوينها أحيانا . على أنه استطاع أن يخفى فقره قليلا حين قال (أضرم الحسرة) مقابل (جدد الحسرة) وقال (قدح اللوعة) مقابل (أضرم الحرقه) وان كان كرر (سكب العبرة) بلفظها فى الرسالتين .

وكذلك كرر المعنى والعبارة فى قوله تعزية لصديق :

” أحسن الله فى العزاء هدايته ، وحرس من فتن المصائب بصيرته^(٢) “ .

وقوله :

” وحرس يقينك من أعتراض الشبهة ، وأحسن الى جميل الصبر هدايتك ، وتولى من فتن المحن رعايتك^(٣) “ .

ويلاحظ مثل ذلك فيما كتب من رسائل الاعتذار والتهنئة بالمنزل الجديد ، وان كان فى هذا يكرر المعانى أكثر مما يكرر الألفاظ .

٩ - لقد ضاعت رسائل الببغا ولم يبق منها إلا القليل ، وما حفظه منها القلقشندى غير موشح بالشعر ، ولكن ما حفظه الثعالبي رصع بالمستجاد من أبياته الحسان ، حتى نجده يترجم لرسائله فيقول :

” فصل فى بيان غرر من رسائله الموصولة بحاسن شعره “

لهذا نرجح أن يكون القلقشندى اختصر ما اختار من رسائله فأسقط ما وصلت به من الشعر البليغ ، ونرجح أن يكون الغالب على ثره أن يرصع بالشعر على عادة بعض الكتاب من الشعراء . وإلى القارئ نموذجا من رسالة له فى مدح سيف الدولة^(٦) .

(١) ٩٧ (٢) ٩٦ (٣) ص ٩٧ (٤) ١٧٠ ، ١٧١ (٥) ٧٢ ، ٧٣

صبح الأعشى ج ٩ (٦) راجع ما اختار صاحب البيتية من رسائله ص ١٨٢ - ١٩٢ ج ١

«الشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته ، يُطرق الدهرُ اذا نطق ، وينطق
المجد اذا افتخر، فالآمال موقوفة عليه ، والثناء أجمع مصروف اليه ، نهض بما قعدت الملوك
عن ثقله ، وضعف الدهر عن معاناة مثله ، بهم سيفية ، وعزائم علوية ، فرد شمل الدين
جديدا ، وذميم الأيام حميدا ، بحق أوضحه ، وخلل أصلحه ، وهدى أعاده ، وضلال أباده .

فلا أنتزع الله الهدى عز بأسه ولا أنتزع الله الوغى عز نصره
وأحسن عن حفظ النبي وآله ورغى سوام الدين توفير شكره
فما تدرك المداح أدنى حقوقه باغراق منظوم الكلام وثره

لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر، وأيسر منة تفوت المبالغة في جميل الذكر ... الخ .

١٠ - هذا ولا ننس أن نذكر القارئ بأن فضل البيضا في رسائله لا يقاس الى
فضله وبراعته في ثره المرسل الذي ديج به قصصه الغرامية ، وقد حُفظ له منها شاهد يعزّ
على من رame من أندى الكتاب قلما وأسماءهم بيانا^(١) .

(١) تجد هذا الشاهد في باب «الأخبار والأفاصيص» بالجزء الأول من هذا الكتاب .

٧ - الصاحب بن عباد

١ - في ذى القعدة سنة ٣٢٦^(١) للهجرة ولد إسماعيل بن عباد في الطالقان - وهي ولاية بين قزوین وأبهر - في بيت معروف بالعلم والفضل ، فهو ابن عباد بن العباس أحد المتفوقين في عصره في علوم اللغة والدين . وكانت الطالقان فيما يظهر من كلام ياقوت في معجم البلدان من البقاع التي غلب على أهلها العلم وعرفت بالسبق في فنون الآداب . ولستأعرف من بداية ابن عباد شيئاً كثيراً^(٢) ، ولكن يظهر من المصير الذي انتهى إليه أنه كان شاباً ذكياً أعد نفسه لمنازل العظمة والجبروت . حدث عن نفسه قال : حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للمناظرة ، وأنا إذ ذاك في ريعان شبابي ، فلما تقوّض المجلس وانصرف القوم وقد حلّ الإفطار نكرت ذلك فيما بيني وبين نفسي وأستقبحت إغفاله الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله ، واعتقدت أن لا أحلّ به إذا قمت يوماً مقامه . وقد تم له ذلك فكان لا يدخل عليه في شهر رمضان بعد العصر أحد كائنًا من كان فيخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده ، وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليالي شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها ، وكانت صلواته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة^(٣) .

٢ - وأول مانعرف من نباهة شأنه هو اتصاله بأبي الفضل بن العميد ، فقد كان يخدّمه خاصة ، ثم ترقّت به الحال إلى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه ، ومؤيد الدولة

(١) هكذا ذكر ياقوت في معجم الأدباء ، وفي بنية الوعاة سنة ٣٢٤ (ص ١٥٦) . (٢) في بنية الوعاة أنه كان في الصغر إذا أراد المضي إلى المسجد ليقرأ تعطيه والدته ديناراً في كل يوم ودرهما وتقول له تصدّق بهذا على أول فقير تلقاه فكان هذا دأبه في شبابه إلى أن كبر وصار يقول للفراش كل ليلة : اطرح تحت المطرح ديناراً ودرهما لثلاث نساء . (٣) ص ٣٦ ج ٣ يتيمة الدهر .

يومئذ أمير، فلما مات ركن الدولة وولى مؤيد الدولة بلاده بالرى وأصبهان أستوزر ابن عباد وحكّمه فى أمواله، وكان لقبه الصاحب فى حياة أبيه أنساباً به . فلما مات مؤيد الدولة أحضر الصاحب نحر الدولة أخا مؤيد الدولة — وقد كان هرب من أخيه عضد الدولة والتجأ الى الساسانية بخراسان — وملكه البلاد، فأقر الصاحب بن عباد على أمره، فبقى الصاحب نافذ الحكم تقدّم كلمته على كلمة نحر الدولة الى أن مات فى ٢٤ صفر سنة ٣٨٥

قال السيوطى فى بغية الوعاة^(١) : ولى الصاحب الوزارة ثمانى عشرة سنة وشهراً لمؤيد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه وأخيه نحر الدولة ، وهو أول من سمى الصاحب من الوزراء لأنه صحب مؤيد الدولة من الصبا وسمّاه الصاحب فغلب عليه هذا اللقب، ولم يعظم وزيراً مخدومه ما عظمه نحر الدولة .

ويظهر من كلام السيوطى أن نحر الدولة كان يعظم ابن عباد لفضله ، ونحن نرجح أنه كان يوقره اتقاء لشره !

٣ — كان تكوين الصاحب من الوجهة العالمية تكويناً جيداً ، فقد أخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد وسمع من أبيه ، وحدث وقعد للإملاء ، وأزدحم الناس على درسه ، بحيث كان له ستة من المستملين^(٢) . أرسل إليه فى السر نوح بن منصور ملك خراسان يدعوه ليلقى إليه مقاليد مملكته ويعتمده لوزارته ويحكمه فى ثمرات بلاده ، فكان فيما اعتذر به الصاحب أن نقل كتبه خاصة يحتاج الى أربعائة حمل^(٣) . وأشعاره ورسائله تدل على أنه كان أعجوبة من أعاجيب زمانه وأنه كان من أوفى الناس حظاً فى دقة الفهم وبراعة القول وسعة الاطلاع .

٤ — أما أخلاق الصاحب فكانت مذبذبة بين الحسن والقبح : كان كريماً ولكن كرمه كان نفاً ينصب لشرار الشعاء والكتاب . قال التوحيدى : قلت لأبى السلم نجبة بن على

(٣) ص ٣٥ ج ٣ من قيمة الدرر .

(٢) بغية الوعاة ١٩٦

(١) ص ١٩٦

القوطاني الشاعر : أين ابن العميد من ابن عباد ؟ فقال : زرتها جميعا وكان ابن العميد أعقل وكان يدعى الكرم ، وابن عباد أكرم ويدعى العقل ، وهما في دعواهما كاذبان^(١) .

وكان الصاحب مفتونا بنفسه لا يرضيه أن يعترف لغيره بفضل أو يوفق سواه الى حق . قال يوما لجلسائه : ما صدر قول الشاعر :

* والمورد العذب كثير الزحام *

فسكتت الجماعة ، فقال ابن الداري :

* يزدحم الناس على بابي *

فأقبل عليه بغیظ وقال : ما عرفتك إلا متعجرفا جاهلا ، أما كان لك بالجماعة أسوة^(٢) ! .
وورد إلى الصاحب رجل من أهل الشام فكان فيما استخبره عنه : رسائل من تُقرأ عندكم ؟ فقال : رسائل ابن عبد كان . قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابي . وغمز أحد جلسائه ليقول رسائل الصاحب فلم يفتن ، ورآه الصاحب فقال : تغمز حمارا لا يحس^(٣) ! .

وكان الصاحب يحب الفخر وانتحال الفضائل التي ربما قصر عنها ، كذلك يقول ياقوت ، ويذكر في تأييد ذلك أن الصاحب حدث أنه عند دخوله الى بغداد قصد القاضي أبا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه فتناقل في القيام له ، وتحفز تحفزا أراه به ضعف حركته وقصور نهضته ، فأخذ الصاحب بضبعه وأقامه وقال : نعين القاضي على قضاء حقوق إخوانه ! ففجل أبو السائب واعتذر إليه . والقصة وقعت لغير الصاحب ولكنه انتحلها لنفسه وحكاها في مجلس أنسه فشاعت عنه^(٤) .

وسُمع الصاحب يقول : ما بقي من أوطاري وأغراضي إلا أن أملك العراق وأنصتد ببيداده وأستكتب أبا إسحاق الصابي ويكتب غني وأغير عليه . وهي شهوة قاهرة أن يسيطر على الصابي أحد أعلام ذلك الزمان . والشواهد على ضعف عقل الصاحب وخلقه كثيرة جدا

(١) ٣٠١ ج ٢ ياقوت . (٢) ٣٠٠ ج ٢ ياقوت . (٣) ٣١٥ ج ٢ ياقوت .

(٤) ٣٣٨ و ٣٣٩ ج ٢ ياقوت . (٥) ٣٣٧ ج ٢ ياقوت .

يراها القارئ مبسوثة في معجم الأدباء ، ولكن أكثر ما أخذ عليه مكتوب بقلم أبي حيان التوحيدى ، والتوحيدى غير عدل في هذا الباب لأن كلامه على الصاحب كلام موتور يحمله حقه على الكذب والافتراء ، ومع هذا فقد قال التوحيدى عند ما قارب الفراغ من كتابه أخلاق الوزيرين الذى وضعه للخط من قدر ابن العميد وابن عباد : « ولولا أن هذين الرجلين كانا كبيرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدادت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرًا ، والقيح يؤثر عنهما أثرًا ، لكنت لا أتسكع في حديثهما هذا التسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحد ، ولكن النقص ممن يدعى التمام أشنع ، والحرمان من السيد المأمول فاقرة ، والجهل من العالم منكرا ، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة ، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب . ولو أردت مع هذا كله أن تعجد لها ثالثا في جميع من كتب للجبل والدليم الى وقتك هذا المؤرخ في الكتاب لم تجد^(١) .

٥ — وما اختلفه التوحيدى على ابن عباد يدل على أمرين : الأول أن ابن عباد كان شخصية بارزة جدا ، شطرت الناس شطرين فشطر عدو وشطر صديق ، فاستطاع ابن عباد لذلك أن يذكر وهو مفتون انه مدح بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية .

واستطاع التوحيدى وأضرابه من الطامعين الحاسدين أن يفتنوا في ذمه وثلبه وأن يجدوا آذانا تستطيع ما يقال فيه من الاتم والبهتان . الأمر الثانى تفوق أهل ذلك الزمان في الهجاء . ففى ما كتبه التوحيدى شواهد كثيرة تدل على أنهم كانوا يعرفون كيف تكون السخرية وكيف يكون التعريض اللذاع . فمن ذلك ما عرضه التوحيدى في التدليل على غرام الصاحب بالمدح وتهافت أصحابه في إرضاء شهوته الى الثناء . قال : ولقد بلغ من ركاكته أنه كان عنده أبو طالب العلوى فكان اذا سمع منه كلاما يسجع فيه وخبرا ينخه يبلق عينيه وينشر منخريه ويرى أنه قد لحقه غشى حتى يرش على وجهه ماء الورد ، فإذا أفاق قيل : ما أصابك ؟ ما عراك ؟ ما الذى نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاي يروقى ويؤنقى حتى

(١) ص ٣٠٢ و ٣٠٣ ج ٢ ما قوت . (٢) بغية الرواة ١٩٦

فارقني لي، وزايلني عقلي، وانشرحت مفاصلي، وتخاذلت عرى قلبي، وزهل ذهني، وحيل
بنى وبين رشدى . فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفس ويضحك عجباً وجهلاً .
ثم يأمر له بالحباء والتكreme ويقدمه على جميع بنى أبيه وعمه ^(١) .

والتوحيدى بعد أن يقص هذا يقول : ” ومن ينخدع هكذا فهو بالنساء الرعن أشبه .
وبالصبيان الضعاف أمثل “ ونحن لانستبعد أن يقع ابن عباد فى مثل هذا الضعف الخلقى ،
فان الرؤساء كثيرا ما يؤخذ عليهم انحلال الخلق من هذه الناحية ، وهم يغارون غير شديدة على
نفوذهم ومكائهم الاجتماعية ، ويعملون خبثاً أو جهلاً على التحدث بمواهبهم والإشادة بما
يزعمون أنهم أنفردوا به من قوة البأس وفصاحة المنطق وذكاء الجنان . ولكن العجيب حقاً
هو هذه الصورة التى وضعها التوحيدى للتملق السخيف المزدول الذى يقع فيه المفلسون من
الأتباع السخفاء .

٦ - ومن الصور التى وضعها التوحيدى لغرور ابن عباد القصة الآتية :

” ناظر ابن عباد بالرى اليهودى رأس الجالوت فى إعجاز القرآن ، فراجعه اليهودى فيه
طويلاً حتى آحتد وكاد يتقد ، فأحتال اليهودى فى مخالته وقال :

أيها الصاحب ! لم نتقد وتستشيط وتلهب وتخلط ؟ كيف يكون القرآن عندى آية
ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه . فان كان النظم والتأليف بديعين وكان البلغاء فيما تدعى
عنه عاجزين وله مدعين فهأنا أصدق عن نفسى وأقول ما عندى : إن رسائلك وكلامك
وفقرك وما تولفه وتباد به نظماً وثراً هو فوق ذلك ، أو مثل ذلك وقريب منه ، وعلى كل
حال فليس يظهر لى أنه دونه ، وأن ذلك يستعلى عليه بوجه من وجوه الكلام أو بمرتبة من
مراتب البلاغة .

فلما سمع ابن عباد هذا فتر وحمد وسكن عن حركته وقال : ولا هكذا يا شيخ ! كلامنا
محسن وبلغ وقد أخذ من الجزالة حظاً وافراً ، ومن البيان نصيباً ظاهراً ، ولكن القرآن له

المزية التي لا تجهل، والشرف الذي لا يخل، وأين ما خلقه الله على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف.

وهذا كله يقوله وقد خبا حيله وتراجع مزاجه وصارت ناره رمادا مع إعجاب شديد قد شاع في أعطافه، وفرح غالب قد دب في أسارير وجهه لأنه رأى كلامه يبدو لليهود وأهل الملل شيها بالقرآن^(١).

فهذه أيضا صورة جميلة من صور التوحيدى، وليس يضيرها أن تكون مختلفة. فقد تكون صور الواقع أقطع من صور الاختلاق، والمهم أن التوحيدى أعطانا على حساب ابن عباد صورة متقنة من صور الضعف واللؤم التي نراها غالبا في الرؤساء المفتونين، وربما كان الصاحب أقرب من غيره الى طهارة القلب لأنه يندفع، وقد يندفع الكريم، على حين نرى من الرؤساء من يطرب ويرقص لثناء أتباعه عليه، وفنائهم فيه، ولكنه لا يزال يتشبث بأذيال التعقل فيدرك أنهم يثنون عليه راغبين أو راهبين، ويبت لهم من الحقد والضعينة والكيد ما قد ينكشف عن قاصمة الظهر أو مندية الجبين. وأمثال هؤلاء صغار في أنفسهم، إذ يحدث أحيانا أن يمدحهم الناس صادقين، فيظنون لهوانهم على سرائرهم أن ما يوجه اليهم من المديح ليس إلا ضربا من ضروب الختل والخداع.

٧ — وللتوحيدى مقتريات كثيرة على ابن عباد تدل على حذق بالغ وخيال عجيب، وقد أراد التوحيدى أن يدارى تحامله فأضاف الى ابن عباد بعض الأجوبة المفحمة، في شؤون كثيرة، بعضها مما لا تصلح روايته، ومنها الفكاهة الآتية:

”قال قوم من أصبهان لابن عباد: لو كان القرآن مخلوقا لحاز أن يموت، ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا نصلى التراويح في رمضان؟ فقال، لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضا، ويقول: لا حياة لي بعدك، ولا نصلى التراويح ونستريح!“^(٢).

(١) ص ٢٩٧، تصرف قليل. (٢) ص ٣٩٦ ج ٢، يافوت.

وهذه الفكاهة تمثل روح الارتياب الذي كان يدب في صدور أهل ذلك العصر .
 والتوحيدى هنا متسامح مع صاحب لأنه يريد أن يصل عن طريقه الى نشر هذه النكتة
 برفق ولطف ، ولا ينس القارىء دقة الخيال في كلمة : لو مات القرآن في آخر شعبان بماذا
 كنا نصلى التراويح في رمضان ! مع أن التراويح ليست كل شىء في الاسلام ، وانما أراد
 الكاتب أن يصل الى أن رمضان كان يموت ! ورمضان عند كتاب القرن الرابع شىء ثقيل ،
 هجاء من بينهم بديع الزمان وأبو الفصل بن العميد .

٨ - ومن دلائل عظمة صاحب أن المؤرخين أطلالوا الخلاف في تقرير فضله ، فبينما
 التوحيدى يلح في ثلثه وتنقصه والزراية به ، والإنحاء عليه ، يقوم الثعالبي من جانب آخر
 فيقول فيه :

”ليست تحضرني عبارة أرضاها للانفصاح عن علو محله في العلم والأدب، وجلال شأنه
 في الجود والكرم ، وتفرد بغايات المحاسن ، وجمعه أشنات المفانح، لأن همة قولى لتخفص
 عن بلوع أدنى فضائله ومعالیه ، وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساغیه ، ولكنى
 أقول هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا حرج
 فى مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق ، وكانت أيامه
 للعلوية والعلماء ، والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ،
 وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته فى مجد يشيده ، وإنعام يحثده ، وفاضل
 يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولما كان نادرة عطارى فى البلاغة ، وواسطة
 عقد الدهر فى الساحة ، جلب إليه من الآفاق وأقاصى البلاد كل خطاب جزل ، وقول
 فصل ، وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه
 مجمعا لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعدّ فى السحر ،
 ويكاد يدخل فى حدّ الإعجاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتى الشرق والغرب ،
 واحتف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم

على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي، وملك رق المعاني، فانه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين. (١) الخ.

وهنا مضى الثعالبي يسرد أسماء الشعراء والكتاب والخطباء الذين قدموا على الصاحب أو كاتبوه: كأبي الحسن السلامي، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي طالب الماموني، وأبي الحسن البديهي، وأبي سعيد الرستمي، وأبي القاسم الزعفراني، وأبي العباس الضبي. الخ. (٢) الخ.

٩ - ونحن لو تعقبنا من اتصلوا بالصاحب ممن ورد ذكرهم في كتب الأدب لرأيناهم نحو المائة أو يزيدون من مشاهير الرجال الذين أثروا في عصرهم وفيما تلاه من العصور أبلغ تأثير، ول هؤلاء الذين عرفوا الصاحب فرضوا عنه، أو غضبوا عليه، أثر كبير فيما نسب إليه من المناقب، أو حمل عليه من المثالب. ولهم كذلك أثر فيما عرف من طيشه، وغروره، وصلفه، وتحامله، أو بره، وجوده، وفضله، وتطوله، فان إقبال الرجال المشاهير على الرجل العبقري يرهف حواسه ومشاعره، ويوقظ ما غفا فيه من كريم الشرائع، وسيئ الطباع. والانسان في جملة مجموعة مختلفة من الحسن والقبح، والتسامي والإسفاف، وإقبال الدهر وإدباره يكشفان عن أسرار الغرائز والميول، وقلما تظهر محاسن الناس ومساوئهم إلا حين يرتفعون، أو حين ينخفضون، أما الرجل الذي يعيش عيشة وسطا لا مجال فيها للزهو أو الحقد فانه يظل مستور النحائر والخلال، وكذلك تأثر الصاحب بحاشيته فاولع بالاغراب، وكلف بالظهور على معاصريه من الكتاب والشعراء، وجرت له مع قاصديه من أرباب الحاجات نكت سارت مسير الأمثال. فقد ذكروا أن بعض أصحابه كتب إليه رقعة في حاجة، فوقع فيها، ولما وردت إليه لم يرفيها توقيعا، وقد تواترت الأخبار بوقوع التوقيع فيها. فعرضها على أبي العباس الضبي فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو ألف واحدة، وكان في الرقعة: "فان رأى مولانا أن ينعم بكذا فعل" فأثبت الصاحب أمام «فعل» ألفا، يعني (٣) «أفعل».

(١) ص ٣١ و ٣٢ ج ٢. نبذة . (٢) انظر ص ٣٢ ج ٢ . (٣) ص ٣٨ ج ٢. نبذة .

وكتب بعض العمال رقعة اليه في آلتاس شغل ، وفي الرقعة : ” إن رأى مولانا أن يأمر بإشغالي ببعض أشغاله “ فوق تحتها : ” من كتب إشغالي لا يصلح لأشغالي “ .

ورفع الضرابون من دار الضرب قصة الى الصاحب في ظلامه لهم مترجمة بالضرايين فوق تحتها : ” في حديد بارد “^(١) .

١٠ — وقد وصل به الإغراب الى أن يكتب في معان بعيدة عما ألف الكتابة فيه من شئون العقل والوجدان . قال الثعالبي : ” سمعت أبا جعفر الطيب المعروف بالبلاذري يقول إن للصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زاد عليها ، فسألته أن يعينها إن كانت عنده ، فذكر أنها في جملة ما غاب عنه من كتبه ، فاستغربت وأستبعدت ما حكاها من تطيب الصاحب ، ونسبته في نفسى الى التريد والتكثر الى أن ظفرت في نسخة الرسائل المؤلفسة المبوبة للصاحب برسالة قدّرتها تلك التي ذكرها أبو جعفر ووجدتها تجمع الى ملاحه البلاغة ، ورشاقة العبارة ، حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه ، وتدل على التبحر في علمه وقوة المعرفة بدقائقه “^(٢) .

والمهم في هذا هو آرتياب الثعالبي فيما نسب الى الصاحب من التطيب وظنه أن ذلك قد يكون من التريد والتكثر . ففي هذا اشارة الى أن الصاحب كان مبتلى بحاشيته يتقاولون عليه الأفاويل . أما أنا فأرجح أن رسالة الصاحب في التطيب لم تكتب الا معارضة للخوارزمي في رسالة كتبها الى أحد تلامذته في نفس المعنى ، وفي هذا دليل على أن الصاحب تأثر بمن اتصل به من الكتاب كما أثر فيهم .

١١ — وهنا ملاحظة لا بد منها : ذلك أن الخوارزمي والصاحب حين كتبوا في الطب استطاعا أن يقيما البرهان على أن الكاتب القدير يستطيع أن يضع المسائل الجافة في لغة جميلة تفيض بالعدوبة واللين ، مع أن في بعض الموضوعات خشونة طبيعية لا تألف لغة السجع والتورية والجناس ، واليك نموذجا من رسالة الصاحب الى صديق شكاه اليه علة ألمت به :

(١) ص ٣٨ ج ٣ نية . (٢) ص ٤٢ ج ٣ نية .

”قد عرفت ما شرحه مولاي من أمره، وأنبا عنه من أحوال جسمه، فدلتنى بجملة على بقايا في البدن يحتاج معها الى الصبر على التنقية، والرفق بالتصفية . فأما الذي يشكوه من ضعف معدته، وقلة شهوته، فلأمرين : أحدهما أن الجسم كما قلت آنفا لم ينق فتفتق الشهوة الصادقة، وترجع العادة السابقة، والآخر أن المعدة اذا دامت عليها المطفيات، ولزت بها المبردات، قلت الشهوة، وضعف الهضم، ومع ذلك فلا بد مما يطفي ويغذى، ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوى منها، ويزيل العارض المكتسب عنها ... والأقراص في آخر الحيات خير ما نقيت به المعدة، وأصلحت به العروق، وقوى به الطحال، ليتمكن من جذب العكر، لا سيما والذي وجده مولاي ليس الذنب فيه للحميات التي وجدها، والبلدة التي وردھا، فلوصادف الهواء المتغير جسداً نقياً من الفضول لما أثر هذا التأثير، ولا طول هذا التطويل ... الخ . وهي رسالة طويلة“^(١).

واليك قطعة من رسالة الخوارزمي الى تلميذه له وقد ظهر عليه الجدرى :

”هذه العلة وان كانت موجعة، وفي رأى العين فظيعة شنة، فإنها الى السلامة أقرب، وطريقها الى الحياة أقصد، لأن عين الطبيب تقع عايتها، ويد المرض والمعالج تصل اليها، وإنما هي قرح نهته الطبيعة، ودم أثارته الحرارة، وظاهر الداء أسلم من باطنه، وبارز الجرح أهون من كائنه، وهذه بعد علة تعم الأبدان، وتشمل الصبيان، واذا كانت العلة عامة كانت أكثر طباً ودواء، وأخف على القلوب أعباء، لأن النفس تستريح الى المشاركة وتأنس بالجماعة كما تستوحش من الوحدة . ولعمري إنها تورث سواد اللون، وتذهب من الوجه بديباجة الحسن، ولكن ذلك يسير في جنب السلامة للروح اللطيفة، والنفس الشريفة، وفي الشر خيار، ومن المحنة الى المحنة صروف وأقدار ... الخ“^(٢).

وللخوارزمي رسالة أخرى طويلة كتبها الى بعض الأمراء وقد ورد عليه كتابه يشكو فيه الجرب، يقتبس منها الفقرات الآتية :

(١) أنظر الصفحات ٤٢ — ٤٤ ج ٣ نيفة . (٢) ص ١٥٣ من رسائل الخوارزمي .

”... الجرب حكمة مادتها ييوسة وحرارة ووقود وآلتهاب، زندهما الذى يقتبسان منه طعام وشراب، وفضلة قدقتها الطبيعة الى ظاهر البدن، ودفع الله تعالى شرها عن الباطن، وعسكر من عساكر البلاء تمده القذارة، وتهزمه الطهارة، وتنقص منه البرودة والرطوبة، كما تزيد فيه الييوسة والحرارة . ومن داوى ظاهره وترك باطنه، فانما ييل حائطا وراء النار الموقدة، ويرش على سطح بيت فيه الشرر المبعوثه، ويقعد تحت قول الأول :

خلى داويتا ظاهرا فن ذا يداوى جوى باطنا

وكيف تقطع مادة نار تطفأ عن ظاهر الجسد، وهى تتوقد فى باطن الكبد ... أرى لسيدي أن يصبر على الجوع مع مرارته، وعلى العطش مع حرارته، وأن يقتصر من الطعام على ما يكون فى أوسط طبقات الرطوبة، وفى أعدل موازين البرودة، ولا بد من هجر اللحم والفاكهة ولا سبيل الى الحرافة . فاما بقول فيجب أن لا ترى ولو فى المنام، ولا تمس ولو بالأوهام، والسّمك وما ناسبه بلية، واللبن وما خرج منه منية، ... وهذه علة تكسب صاحبها خزية وحياء، وثورته نجلا واسترخاء، ينظر الى الناس بعين المريب، ويتستر عنهم كتستر المعيب، تنفر عنه الطباع، وتستقذره النفوس، وتنبو عن مؤاكلته العيون، ... ولولم يكن من دقائق آفاتهما، ومن عجيب هناتهما، إلا أنها تشيخ الفتيان، وتمسخ الانسان، وتجعله أميا بعد أن كان غير أمي، وأعجميا وليس بأعجمي، تنفر من نفسه نفسه، وتهرب من فراشه عرسه، ويتباعد عنه أقرب الناس منه، لقد كانت جديرة أن يحترق لدوائها، وتبذل الرغائب فى فنائها، ثم هى ربيع من أرباع الخذلان، وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

(١) أعاذك الله من أشياء أربعة الموت والعشق والافلاس والجرب

١٢ - ولو أن تلك الرسائل أُرخت لاستطعنا أن نعرف أى الكاتين أسبق الى الكتابة فى المعانى الطبية التى ظنها الثعالبي بعيدة عن تناول الكتاب . والصلة بين الصاحب والحوارزمي

كانت قوية تسمح لأحدهما بأن يقف على ما يكتب الآخر ، وإن كانت ضعفت بعد ذلك ، حتى كتب الخوارزمي الى الصاحب يعاتبه :

”...ولقد كانت أيامي بمحضرة الوزير قصارا ، وكان ليلى بها نهارا ، وساعاتي فيها أسخارا ، كما أن أيام فراقه أيام طوال ، وليلة فراقه تعدّ بليال ، وإنى بعد صبرى على فراقه لجلد على وقع سهام الهجر ، واسع المجال في ميدان الصبر...“ الخ .^(١)

١٣ — ولم يقف الصاحب في الإغراب عند حد معقول ، وإنما مضى يغرب في الصنعة شعرا ونثرا ، فوضع قصيدة تبلغ سبعين بيتا خالية من الألف ، وهي أكثر الحروف دخولا في المنظوم والمشور ، مطلعها :

قد ظل يجرح صدرى من ليس يعلوه فكري

وقد سارت هذه القصيدة ، واستمر الصاحب فعمل عدة قصائد كل واحدة خالية من حرف من حروف الهجاء ، وبقيت عليه واحدة تكون معرفة من الواو ، فأنبى أبو الحسين الهمداني وقال قصيدة ليس فيها واو ، ومدح الصاحب في أنثائها . وأولها :

برق ذكرت به الحبايب لما بدا فالدمع ساكب
أمدامى منهلة هاتيك أم غزر السحاب
نثرت لآلى أدمع لم يفترعها كف ثاقب^(٢)

وقد أخطأ المسيو ميتس (Mez) حين ظن أن الهمداني الذى صنع هذه القصيدة هو الهمداني صاحب المقامات . كلا ، فهذا على بن الحسين ، وذلك بديع الزمان أحمد بن الحسين . والصاحب مسبوق في هذا النوع من الانشاء ، سبقه واصل بن عطاء الذى تجنب حرف الراء في خطبه وأحاديثه مع كثرة دوران ذلك الحرف في الكلام . لكن ابن عطاء كان مضطرا لذلك ، إذ كان ألغى ، أما الصاحب فيمضى في هذا الفن صنعة وتكلفا ليكاثر معاصريه من

(١) ص ١٥٢ رسائل . (٢) ص ٢٢٣ ج ٣ نيفة .

(٣) ترجمة المسيو روش الفرنسية التى تفضل فأعطانا نسخة منها قبل أن تطبع .

الكتاب والشعراء . ومن المحتمل أن يكون صاحب هو الذى أثار فى أبى العلاء فكرة التزام مالا يلزم، وهو نوع من التكلف أثقل به ديوان اللزوميات .

١٤ — قلت إن صاحب كان شديد الرغبة فى استعباد الكتاب والشعراء، وقد نال من ذلك مبتغاه . ولكن المتنبي استعصى عليه وترفع عن مدحه والانتساب اليه . فأسرها صاحب فى نفسه وأخذ يؤلب النقاد والكتاب ضده ويحملهم على مهاجمته والنيل من قدره . ويمكن الحكم بأن الحملات التى هوجم بها المتنبي وهو حى كان أكثرها بتحريرى صاحب والمهلبى، وكلاهما كان يطمع فى انحياز المتنبي اليه . وقد اشترك صاحب بنفسه فى مهاجمة المتنبي فكتب رسالة نقد بها شعره . وهى رسالة يغلب فيها التحامل، ولكنها مع ذلك رسالة قيمة، تدل على فهمه للشعر وبصره بالنقد . ذكر فى مقدمتها أنه كان يذاكر بعض المتأدين فسأله عن المتنبي، فأجاب صاحب : أنه بعيد المرمى فى شعره، كثير الإصابة فى نظمه، إلا أنه ربما يأتى بالفقرة الغراء، مشفوعة بالكلمة العوراء . فهاج محادثه وانزعج، وأدعى أن شعر المتنبي مُتَمَرِّز النظام، متناسب الأقسام، ولم يرض حتى تحداه فقال : ان كان الأمر كما زعمت فأثبت فى ورقة ما تنكره، وقيد بالخطبة ما تذكره، لتصفحه العيون، وتسبكه العقول .

قال صاحب : ففعلت، وإن لم يكن تطلب العثرات من شيمتى، ولا تتبع الزلات من طريقي . وقد قيل : أى عالم لا يهفو، وأى صارم لا ينبو، وأى جواد لا يكبو، وإنما فعلت ما فعلت لئلا يقدر هذا المعترض انى ممن يروى قبل أن يروى، ويخبر قبل أن يخبر، فأسمع وأنصت، وأعدل وأنصف، فما أوردت فيه إلا قليلا، ولا ذكرت من عظيم عيوبه إلا يسيرا . وقد بلينا بزمن يكاد المنسم فيه يعلو الغارب، وميننا بأعيار أغمار اغتروا بمادح الجهال، لا يضرعون لمن حلب الأدب أفوايقه، والعلم أشطره، لا سيما على الشعر فهو فويق الثريا وهم دون الثرى، وقد يوهمون أنهم يعرفون فإذا حكوا رأيت بهائم مرسنة، وانعاما^(١) محفلة .

(١) ص ٢٢١ «الكشف عن مساوى المتنبي» .

وهذه الفقرة تدل على أن الصاحب كان ضيق الصدر يؤذيه أن يذكر المتنبي بخير .
فالمتنبي عنده رجل رفعه الزمن الجائر وأنصار المتنبي عنده أنعام لا يسمعون ولا يعقلون !

١٥ - وقد رأى الصاحب بعد ذلك أن يخبرنا أنه أعد للنقد عدته : بفالس الشعراء ، وكاثر الأدباء ، وباحث الفضلاء ، عشرين سنة ، وأخذ عن رواة المبرد . وكتب عن أصحاب ثعلب عشرين سنة أخرى . وذكر لنا بهذه المناسبة أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد "فانه يتجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن" ثم مضى في سرد الأحاديث التي وقعت بينه وبين ابن العميد في نقد الشعر ، الى أن قال : "وسمعت أیده الله يقول : إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويتبدأ النسخ ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذى قصده ، والمعنى الذى اعتمده ، وينظر فى أى الأوزان يكون أحسن استمراراً ، ومع أى القوافي يحصل أجمل أطراد ، فيركب مرّاً لا يخشى انقطاعه وأثيائه عليه" (١) .

ونحن نستجيد رأى ابن العميد فى تجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، ونرجح أن ابن شهيد الأندلسي تأثر بهذا الرأى حين قال : "إن للحروف أنساباً وقرباً تبدو فى الكلام ، فإذا جاور النسب النسب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصحبة" (٢) .

١٦ - وليس يهمننا أن نلخص ذلك الكتاب ، فلنكتف بما قاله فى نقد قصيدة المتنبي فى رثاء أم سيف الدولة ليكون نموذجاً لبقية المآخذ . قال الصاحب :

"ولقد مررت على مرثية له فى أم سيف الدولة تدل مع فساد الحس ، على سوء أدب النفس ، وما ظنك بمن يخاطب ملكاً فى أمه بقوله :

* رواقُ العز فوقك مسبطٌ *

ولعل لفظة الأسطرار في مرأى النساء من الخذلان الصفيق الدقيق . نعم هذه القصيدة يظن المتعصبون له أنها من شعره بمثابة «وقيل يا أرض أبلى ماءك» من القرآن و «أصدع بما تؤمر» من الفرقان . وفيها يقول :

وهذا أول الناعين طراً لأول ميتة في ذا الجلال

ومن سمع باسم الشعر، عرف تردده في آتراك الستر .

ولما أبدع في هذه المراثية واخترع قال :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

وقد قال بعض من يغلو فيه : هذه آستعارة . فقلت : صدقت ؟ ولكنها استعارة حداد

في عرس !

ولما أحب تقريظ المتوفاة والإفصاح عن أنها من الكريمات أعمل دقائق فكره ،

واستخرج زبد شعره ، فقال :

ولا من في جنازتها تجمار يكون وداعهم خفق النعال

ولعل هذا البيت عنده وعند كثير ممن يقول بإمامته احسن من قول الشاعر :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيبُ تراب القبر دل على القبر

وكان الناس يستبشعون قول مسلم :

* شلت وشت ثم شل شليلها *

حت جاء هذا المبدع بقوله :

وأبغ من فقدنا من وجدنا قبيل الفقد مفقود المشال

فالمصيبة في الرأى أعظم منها في المرى^(١) .

١٧ — وخلاصة القول أن صاحب بن عباد كان من أعاجيب دهره ، وأكتب أهل

زمانه . وقد بقي من رسائله جزء في المكتبة الأهلية ببائيس^(٢) . وفي زهر الآداب ونهاية الأرب

(١) في دار الكتب المصرية نسخة فتوغرافية من هذا الكتاب .

(٢) ص ١٢

ويتيمم الدهر ومعجم الأدباء قطع مختارة من رسائله . وهو يلتزم السجع أويكاد ، وفي أكثر الأحيان يبدو نثره دون شهرته : لأن غرامه بالصنعة والزخرف يستهلك معانيه ويهوى به في حضيض الغموض والتعقيد . وشعره وسط بين الجيد والردى . ومهما أحتال خصومه في الخط من عقله وأدبه فلا يمكن نكران أنه كان من أظهر الشخصيات في القرن الرابع ، وأنه رفع بجاهه ونفوذه وعبقريته طوائف كثيرة من المتأدين كانت تمضى طعمة الفقر والجمول لولم يمسا يمنه وإقباله ولم تعتمد على بره الوافر وساعده المتين ^(١) .

(١) هذا الفصل أقصر من أن يحيط بأدب الصاحب بن عباد . وقارى كتابنا يجد في غير هذا الفصل جوانب أخرى من الصاحب تتم شخصيته التاريخية التي كانت من أظهر الشخصيات في القرن الرابع .

٨ - أبو بكر الخوارزمي

١ - وهذه أيضا شخصية عظيمة من الشخصيات التي نهضت بالأدب العربي وشغلت الناس عدّة أجيال. والكاتب صاحب الشخصية فيما نريد هو الكاتب الذي يمتاز أسلوبه وتفكيره بخصائص ومميزات لا يمثلها كاتب سواه. وكذلك كان الخوارزمي فهو في ثره عقل قوى يمتاز من العقول التي سبقته أو عاصرته. وليس معنى ذلك انه يفوقها جميعا. فهو دون ابن العميد في سمو الغرض، ودون بدیع الزمان في حلاوة التعبير، ودون التوحيدى في وفرة المحصول، ولكننا نريد أن نقول إن له بلاغة خاصة تضمن له التفرد والاستقلال - والنبوغ الأدبي هو ذلك: فليس يطلب من الكاتب أو الشاعر أن يفوق جميع معاصريه ليوصف بالنبوغ. ولكن يكفيه أن يكون ينبوعا مستقلا يشعر الناس بوجوده الخاص ويحسون فقده إن حجب عنهم فيضُه النير. وقد كان الخوارزمي شاعرا، ولكن ديوانه ضاع. ولم يبق من شعره إلا القليل، فمن الصعب أن نعطي القارئ فكرة عن حياته الشعرية، وإن كان من السهل أن نجزم بأن نموله في الشعر كان أمرا مقضيا، لأنه عاصر جماعة من الشعراء الذين لا يشق لهم غبار، منهم الشريف الرضى والمتنبي والمعري وأبو فراس. على أن ما أثر عنه من الشعر يدل على أن كتابته خير من شعره، وأن شعره ليس بجيد وإن لم يكن برديء، من ذلك قوله في بعض الأصدقاء:

رأيتك إن أيسرت خيمت عندنا مقيا وإن أعسرت زرت لما
فما أنت إلا البدر إن قل ضوءه أغب وإن زاد الضياء أقاما
وقوله فيمن يطلب الصبأ وهو بخيل:

يامن يحاول صرف الراح يشربها ولا يفك لما يلقاه قرطاسا
الكاس والكيس لم يقض آمتلاؤهما  ففرغ الكيس حتى تملأ الكاسا^(١)

(١) أنظر بقية شعره في البيعة ج ٤ ص ١٢٧ - ١٤٨

فليس لدينا إذن ما يمثل شخصية الخوارزمي غير رسائله فلنكتف بها في درس ماله من قوة التفكير ودقة الأسلوب .

٢ - لا نعرف بالضبط متى ولد محمد بن العباس الخوارزمي ، أما موته ففيه خلاف ، فمن قائل انه توفي سنة ٣٨٣ ومن قائل انه توفي سنة ٣٩٣^(١) وسمى الخوارزمي لأن أباه من خوارزم . وقد أقام بالشام مدة وسكن بنواحي حلب ثم انتقل الى نيسابور فأقام بها الى أن مات . وكان الخوارزمي معروفا بقوة الحفظ . يشهد له بذلك أصدقاؤه وأعداؤه معا ، وانهم ليدكرون انه قصد صاحب بن عباد وهو بأرجان فلما وصل الى بابه قال لأحد حجابيه قل للصاحب : على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن في الدخول ، فدخل الحاجب فأعلمه فقال للصاحب قل له : قد ألزمت نفسي أن لا يدخل علي أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج اليه الحاجب وأعلمه بذلك . فقال له أبو بكر : ارجع اليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال ، أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال : فقال للصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمي^(٢) .

٣ - ومن الواجب أن نقف قليلا عند هذه الكلمة إذ كانت محتاج الى نقد : أفكان ممكنا حقا أن يجد الخوارزمي عشرين ألف بيت من شعر النساء ؟ أم هو غلو وإغراق من رجل عُرف بكثرة المحفوظ ؟ الظاهر ان في هذه الكلمة شيئا من المبالغة فقد وجه نظرنا أستاذنا المرحوم محمد بك المهدي في محاضراته بالجامعة المصرية (سنة ١٩١٦) الى أن علماء اللغة ورواتها لم يهتموا بأشعار النساء ، حتى ان الذين تخيروا الشعر الجيد منهم وجمعه في ديوان ليحفظ لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لأمراة لتكون بجانب قصائد الرجال ، وهذا أبو زيد القرشي قد اختار تسعا وأربعين قصيدة من القصائد الطوال ولم ينجح فيها بواحدة لأمراة ، لا من الجاهلية ولا من الاسلام ، وهذه المفضليات مائة وعشرون قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة أبيات لأمراة مجهولة من بني حنيفة . غير أن أستاذنا رحمه الله أشار في الوقت نفسه الى أن

(١) ابن خلكان ص ٣٥٦ ج ٢ (٢) ابن خلكان ص ٣٥٥ ج ٢

المرزباني جمع أشعار النساء في كتاب حافل يوجد منه الجزء الثالث في دار الكتب المصرية بخط أندلسي قديم مضى عليه نحو ثمانمائة سنة . وفي هذا دليل على أن الرواة شغلوا أيضا بجمع أشعار النساء ، وإن كان لا ينكر أن حظ المرأة في الشعر العربي ضئيل ، حتى ليتمكن القول بأن المرأة العربية لم تسم يوما إلى منافسة الرجل في الشعر ، وهما نحن أولاء نعيش في عصر من عصور النهضة في اللغة وفي الأدب ، فأين الشواعر المجيدات ، وكم عددتهن في هذا الجيل ؟ ومهما يكن من شيء فقد كان لما حفظه الخوارزمي أثر كبير في أدبه فقوى أسلوبه وتلون خياله وصار من أقدر الكتاب على الوصف ، ومن أعر فهم بضرب الأمثال .

٤ — أما حياته فأظهر ما فيها أحداثا : أولها اتصاله بالصاحب بن عباد وثانيهما مناظرته بديع الزمان .

واتصاله بالصاحب بن عباد يفسر لنا غرامه بالنيل من المتنبي والغض من شعره ، فهجومه على المتنبي لم يكن إذن صادرا عن نزعة فنية تحذوه إلى كشف عيوب المتنبي ومساويه . ولكنه اندفع في ذلك ترضية للصاحب ابن عباد الذي كان يحقد على المتنبي لترفعه عن مدحه وإشادته بابن العميد . وأشد ما عرف من هجاء الخوارزمي للتنبي قوله في الرسالة التي كتبها إلى الحاجب أبي إسحق لما نكبه الوزير ابن عباد :

”ونظرت إلى أبي الطيب وإلى تناقض حكمته ، وتفاوت طريقي فعلته ، حيث قال في سيف الدولة :

لا تطلبن كريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا

ثم قال في كافور الإخشيدي :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقي

فلقد باع من الوفاء علقا خطيرا ، واعتاض من الطمع ثمنا يسيرا ، وحال ضباب الحرص والرجاء ، بينه وبين العهد والوفاء ، وكان يضابق نفسه في اختبار المتاع ، ويساعها في اختيار

المبتاع ، ويخلع خلعة من نظمه تساوى بدرة ، على عرض من لا يساوى بكرة ، ويزن كريمة من كرائم شعره ، الى من لم تقم عنده كريمة ، ولم تعرف له قيمة ، لو رأى الطمع في حجر فأرلدخله ، ولو أتاه الدرهم من آست كلب لما غسله ، فلا جرم أن الناس كما استحسنوا قوله ، استقبحو فعله ، وكما أعجبوا بشعره ، تعجبوا من غدره ، يشكر ثم يشكو ، ويمدح ثم يهجو ، ويشهد ثم يجرح شهادته ، ويعطى ثم يسترجع عطيته . وكمن من حرفضله ثم ثلبه ؟ وكمن من عرض كساه ثم سلبه ؟ وكمن من صحفة أكل منها ثم بصق فيها ^(١) .

٥ — وهذه الكلمة نص في أن الخوارزمي كان يعجب بشعر المتنبي ولا يعيب عليه إلا أخلاقه وتنقله من حال الى حال ، وقد جرّه ذلك الى التغنى بخلقه هو ، واحتفاظه بالود ، ووفائه بالعهد ، فقال ” ولكن في قيص أبي بكر رجلا اذا أعطى لم يرتجع ، واذا طلق لم يراجع ، واذا بنى لم يعد على بنائه بالهدم ، واذا مدح لم يبطأ على عقب مديحه بالذم ، واذا طيب فكيه بالمدح لكريم ، لم يلطخهما بمدح للثيم ، واذا زوج كرائمه كفؤا حجبين أن يتبرجن لإلاديه ، ويحتلين غير عيذه ، وإنما الغدر من أخلاق النساء ، فمن تعلق بطرف منه فقد رغب بنفسه عن كمال الذكران ، وجذبها الى شق النسوان ^(٢) .

فالمتنبي مؤث الخلق لأنه غادر ، والخوارزمي مذكر الطبع لأنه وفي !
هكذا حكم الخوارزمي لنفسه بالنبل ، وحكم على المتنبي بالחסاسة ، لأن المتنبي يتغير ويتبدل ، أما الخوارزمي فلا يتلون ولا يحول .

ولكن القدر شاء أن يعاقب الخوارزمي على بغيه الأثيم : فساءت الصلات بينه وبين ابن عباد فتحول عنه وشغل بذمه وقدحه بعد أن شغل بتمجيده والثناء عليه ، وأستطاع أن يرمى بمدوحه بمثل هذا السهم المسموم :

لاتحمدن ابن عباد وإن هطلت يدها بالجوهر حتى أنجمل الديما
فإنها خطرات من وساوسه يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرم

وجرى في الناس ذكر الخوارزمي بالتقلب والتحول حتى قال فيه أحمد بن شبيب :

أبو بكر له أدب وفُضِّل ولكن لا يدوم على الوفاء
مودته اذا دامت لحل فمن وقت الصباح الى المساء

وأشدّ الصاحب حين بلغه خبر موته :

أقول لركب من خراسان قافل أمات خوارزمكم قيل لى نعم
فقلت اكتبوا بالحص من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم!

وقد اتصل الخوارزمي بكثير من الرؤساء ، ولكنا لا نعرف تفاصيل ما وقع بينه وبينهم ، وإن كانت طبيعة ذلك العصر تشير الى أن استقامة الخلق كانت نادرة ، وأن تبادل الضغائن والأحقاد كان من الظواهر الكثيرة الوقوع .

٦ — أما الحادث الثانى فهو مناظرته لبديع الزمان ، وهو حادث مشئوم قضى عليه ، ويرجع السرفيه الى دسيسة بعض الرؤساء المستوحشين منه ، والراغبين فى إسقاطه^(١) والى مكر بديع الزمان ودهائه مع أنه كان لا يزال فى غرارة الصبا ، وغفلة الحداثة ، وذلك أنه فطن الى جانب الضعف فيمن يقودون الجماهير فى ذلك الحين ، وهو غلوهم فى التشيع فأطلق ييكي القتل من أهل البيت ، ويستمطر الغضب والسخط على أعداء آل الرسول ، وكذلك أجمع على الخوارزمي كيد أعدائه فى نيسابور ولؤم مناظره ومكره ، فعاد وهو مقهور ”وأنخذل أنخذالا شديدا وانكسف باله وأنخفض طرفه ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره“ كما قال ياقوت^(٢) .

وقد سُبقت تلك المناظرة بطائفة من الرسائل جرت بين الكتاتين مجرى العتاب ، وهى رسائل جيده تستحق الدرس ، كان بديع الزمان فيها يعدّ الحملة ويتأهب للززال ، وكان الخوارزمي يقابل عتبه بأرق من النسيم فى بعض الأحيان ، وربما راجعه فذكر أن عتابه قبيح ولكنه حسن ، وكلامه لين ولكنه خشن ”أما قبحه فلأنه عاتب بريئا ، ونسب الى الإساءة

(١) ياقوت ص ١٠٤ ج ١ . (٢) ١٠٦ ج ١

من لم يكن مسيئاً ، وأما حسنه فلا لفاظه الغرر ، ومعانيه التي هي كالدرر ، فهي كالدينا
ظاھرھا ڤغر ، وباطنھا ڤضر ، وكالمري على دمن الثرى ، منظره بهى ، ومغبره وبى " وربما
أنشده :

بابديع القول حاشا لك من هجو بديع
وبحسن القول عوذ لك من سوء الصنيع
لا يعب بعضك بعضا كن مليحاً فى الجميع

وقد مضى الخوارزمي يلاين بديع الزمان فيذكر أن شريعة وده اذا وردها صافية ، وأن
ثياب بره اذا قبلها صافية « هذا ما لم يكدر الشريعة بتعته وتعصبه ، ولم يخرق الثياب بتجنه
وتسجه » وهنالك يذكر الخوارزمي أنه لا يقول :

وانى لمشتاق الى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

فان قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والاخوان اخوان ، وحسن العشرة سلطان ،
ولكنه يقول : وانى لمشتاق الى ظل :

رجل يوازنك المودة جاهدا يعطى ويأخذ منك بالميزان
فاذا رأى رجحان حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

٧ — على أننا اذا تجاوزنا هذين الحادئين وأخذنا نتلمس شعور ذلك الرجل بأعباء الحياة
وجدناه يمشى مثقل الظهر بطائفة من التكاليف تذلل لها نفسه ويحرج بها كبرياءه ، السننراه
يزور أبا الحسن عبد العزيز صاحب ديوان الرسائل طمعا فى بره ، فيكون هذا عند ظنه ،
فيكتب اليه رسالة تجئ فيها هذه الفقرة التي تمثل بؤسه أبشع تمثيل :

"ومن أنقذ انسانا من الفقر ، وأنقذه من محال الدھر ، وفكه من إسار العسر ، فقد
أعتقه من الرق الأكبر ، ونجّاه من الموت الأحمر ، والرق رقان : رق الملك ورق الهوان ،
والأسر أسران : أسر العدو وأسّر الزمان^(١) " .

وقد ورد عليه كتاب من أحد تلاميذه ينبئه فيه بأنه عليل؛ فكتب الخوارزمي كتاباً جاء فيه :

”وأظن أني لو لقيتك عليلاً لأنصرفت عنك ، وأنا أعلّ منك ، فاني بحمد الله تعالى جلد على أوجاع اعضاءي ، غير جلد على أوجاع أصدقائي ، ينبو عني سهم الدهر اذا رمانى ، وينفذ في اذا رمى اخواني ، فأقرب سهامه مني ، أبعد سهامه عني ، كما أن أبعداها عني ، أقربها مني^(١)“ وهذه الفقرة تمثله جُلداً صبوراً ، ولكن الصبر والجلد لا يطلبان الا حين تشتد الكوارث وتقسو الخطوب .

وهذا الشعور باعباء الحياة أنطقه بالحكمة في تعليل الحزن ، فهو من أسبق الكتاب الى الإفصاح عن علل العواطف والشهوات ، وانه ليحدثنا بأن الانسان حين يحزن للصيبة تحل بغيره ، انما يحزن لأنه يرى بعينه أن سيكون له مثل ذلك المصير ، اذ كانت المآسى الانسانية كأساً تدور على الجميع . ولنتظر كيف يقول وهو يعزى بعض الرؤساء في شقيق له :

”ورد علىّ خبر وفاة فلان فدارت بي الأرض حيرة ، وأظلمت في عيني الدنيا حسرة ، وملاً الوله والوهل قلبي وسواساً وفكرة ، وتذكرت ما كان يجعني واياه من سكرى الشباب والشراب ، فعلمت أنه شرب بكأس انا شارب من شرابها ، ورمى بقوس سوف ارمى بها ، فبكيت عليه بكاء لي نصفه ، وحزنت له حزناً لنفسي شطره“^(٢) .

٨ — وهذه الحيرة المطبقة التي كان يعانها الخوارزمي بين احداث زمانه جعلته يتشائم من صحبة من يقاسون إدبار الأيام ، ويتفائل بالتعرف الى من ينعمون باقبال الزمان ، وهو يرى ”أن من تعلق بذيل المقبل أقبل“^(٣) ويرى كذلك أن ”أيام المحنة موج من تطاها له تخطاه ، ومن وقف على طريقه أرداه ، ومن قابل أيام الإدبار بوجهه صدمته ، ومن قاتل عساكر الإقبال في أيام كرها هزمته“^(٤) وعنده أن ”الاقبال يستر العيوب ، والدولة تجعل البعيد قريباً ، والجد يرى المخطئ مصيباً ، والمجدود يمس بيديه ، ما لا يراه المحدود بعينه“ وكلتا الإقبال والإدبار

يجمعهما القارئ في رسائله هنا وهناك : بحيث يمكن الحكم بأنه كان موسوساً من هذه الناحية . وفي هذا الوسواس شيء من الحق والصدق ، فكّم من عقل ضاع ، وكّم من عبقرية أنحدت وأفلت ، بانصراف المفكر العبقرى الى مناصرة فئة تحتضر ، أو الدفاع عن فكرة تهيم بالأفول . وفهم الخوارزمي للحياة على هذا النحو الدقيق أملى عليه الحرص على الحكمة يسديها الى أصدقائه من حين الى حين ، من ذلك قوله فى سياسة النفس : ” ومن غلبت شهوته على رأيه شهد على نفسه بالبهيمية ، وانخلع عن ربة الانسانية ، وحق على العاقل أن يأكل ليعيش ، لا أن يعيش لياكل ، وكفى بالمرء عارا أن يكون صريع مأكله ، وقتيل أنامله ، وأن يخنى ببعضه على كله ، ويعين فرعه على أصله ، فكّم من لقمة اتلفت نفس حر ، وكّم من أكلة منعت أكالات دهر ، ولم من حلاوة تحتها مرارة الموت ، وكّم من عذوبة خلفها بشاعة الفوت . وكّم من شهوة ذهبت بنفس لا تقوى لها العساكر ، وقطعت جسدا كانت تبو عنه السيوف البواتر ، وهدمت عمرا هدمت به أعمار ، ونحرت بخراجه بيوت بل أمصار ... والمشتهى غاش لنفسه ، قليل البقيا على روحه ، وكيف يحفظ اصدقاءه ، من لا يحفظ اعضاءه ، وكيف يبقى على غيره ، من لا يبقى على نفسه ، وكيف يؤتمن على من لا يتأمن عنه ، من لا يؤتمن على بعض منه “^(١) .

٩ — ولنتقل بعد أن ألمنا بشيء من حياة الخوارزمي ووقفنا على شيء من مطوى صدره ومكنون سره ، الى فنه الذى عرف به فى اجادة الانشاء ، ولنذكر أولا أنه دلنا على فهمه لسر البيان ، اذ قال فى احدى رسائله فى هجاء بعض معاصريه :

”واذا أردت أن تعلم أنى فى ذمك جاد ، وفى مدحك لاعب ، وأنى فى الشهادة عليك صادق ، وفى الشهادة لك كاذب ، فانظر الى تهافت قولى اذ لا ينتك وجاملتك ، والى اصابتى الغرض وحزى المفصل اذ كاشفتك وصدقتك ، وذلك أن الصادق مُعانٌ ومأخوذ بيديه ، والكاذب مخذول مغضوب عليه “^(٢) .

فسر البلاغة عند الخوارزمي يرجع الى الصدق، وهذا دليل على أنه كان مأخوذاً بفننه مفتوناً به، فلن يكون للشاعر أو الكاتب وصول الى سحر البلاغة وسر البيان الا اذا صدق، وفي الصدق وحده سر العبقرية والنبوغ، ومن هنا سقطت آثار المتكلمين من الكتاب والشعراء الذين سخروا أقلامهم وعقولهم، وابعوا ضمائرهم ونفوسهم، ورضوا بأن يكونوا أبواقاً تردد أصوات الآمرين والناهين من أرباب الملك وأصحاب الجاه. وحين يصدق القلب والحس والعقل يصبح الأدب جذوة خالدة تلهب ما تمس من أوتار المشاعر والعواطف والأحاسيس على مر القرون وتتابع الأجيال، واذ ذاك لا يقوم الأدب بالأحجام والأوزان والمقادير كما يتوهم من يقيسون القصائد والرسائل والمؤلفات بالعرض والطول من أهل هذا الجيل، وإنما يقاس نبوغ الكاتب وتوازن عبقرية الشاعر بما فيها من نار ونور، وما تحمل من عناصر القوة الخالدة التي تجعل ربها أبا وأخاً وأستاذاً وزميلاً لكل من يمرون بعده بهذه الأرض مهما باعدت بينه وبينهم ظروف الزمان والمكان. فالصدق هو الهادى الأمين الذى يسير بنا في أودية الغرائز الانسانية، فلا نعرف شر الزيف ولا نقاسى ضر الضلال، وحين نصدق ونفنى في الصدق نتغنى وادعين بأحلام الانسانية المبتوثة في ضمير الوجود، فلا يغلق عنا سمع، ولا يعزف عن أغانيها أحد من الموفقين، وإنما تفتح لنا صدور الناس وقلوبهم وأرواحهم فنسكب فيها ما صدقنا في الإيمان به من أصول الشر والخير، والظلمات والنور، والبر والفجور. فان الحياة كما تعلم، مجموعة من حلم الانسان وجهله، وضلاله وهدهاءه، والكاتب الانسانى هو الذى يصدق ويفنى في صدقه حين يواجه ما فى الانسانية من مشاكل عقلية، وأزمات روحية، وثورات نفسية، ثم يتغنى بما فى الطبيعة الانسانية من نبل وسماحة ورفق وجمال، أو يصرخ مما فيها من شح ولؤم وجور وطفیان.

فانا لا أريد إذن بصدق الكاتب أن يكون مشغولاً بالخير وحده لا يتغنى إلا به، ولا يتحدث إلا عنه، وإنما أريد أن لا يتكلم الكاتب أو الشاعر إلا صادقاً، يتغنى بالخير حين يؤخذ به، ويتغنى بالشر حين يفتن به، وفي صدقه السر كل السر فى فتح ما أغلق من

سرائر النفوس وضائر القلوب ، فليصدق الفنان : إن خيرا نخير ، وإن شرا فشر ، فإن الصدق أساس النبوغ . أما الكاتب المنافق فمصييره الى فناء ، لأن النفاق أكبر مظهر من مظاهر الإخفاق ، ولا ينافق إلا الضعيف المخبول الذي لا يشعر لنفسه بوجود خاص ، ومن فقد شخصيته وأطمأن الى الاعتماد على سواه بخديربه أن يئأس من أن يروى له قول ، أو يوزن له رأى ، أو يرجى له بركة بقاء .

١٠ - ونعود فنذكر أن الخوارزمي يضعف حيناً ويقوى أحياناً ، يسمو ويخلق حين يصدق ، ويهوى ويسف حين يمين . وليس ضعفه بمحتمل ولا مقبول ، لأنه يلتزم الصنعة والزخرف والسجع ، فيبدو نثره الضعيف ثقيلاً ممجوجاً كالمرأة الفانية حين تنزين وتختال . ومن ذا الذي يسبغ قوله في وصف رجل :

”إذا ناظره العربي صار أعجمياً ، وإذا ناظره الأعجمي صار عربياً ، وإذا رآه المعجب بنفسه طلق كبره ، وفارق نغره ، فهو رفيق الجود وخليه ، وزميل الكرم ونزيله ، وغرة الدهر وتحجيلة ، حضرته الأجل والأموال ، لابل حضرة الأقوال والأفعال ، لابل حضرة الرجال ، تنصب إليها موارد الرغبات ، وتنشد فيها خيول الطلبات“^(١) .

وأنقل من هذا ورود الجناس في قوله من كتاب إلى محمد العلوى :

”أذكره وإن كنت لا أنساه ، وألقاه بقلبي وإن كنت لا ألقاه ، وأسأل الله تعالى أن يرينا سلامته سليمة ، وأستقامة أحواله مستقيمة ، فلا شئ أحوج من السلامة إلى السلامة ، ولا إلى الاستقامة من الاستقامة“^(٢) .

والحرص على السجع في مثل قوله : ”لا تؤخر عمل اليوم إلى غدا ، ولا تمهل نفسك في شغل السبت إلى الاحد“^(٣) ، فإن كلمتي السبت والأحد لم تقعا هنا إلا آبتغاء السجع .

والقارئ يجد أمثال هذه الفقرات الضعيفة في مواضع كثيرة من رسائله . وعذر الخوارزمي أنه حمل نفسه ما لا يطبق من الترام الصنعة والسجع في جميع رسائله ، حتى في الموضوعات التي لا تحتل التكلف ، فكان من الحتم أن يقع في مهاوى الضعف والإسفاف .

١١ - والخوارزمي حين يحمّد يسمو سمو عظيمًا ، ويقدم من صور الجحد والهزل ما يمتع النفس ويطرب الروح . وقد نراه يمزج فيستخفنا الطرب ونقبل عليه بنفس لعب . وله كلمة ما قرأتها إلا تذكرت الصديق القديم الشيخ محمد عبد المطلب حين كان يخرق شوارع القاهرة على ظهر حمار ، فقد آتفق للخوارزمي أن شكوا وروده إلى بعض النواحي بعد ما قاس السير والسرى وخاض غمار المهالك والردى ونظر إلى الآخرة وهو في الدنيا . قال "وأول ما مر بي سوء الدخول على ظهر الحمار ، ومعاشرة الحمار ، على أن الحمار أيضا حمار ، إلا أنه قصير الأذنين ، يمشى على رجلين ، وكأنني كنت بين حمارين ، إلا أنني كنت بين جنسين" ^(١) .

وله رسالة عن بستان ذكر أنه مرتع ناظره ، ومتنفس خاطره ، ومجال بصره ، ومدار فكره ، إذ ليست فيه زاوية إلا وقد صب عليه فيها كأس ، ونام في حاقها وجه صبيح ، وتقلب في أطرافها قد ملّح . إلى هنا يمضي الكلام فتذكر به بعض ما قصه فرانك هاريس عن أوسكار ويلد ، ولكن الخوارزمي يفاجئنا بأن بستانه ليس بذلك ، ثم يقول "وإنما أذكر بقلعة ^(٢) طولها باع ، وعرضها ذراع ، أعني باع البقة ، وذراع الذرة ، وأقل من لا ، وأصغر من الجزء الذي لا يتجزأ ، لو طارت عليها ذبابة لغطتها ، أو دخلتها نملة لسدتها ، تسقى بالمسقط صباحا ، وتبتك بالخلال مساء ، أشجارها مائة إلا تسعة وتسعين ، وأنهارها خمسون إلا تسعة ^(٣) وأربعين" .

١٢ - ولكن أمثال هذه الفكاهات تميز كالطيف فيما ترك ذلك الكاتب المجيد ، فتلك فقرات تصيدناها من رسائله ، وهيئات أن يكون لمثله طبع مرح وهو الذي قضى حياته يتعثر بين أحداث البؤس والهوان ، فالفكاهة حين تقع تحت سن قلمه لا تزيد عن عبث الالفاظ ، وتظل نفسه خامدة لا تطرب ولا تجنّ ولا تعرف سرّ الدعابة ولا روح المزاح . ألسنا

(١) ص ١٠٣ (٢) ورد ما يشبه هذا في كلام أبي الفتح بن العميد إذ قال : « وردت رقعة الشيخ أصغر من عفتة بقة ، وأقصر من أملة نملة » (ص ٣٣٥ ج ٥ ياقوت و ٣٤٦ ثمار القلوب) . وقال الميكالي : كتابك أقصر من بقة ، وأصغر من بقة ، وأخون من ذرة ، وأخفى من ذرة (ص ٢٥٥ ج ٤ بقبعة) . (٣) ص ١١

نستقي أدبنا مما نرد من موارد الحياة ونقدم لقراءتنا صوراً من أنفسنا وعواطفنا ومشاعرنا وأشجاننا وأحزاننا؟ وهذا لا يمنع أن لبعض المحزونين فكاهة ودعابة ، غير أن الخوارزمي لم يكن من هؤلاء ، فقد وقع بين قوتين تحولان دون حلاوة المزاح : الأولى عيشه الضيق ، والثانية مهنة التعليم . أما ضيق عيشه فقد عرفناه من تقلبه وحيرته بين أبواب الوزراء والرؤساء ، وأما مهنة التعليم التي احترفها واكتوى بنارها وكابد ما تقضى به من التجميل والتوقر والاستحياء فقد عرفنا أخبارها من رسائله الكثيرة التي جرت بينه وبين تلاميذه . ومن عسى أن يكون أولئك التلاميذ ؟ إنهم في الأغلب قوم ممن بسط الله لهم في الرزق ، واستطاعوا أن يغلقوا عنق ذلك الرجل بشيء من المال يقدمونه إليه ثمناً لعلمه وفضله . وتلك محنة نتصورها خطرة بسعة ونكاد نحكم بأن لأوزارها وأثقالها أثراً في كبت ذلك الروح وحبسها في حدود الجذو والرزانة ، وحرمانه من نسمات اللهو المباح .

١٣ — فإذا تركنا تلك الصور الفكاهية القليلة وانتقلنا إلى جد الخوارزمي وجدناه جداً رصيناً ينبئ عن نفس سامتها الأيام سوء العذاب ، وأول ما يطالعنا منه غيرته على الأدب وتوجهه لأن يراه مما ينال اللثام ، وإنه ليدكر أن "البخل بالعلم على غير أهله قضاء لحقه ، ومعرفة لفضله" وأنه يغار على الأدب الكريم ، من المتأدب اللثيم ، وينشد في ذلك :

وأرأى له من موقف سوء عنده كمرثيتي للطرف والعليج راكبه

ويود أن يكون الأدب في جبهة الأسد ولو أصبحت الدفاتر في أنياب الأسود ، ويتمنى لو بيعت الورقة بدينار ، أو كتب الدفتر بقنطار ، فلا يتأدب إلا شجاع كمي ، ولا يحوز الدفاتر^(١) إلا جواد سخى .

وفي مثل هذه الصرخة دليل على أن الرجل كان يعاني آلاماً كثيرة من معاصريه ، ويستكثر على فريق منهم أن يوسم بالأدب أو تصل يده إلى كتاب نفيس ، وفيها كذلك إشارة إلى قلقه من بعض الطبائع الدينية التي يورثها العلم والأدب ألواناً من العظمة البغيضة والكبرياء الممقوت ،

وهذا الصنف من المخلوقات هو الذى حمل بعض الناس على أن ينسب الى الرسول هذا الحديث الذى نراه يدور على ألسنة الجماهير «لا تعلموا أولاد السفلة العلم» وكذلك كان طلاب الشهرة فى عصر الخوارزمى يلجأون الى التحرش بالشخصيات الكبيرة ليم لهم ما يبتغون من الظهور كما يفعل الخاملون فى عصرنا هذا حين يهاجمون النابغين والعبقريين طمعا فى أن تذيع أسمائهم ويعرفوا بصحة الفهم، وقوة النقد، وسعة الاطلاع .

١٤ - ويظهر أن الخوارزمى ما زال يهاجم حتى وقع فى روعه أنه مغلوب . فله فقرات تشعر بجذله وجنونه من إقبال بعض الناس عليه ، فقد طلب منه أحد معاصريه نسخة من رسائله فكتب اليه فى الجواب :

”طلب الشيخ نسخة من رسائل فرحبا بأنجح طالب ، وأكرم خاطب ، ومن سعادة الصهر كرم أختانه ، ومن إقبال الكاتب والشاعر شرف من نظر فى ديوانه . ولو قدرت لجعلت الورق من جلدى ، بل من صحن خذى ، والقلم من بنانى ، والمداد من ماء أجفانى ، ولأملت هذه النسخة على السفرة البررة ، ليكتبوه بيد العصمة ، ويخلدوه فى بيت الحكمة ، بل لو علمت أن مثل الشيخ يطلبه ، وأن مثل يد الشيخ بسطها الله بالخيرات تكتبه ، لحاسبت عليه بقلبي ولسانى أدق حساب ، وطالبت شيطانى بتهذيبه وتنقيحه أشد طلاب ، ولقلت لخاطرى دقق طرزك ، وجود برك ، فإن المبتاع كريم ، والثن عظيم ، وقد قيل : الراوية أحد الشعارين ، وأنا أقول الراوية أحد الشعرين^(١) .

ويمكن أن يقال إن التواضع فى مثل هذه الفقرة مقصود لأنه أرسل ذلك الجواب الى رجل يرجو به وهو أبو العباس كاتب محمد بن ابراهيم ، ولأنه فى مواطن أخرى يتعالى فيقول فى عتاب أبى محمد العلوى : ”إن قوما أنا أصغرهم لكبار ، وإن أمة أبو ذر شرها لخيار“^(٢) . ولكننا مهما قلنا وجوه رأى اتهمنا الى أن الخوارزمى كان مضطرب القول فى تقدير أدبه

ووزن فضله ؛ وهو في ذلك معذور لأنه كان يعيش من فيض قلبه وهي حالة جعلتنا نرى المتنبي في عظمته وكبريائه يبدو في بعض الأحيان وكأنه تابع ذلول .

١٥ - وللخوارزمي صور فنية يعرض بها الظالمين من أهل زمانه عرضاً بشعاً رهيباً، مثال ذلك قوله في وصف بعض الولاة :

”ورد علينا فلان ونحن نيام نوم الأمانة، وسكارى سكر الثروة، ومتكئون على فراش العدل والنصفة، فما زال يفتح علينا أبواب المظالم، ويحتلب فينا ضرعى الدنانير والدراهم، ويسير في بلادنا سيرة لا يسيرها السنور في الفار، ولا يستخيرها المسلمون في الكفار، حتى آفتقر الأغنياء، وأنكشف الفقراء، وحتى ترك الدهقان ضيعته، ومحمد صاحب الغلة غلته، وحتى نشف الزرع والضرع، وأهلك الحرث والنسل، وحتى أخرب البلاد، بل أخرب العباد، وحتى شوق إلى الآخرة أهل الدنيا، وجبب الفقر إلى أهل الغنى، وحتى لقب بالجراد، وكنى أبا الفساد، وحتى صار الدرهم في أيامه، أقل من الصدق في كلامه، وصار الأمن في أعماله أعز من السداد في أفعاله . فليتة إذ أوحش الرجال، حصّل المال، وليته إذ ضيع المال، أرضى الرجال، ولكنه حرم الآتين، فأفلس من الجهتين . ووالله ما الذئب في الغنم بالقياس إليه إلا من المصلحين، ولا السوس في الخبز في الصيف عنده إلا من المحسنين، ولا الحجاج بن يوسف الثقفي في أهل العراق إلا أول العادلين، ولا يزدجرد الأئيم في أهل فارس بالإضافة إليه إلا من النبیین والصديقين، ولا فرعون في بني إسرائيل إذا قابلته به إلا من الملائكة المقربين^(١)“ .

١٦ - وفن الخوارزمي يظهر جيداً في هذه الصورة، فقد وازن بين الحاليين : حال الأمن وحال الخوف، وقابل بين الخطتين : خطة العدل وخطة العسف، فأشار إلى أنهم كانوا قبل ورود ذلك الوالى في سكر الغنى وغفوة الأمان، وأنهم كانوا على فراش العدل متكئين، فلما قدم ذلك الوالى أذهم وأذاقهم لباس الجوع والخوف . وفي قول الخوارزمي ”حتى افتقر

الأغنياء، وانكشف الفقراء“ دقة بالغة، فإن انكشف الفقراء غاية ما تصل اليه البأساء والضرراء، إذ كان الفقر المحتمل يداوى بالتجمل والتستر، وتسدل عليه أثواب الحياء. وحين تصبح الهيئة الاجتماعية مقسمة الى غني- افتقر، وإلى فقير ذل وخنع، فهناك البؤس الجائر، والهلول المبين. وكلمات السوس والجراد والسنور والفأر تذكر بقول بديع الزمان في الشكوى من قاض ظالم ”وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود“^(١). وفي مثل هذا التوافق دليل على أن تحاب ذلك العصر ببالغون في بعض التعابير، وأنهم كانوا يميلون الى التمثيل بعوالم الحشرات والنبات والحيوان. وقوله ”حتى صار الدرهم في أيامه أقل من الصدق في كلامه، وصار الأمن في أعماله أعز من السداد في أنعاله“ من العبارات الجميلة لولا أنه تريد لما وقع من مثل هذه المقابلة في شعر الهجاء. وذكر الحجاج ويزجرد وفرعون في الحديث عن الظالمين ليس بجديد، ولكنه ورد في صورة مقبولة تشعر بأنه كان يحسن استغلال ما ورد على ألسنة الأقدمين.

١٧ - ولخوارزمي رسائل نحس فيها طيب النفس وخفة الروح، ولكنا نجد فيها كلمات قلقة نابية هي أثر الصنعة والتكلف والتزام السجع، كقوله في خطاب تلميذه :
”كتابي هذا ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت، وقدمت من رأيي ما أخرت، لما أمضى فينا الفراق حكمه، ولا أنفذ فينا سهمه، ولا أقمنا جميعا أورشلنا معا. واني لأظلم الفراق اذا شكوته، وأتعنف الدهر اذا هجوته، وببدي- ضرباني، ومن سهمي- رمياني. فأنا كالقاطع يده بيده، والفاجع نفسه بنفسه، ومطرق الفراق الى قلبه، ومتجرع غصص البين وكربه“^(٢)
والفقرتان الأخيرتان تكرر ثقيل. والمعنى كله ماخوذ من أبيات حورها الخوارزمي.
وهي في الأصل الذي أثبتته القالي :

تطوى المراحل عن حبيبك دائماً وتظل تبكيه بدمع ساجم
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى تشكو الفراق وأنت عين الظالم

(٢) ص ١٠ رسائل الخوارزمي.

(١) ١٦٩ رسائل بديع الزمان.

ألا أقمت ولو على جمر الغضا قلبت أو حد الحسام الصارم

ويقول الخوارزمي في هذه الرسالة يصف الأيام الماضية : " كانت أرق من حاشية
البرد، وأحسن من طلوع السعد، وأحلى من إنجاز الوعد، وأعذب من القند^(١)، بل من النقد،
وأعقب من الورد، وما أردت إلا ورد الخد، بل من المسك والند، وأطيب من القرب بعد
البعد، ومن الوصل في أثر الصب، بل كانت أرق من نسيم الزهر، في السحر، ومن قضاء
الوטר، على الخطر، بل كانت أقصر من ليل السكرى، أو نهار الحيارى^(٢) ". .

وهذه تعابير كانت تجمل وتظفر بالقبول لو لم يرم بها كاتبها على هذا النحو من الإسراف .

١٨ - بقى أن نسأل هذا السؤال : هل للخوارزمي في جده وهزله فلسفة خاصة يقف

عندها الباحثون ؟ .

الظاهر أن فهم الخوارزمي للحياة كان واقفا عند حدود أغراضه ومآربه ومطالبه
الشخصية . وكان فنه واقفا على حسن السفارة بينه وبين أولى الأمر من معاصريه، فليست
رسائله في حملتها إلا شذرات من المديح والعتاب والاستعطاف والهجاء . وهذا أخطر مقتل
في تلك الرسائل التي تعد من ذخائر الأدب العربي، وهو من أجل ذلك لا يصلح أستاذا لكثير
من المتأدين، فانه لم يهب شطرا من مشوره في الدفاع عن فكرة فلسفية، أو نزعة وجدانية،
ولم يرفع الأدب الى أفق من آفاق الحب والمجد والإخلاص، ولم يسم به الى سماء من سموات
الفن الخالص الذي ينسنا آصار المادة وينقلنا الى عالم الأرواح . وكل ما نجح فيه الخوارزمي
أنه أشعرنا بوجوده، ووقفنا بحجده أمام شخصية قوية لها في الحياة مطامع وأهواء، ولها
في عصرها وجود ظاهر يحسب له حساب . ونحن لا نستقل هذا، ولكننا لا نكتفى به .
فإن الزعامة الأدبية مهما دلت على أخطار الزعماء لا ترضى وحدها عشاق الخير والحق
والجمال .

(١) القند : عسل قصب السكر . (٢) ص ١١ .

١٩ - ولقد آنحاز الخوارزمي الى مذهب الشيعة، وهو مذهب له خصائصه ومزاياه .
وفي صف هذا المذهب وقف وقفة مخيفة دللتنا على أنه رجل جلد ونضال، ولكنه لم يشعرنا
بحب ذلك المذهب، ولم يسكب في روحنا قطرة من الحنان نحو من بكاهم من الشهداء : لأنه
كان يشوب تشيعه بالحقد الأسود على بنى أمية وبنى العباس . ونستطيع أن نقول إنه في هذا
الموضوع كان داعيا صادقا الى فكرة لها قيمتها في الحياة الاسلامية، وأنه استطاع بالدفاع عنها
أن يحشر في زمرة المجاهدين في الحياة السياسية، لولا أنه بسط لسانه بطائفة من العورات
والهينات حين عرض للخلفاء في ألفاظ منكرة أخفها الحكم بأنهم جاءوا من نطف السكارى
في أرحام الفيان .

ومن الحق أن نقرر أن الرسالة المطولة التي بعث بها الى الشيعة في نيسابور تبدو لمن يقرأها
وكأنها صاعقة تصب على رءوس من عادى من الرؤساء، وفي هذه الرسالة يبدو الخوارزمي
وهو أزرق الناب مسموم اللعاب، كالحية النضناض . وفيها كذلك يبدو طيبة وخبثه، وكرمه
ولؤمه، وشهده وصابه، فهو تارة مؤمن متبتل خاشع صبور حين يقول : " فان أصابتنا نكبة
فذلك ما قد تعودناه، وان رجعت لنا دولة فذلك ما قد آتتظنناه، وعندنا بحمد الله تعالى لكل
حالة آلة، ولكل مقامة مقالة : فعند المحن الصبر، وعند النعم الشكر^(٢) . وهو تارة متحزب
حقود يعتد آثام الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس ويذكر ما آفترقوا من الجرائم في تقريب
المغنين، وإقصاء الفاطميين، وله في ذلك لدعات مسمومة يعف قلبنا عن تفصيل ما أنطوت
عليه من خبيث الذم وفاحش الهجاء .

٢٠ - ولا يفوتنا أن نشير الى أن في تلك الرسالة إشارات الى نواح من الأدب لها أهمية
عظيمة : فقد لوح الى إن هناك أشعارا وضعت بعد الاسلام على السنة الجاهلية معارضة لأشعار
المسلمين، ورواها مثل الواقدي ووهب بن منبه التيمي ومثل الكلبي والشرقي بن القطامي
والهيثم بن عدى، وهو بهذا ينص على أن أشعارا وضعت للخط من على بن أبي طالب، وعرفنا

منه كذلك أن من شعراء الشيعة مَنْ قُطِعَ لسانه ومُنِرَقَ ديوانه فضاع شعره وهو عبد الله بن عمار البرقي فصار لذلك من الشخصيات المجهولة في تاريخ الآداب . وعرفنا منه أيضا أن عبد الله بن مصعب ووهب بن وهب البختری ومروان بن أبي حفصة الأمويّ وعبد الملك ابن قُريب الأصبعي وبكار بن عبد الله الزيري وأبا السمط بن أبي الجون الأموي وابن أبي الشوارب العبشمي ؛ هؤلاء جميعا كانوا متهمين بالتعامل على آل أبي طالب ^(١) .

وهذا كلام ليس جديدا في ذاته فقد أشار الى مثله كتاب التراجم، ولكن وروده على لسان الخوارزمي مضافا الى ما أفاض فيه من عيوب الخلفاء يوضح أشياء كثيرة لها أهميتها في تحديد الاتجاهات الفكرية والأدبية عند الكتاب والشعراء والمؤلفين ، ويدعو الى الاحتراس مما نسب الى كثير من المتقدمين .

(١) ص ١٢٩ و ١٣٠

٩ - قابوس بن وشمكير

١ - في سنة ١٣٤١ هـ، نشرت المطبعة السلفية كتاباً صغيراً اسمه كمال البلاغة على نفقة المكتبة العربية ببغداد، فمن الواجب في رأس هذا البحث أن نسدى الشكر لحضرتي الفاضلين نعمان الأعظمي ومحب الدين الخطيب على عنايتهما بإحياء هذا السفر النفيس .

وكمال البلاغة هذا مجموعة صغيرة من رسائل شمس المعالي قابوس بن وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ هـ — أما قابوس بن وشمكير فشخصية جذابة شغلت أرفع مكان بين كتّاب القرن الرابع، وسار ذكرها بين أدباء الأندلس حتى عده ابن شهيد ضريعاً لبديع الزمان . وهو ملك من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان . قام بأعباء الملك سنة ٣٦٦ ولقبه الخليفة الطائع لله "شمس المعالي". ولكن فتنة نشأت في الشرق بين عضد الدولة بن بويه وأخيه نخر الدولة في السنة الأولى من حكم قابوس كان من نتائجها أن أنهزم نخر الدولة ولجأ إلى قابوس فأكرمه ورعاه، فأحفظ ذلك عضد الدولة الذي أغار على مملكة قابوس فاستولى عليها سنة ٣٧١ وفتر قابوس لاجئاً إلى خراسان . وبعد سنتين استطاع نخر الدولة أن يعود إلى ملكه وكانت بلاد قابوس في جملته، ففكر قابوس في الاستفادة من هذا الظرف ، ولكنه موطن لنية كان يخفيها الوزير آبن عباد . فلما توفي نخر الدولة سنة ٣٨٧ أعد قابوس حملتين عسكريتين واسترد ملكه سنة ٣٨٨ ، ولكن عصره كان مملوءاً بالقلق والاضطرابات فاتهت الأملر بمخلعه وتولية ابنه . وكانت له نهاية محزنة نشأت عن ثورة الشعب الذي أكرهه على الفرار إلى بسطام حيث قضى نحبه هناك .

٢ - كان قابوس من الملوك الأدباء ، وكان للظروف القاسية التي عاناها في حياته السياسية أثر بليغ في طبع مواهبه الأدبية بذلك الطابع المحزن الذي يغلب على شعره وثره . وهو يذكّر بالمعتمد بن عباد الأندلسي ، فكلاهما بكى ملكه وحظه ومجده ، ولنتظر كيف يقول قابوس حين استولى ابن بويه على بلاده وأخرجه منها حاثراً كاسف الهال :

لئن زال أملاكى وفات ذخائرى وأصبح جمعى فى ضمان التفرق
فقد بقيت لى همة ما وراءها منال لراج أو بلوغ لمرتقى
ولى نفس حر تأنف الضيم مركبا وتكره ورد المنهل المترقى
فان تلفت نفسى فله دزها وإن بلغت ما أرتجيه فأخلق

وله هذه الأبيات التى يحفظها أكثر المتأدين وقد وصلت الى أغلب الجماهير لعناية المؤلفين باختيارها فى المجموعات الأدبية :

قل للذى بصروف الدهر عيرنا هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف وتستقر بأقصى قاعه الدرر
فان تكن نشبت أيدى الزمان بنا ونالنا من تمادى يؤسه الضرر
ففى السماء نجوم ما لها عدد وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وله أيضا هذه القطعة يعرض بمن رفعتهم الأيام بعد خفض وأعزتهم بعد هوان :

بالله لا تنهضى يا دولة السفل وقصرى فضل ما أرخيت من طول
أسرفت فأقتصدى، جاوزت فأنصرفى عن التهور، ثم أمشى على مهل
مخدمون ولم تخدم أوائلهم محولون وكانوا أرذل الخول

وبمناسبة شعر قابوس نذكر له هذين البيتين وهما من أروع ما قيل فى التشبيب :

خطرات ذكرك تستثير مودتى فأحس منها فى الفؤاد ديبا
لا عضولى إلا وفيه صباية فكان أعضاى خلقن قلوبا

٣ - أما نثر قابوس فأعجوبة من أعاجيب فن الانشاء . هو نثر مصنوع صنعة دقيقة جدا لا يدرك كنهها إلا الفحول . وقد عني بدراسته من المتقدمين عبد الرحمن اليزدادى الذى اختار من رسائله ماسماه "كمال البلاغة" ودراسة اليزدادى لنثر قابوس جديرة بأن يعود اليها الأدباء بالنقد والتحصيل، لأنها مكتملة لأنواع البديع : فقد استخرج منها أنواعا لم يكن وجدها

قدامة بن جعفر فيما فتش من كلام الفصحاء، ثم تولى تسميتها بما شاكلها من النعوت، وهى أربعة عشر نوعا . منها المجنح كقوله :

”صام عن جواب ما نفذ اليه، ونام عما لزمه فى حق الاعتماد عليه“ .

وسماه مجنحا لأنه شبهه بشيء له جناحان من قبل أن فى أوله سجعاً وفى آخره سجعاً وبينهما واسطة . فكلمة (صام) فى أول القرينة الأولى تقابل كلمة (نام) فى أول القرينة الثانية . ومنها الممثل كقوله :

”ولا يعجبني أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول، ويأذن لطوالع معاليه بالأفول“ .
وسماه كذلك لكثرة ما فيه من التمثيلات .

ومنها المجانس كقوله :

”أين الطبع الذى هو للصدود صدود، وللتألف ألوف ودود“ .

وسماه كذلك لأن اسمه مشتق من الجنس ولأن بعض الكلام منه جنس لبعض، فالصدود وصدود من جنس واحد، والتألف وألوف من جنس واحد .
ومنها مشابهة الصور كقوله :

”إذا خالف، فأحسبه قد خالف، وإذا أعار، فأحسبه قد أعار“ .

وسماه كذلك لتشابه صور الكلمات فى الخط : فخالف وخالف فى صورة واحدة، وكذلك أعار وأغار .

واليزدادى مفتون فتنة مطبقة بنثر قابوس، وأنظر كيف علّق على قوله :

”قد خلد ذلك فى بدائع الأخبار، وكتب بسواد الليل على بياض النهار“ .

فانه يقول : (هذا كلام لا أعرف فى جودة صنعتة وغرابة معناه كلاما : لأنه مثل سواد الليل بالمداد، وبياض النهار بالقرطاس، وهما شيئان ليس لهما نظيران فى البقاء، وهذه القرينة الثانية نتيجة طبع كالماء رقيق، وصنع فى تأليف الكلام دقيق، وليس مما يسمح به

طبع الكتاب وتنفى به قرائحهم ، فإننى قد أجلت الفكر فى عدة ألفاظ رائية الأواخر فلم أجد منها ما يقع موقعه فى الوفاق . وكان ما أتى وحضر فى غاية النور منه والشذوذ عنه ، ولا يعرف ما أقوله إلا من يعالج التسجيع^(١) .

وفى مكان آخر يقول :

”وأنا إن رمت العبارة عن بدائع هذه الرسائل عييت به لإعجازها ، ولأنه كلام مبين ، فى الفصاحة والعدوبة والبدعة والإيجاز ، للكلام المعهود الجارى على ألسنة الناس ... ليس ذا من كلام البشر ، ولا من المعرفة البشرية ، والادراك الطباعى ، بل هو إفاضة القوة العلوية^(٢)“ .

٤ — أما نحن فقد راجعنا هذه الرسائل غير مرة ، ورأيناها حقا من الذخائر النادرة ، ولكننا لا نوافق الزيدادى على تقرير أن هذه الأربعة عشر نوعا من البديع لا توجد فى كلام غير كلام قابوس . فهى فى جملتها ترديد للصنعة التى عرف بها المتقدمون . وكل ما يمتاز به هو شدة الأسر ، وأطراد الفن فى جميع أجزائها بحيث يمكن أن يقال إن هذا الرجل كان ينحت الكلام كما ينحت المثال الصخر ليخلق منه غرائب التماثيل .

٥ — وهنا نقطة يحسن الكلام عليها : هى أن نقاد الغرب اليوم يأخذون على كتاب اللغة العربية أنهم يجمعون بين الصور المختلفة فى الجملة الواحدة بدون أن يلاحظوا ما يجب أن يكون بين تلك الصور من الروابط المعنوية . من ذلك مثلا قول الثعالبي فى الزوزنى الكاتب :

”يغرس الدر فى أرض القراطيس ، وينشر عليه أجنحة الطواويس“ .

فان هذه أخيلة متنافرة لا جامع بينها ولا رباط . ولو حلت ما فيها من أستعارة لأعيان الأمور وضاق بك المجال . وهى فى جملتها شعوذة عقلية ، وإن بدت لبعض الناس نهاية فى الحسن والرواء .

وقول الثعالبي أيضا فى أبى الفرج الببغا :

”له كلام ، بل مدام ، بل نظام من الياقوت ، بل حب الغمام“ .

فان الانتقال من هذه الصور مضلل للخيال . وكل ما عند الكاتب أنه عرض ما مرّ بذهنه من مختلف الأشكال .

٦ — ونحن إذا أردنا أن ننقد رسائل قابوس من هذه الناحية وجدناه يخلق أحيانا ويسفّ حيناً . فمن المستجاد له هذه العبارة :

”ولا يعجبنى أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول ، ويأذن لطوالع معاليه بالأفول“ .
فان الصور هنا متقاربة والربط بينها موجود . ولكن أنظر قوله في وصف نثر ابن العميد :
”ولو كنت عرفت تفاضل الكلام ، وميزت بين المنسم والسنام ، لما قابلت بصفيري زئيره ، وما ساجلت ببعيثي جريره“^(١) .

فان الربط بين هذه الصور صعب ، لأنه قابل بين المنسم والسنام ، ثم أنتقل فقابل بين الصفيير والزئير ، وأبعد من هذا انتقاله في قوله ”وما ساجلت ببعيثي جريره“ فان القارئ يحتاج إلى تأمل وتفكير في تصوّر هذه القرينة الأخيرة ، الى أن يتاح له من يفهمه أنها إشارة إلى البعيث وجرير من بين الشعراء .

ويستجاد قوله :

”حتى يثمر ما أزهر من القول ، ويمطر ما أنشأ من سحاب الفضل“^(٢) .

لأن الزهر والثمر والمطر والسحاب مما يغلب الجمع بينه في عالم الوجود . ولكن أنظر قوله :
”الدنيا شجرة ثمرتها النوائب ، وبيضة مضمناها العجائب“ .
فان الانتقال من الشجرة إلى البيضة شطط غير مقبول .

ويستجاد قوله :

”أمن صخر تدمر قلبه فليس يلينه العتاب ، أم من الحديد جانبه فلا يميله الإعتاب ، أم من صفاقة الدهر محقّ نبوءه فقد نبا عنه غرب كل حجاج ، أم من قساوته مزاج إلبائه فقد أبى على كل علاج“^(٣) .

فإن الأواصر وثيقة بين هذه التمثيلات، ولكن أنظر قوله :

”فأما ذلك المهم فما أحراه بأن يلجم فيه مسرج وعده، وينتج بالنجح ماضنه نسج يده“^(١) .
فان هذه الأخيلة قليلة الأتلاف .

٧ — ومن الحق أن أقرر أنني أجد صعوبة في البحث عن مقاتل هذا الكاتب الفنان،
فأكثر صوره وأخيلته وتمثيلاته يسود فيها روح التآلف والاتساق . ويعجبني قوله :
”فن أين للضباب، صوب السحاب، وللغراب، هوى العقاب“^(٢) .
وقوله :

”ولم لا يسترد عازب الرأي فيعلم أنه ما لم يعاود الصلة مأفون، ويستعيد غائب الفكر
فيفهم أنه ما دام على الفرقة مغبون، أظنه يقدر الاستغناء عنى هو الغنى والغناء، ولا يدري أن
الآلتواء على هو اليلى والبلاء، ويخال أنه مكتف بجاهه وعرضه، ولا يشعر أنى كل لبعضه،
وطول فى عرضه، وأن قوة الجناح بالقوادم والخوافى، وعمل الرماح بالأسنة والعوالى“^(٣) .

وله أحيانا مبالغات يظهر فيها الغلو والإسراف، ولكن حلاوة أسلوبه تسحب عليها
نسمة من القبول . وإليك قوله :

”بل كيف يهون من لو شاء عقد الهواء، وجسم الهباء، وفصل تراكب السماء، وألف
بين النار والماء، وأكمد ضياء الشمس والقمر، وكفاهما عناء السير والسفر، وسد مناخر
الرياح الزعازع، وطبق أجفان البروق اللوامع، وقطع ألسنة الرعود بسيف الوعيد، ونظم
صوب الغمام نظم الفريد، ورفع عن الأرض سطوة الزلازل، وقضى بما يراه على القضاء
التازل، وعرض الشيطان بمعرض الانسان، وكلل الحور العين بصور الغيلان، وأنبت
العشب على البحار، وألبس الليل ضوء النهار“^(٤) .

(١) ص ٨١ (٢) ص ٧٧ (٣) ص ٥٦ (٤) لعل الصواب (مثل) بالتشديد .

(٥) ص ٥٥

٨ - وهذه القطعة التي نعدها من المبالغات والتهويلات ، ألا تدلنا على شيء ؟ إنها لتدلنا على أن الانسان كان يحلم منذ أجيال بالتحكم في الأرض والسماء ، والماء والهواء . إن هذا الكلام الذي نراه مبالغة لو قاله امبراطور ألمانيا بالأمس ، أو قاله ملك إنجلترا اليوم ، لما رأى الناس فيه شيئا من الغلو والاسراف . فقد أستطاع الانسان في هذا الجيل أن يكمد ضوء الشمس والقمر ، وأن يسخر الهواء ، وأن يؤلف بين النار والماء ، وأن يسد مناخر الرياح ، وأن يطبق أجفان البروق ، وأن يبدل الطبائع من حال إلى حال . وقد ألبس الليل ضوء النهار ، ولم يبق إلا أن ينبت العشب على البحار .

إن دراسة الآداب القديمة تعطينا صورة عجيبة من أحلام الانسانية . فهذا الطيراني الذي أصبح قوة القوى في هذا العصر كان حلمًا يتردد كثيرا في أخيلة الأقدمين ؛ فقد تصوروا سليمان بساط الريح ، وقدرّوا أن سيكون في الجنة طيارون ، ولم يتمثلوا الملائكة إلا مجتّحين ، لأنهم كانوا يرون القوة الكاملة في أن يطير الانسان من أفق إلى أفق ، ومن قطر إلى قطر ، كلما بعثته الدواعي وأهابت به الظروف .

فما نراه مبالغة في كلام قابوس بن وشمكير ليس إلا وثبة من وشبات الخيال الانساني الذي قدّر ما ينتظره من البأس والقوة في عالم الوجود . ولنتنظر كيف يقول في نفس الرسالة التي اقتطفنا منها القطعة السالفة :

” كيف يُرْهِد فيمن ملك عنان الدهر فهو طوع قياده ، وتبع مراده ، ينظر أمره ليمتثل ، ويرقب نهيه فيعتزل ؟ وكيف يُهَجَّر من تضاءلت الأرض تحت قدمه ، وصارت في الانقياد له تكدمه ؟ إذا رأت منه هشاشة أعشبت ، وإن أحست منه بجفوة أجذبت ؟ وكيف يستغنى عن خيله العزمات والأوهام ، وأنصاره اللبالي والأيام ، فن هرب منه أدركه بمكايدها ، ومن طلبه وجده في مراصدها ؟ وكيف يُعْرِض عن عُرض رفاة العيش بإعراضه ، وتنقبض الأزواق بأنقباضه ، وأضاء نجم الإقبال إذا أقبل ، وأهلّ هلال الجد إذا تهلل ؟ وكيف يزهي علي من تحقر في عينه الدنيا ، ويرى تحته السماء العليا ، قد ركب عنق الفلك ، وأستوى على

ذات الحبك، فبرجت له البروج، وتكوكبت لعبادته الكواكب، واستجارت بعزته المحجرة، وأثرت بآثره أوضاع الثرى^(١) .

ولماني لأنتظر أن يحقق الانسان الحاضر جميع الخيالات التي مرت بذهن الانسان الغابر، فقد كان الانسان يضيف إلى الجن جميع القوى التي تعجز عن إدراكها وسائله المادية، ونظرة في كتاب ألف ليلة وليلة، أو ما شاكله من كتب الخرافات والأساطير، ترينا أن الانسان كان يضيف إلى الجن أعمالا غريبة معقدة هي اليوم أيسر ما يأتي به الانسان في أعوام الحروب. وستبدل تبعا لتطورات الاختراع أوضاع كثيرة من مصطلحات البلاغة والبيان، فتصبح أكثر المجازات حقائق، وتسمى أكثر المبالغات تعابير عادية لا شطط فيها ولا جموح. وسيتظر أن يكون للانسان الحاضر أوهام جديدة، وخيالات طريفة، بالقياس إلى ما حققه من أوهام أسلافه الماضين، وستكون الأجيال المقبلة مشغولة بتحقيق الأحلام الجديدة التي يتصورها الإنسان الحديث. ولا يعلم إلا الله ما سيكون من مصير الحلم الأعظم حلم الخلود، فقد تشبث الانسان بهذا الحلم في جميع أدواره التاريخية، وعز عليه أن تكون أيامه في هذه الدنيا هي كل ما يملك من حظوظ الحياة، وليس مذهب تناسخ الأرواح الذي تعلق بأهدابه الأقدمون إلا تعزية لهذا الانسان الفاني الذي يزعمه أن يقصر وجوده على سنوات معدودات. وقد راعت جميع الديانات هذه الأمنية الانسانية فقترت في ثقة مصحوبه بالرفق والعطف أن سيكون للانسان حياة أخرى هي أعلى وأبقى من حياته الدنيا، وأن سيكون له جنة ونعيم، وروح وريحان. ولا أكنم القارئ أنني أعجب كيف يعيش الناس في بعض أنحاء الصين في ظلال المعتقدات الخافتة التي تنذر بأن لا حياة بعد الموت، وأن لا رجعة للانسان بعد فراق دنياه.

إن الانسان ليسعى للخلود بوسائل شتى، منها هذه الاثار المادية والمعنوية التي يفنى الناس فيها أعمارهم ليكون لهم بعد الموت لون من ألوان الوجود. والذين لا يستطيعون أن يسمعوا

التاريخ صوته ، وأن يفرضوا بقاءهم في أذهان الأحياء ، يأملون أن يصلوا بطريق الخير والبر الى ملكوت السموات ، علّهم يعيشون خالدين بين المتقين والأبرار .

إنى لأذكر ، وأنا أكتب هذا ، أن دنوتزيو شاعر ايطاليا كاد يمس بالجنون حين رأى لأول مرة طيارة تحلق في الأجواء ، ولم ذلك ؟ لأن الشاعر الذى يحس الحياة ويفهمها ويتذوقها بأكثر مما يتذوقها سائر الناس يدرك القيمة المعنوية لهذه البراعة الانسانية التى حولت الأحلام الى حقائق ، ومكنت الرجال من ناصية السماء . ولا ندرى كيف يكون شعور الانسان حين يكشف له الغطاء عن عالم الأرواح . فهذه هى الأمنية الباقية التى يحلم بتحقيقها الأحياء إن طائفة من المخترعات التى يتمتع بها الناس والتى صارت مألوفة لا غرابة فيها ، كانت لأول ظهورها من الغرائب والأعاجيب . وان كشف أسرار الكهرباء ليشر بمستقبل عظيم جدا للانسانية ، فقد يكون ما وصلنا اليه قشوراً من المعارف الأولية فى هذا الباب . فليت شعرى كيف يحيا الناس بعدنا ؟ بل ليت شعرى كيف عاش الناس قبلنا ، وكيف كانت علوم الفراعنة يوم بنوا الاهرام ؟ ؟ .

فى اللحظة التى أكتب فيها هذه الملاحظات أقاسى بعض الألم فى الأمعاء ، ومع هذا الضعف أشعر بوحشة شديدة كلما فكرت فى قصر حياتى على طائفة من الأعمال الأدبية التى لا تقدم الانسانية إلا بمقدار ضئيل ، وتزيد وحشتى كلما ذكرت أن الإنسان سيحتاج الى أجيال طويلة حتى يبرأ من وحشيته وبدأوته ، ويعرف كيف فضل السلام ، وكيف تكون ثمرات العالم أدوات إحياء ، لا قذائف إفناء . وليس أمامى إلا هذا الأمل الصغير : وهو أنى سأعود الى العالم عن طريق الذكريات ، كما عاد قابوس بن وشمكير فشغلنى به ، وشغل معى جماعة من الأساتذة بجامعة باريس بعد أن فارق العالم بعشرة قرون .

٩ — ونعود بعد هذا فنذكر أن قابوس بن وشمكير يلتزم الصنعة فى أكثر ما يكتب ، حتى فى الموضوعات الفلسفية .

وللقارئ أن يسأل : أكان لهذا الملك الأديب فلسفة يكتب عنها بلغة مثقلة بالسجع والموازنة والجناس ؟ .

نعم ! كان لهذا الرجل فلسفة ، منها رأيه في العالم ، وهو يرى من الممكن أن يغير الله هذا النظام الحاضر الذي يفرض بالإنسان إلى الفناء ، وليس من المستغرب عنده أن يحول الله هذا العالم القاني إلى عالم خلود . وأنظر كيف يقول :

”إنا لا نقدر على علم الأشياء الغائبة إلا بما نشاهده من الأشياء الحاضرة ولو لم يكن لنا هذا التدريب والممارسة للشاهدات ، ثم القياس بها على المغيبات ، لكنا نأبى قبول قول واصف الحيوان ما على صورة مخالفة لمعهودنا ومعلومنا من جملة الحيوانات التي شاهدناها . ولكنا نعلم بهذا القياس المعمول عليه أن كون ما وصفه جائر ، وغير مدفوع أن تأتي القدرة من الباري بحيوان لم نشاهده في صورته الخاصة به . بفائز على هذا القياس أن تحدث قدرة الباري جل جلاله صنعا آخر زائدا على الصنع الأول في الشرف والكمال ، فلا توجد في شيء من أحواله حال تنافي الاستقامة ، وتباين الحكمة ، فيكون العالم حينئذ عالم الخلود والبقاء ، منزها عن الزوال والانقضاء“^(١) .

وفي رأى قابوس أن هذا سيكون أظهر لقدرة الباري عز شأنه ، ولا ينبغي أن يقال : لماذا لم يخلق الله العالم كذلك منذ البداية ، لأنه لا يقال لقادر حكيم تظهر منه القدرة بعد القدرة ، والبدعة بعد البدعة ، وكان لكل متأخر منها على متقدم مزية وشرف ، وفضيلة كمال : ”هلا فعل ذلك في الأول ؟“ لأن الفعل كلما كان المستأنف منه أشرف مما سلف ، والأخير خيرا مما سبق ، كان أدل على قدرة الصانع ، وحكمة المبدع .

١٠ — وقد أتاحت لنا هذه الأمانى أن نعود فتأمل تقلبات العوالم المختلفة منذ نشأتها البعيدة إلى وجودها الحاضر . ولكن رويدا ، فإنا أكتب هذا في غرفة مغلقة النوافذ ، مسدولة

الستائر، لا يهديني فيها غير الكتاب والمصباح، وليس لدى من وسائل التحقيق غير الخيال .
ومع هذا فليسمع القارئ ان شاء :

إن علماء طبقات الأرض ، علماء الجيولوجيا ، يقولون مثلا : إن جزيرة مدغشقر أكبر من أن تكون جزيرة ، إنما هي قارة ، ولكنها مع ذلك ليست مستقلة منذ خلقت ، فإن هناك دلائل جيولوجية تدل على أنها انفصلت من أفريقيا في عهود ما قبل التاريخ ، فهل يدرى القارئ في كم مليون من السنين كونت الطبيعة بوغاز موزنيق ؟ وهل يعرف في كم أمد من الآماد استطاعت الطبيعة أن تكون لمدغشقر وجودا خاصا بحيث تفرق في حيوانها ونباتها عن أفريقيا بعض الاقتراق ! إن مدغشقر تختص بنوع فذ من أنواع الغراب ، ففيها وحدها يكون الغراب أسود الظهر ، أبيض الصدر ، كأنه يستعد لحفلة ساهرة ! ففي كم جيل شاب ذلك الغراب الذي جهل الشاعر وجوده حين قال :

إذا شاب الغراب أتيت أهلى وصار القار كاللبن الحليب

ألا يمكن أن يكون هذا التطور البطئ جدا الذى يتناسب بطؤه مع خطورة هذا العالم المتراعى الأطراف ، ألا يمكن أن يكون سنة مطردة من سنن الطبيعة تتحول بها الموجودات من وضع إلى وضع ، ومن حال إلى حال ، في مدى مالا نعرف ولا نفرض من طوال الأجيال .
اذن فلنسمع للانسانية أن تحلم بأن سيكون من نتائج هذا التطور أن تظفر بوضع آخر من أوضاع العالم : هو الخلود ، وما ذلك على الله بعزيز .

١١ - وهناك نظرة أخرى فلسفية من نظرات قابوس هي تقديره لنفس الحيوان ، فعنده أن قوة الفكر والتمييز كأمينة في جميع الحيوانات ، وما من أجناس الحيوان جنس الا وقد أعطى منها قدر ما كفاه في طلب المعاش ، والاحتراز من المضار والآفات . وأشرف الحيوان عنده ما كانت معرفته من ابتداء كونه إلى انتهاء سنه معرفة غريزية ، ولم يكن محتاجا الى إرشاد وهداية ، وتعليم ورياضة ، ثم ما كان مكتفيا بحوله وقوته في دفع المضار عن نفسه وحرمة ، ومستغنيا في تحصيل مطالبه ومآربه عن مشارك ومعين ، ثم ما كان أصدق وفاء وحُلة لما عرفه

وشاهده، وألفه وأعتاده، ثم ما كان يجبلته وخلقه نظيفا لا يحتاج إلى الأغتسال بالماء، ولا إلى التزين بزينة متخذة من خارج، وإنما يغنيه حسن شعره في مختلف ألوانه، وأنوار ريشه في صنوف أصباغه، عن الحسن المكتسب والجمال المجلوب، ثم ما كان من ابتداء مولده إلى منتهى أمده على طبع واحد: لا يتبدل حالا بحال، ولا يتغير بين غدو وأصال ... وما أبعد نظر قابوس اذ يقول :

”كل هذا الذي ذكرته من الأوصاف الجميلة، والخصال المرضية، في سائر الحيوان موجود، وفي الانسان — بحمد الله — مفقود . وماذا يضرهم إن فاتهم علم الفلسفة والهندسة، ومعرفة أفلاطون وأرسططاليس، وفيثاغورس وانبدقليس، وأرشميدس وبطلميوس، وهرمس وواليس، فلا العالم به ينال من العمر مزيدا، ولا الشقي يصير به سعيدا، وكفى شرفا وفضلا بالبهائم، أن يعر الأطباء طب لهذا الحكيم العالم، وما يتولد في أحشاء بعضها من الحجر، دواء وشفاء لأدواء البشر ... ولكن الجاهل ظلوم، والإنصاف في الناس معدوم“ .

ولقابوس آراء في الفلك والنجوم هي صورة لمعارف أهل عصره في هذا العلم، يضيق عن نقدها المجال، وحسبنا أن نذكر أن بعض ما سماه أوهاما من تأثير الكواكب هو اليوم موضع عناية علماء الفلك، والعلم يمضي بأقدام رائخة في تحقيق أوهام الأولين، وفوق كل ذي علم عليم^(٢) .

(١) أنظر ص ٩٧ و ٩٨ (٢) من أغرب ما في آراء قابوس إنكاره للتكنية : فهي عنده منقصة للآباء . ومن رأيه أن التكنية رسم حدث في أيام ملوك العجم إذ كانت عندهم رهائن العرب فكان يقال إذا زار أحد الآباء أبنه : جاء أبو فلان وأبو فلان، أي أن هذا والد فلان وذاك والد فلان (ليعرف ولد كل رجل بأبيه، فلا يعترض الاشتباه فيه؛ فلما دارت الأيام على ذلك، صارت هذه النسبة رتبة لأولئك) ويضيف قابوس إلى هذا أن التكنية ”ترتب برتبة أهل الذمة، واستعمال لرسم تلك الأمة . وقبيح سمج بالمسلمين، أن يكونوا بسماتهم متسمين“ أنظر ص ١٠٩ و ١١٠ والتكنية — كما يرى قارئ كتابنا هذا — صارت من الأمور الشائعة عند رجال القرن الرابع حتى نكاد نجزم بأن لكل كاتب تكنية، والتكنية هي التي ميزت بين الحسن بن عبد الله العسكري والحسن بن عبد الله العسكري فهما متساويان في التسمية وتفرق بينهما التكنية : فأحدهما أبو أحمد، وثانيهما أبو هلال .

= ومن المحتمل أن يكون رأى قابوس صحيحا في أصل التكنية ، ولكن لا مرية في أنها صارت عادة عربية . فان الملاحظ يتحدثنا أن كل من اسمه على صار يكنى بأبي الحسن وكل من اسمه عمر صار يكنى بأبي حفص (الحيوان ص ١٥٩ ج ١) ويحدثنا ابن النديم أن عبد الله بن المقفع كان قبل إسلامه يكنى أبا عمرو ، فلما أسلم اكنى بأبي محمد (الفهرست ص ١٧٢) وابن أبي الحديد يخبرنا أن التكنية كانت عند العرب وعند الفرس وأن ملوك بني ساسان لم يكن لها أحد من رعاياها فقط ولا سماها في شعر ولا خطبة وإنما حدث هذا في ملوك الحيرة وأن جفاة العرب لسوء أدبها وظلّت تركيبتها كانوا إذا أتوا النبي صلى الله عليه وآله خاطبوه باسمه وكنيته . (راجع شرح نهج البلاغة ص ٢٩ و ٣٠ ج ٤) .
والكنية مألوفة في شعر العرب . قال الفرزدق :

وقد تلتقى الأسماء في الناس والكنى كثيرا ولكن ميزوا في الخلائق

والظاهر أنها كانت مطردة فيمن ليس له ولد . من ذلك قول أبي صفير الهذلي :

أبي القلب إلا حبا عامرية لها كنية عمرو وليس لها عمرو

والكنية من تقاليد الناس في العصر الحاضر ، وأهل مصر يكتنون الرجل أحيانا باسم أبيه لا باسم ابنه فيقال (أبو عبد السلام) لأن الوالد اسمه (عبد السلام) .

وجرت التكنية مجرى التثنية في مصر : فكان السيد أحمد عبد الخالق السادات رحمه الله يكنى مريديه في ليلة من ليالي رمضان في غرفة خاصة تسمى (أم الأفراح) وكان المريدون يفرحون بكناهم بأبلغ الفرح ، وهو تقليد يدل على أن الكنية كان لها في ذلك البيت معنى من معاني التثنية .

فان صح ما ذكره قابوس من أن التكنية كانت رتبة من رتب أهل الذمة فان انتقلها الى الجوارح الاسلامي في هذا الوضع الشريف دليل على أن التطور قادر على قلب المعاني في كل شيء . وما أكثر ما تتلون الألفاظ والأوضاع باختلاف الأجيال !

١٠ - أبو اسحاق الصابى

١ - تلك شخصية جذابة أمتحنَت بالحوادث، وعرفت أسرار الناس وصروف الزمان.

فقد كان من حظ الصابى أن رأى الأيام فى إقبالها وإدبارها وشهد من ألوان البؤس أضعاف ما شهد من ألوان النعيم : فكان لذلك أثر فى صفاء نفسه، ودقة حسه . والحظ الذى يعطى ثم يأخذ بالشمال ما أعطى باليمين أجدى على الكاتب والشاعر من الحظ الموائى الذى تتواتر ألطافه وعطاياه . وكذلك عرف الصابى صفو الحياة حين تولى الانشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه سنة ٣٤٩ ، ثم واجه بأساء الحياة حين ملك عضد الدولة بغداد واعتقله فى سنة ٣٦٧ وعزم على إلقائه تحت أيدي القبيلة لولا شفاعة الشافعين ، وظل يعاني أحداث الأيام الى أن توفى فى شوال سنة ٣٨٤ ببغداد وعمره ٧١ سنة .

٢ - وأول ما يلفت النظر من أخلاق الصابى انه كان رجلاً أوفوا لحوائشهم بليلغ التأثير فى أنفس معاصريه . كان صابئيا ، وعرض عليه عز الدولة أن يسلم فأمتنع ، وقيل بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول فلم يفعل - والصابئون يحرمون الفول والحمام^(١) - ولكن حرصه على دينه لم يحل بينه وبين التحلى بأكرم الخصال فى رعاية الاسلام : فقد كان يصوم رمضان مساعدة وموافقة للمسلمين وحسن عشرة منه لهم ، ويحفظ القرآن حفظا يدور على طرف لسانه وسن قلمه^(٢) . وفى هذا أصدق الدلالة على أن الرجل كان سليم الذوق ، كريم الطبع ، تجافت نفسه عن معاداة الاسلام وترفع قلبه عن إضمار البغض للمسلمين . وفى حفظه القرآن كفاية لعصمة روحه من وضر الشرك وقبح الزيف ، فان القرآن أقوى ما عرفنا من الآثار الأدبية فى حمل حافظه على الأنس به والخضوع له والتسليم بما يدعو اليه من صدق الايمان . والصدقة الروحية أقوى الصداقات : فقد نجد عند أنصار اللغة العربية من مختلف الديانات

(٢) ص ٣٢٦ ج ١ ياقوت .

(١) ص ٣٢٤ ج ١ ياقوت .

روحا إسلاميا عاليا يسمو بلطفه وكرم جوهره عن أرواح كثير ممن وقع إسلامهم في ظل الأوضاع والتهاليد . وقد يظن أن لا حاجة الى مثل هذه الوقفة عند الكلام عن مجاملة الصابى للمسلمين ، لولا أنى أرى فيها مظهرا كبيرا من نبيل النفس ، وعظمة الروح . فليس باليسير أن يسمو الرجل عن الأحقاد الصغيرة التي يوجبها اختلاف العقائد ، وليس من السهل أن يصل الرجل الى حقيقة العظمة الروحية حين يرى القرآن أجل من أن يعادى ويره لذلك جدرا بالحفظ والإجلال .

٣ - وقد جوزى الصابى على هذا الرفق أجمل جزاء ، فصحت له صداقة الشريف الرضى إمام الأشراف في عصره ، وأصدق شاعر أفصح عن نوازع الوجدان . ومهما قدرنا الظروف التي جمعت بين الشريف الرضى وبين الصابى وآفترضنا ما شئنا من أسباب الوفاق السياسى الذى جعل من الصابى نصيرا للشريف^(١) فلن نستطيع أن ننكر أن لوفاء الصابى وكرم تحيزته وطهارة قلبه أكبر الأثر في التوفيق بين تينك النفسين العاليتين ، ويكفى أن يعرف القارئ أن الشريف الرضى بكى الصابى حين مات بقصيدة تعد من روائع شعره ، قصيدة طويلة بلغت ٨٢ بيتا ، وهى في طولها محكمة النسيج ، جيدة السبك ، تنبئ عن لوعة صادقة وحزن عميق . ومن الخير أن نشير الى أن الرضى صور في تلك القصيدة جانين من أهم الجوانب في بكاء مثل ذلك الفقيد : الأول حزنه لفقده ، والثانى نكبة الأدب في ذلك القلم البليغ . ولننظر كيف صور حزنه وتفجعه في قوله :

أفدى العيون وفّت في الأعضاء	بعدا ليومك في الزمان فإنه
ان القلوب له من الأمداد	لا ينفد الدمع الذى يبكى به
من جانبيك مقاعد العواد	أعزز على بأن أراك وقد خلت
لمعان ذاك الكوكب الوقاد	أعزز على بأن يفارق ناظرى
متشابه الأبحاد والأوغاد	أعزز على بأن نزلت بمنزل

الى أن يقول :

يا ليت أنى ما أقتنتك صاحباً	كم قنية جلبت أسى لفؤادى
برد القلوب لمن تحب بقاءه	مما يحرق حرارة الأكباد
ويقول من لم يدركنك منهم	تقصوا به عدداً من الأعداد
هيهات أدرج بين برديك الردى	رجل الرجال وأوحد الاحاد

ويقول فى تعليل ما كان بينهما من الود، على بعد ما بينهما من الأصول والأنساب :

الفضل ناسب بيننا ان لم يكن	شرفى مناسبه ولا ميلادى
ان لم تكن من أسرقى وعشيرتى	فلأنت أعلقهم يدا بودادى
لو لم يكن على الأصول فقد وفى	شرف الحدود بسؤدد الأجداد

ويقول فى الحين الى أيامهما الخوالى، وضيق الأرض بالباكى بعد ذهاب الأليف :

ليس التنافى بيننا بمعاود	أبداً وليس زماننا بمعاد
ضاقت على الأرض بعدك كلها	وتركت أضيقها على بلادى
لك فى الحشا قبر وإن لم تأوه	ومن الدموع روائح وغوادى
سلوا من الأبراد جسمك وأنثنى	جسمى يسلى عليك فى الأبراد
إن الدموع عليك غير بخيلة	والقلب بالسألوان غير جواد
سودت ما بين الفضاء وناظرى	وغسلت من عين كل سواد
رئى الحدود من المدامع شاهد	أن القلوب من الغليل صواد
ما كنت أخشى أن تغض بلفظة	لتقوم بعدك لى مقام الزاد ^(١)

وفى هذه القطع التى اخترناها بيان لتلك الألفسة الوثيقة التى كانت بين ذينك الرجلين،

وقد عوتب الشريف على هذه القصيدة^(٢)، وأستكثر الناس عليه فى دينه وجاهه أن يبكى رجلاً

(١) مجد بقية القصيدة فى الصفحات ٢٩٤ — ٢٩٨ من ديوان الشريف الرضى ج ١

(٢) ص ٢١ ج ١ ابن خلكان .

صائبًا بمثل هذا الشعر الحزين، ولكنه أجاب بأنه إنما بكاه لفضله . وأى فضل هذا الذى ينسى الشريف الرضى منزلته الدينية والاجتماعية ؟ إنه فضل ذلك الرجل المهذب الذى رأى من حسن العشرة أن يصوم رمضان ويحفظ القرآن .

أما القطعة التى وقعت فى هذه القصيدة وصفا لبلاغة الصابى فهى غاية فى الجودة ، وهى شاهد على احترام الشريف لأسلوبه وإعجابه ببراعته ، ولننظر كيف يقول :

وصائف فيها الأراقم كمن مرهوبة الإصدار واليراد
تدمى طوائفها اذا استعرضتها من شدة التحذير والإيعاد
حمر على نظر العدو كأنما بدم يخط بهن لا بمداد
يقدمن إقدام الجيوش وباطل أن ينهزم من هزائم الأجناد
وتكون سوطا للحرور إذا ونى وعنان عنق الجاح المتمادى
ترقى وتلدغ فى القلوب وان يشأ حط النجوم بها من الأبعاد

٤ — ومما يتصل بنبل الصابى وسموه ورغبته فى حسن الأحداث ورفعة شأنه بين النابهين من معاصريه ما وقع بينه وبين المتنبي . ذلك انه راسل أبا الطيب فى أن يمدحه بقصيدتين ووسط بينه وبينه رجلا من وجوه التجار، فقال أبو الطيب :

” قل : والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولا أوجب علىّ فى هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبه ، وأنا ان مدحتك تنكر لك الوزير — يعنى المهلى — وتغير عليك ، لأننى لم أمدحه ، فان كنت لا تبالى هذه الحال فأنا أجيبك الى ما التمت ، وما أريد منك منالا ، ولا عن شعري عوضا “ .

وكان الصابى عرض عليه خمسة آلاف درهم^(١)، فكان المتنبي بذلك أعرف منه بمقتضيات الأحوال . وفى هذا الخبر بيان لمزلة الصابى فى صدر رجل كالمتنبي وإشارة الى ما كان يسمو إليه من التطلع الى حظوظ الوزراء والملوك الذين ظفروا بمدائح ذلك الشاعر العظيم .

٥ - وقد نالت الدنيا من الصابى ما نالت، وطمع الصاحب ابن عباد فى استقدامه إليه تشوقاً أو تشرفاً، ولكن الصابى أحتمل عدوان زمانه وظلم أيامه ، ولم يتواضع للاتصال بالصاحب صلة التابع بالمتبوع بعد أن كان من نظرائه فى أيام الإقبال ^(١) .

ومن العجيب أن هذا الإباء لم يغير الصاحب الذى عُرف عنه الطمع المفرط فى استعباد الكُتاب والشعراء، فظل يحنو عليه ويبره ويعترف بأنه أحد أربعة من كُتاب الدنيا فى عصره ^(٢) . وفى أخبار الصاحب اعتذار رقيق من الصابى عن تخلفه عن حضرة الصاحب .

تلك الجوانب المشرقة من نفس ذلك الكاتب جعلت منه قيثارة إنسانية كثيرة الرجوع والحنين . لقد عرف حلو العيش ومره ، فكان له بذلك أصدقاء أدناهم منه النعيم وأقصاهم عنه البؤس ، وتلك أزمة يعانها كل رجل كريم النفس عرف بأساء الحياة ولينها ورأى كيف تتغير الأخلاق وتبديل النفوس . ولنتظر كيف يقول فى خطاب بعض الأصدقاء :

” لو حملت نفسى على الاستشفاع والسؤال ، لضاق علىّ فيه المرتكض والمجال ، لأن الناس عندنا، ما خلا الأعيان الشواذ الذين أنت بحمد الله أولهم ، طائفتان : طائفة مجاملة ترى أنها قد وقتك خيرها ، إذا كفتك شرها ، وأجزلت لك رفدها ، إذا أجنبتك كيدها ، ومكاشفة تنزرو إلى القبيح نزو الجنادب ، أو تدب ديبب العقارب ، فان عوتبوا حسروا قناع الشقاق ، وإن غولطوا تلتثموا بلثام النفاق ، والفريقان فى ذلك كما قلت منذ أيام :

أيارب كل الناس أبناء غلة	أما تعثر الدنيا لنا بصديق !
وجوهٌ بها من مضمر الغل شاهدٌ	ذوات أديم فى النفاق صفيق
إذا اترضوا عند اللقاء فانهم	قذى لعيون أو شجا لحلق
وإن أظهروا برد الوداد وظله	أسروا من الشحنةاء حر حريق
اخو وحدة قد آنستنى كأننى	بها نازل فى معشر ورفيق ^(٣)
فذلك خير للفتى من ثوائه	بمسبعة من صاحب وصديق

(١) ص ٧٣٧ ج ١ ياقوت . (٢) ص ٣٣٦ و ٣٣٥ ج ٢ (٣) ص ٣٤٠ و ٣٤١ ج ١ ياقوت .

٦ — وبمناسبة هذا الشعر نقتر أن الصابي يمتاز بين معاصريه من الكتاب برقة الشعر وعذوبته ، ويكاد يمز على أنه شاعر خل ، ولهذا أهميته في تقدير كفايته النثرية ، إذا لاحظنا أن النثر الفني الذي أغرم به معاصروه «وثر شعري» ، لا يختلف عن الشعر إلا في الوزن وفي بعض الأغراض .

ومن جيد شعره قوله في القدر الشيق يشبه بالفصن الرطيب :

إن نحن قسناك بالفصن الرطيب فقد خفنا عليك به ظلمنا وعدوانا
الفصن أحسن ما نلقاه مكتسيا وأنت أحسن ما نلقاك عريانا
وقوله في أثر العناق :

إلى الله أشكو ما لقيت من الهوى بجارية أمسى بها القلب يلهج
إذا أمترجت أنفاسنا بالتزامن توهمت أن الروح بالروح يمزج
كأنى وقد قبلتها بعد هجعة ووجدى ما بين الجوانح يلعب
أضفت إلى النفس التي بين أضلعي بأنفاسها ننسا إلى الصدر توج
فإن قيل لي اختر أيما شئت منهما فإنى إلى النفس الجديدة أحوج

وبديع الزمان في المقامة الجاحظية يدلنا على فهم أهل ذلك العصر للرجل البليغ ، فهو عندهم : ” من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره “^(١) وكذلك كان الصابي : فهو يجيد في الصناعتين لإجادته لم تتفق لغيره إلا قليلا .

(١) راجع المقامة الجاحظية ص ٧٧

١١ - رسائل الصابي

١ - أما نثر الصابي فهو في الأغلب موضوعي ، لأنه في أكثر الأحيان يتكلم عن شئون خاصة بالدولة التي يخدمها ، ويندر أن يتحدث عن نفسه . وهي مهمة دقيقة لا يوفق إلى أدائها على الوجه الأكمل إلا الكتاب الفحول . وأول ما يروعننا من نثر الصابي فناء روحه في البيئـة الإسلامية التي يعيش فيها ، فهو مع بعده عن الإسلام يتحدث بلغته ، وتجري تعابيره وأخيلته وكأنما تستمد وحيها من القرآن ، وهو في هذا الباب مسلم أكثر من المسلمين . وإنه ليصف الله عز شأنه فيقول : " لا تحده الصفات ، ولا تحوزه الجهات ، ولا تحصره قرارة مكان ، ولا يغيره مرور زمان ، ولا تتمثله العيون بنواظرها ، ولا تتخيله القلوب بنحواظرها ، فاطر السموات وما تظّل ، وخالق الأرض وما تقلّ ، الذي دل بلطيف صنعته ، على جليل حكمته ، وبين بجلى برهانه ، عن خفى وجدانه ، وأستغنى بالقدرة عن الأعوان ، وأستعلى بالعزة عن الأقران ، البعيد عن كل معادل ومضارع ، الممتنع على كل مطاول ومقارع ، الدائم الذي لا يزول ولا يحول ، العادل الذي لا يظلم ولا يجور ، الكريم الذي لا يرضن ولا ييغل ، الحليم الذي لا يعجل ولا يجهل ، ذلكم الله ربكم فادعوه مخلصين له الدين ^(١) » .

٢ - ولو أننا قارنا هذه العبارات بأمثالها مما تكلم به الشريف الرضى على لسان على بن أبى طالب لرأينا الصابي يستقى من نفس المنبع الذي آستقى منه الشريف ، ويمكننا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتاب ذلك العصر كانوا يميلون إلى الكلام عن ذات الله وصفاته وعن رسله وأنبياؤه خصوصا في المواطن التي يخاطبون فيها الجماهير . وفي ذلك دلالة على أن الروح الدينية كان لا يزال حافضا لبعض سموره الأول يوم كان يفعل ما يشاء بألباب الرجال .

٣ - وورود نثر الصابي في شئون ادارية ومشاكل يومية جعله غير صالح للبقاء، وكذلك نرى أكثر رسائله وعهوده مما تنبؤ عنه ميول القراء في العصر الحديث . فان الكتابات التي تعنى بمشاكل اليوم الحاضر وتشغل بالمنازعات اليومية يكون حظها في الأغلب حظ مقالات الصحف التي تصف الأزمات الوقتية ثم لا تصلح بعد ذلك لأن تكون أثرا فنيا، وإنما يقف نفعها على المشتغلين بالتاريخ . ورسائل الصابي كذلك لا تنفع في حملتها إلا من يهتمون بتاريخ ذلك العهد من عهود الدولة العباسية . وهي صريحة في أن الخلفاء كانوا لا يملكون شيئا ، وإنما يستبد بالأمر من يملك باسمهم من الأمراء والوزراء . وأى أثر أدل على ضعف الخلفاء من هذه العبارة التي وردت على لسان الخليفة الى أهل البصرة :

”وأمر المؤمنين يعلمكم أن عز الدولة يده التي يبطش بها ، وعدته التي يعول عليها ، وأمركم بالجهاد معه ، والنصر له ، والكون على كل مخالف عليه ومنازع له . وقد قرن أمير المؤمنين العهد في ذلك عليكم بعهد البيعة الحاصلة في أعناقكم ، وجعلكم في أضيق حرج من التقصير أو التعذير أو المراقبة أو المخاطلة ، وليس لكم صلاة ولا زكاة ولا عقد ولا مناحة ولا معاملة إلا مع طاعته والاحلاص له سرا وجهرا وقولا وفعلًا ، فاعلموا ذلك من رأى أمير المؤمنين وأعملوا عليه واعتمدوه وانتبهوا إليه“ .

٤ - فاذا تركنا ما تنبئ عنه العهود التي كتبها الصابي على ألسنة الخلفاء من غلبة الديلم واستبدادهم بمصالح الدولة ، وأقبلنا نتلمس الحقائق الباقية من آراء الصابي وجدناها قليلة ، ورأينا شهرة الرجل قائمة على أنه كان آلة ماضية في يد من كتب لهم من الخلفاء والوزراء ، والظاهر أن تأثيره من هذه الناحية كان قويا جدا ، حتى استباح لنفسه أن يقول :

وقد علم السلطان أنى أمينه وكتبه الكافي السديد الموفق
أؤازره فسما عرا وأمدده برأى يزيه الشمس والليل أغسق
يمجدد بى نهج العلا وهو دارس ويفتح بى باب الهدى وهو مغلق

فيمنأى يمناه ولفظى لفظه وعينى له عين بها الدهر يرمى
ولى فقّر تضحى الملوك فقيرة اليها لدى أحداثها حين تطرق
أردّ بها رأس الجموح فينتنى وأجعلها سوط الحرون فيعنق
فإن حاولت لطفاء مروق وإن حاولت عنفا فنار تألق^(١)

وقد أشار الرضى فى رثائه له الى هذه الناحية من قوته فقال :

من للوك يحز فى أعدائها بظي من القول البليغ حداد
من للمالك لا يزال يلمها بسداد أمر ضائع وسداد
من للجحافل يستزل رماحها ويرد رعلتها^(٢) بغير جلال
من للوارق يسترد قلوبها بزلازل الإبراق والإرعاد^(٣)

٦ — وفى الحق أننا لا نجد فى رسائل الصابي ما يلفت النفس اليه إلا بعض الفقرات الوصفية التى تمثله لنا رجلاً فناناً يحكم القول، ويحيد الوصف، وهذه الفقرات قليلة أيضاً، وهى غريقة فى لجج إسهابه وتطويله هنا وهناك، فمن ذلك ما جاء فى رسالته عن المعركة التى دارت فى آمد آخر رمضان سنة ٣٦٢ بين المسلمين وبين الروم :

”وتلوم أصحابنا بها (أى بآمد) يريحون، والكفرة على مسافة يوم منهم مقيمون، مرة تقدم بهم الآجال، ومرة تحجم بهم الأوجال، ثم تدانى الفريقان، والتقت حلقتا البطان... فنبت الطغاة اغتراراً بوفور عددهم، ومحاماة عن صاحبهم وعظيم كفرهم، وأخذ الأولياء منهم بالمنحق، وصدقوهم القتال فى المعترك الضيق، فلما استمرت الملحمة، وعلت الغمضة، ودارت رحى الحرب، واستحز الطعن والضرب، واشتجرت سمر الرماح، وتصالحفت بيض الصفاح، تداعى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور، وتنادى الكفار بالويل والثبور، فنكصوا على أقدامهم مجدين

(١) البتية ص ٥٠ ج ٢ (٢) الرحلة : الجيش الكثير . (٣) ص ٢٩٦ ج ١ ديوان الشريف

الرضي . (٤) البطان الحزام يجعل تحت بطن البعير، ويقال التقت حلقتا البطان للا مر اذا اشتد

في الهزيمة، وأعدوا الحشاشات لوسلمت لهم من أعظم الغنيمة، وأستلحمتهم السيوف ، واحتكت فيهم الختوف، وأخذ المسلمون منهم النار، وعجل الله بأرواحهم إلى النار^(١) .

٧ - وقد تصفحنا رسائله غير مرة لنرى أثر الحكمة فيها فوجدناه ضئيلا ، ولم يستقر رأينا فيه إلا على فكرة واحدة : هي أنه كان خيرا بنفوس أهل عصره ، وكان لذلك موقفا في الوصول إلى مرضاة من يخدمهم من الرؤساء ، وإرهاب من يكتب في زجرهم من العصاة والتأثرين، وكان يعرف ما يصح أن يسمى " سياسة القول " يدل على ذلك قوله فيما يجب أن تكون عليه " لغة المنشورات الرسمية " فيما كتب عن المطبع لله إلى الوزير المهلب سنة ٣٥١ :

" وإذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصة بوفور ألبابها ، وتجهله العامة بقصور أذهانها . وكانت أوامره - يريد أمير المؤمنين - فيه خارجة اليك وإلى أمثالك من أعيان رجاله وأماثل عماله ، والذين يكتفون بالإشارة ، ويحتزنون بيسير الإبانة والعبارة ، لم يدع أن يبلغ من تلخيص اللفظ وإيضاح المعنى إلى الحد الذي يلحق المتأخر بالمتقدم ، ويجمع بين العالم والمتعلم ، ولا سيما إذا كان ذلك مما يتعلق بعمالات الرعية ، ومن لا يعرف إلا الظواهر الجلية ، دون البواطن الخفية ، ولا يسهل عليه الانتقال من العادات المتكررة ، إلى الرسوم المتغيرة ، ليكون القول المشروح لمن برز في المعرفة مذكرا ، ولن تأخر فيها مبصرا ، ولأنه ليس في الحق أن تمنع هذه الطبقة من برد اليقين في صدورها ، ولا أن يقتصر على اللجة الدالة في مخاطبة جمهورها ، حتى إذا آستوت الأقدام بطوائف الناس في فهم ما أمروا به ، وفقه ما دُعوا إليه ، وصاروا فيه ، على كلمة سواء ، لا يعترضهم شك الشاكين ، ولا آستراة المستريين ، اطمانت قلوبهم ، وأنشروحت صدورهم ، وسقط الخلاف بينهم ، واستمر الاتفاق فيهم ، وأسنيةنوا أنهم مسوسون على استقامة في المنهج ، ومغروسون من جرائر الزيف والأعوجاج ، فكان الاتقياد منهم وهم دارون عالمون ، لا مقلدون مسلمون ، وطائعون مختارون ، لا مكرهون^(٢) مجبرون .

٨ - على أن في الرسائل التي كتبها عن الخلفاء فقرات تنحوي الرسائل الاخوانية، وتجري فيها المعاني طليقة رقيقة كأنفاس العتاب، فقد كتب عن الطائع لله الى عضد الدولة يقول :

”أما بعد فإنك من المنزلة العالية عند أمير المؤمنين بحيث يقتضيه تأهيله إياك لها، وإنافته بك إليها، ألا يصبر منك على حدوث قطيعة، ولا يغضى لك على اعتراض جفوة، ولكنه يوجب في الحقوق بينه وبينك، والأواصر الممتدة عنده لك، أن يحجم صنفوة الحال عما يشوبها، وينفيها مما يعيبها، ويتأناك الى أن تعود من ذاتك الى ملازمة طبعك السليم، وسننك المستقيم، ويعتقد أنك منه كالعين الناضرة التي تصان عما يقذرها، واليد الباطشة التي تحفظ عما يدويها“^(١).

غير أني ألاحظ أن هذه الفقرة استغلال لقول ابن الرومي في العتاب :

لا أجازيك من غرورك إياي غرورا وقيت سوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وما ذا لك لبخل عليك بالإغضاء
أنت عني وليس من حق عيني غض أجفانها على الأقداء

ومن المعاني الوجدانية قوله على لسان عز الدولة وقد نقلت ابنته المزوجة بعدة الدولة أبي تغلب إليه بالموصل :

”قد توجه أبو النجم بدر الحرمي وهو الأمين على ما يلحظه، الوفي بما يحفظه، نحوك ياسيدي ومولاي أدام الله عزك بالوديعة، وإنما نقلت من وطن الى سكن، ومن مغرس الى معرس، ومن مأوى برّ وانعطاف، الى مثوى كرامة والطفاف، ومن منبت دزت لها نعاؤه، الى منشأ يحود عليها سماؤه، وهي بضعة مني انفصلت إليك، ومرة من جنى قلبي حصلت لديك، وما بان عني من وصلت حبسه بملكك، وتخيرت له بارع فضلك، وبؤاته المنزل الرحب من جميل خلائك، وأسكنته الكنف الفسيح من كرم شريك وطرائك، ولا ضياع على ماتضمه أمانتك، ويشتمل عليه حفظك ورعايتك“^(٢).

وقد لاحظ مؤلف اليتيمة أن الصابي استمد روح هذا الخطاب مما كتبه جعفر بن محمد ابن ثوابه عن المعتضد الى ابن طولون في ذكر ابنته قطر الندى المنقولة إليه^(١).

٩ - ومما لاحظناه على الفقرة السالفة وما لاحظته الثعالبي على الفقرة الأخيرة يظهر بوضوح أن الصابي كان يجهد في استغلال ما ترك الأولون من بديع المنظوم والمنثور بطريقة ساحرة خفي بها على أكثر معاصريه ما أخذه من روائع الأدب القديم.

١٠ - وبالرغم من المؤاخذات التي واجهنا بها اثر الصابي فإننا نعتز بأنه نجح في ناحيتين :

الأولى - ظهوره بمظهر التفوق في لغته الفنية الزاخرة التي وسعت ما وسعت من ضروب التعابير والأخيلة والصور في الموضوعات الكثيرة التي جرى فيها قلمه ، فاننا لا نكاد نجده يكرر معنى أو يعيد لفظاً إلا في أحوال قليلة تغتفر لكتاب يحمل على القول ويساق الى البيان ، وكتابه مع ما فيها من الترام السجع سهلة مقبولة يقل فيها التكلف ويغلب عليها الطبع .

الثانية - سعة حيلته في التوفيق بين الخلفاء والأمراء والوزراء ، فقد كان عصره عصر اضطراب وفوضى ، وكان من العسير تحديد ما يصلح في التخاطب بين تلك القوى المختلفة التي كانت تتنازع الجاه والسلطان وتعرف كيف تحاك الدسائس وتنصب الأشرار ، وكان يزيد في حرج الصابي ودقة موقفه أنه كان مسئولاً عما يصدر من ديوان الرسائل ، فكان لذلك الحرج وتلك المسئولية أثراً قوياً في رياضة نفسه وتوجيهها الى حسن التدبير فيما تقضى به تكاليف منصبه الخطير . على أن ذلك الحزم لم يلازمه في جميع الظروف : فقد وقعت في إحدى رسائله لفظه عندها عضد الدولة تعريضاً به ، وأسرها في نفسه إلى أن ملك العراق فحسبه وأستصفى أمواله^(٢) . وقضى لذلك بقية أيامه في عسر دائم أنساه ما مرّ به من طيبات الحياة .

(١) ص ١٩١ و ١٩٢ ج ١ يتيمة . (٢) ص ٣٢٧ ج ١ باقوت .

١٢ - أبو عامر بن شهيد

آل شهيد — حياة أبي عامر وصيواته — خبره من المرض — وصاياه المحزنة

١ — ”ابن شهيد“ اسم يطلق على عدة رجال من أعلام الأندلس ، ينتسبون الى شهيد بن عيسى بن شهيد ، مولى معاوية بن مروان بن الحكم ، وكان من سبي البرابر ، وقيل إنه رومي^(١) . وأشهر بني شهيد أبو عامر أحمد بن عبد الملك ، وهو حفيد ابن شهيد وزير الناصر عبد الرحمن الأموي ، وكان ابن شهيد الوزير معروفا بالدهاء وحسن التدبير^(٢) ، وكان كذلك من أبرع الشعراء ، وهو الذي يقول :

ترى البدر منها طالعا فكأنما يحول وشاحها على لؤلؤ رطب
بعيدة مهوى القرط مخطفة الحشى ومفعمة الخلخال مقعمة القلب^(٣)
من اللأى لم يرحلن فوق رواحل ولاسرن يوما فى ركاب ولا ركب
ولا أبرزتهن المدام لنشوة وشدوكا تشدو القيان على الشرب^(٤)

٢ — ولد أبو عامر سنة ٣٨٢ هـ ، وقد ورث عن أجداده الغرام بمظاهر الصبوة والفتوة ، والشغف بملعب الحسن والجمال ، ولم يقدر له أن يظفر بما ظفر به أجداده من أسباب الجاه والمال والملك ، لأن ثقل سمعه حجبته عن الاتصال بالملوك والوزراء^(٥) ، ولكنه آتقاد لشبابه وهواه ، وأسلم زمامه لفطرته وطبعه ، بجاء شعره وثره فى أعلى درجات البيان .

(١) نقح الطيب ص ٣١ ج ٢ طبع ليدن .

(٢) نقح الطيب ص ٢٤٦ ج ١

(٣) القلب بالضم سوار المرأة ، والمقعم بالقياف من القعم بالتحريك ، وهو كما نص الفيروزابادى ميل وارتفاع فى الألتين ، والمراد هنا وصف السوار بالضيق لامتلاء المعاصم .

(٤) فى هذا البيت إشارة الى أن الحرارة

ما كنّ يجتمعن على الشراب . (٥) أنظر الذخيرة ص ١٢٣ ج ١

٣ - كان هم أبي عامر أن "يعيش" ولذلك أجمع من عرضوا لذكره على وصفه بالتهتك^(١).

والعيش في عرف أبي عامر بن شهيد، هو مجموعة من الحسن والخمر والأدب؛ فالحياة عنده وجه أصبح، أو كأس مترعة، أو رسالة أنيقة، أو قصيدة بدیعة، فان خلت الدنيا من بعض ذلك فهي لغو وفصول، وعيش الأديب فيها عبء ثقیل.

وما ظن القارئ برجل يبيت في الكنائس لينعم بما فيها من الخمر العتيق والحسن الطريف، ثم يقول في وصف القسيس والدير والرهبان :

ولرب حانٍ قد شمت بديره	نحر الصبا مزجت بصرف عصيره
في فتية جعلوا السرور شعارهم	متصاغرین تخشعاً لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا	يدعو يعود حولنا بزبوره ^(٢)
يهدى لنا بالراح كل مخفر	كالخشف خفّره التماح خفيه ^(٣)
يتناول الظرفاء فيه وشربهم	لسلافه والأكل من خنزيره

أو يتعرض لجارية من أهل قرطبة ذهبت للصلاة (وأمامها طفل لها كأنه غصن آس أو ظبي يمرح في كناس) فتصرف مروعة خشية أن يفضحها بشعره، فيتبعها ويقول :

وناظرة تحت طي القناع	دعاها إلى الله بالخير داعي
سعت خفية تبغى منزلاً	لوصل التبسل والانقطاع
بغاءت تهادى كمثل الرءوم ^(٤)	تساغى غزالاً بروض اليقاع ^(٥)
وجالت بموضعنا جولة	فلّ الربيع بتلك البقاع

(١) وصفه صاحب نفع الطيب (بالمتهتك في بطلانه) ص ٣١٩ ج ١ وتحدث عنه صاحب الذخيرة فقال : (أبو عامر ابن شهيد في الطرائف ، كان بقرطبة في رفته وبراعة ظرفه خليعها المتهتك في بطلانه ، وأعجب الناس تفاوتاً بين قوله وفعله ، وأحطهم في هوى نفسه ، وأهتكهم لعرضه ، وأجراهم على خالفه) ص ٢٦ ج ١ (٢) المخفر : المنوع ، والخشف بالثليلت ولد الظبي . (٣) راجع نفع الطيب ص ٣٤٥ ج ١ (٤) الرءوم : الظبية الألفوف . (٥) واليقاع ما ارتفع من الأرض .

أتدنا تبختر في مشيها فلت بواد كثير السباع
وريعت حذارا على طفلها فناديت يا هذو لا تراعي
غزالك تفرق منه الليوث وتنصاع منه كجاة المصاع^(١)
فولت وللسك في ذيلها على الأرض خط كذيل الشجاع^(٢)

٤ - وكان مع تهتكه كريم النفس محمود الخلال حتى لتراه أشرف الناس إذ يقول :
إن الكريم إذا نالته مخصة^(٣) أبدى الى الناس شبعاً وهو طيان
يحنى الضلوع على مثل اللظى حرقاً والوجه غمر بماء البشر ملائ

أوحين يقول :

ألمت بالحب حتى لو دنا أجلى^(٤) لما وجدت لطم الموت من ألم
كلالندى والهوى قدما ولعت به^(٥) ويلي من الحب أو ويلي من الكرم

وذكر ابن حيان أن أبا عامر (كان من أصح الناس رأياً لمن استشاره ، وأضلهم عنه في ذاته ، وأشدّهم جناية على حاله ونصابه ، وكان له في الكرم والجود أنهماك مع شرب وبطالة حتى شارف الإملاق) .

ومن العجيب في تشابه الحظوظ أن النقاد الفرنسيين يصفون (لافونتين) بهذا الوصف ؛ فيذكرون (أنه كان من أصح الناس رأياً لمن استشاره ، وأضلهم عنه في ذاته) ، وما أكثر ما يتشابه رجال الأدب في سوء الحال !

- (١) الكجاة جمع كجى وهو الشجاع ، والمصاع الضرب بالسيف . (٢) الشجاع : الذكر من الحيات .
(٣) طيان : من الطوى وهو الجوع . وفي رواية أخرى (ربا وهو ظآن) : أظهر هامش النسخ ص ١٠٤ ج ١
(٤) وفي رواية : أخرى « كلفت بالحب » . (٥) وفي رواية أخرى « وذادنى كرمى عنى ولعت به »
وهي أفصح من الرواية الثالثة « وعافنى كرمى » . (٦) الذخيرة ص ٢٩٤ ج ١
(٧) استطاع La Fontaine أن يكون أحكم الناس ، وأن يفرض حكمته في شعره على الفرنسيين من شباب وكهول ، وأن يظل في طليعة الحكماء على اختلاف الأجيال ، ولكنه عجز عن الظفر باستقامة الخلق في حياته الشخصية : فلم يكن لزوجته ولا ولده من رعايته نصيب . وسبحان من تفرد بالكمال !

٥ - قلت : إن أبا عامر بن شهيد كان يحب الحياة حبا شديدا ، وكان يرى العيش كل العيش في معاورة الجمال والصهبا ، فلنذكر الآن أنه كان لذلك من أشد الناس إحساسا بكرهه الموت ، وقد بلغ من تفزعه أن شعر معاصروه جميعا بألمه وأمتعاضه وتمالكه على التشبث بأذيال الحياة .

قال ابن بسام : " ولما طال بأبي عامر ألمه ، وتزايد سقمه ، وغلب عليه الفالج الذي عرض له في مستهل ذي القعدة سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، لم يعد له حركة ولا قلب ، وكان يمشي الى حاجته على عصا مرة ، وأعتادا على انسان مرة ، الى قبل وفاته بعشرين يوما فانه صار حجرا لا يبرح ولا يتقلب ، ولا يحتمل أن يحرك لعظيم الأوجاع مع ضغط الأنفاس وعدم الصبر حتى هم يقتل نفسه ^(١) " .

فلنتصور قسوة المرض التي تحمل رجالا كابن شهيد على التفكير في الانتحار ، ولنقرأ محزونين قوله في ذلك :

أنوح على نفسي وأندب نبلها	إذا أنا في الضراء أزمعت قتلها
رضيت قضاء الله في كل حالة	على وأحكاما تيقنت عدلها
أظل قعيد الداء تجنبنى العصا	على ضعف ساق أو هن السقم رجلها
ألا رب خصم قد كفيت وكرية	كشفت ودار كنت في المحل وبلها
ورب قريض كالجريض ^(٢) بعثته	الى خطبة لا ينكر الجمع فضلها
فمن مبلغ الفتیان أن أخاهمو	أخوفتكة شنعاء ما كان شكلها
عليكم سلام من فتي عضه الردى	فلم ينس عينا ثبتت فيه نبلها
يبين وكف الموت يخلع نفسه	وداخلها حب يهون نكلها

ولم يفت ابن شهيد أن يظل على عنف المرض ظريف الحس والروح ، فقد حدث أبو بكر المصنفى قال :

(١) الذخيرة ص ١٦٥ ج ١ (٢) الجريض بالجيم الرقيق ، وهي في نسخة الذخيرة بالحاء المهملة .

دخلت يوما على أبي عامر بن شهيد، وقد ابتدأت عنته التي مات منها، فأنس بي وجرى الحديث الى أن شكوت له تبجني بعض إخواني على وفارته عني، فقال : سأسعى لإصلاح ذات البين . فاتفق لقائي لذلك المتجني مع بعض إخواني وأعزهم على^(١)، فلما رآني موليا عن ذلك الصديق أنكر على^(٢) وسأل عن السبب الموجب . فأخبره وزادا في مشيئتهما حتى لحقاني، وعزم على في تكليم صاحبي، وتعاتبنا عتابا أرق من الهوى، وأشهى من المساء على الظلماء، حتى جئنا دار أبي عامر، فلما رأنا جميعا ضحك وقال : من كان تولى لإصلاح ما سررنا بفساده؟ قلنا : قد كان ما كان! فاطرق مايا ثم أنشد :

من لا أسنى ولا أبوح به أصلح بلني وبين من أهوى
أرسلت من كبدي الهوى فدرى كيف تداوى مواضع البلوى
ولى حقوق في الحب ظاهرة لكن إلفى يعدها دعوى^(١)

وحدث المصحفي أيضا قال : دخلت عليه يوما في تلك العلة ومعى غلام وسيم من إخواننا، وكان أبو عامر قبل ذلك يحب ممازحته فينا فره، حتى خاطب أبو عامر بعض إخوانه بشعر مسه فيه بطرف لسانه، فقال له ذلك الغلام : هجوتني يا أبا عامر دون أن تثبت في أمري، ولا تعلم من سرى ما يوجب ذلك، فقال : على تكفيره بما يحويه من القراطيس والصدور . وكان ذلك إثر صلاة العشاء الأولى، فظفنا بالجامع ثم انصرفنا اليه فأنشدنا :

ألا بأبي زائر في العتم بوجه يحلّي سواد الظلم
تكتّم بالليل في ظله وهل يمكن الصبح أن يكتّم
أنى يستجير الينا به كما جاور البان رطب الغنم^(٢)

وقد أخذ ابن شهيد يخاطب بالشعر أحبابه وأصدقاءه خطاب الوداع فأرسل الى أبي محمد ابن حزم هذه الأبيات :

(١) الذخيرة ص ١٦٣ ج ١ (٢) القصيدة بقية طويلة يجدها الفارسي في الذخيرة ص ١٦٤ ج ١

ولما رأيت العيش ولَّى برأسه
تمنيت أنى ساكن فى عباءة
خليلى من ذاق المنية مرة
فقد ذقتها خمسين قولة صادق
كأنى وقد حان آرتحالى ولم أفرز
قديما من الدنيا بلمحة بارق
فمن مبلغ عنى ابن حزم وكان لى
يدا فى ملماتى وعند مضايقي
عليك سلام الله إني مفارق
وحسبك زادا من حبيب مفارق
فلا تنس تأبيني اذا ما فقدتني
وتذكر أيامى وفضل خلائقي^(١)

٦ - وكان ابن شهيد يشعر أنه أهلٌ لأن يُبكي حين يموت، ويقول فى ذلك :

سقى الله فتيانا كأن وجوههم
وجوه مصابيح النجوم الزواهر
اذا ذكرونى والثرى فوق أعظمى
بكوا بعيون كالسحاب الماطر
يقولون : قد أودى أبو عامر العلى
أقلوا فقدا مات أبناء عامر
هو الموت لم يُصرف بأجراس خاطب^(٢)
بليغ ولم يُعطف بأنفاس شاعر
ولم يحتب للبطش مهجة قادر
قوى ولا للضعف مهجة صابر
يحمل عُرى الجبار فى دار ملكه
ويهفو بنفس الشارب المتساكر
وليس عجيبا أن تدانت منيقي
يصدق فيها أولى أمر أخرى
ولكن عجيب أن بين جوانحي
هوى كشرار الجرة المتطائر
يمركنى والموت يحفر همتي^(٣)
ويحتاجنى والنفس عند حناجرى

وهذا حقًا عجيب، فان ابن شهيد ظل يتلهف فى أيام علته المهلكة الى محبوب له اسمه

عمرو، وكان حبه له مشهورا يعرفه القريب والبعيد، ولستظر كيف يتوجع وهو يخاطبه
خطاب المفارق المشتاق :

(١) انظر جواب ابن حزم على هذه الايات فى ص ١٦٦ ج ١ من الذخيرة . (٢) الخطاب :

الخطيب بهى لفظة قليلة الاستعمال وأذكر أنى رأيتها فى كلام الجاحظ، وهى أكثر وازنة لكلمة كاتب وكلمة شاعر .

(٣) يحفر : يقطع .

أقر السلام على الأصحاب أجمعهم وخُصَّ عمرًا بأزكى نور تسليم
وقل له يا أعز الناس كلهم شخصًا عليّ وأولاهم بتمكريم
الله جارك من ذى منعة ظفرت منه الليالى "بإلف" غير مظلوم
ما كان حبك إلا صوب غادية طيبًا وحاشا بحبي فيك للوم
إن شاء صرف الردى تقديم أطوعنا فقد رضيت حاك الله تقديمي
عشنا رقيقين فى بر الهوى زمنا حتى زقا بنوانا طائر الشوم
فشتت نوب الأيام ألفتنا قسرا ولم يغنها طبي وتجمي

وحسب القارئ أن يعلم أن آخر شعر قاله ابن شهيد هو هذه الأبيات ، وفيها ودع

إخوانه ومحبوبه آخروداع :

أستودعُ الله إخواني وعشرتهم وكل يحرق إلى العلياء سباق^(١)
وفتية كنتجوم الغرب نيرهم يهدى وصايهمو يردى باحراق
وكوكبا لي منهم كان مغربه قلبي ومشرقه ما بين أطواق
الله يعلم أنى ما أفارقه إلا وفى الصدر منى حرمشتاق
فان أعش فلعل الدهر يجعنا وإن أمت فسيسقيه الردى الساق
لا ضيع الله إلا من يضيعه ومن تخلق فيه غير أخلاق!
قد كان بردى إذا ما مسنى كلف لا يثلم الحب آدابى وأعراق
إنى لأرمقه والموت يضغطنى فأقتضى فرجة ترد أرماق

ثم أوصى أن يدفن بجانب صديقه أبى الوليد الزجالى ، ويكتب على قبره فى لوح رخام

هذه الكلمة :

"بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو نبأ عظيم أتم عنه معروضون . هذا قبر أحمد بن عبد الملك
ابن شهيد المذنب ، مات وهو يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده

(١) الخرق بالكسر : السخى أو الظريف فى سخاوة ، والفى الحسن الكريم الخليفة .

ورسوله ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، والبعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور . ومات في شهر كذا من عام كذا .

ويكتب تحت هذا النثر هذه الأبيات وهو يخاطب بها صديقه المدفون :

يا صاحبي قم فقد أطلنا	أنحن طول المدى هجود!
فقال لي : لن نقوم منها	ما دام من فوقنا الصعيد
تذكر كم ليلة نعمنا	في ظلها والزمان عيـد
وكم سرور همي علينا	سحابه ثرة تجود
كل كائن لم يكن تقضى	وشؤمه حاضر عيـد
حصـله كاتب حفيظ	وضمه صادق شهيد
يا ويلنا إن تنكبنا	رحمة من بطشه شديد
يارب عفوا فأنت مولى	قصر في شكره العبيد

قال ابن بسام : وكان أبو عامر كثيرا ما يخشى صعوبة الموت ، وشدة السَّوق ، فيسّر الله عليه ، وما زال يتكلم ويرغب الى الله أن يرفق به ، ويكثر من ذكره ، وقد أيقن بفراق الدنيا ، الى أن ذهبت نفسه رحمه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة . ولم يُشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء والعويل .

١٣ - نثر ابن شهيد

١ - اتفق من ترجحوا لأبن شهيد على وصفه بالبراعة في الانشاء، فقال ابن حيان :
 ”كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . وإذا تأملته ولسنه ، وكيف يمر
 في البلاغة رسنه ، قلت عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في إبانه ، والعجب منه أنه كان يدعو
 قريحته لما شاء نظمه ونثره في بديته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اعتناء
 لكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب ، فانه لم يوجد له - رحمه الله - فيما بلغني
 بعد موته - كتاب يستعين به على صناعته ، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك
 في عجائبه ، وإعجاز بدائعه ، وكان في تمييق الهزل والنادرة الحادة أقدر منه على سائر ذلك .
 وشعره عند أهل النقد تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم . وله رسائل كثيرة
 في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برز فيها شأوه ، وأبقاها
 في الناس خالدة . وكان في سرعة البديهة وحضور الجواب وحدته مع رقة حواشي كلامه ،
 وسهولة ألفاظه ، وبراعة أوصافه ، ونزاهة شمائله وأخلاقه ، آية من آيات خالقه ^(١) .

وقال الثعالبي : ”فنثره في غاية الملاحه ، وشعره في غاية الفصاحة“ ^(٢) .

وقال ابن بسام : ”وقد أخرجت أنا من أشعاره الشاردة ، ورسائله الباقية الخالدة ،
 ونوادره القصار والطوال ، وتعريضاته السائرة الأمثال ، ما يحل له الوقور حباه ، ويحمن معه
 الكبير إلى صباه“ ^(٣) .

وقال الحنط وهو يهاجمه : ”الإسهاب كلفة ، والايجاز حكمة ، وخواطر الألباب سهام
 يصاب بها أغراض المكلام . وأخونا أبو عامر يسهب نثرا ، ويطيل نظما ، شاعنا بأنفه ،

(١) الذخيرة ص ٩٤ ج ١ (٢) البتمة ص ٣٩٤ ج ١ (٣) الذخيرة ص ٩٤ ج ١

ثانيا من عطفه ، فخيلا أنه أحرز السبق في الآداب ، وأوقى فصل الخطاب ، فهو يستصغر أساتيد الأدباء ، ويستجهل شيوخ العلماء .

وابن اللبون اذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يستطع صولة البزل القناعيس^(١)

وهذه الآراء التي نقلناها عن ابن حيان والثعالبي والحناط تمثل رأى جمهور الناقدين في ابن شهيد ، وتدلنا على أنه شغل الناس حيننا من الزمان . ولو آتقلنا الى رأيه في نفسه لرأيناه مفتونا أشنع الفتون بما أعتقده من إجادة النظم والشير ، والتفوق البالغ على كتاب المشرق والمغرب . وقد آن أن يوزن نثره بمعيار النقد ليعرف ما فيه من الزائف والصحيح .

٢ — سئل أبو العلاء المعرى رأيه في شعر ابن هاني ، الأندلسي فأجاب : ”رَحَى تطحن قرونا“ وهو جواب حذق وذكاء ، فضلا عما فيه من روعة التصوير . وأخشى أن يكون الأمر كذلك في نثر ابن شهيد ، فهو في الأكثر جمجمة وقعقة وقلقلة في غير نفع ولا غناء . ويسوءنا والله أن يكون ذلك مانزاه في نثر ذلك الرجل الذي نعتقد فيه دقة الفهم ، ورقة الطبع ، وسلامة الذوق ، ولكن ما الحيلة وقد قلبنا نثره على وجوهه ، وراجعنا ما بقى منه أكثر من عشرين مرة ، فلم نزد إلا اقتناعا بأنه كان في إنشائه من المتكلفين .

٣ — وربما كان من أسباب الالتواء الذي نشهده في نثر ابن شهيد غرام الرجل — كان — بمقارنة كتاب المشرق ، ومواجهة كتاب المغرب بألوان من الفن كان لها في زمانه بريق يعشى العيون . وكان النثر في ذلك العصر قد أخذ ينافس الشعر منافسة جدية ، وأستطاع ابن شهيد أن يناضل معاصريه برسائل محبرة موشاة ، تؤدى في عالم النثر ما كانت تؤدى النقاءض في عالم الشعر ، فوقع له مع الافيللى والحناط وغيرهما منافرات كان لها في مجالس المغرب دوى شديد . هذا مع أن الرجل كان من فحول الشعراء ، وكان يستطيع أن يقارع خصومه بالشعر ، وأن يقيم من المعارك الشعرية ما يعيد به عهد الأخطل والفرزدق وجير

(١) الذخيرة ص ٢٣٢ — والبزل جمع بازل وهو البعير يبلغ تسع سنين ، والقناعيس جمع قناعس بالكسر وهو العظيم

من الإبل ، ومن الرجال الشديد المنبع .

من شعراء الهجاء ، ولكنه أراد أن يحى في بلاده معارك نثرية كالمعارك التي كانت تقع في الشرق بين أمثال الخوارزمي و بديع الزمان . وفي هذا إغناء للنثر وسعى إلى إمداده بمختلف المعاني والأغراض ، ولكنه آنحدار بالنثر الى موضوعات لا يصلح لها إلا قليلا ، فان الهجاء كما تسيغه الطبيعة العربية لا يؤدي إلا بالبيت السائر أو الكلمة الشروء .

٤ - ومع ما في نثر ابن شهيد من القلق والغموض والاضطراب فانه يغرى القارئ بالبحث عما فيه من نتاج الفكر والذكاء ، وهو يشبه بعض التلال التي يوقن المتطلع بأن فيها كنوزا ، فلا يزال يقلب أكداس الخرف والتراب حتى يصل الى بعض ما ينشد من الذهب الدفين .

ومن أمثلة ذلك أنه اندفع مرة يشتم نخاعة قرطبة ، ويقرّع أبا القاسم الافليلى فلم يقل شيئا ذا بال ، ولكنه ختم رسالته بهذه الكلمات الخبيثة في وصف الافليلى :

” ليست مشيته مشية أديب ، ولا وجهه وجه أريب ، ولا جلسته جلسة عالم ، ولا أنفه أنف كاتب ، ولا نغمته نغمة شاعر ^(١) “ .

٥ - غير أن ابن شهيد لا يظل في جميع أحواله أسير القلق والغموض ، فإن له أحيانا يفصح فيها ويبين ، كقوله يخاطب أحد الأمراء :

” من عز بز ، ومن ريش طار ، ومن سارت به الأيام سار ، جدّ بكا ، وحسام نبا ، وآمال تفرقت أيدي سبا . كلمات أنثرها عليك ، وآمال أصرفها إليك . كما قبل أن ترمي بنا النوى مراميا ، وتلقى علينا الخطوب مراسيا ، وتمخضنا الأيام مخضا ، وتركض بنا الليالى ركضا ، تربى صحبة ، وحليفى صبوة ، قد تخلىنا عن الأنساب ، وانتسبنا الى الآداب ، والدار إذ ذاك صقب ، والملتقى كشب ، والزمان غير ، وحواصلنا صفر ، تترنم ترنم الحمام ، على زرق الحمام ^(٢) ، ثم ألفت الأيام علينا بكل كل فنشرنا بكل فح عميق ، وأفوق سحق ، ونفحت

(١) الذخيرة ص ١٢٣ ج ١ (٢) الجمام : المياه الكثيرة ، والمفرد جم ، وهو في الأصل الكثير

عليك رياح السد ، وجادتك المنى من تهامة ونجد ، وامتنطيت ظهر الجوزاء ، وافترشت لبدة العواء^(١) ، وكلما دعيت للنزال والعراك ، ترست بالثريا وطعنت بالسماك ، فزحمت منكب الدهر ، وقضيت أربك منه على قصر ، فكان أول حيصتك عن الوفاء ، وحيدتك عن رعاية قديم الإخاء ، أن تركت المخاطبة ، وأضربت عن المكتابة ، خشية أن يكون كلنا عليك ، ورغبنا فيما لديك ، وهيئات ! يابى ذلك كرم محض ، وهمة علياء ناهيا خفض ، ثم قلت : الحمل على حسن الظن أجمل ، والقضاء بأكرم العهد أقبل ، قد يشغل الرؤساء ، ويجاذب العطاء ، وعينه مع ذاك راعية ، وأذنه واعية ، وإنما الوصل بالفؤاد ، لا بالمداد ، والالتقاء بالحلوم ، لا بالחסوم ، فانطويت على ود ، وثبتت على صحة عهد ... الخ^(٢) .

وهذا ثم مقبول ، لا يؤخذ عليه إلا شيء من التوعر قليل . وأوضح منه وأفصح قوله يصف إحدى المنافرات :

” لما قدم زهير الصقلبي قتي بنى عامر ، حضرة قرطبة من المرية ، وجه أبو جعفر عباس وزيره عن لمة من أصحابنا منهم ابن برد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني ، فسألهم عنى وقال : وجهوا عنه ، فوفاني رسوله مع دابة له بسرج محلى ثقيل فسرت إليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب ، فتحرك المجلس لدخولى وقاموا جميعا إلى ، حتى طلع أبو جعفر عاينا ، ساحبا لذيلى لم ير أحد يحبه قبله ، وهو يترنم ، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال ، فرد رد الطغيان ، فعلمت أن فى أنفه نعة لا تخرج إلا بسعوط الكلام ، ولا تراض إلا بمستحكم النظام ، فرأيت أصحابي يصيخون إلى ترنمه ، فسألهم عن ذلك فقال الحناط — وكان كثير الإنحاء على — جالبا فى المحافل ما يسوء إلى — : الوزير حضره قسم من الشعر ، وهو يسألنا عن إجازته ، فعلمت أنى المراد ، فأنشده ، وهو :

مرض الجفون ولثغة فى المنطق

فأخذت القلم وكتبت بديها :

مرض الجفون ولغة في المنطق شيثان جرا عشق من لم يعشق
من لى بالثغ لا يزال حديثه يذكى على الأجداد جمره محرق
ينبى فينبو في الكلام لسانه فكأنه من نمر عينيه سقى
لا ينعش الألفاظ من عثراتها ولو أنها كتبت له في مهرق

ثم قمت عنهم فلم ألبث أن وردوا علىّ، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرض بما جئنا به من البديهة : وسألوني أن أحمل مكايى الكلام على اختباره، وذكروا أن إدريس هجاه وأفخس، فلم أستحسن الإفخاس، فقلت فيه معرضا إذ التعريض من محاسن القول^(١).

٦ — وهناك رسائل رضى عنها ابن شهيد، وحدّثنا في "التوايع والزوايع" أنه قرأها على شعراء الجن فاستجادوها، وهى رسالته فى صفة البرد والنار والخطب، ورسالته فى الحلواء، وكلماته فى وصف جارية، ونعت الماء والتعلب والبرغوث والبعوض. وهذه الرسائل فى جملة ما تدل على غنى فى اللغة وبراعة فى الصنعة، ولكنها خالية من الروح. ويظهر أن الجن الذين استجادوها لم يكونوا من أصحاب الأذواق فى نقد الكلام، مع أنهم كانوا من أقطار مختلفة، وصاحبوا الأفاضل من شعراء الحجاز والشام والعراق !

وأجود ما وقع له فى تلك الرسائل "المستجادة" قوله فى وصف ماء صاف :

"كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر ليّاح"

وقوله فى وصف البعوض :

"تنقض العزائم وهى منقوضة، وتعجز القوى وهى بعوضة، ليرينا الله عجائب قدرته، وضعفنا عن أضعف خليقته"^(٢).

ورسالته فى وصف الحلواء قالها تحقيرا لفقيهه نهم لقيه فى المسجد الجامع، فلما طالعوا الحلواء «أضطرب به الألم، وأستخفه الشره، فدار فى ثيابه، وأسأل من لعبه، وأزوز جانبه،

(١) ما سماه ابن شهيد تعرضا هو أيضا إفخاس لم تر روايته لأننا لا نستطيع رواية الهجاء القبيح الذى يجرح الأدب والذوق. وبقية هذا الحديث فى ص ١٥٤ من الذخيرة ج ١ (٢) البقعة ص ٣٩٢ ج ١

وخفق شاربه » ثم أخذ يدور حول صنوف الحلوى ويصفها واحدا واحدا ، فالفالزوج
 ”مجاورة الزناير خالطها لباب الحبة ، فجاءت أطيّب من ريق الأحبة“ والخبيص ”جليد سماء
 الرحمة ، تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة ، تجرحه اللحظة ، وتدميه اللفظة“ ، ثم يقول ابن
 شهيد بعد كلام : ”فأمّرت الغلام بابتياح أرطال تجمع أنواعها التي أنطقته ، وتحتوى على
 ضروبها التي صرّعته ، فجاء بها فوضعها بين يديه ، فلما عاينها انحنى عليها بلبّانه ، وألقى عليها
 بجرانه ، وجعل يركل برجليه ، ويحاحش بفخذه ، مانعا عنها ومدافعا ، فصحت به لا عليك
 حكمها ، فجعل يقطع ويبلغ ، ويوجرفاه ويدفع ، وعيناه تبصان ، كأنهما جمرتان ، وقد برزتا
 عن وجهه كأنهما خصيتان . وأنا أقول على رسلك يا فلان ! البطنة تذهب الفطنة ! وهو
 يقول : أكلها دائم وظلها ، حتى التقم جماهرها ، وألحق أولها بآحرها ، فهبت منه ريح عقيم ،
 قرن إقبالها بالعذاب الأليم ، نثرنا شذر مذر ، وفرقتنا في كل شعب شجر بفر ، فالتحنا منه
 الظّر بان ، وصدق فيه الخبر العيان ^(١)“ .

وعندى أن ابن شهيد في رسالة الحلواء عارض بديع الزمان في المقامة البغدادية ، والنكتة
 في الرسالتين متشابهة ، فهي عند ابن شهيد سخرية من فقيه أكل ، وعند بديع الزمان استهزاء
 بفلاح منهوم ؛ ولكن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد ؛ ولننظر كيف يقول
 وقد استدرج سواديا بالكرخ ^(٢) :

”فقلت : فهلم الى البيت نصب غداء ، أو الى السوق تشتري شواء ، والسوق أقرب ،
 وطعامه أطيّب ، فاستفترته حجة القرم ، وعطفته عطفة النهم ، وطمع ، ولم يعلم أنه وقع ،
 ثم أتيت شواء يتقاطر شواؤه عرقا ، ويتسائل جودابه مرقا ^(٣) ، فقلت : أبرز لأبي زيد من
 هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ؛ وآختر من تلك الأطباق ، ونضد عليها أوراق الرقاق ،

(١) وردت رسالة الحلواء في الذخيرة ص ١٣٦ و ١٣٧ ج ١ وفي التيممة ص ٣٩٢ و ٣٩٣ ج ١ ، وفي النسخين
 اختلاف شديد ، وفيهما كذلك كثير من التحريف . والفقرات التي اخترناها مأخوذة مما صح لدينا نظمه على اختلاف
 النسخين . (٢) الكرخ محلة كانت في الجانب الغربي من بغداد . (٣) الجوداب : خبز يوضع
 في التنور ومعه طائر أو لحم .

وشيثا من ماء السماء^(١)، ليأكله أبو زيد هنيئا، فألقى الشواء بساطوره، على زبدة تنوره، فجعلها كالكمحل سحقا، وكالطين دقا، ثم جاس وجلس، ولا نبس ولا نبست، حتى استوفيناها وقلت لصاحب الحلواء: زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين، فانه أجرى في الحلق، وأسرى في العروق، وليكن ليلتي العمر، يومى النشر، رقيق القشر، كثيف الحشو، لؤاؤى الدهن، كوكبي اللون، يذوب كالصمغ، قبل المضغ، ليأكله أبو زيد هنيئا. ثم قعد وقعدت، وبرد وبردت، وآستوفيناها. ثم قلت: يا أبا زيد! ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج، ليقمع هذه الصارة^(٢)، ويفثا^(٣) هذه اللقم الحارة! إجلس، أبا زيد، حتى آتيك بسقاء، يحمينا بشربة من ماء. ثم خرجت، وجلست بحيث أراه ولا يراني، أنظر ما يصنع به، فلما أبطأت عليه قام السوادى الى حماره، فاعتلق الشواء بإزاره، وقال: أين ثمن ما أكلت؟ فقال: ما أكلته إلا ضيفا. فقال الشواء: هاك وآك، متى دعوناك؟ زن يا أخا الفعجة عشرين، وإلا أكلت ثلاثا وتسعين! بفعل السوادى يبكى ويمسح دموعه بأردانه، ويحل عقده بأسنانه، ويقول: كم قلت لذلك القريد، أنا أبو عبيد، وهو يقول: أنت أبو زيد! “.

وإنما أفترضنا ان ابن شهيد عارض بديع الزمان وحاكاه، لأنه كان مشغوبا بأدبه ومعنيا بمعارضته، فقد حدثنا في ”التوابع والزوابع“ أنه قابل بأرض الجن (زبدة الحقب) صاحب بديع الزمان، وجرت بينهما مصالوة انتصر فيها ابن شهيد. وهذا يدل على أن رسائل بديع الزمان كانت وصلت كاملة الى الأندلس، وفعلت فعلها في أنفس الأدباء هناك، وأن ابن شهيد كان بها من المعجبين.

٧ — أما وصف الجارية الذى رضى عنه ابن شهيد، وقدمه كذلك الى شعراء الجن فاستجاده، فهو رسالة فيها فقرات تم عن قلب غزل ونفس طروب، وفيها كذلك كلمات تليح بمغاضر الفتك والمجون، وكانت جاريته ”أخت نعمة، وربيبة نعمة، كأن شعرها على

(١) الساق: حب أحمر صغير شديد الحموضة شجرة شبه الزمان.

(٢) الصارة: العطش.

(٣) يفثا: يسكن.

غرمتها الغراء، غراب يسفد حمامة بيضاء ... تكلمك بالفاظها ، وتأسوك بألفاظها ، تقابلك من خدّها بوردة ، ومن عينها بفرجسة ، كأنما نقرها من جوهر ، وشفقتها خيط حرير أحمر ، تقبل عليك بقضيب بان ، ثمرته رمانتان ، وتنقل عليك بكفل مأنج ، كأنه كتيب عاج ... المنظر منظر غلام ، والمخبر مخبر فتاة ، إن علوتها تدفعت اليك ، أو علتك تداركت عليك ، وإن أعطشك فراشها سقتك من شراب ، إن شئت قلت نعمة أو رضاب ، أو أجاجك عرا كها أطمعتك من لسان ، يصل اليك وصول الإيمان ^(١) .

٨ - ورسالته عن النار والخطب تمثل فزع أهل الأندلس من البرد ، ولكنها ، كأكثر ما كتب ، مثقلة بالصفة ، خالية من الروح . وهي رسالة مهداة الى صديق نفعه بأحمال من الخطب الجزل - والخطب مما يهدى في تلك البلاد لما يعاني أهلها من قسوة الشتاء - ولننظر كيف يصور أصطدام النار بالوقود :

”حبستنا اليوم خيل البرد مغيرة ... بفعلت مجنى خطبا دل على نفسه ، وتشظى من يسه ، فسلطت عليه صاحب الشرر ، ورميته منها ببنات الحديد والحجر ، فواقعه قليلا ، وعاركة طويلا ، فكان لها عجيج ، وله من حرها ضجيج ، ثم خر لها صريعا ، وأستولت عليه صعبا منيعا ، فبددت شمله وألفت شملها ، وأستحالت حية لا نستلذ قتلها ، ترمي باللوان ، وتهتد بلسان ، فلذعت البرد لذعة ، ونكرته على فؤاده نكرة ، خر لها على جبينه ، ومات بها من حينه ^(٢) .

٩ - وبعد فان ثرآبن شهيد - على ما فيه من مأخذ وعيوب - دليل على أن الرجل كان يتناول اللغة بعزائم الفحول ، وليس يعيبه أن نراه نحن أقل من شهرته ، فانا نحكم على أدبه بأذواق تختلف عن أذواق معاصيره أشد الاختلاف . والنثر الفني كالشعر ، له دقائق قلما يتفق في تذوقها الناقدون . وكان للرجل في حياته نجاح مرموق ، فقد وصل نثره وشعره الى الشرق على عسر الوصول ، وتداوله المؤلفون ، وكان لا يزال من الأحياء ، وفي هذا برهان على أن الرجل أمد عصره بروحه وأستولى بقوة على عرش البيان .

(٢) البيمة ص ٣٩٠ ج ١

(١) البيمة ص ٣٩٤ ج ١

ولا ننس أن نثر ابن شهيد لم يصل إلينا منه إلا شيء قليل ، ولم يدون منه إلا الجانب البراق ، الذى طرب له كتاب الصنعة فى المشرق والمغرب ؛ وللفن البراق أعمار قد تقصر وقد تطول . ولو وصلت إلينا جملة صالحه من نثره الذى جرى فيه على سليقته وفطرتة ، وأنحاز فيه الى فيض عقله وروحه ، لرجونا أن يكون لنا فيه رأى غير هذا الرأى ، وخاصة اذا لاحظنا أن رسائله فى صناعة النقد والبيان تدل على أنه كان من أصفى الناس ديباجة ، وأسدهم رأيا ، وأصدقهم فراسة ، اذا مضى يشرح مزلق الأفكار ومزلات العقول .

ولا ننس أيضا أن ابن شهيد كان يتمتع من قلب فكره ، ولم تكن له مراجع للثقافة الأدبية ، إلا ما لا قدر له من الكتب كما حدث ابن حيان ، وذلك كان فى عصر مضطرب أشنع اضطراب ، يقاسى شعراؤه وكتابه ومتأدبوه أهوالا من القتن قل أن يصفو معها فكر أو ينضج بيان .

فلنحمد إذن ما أسداه ابن شهيد ، فان جهد المقل غير قليل ، ولندكر أننا ننقد وننقض ، فى سلامة وعافية لم يحلم بهما أولئك الأسلاف الذين نازلوا الأقدار ، ورفعوا أعلامهم بين أعم الصليب فوق هامات الأسود .

فعلى ذكراهم تحية وسلام !

١٤ - أبو الفضل الميكالى

١ - أسرة الميكالى أسرة قديمة العهد بالمجد فى المدينة الإسلامية ، وكان لهذه الأسرة كرامة وسلطان فى القرن الثالث والرابع والخامس . فقد مدحهم البحرى وخدمهم ابن دريد ، وتنفياً ظلّاهم أبو بكر الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمدانيّ ، وغيرهم من أعيان الكتاب والشعراء .

وأشهر أعلام هذه الأسرة فى الأدب الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ . وكانت له آثار كثيرة لم يبق منها إلا شذرات متفرقة فى يتيمة الدهر وزهر الاداب وثمار القلوب . وهو يلتزم السجع والأزدواج فى رشاقة وعذوبة وآساق . وفيه يقول الثعالبيّ فى مقدّمة فقه اللغة :

”ومن أراد أن يسمع سر النظم ، وسحر النثر ، ورقية الدهر ، ويرى صوب العقل ، وذوب الظرف ، ونتيجة الفضل ، فليستشده ما أسفر عنه طبع مجده ، وأثمه على فكره ، من ملح تمتزج بأجزاء النفوس لنفاسها ، وتشرب القلوب لسلاستها ، ... وآيم الله ما من يوم أسعفى فيه الزمان بمواجهة وجهه ، وأسعدنى بالآقتباس من نوره ، والأغتراف من بحره ، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنثر من شمائله ، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله ، وقرأت نسخة الكرم والفضل من لحاظه ، وآتتهبت فرائد الفوائد من ألفاظه ، إلا تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لأبن الرومى :

لولا عجائب صنع الله ما نبئت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامى عنده بفيروز أباد ، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سبل القطر ! فانها كانت بطلعته البدرية ، وعشرته العطرية ، وألفاظه اللؤلؤية ، ومحاسن أقواله وأفعاله التى يعياها الواصفون ، أنموذجات من ابلحة التى وعد المتقون ، فاذا تذكرتها فى تلك المراجع التى هى مراتع النواظر ، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر ، والبساتين التى إذا

أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طوى لها الديباج الخسروانى، ونفى معها
الوشى الصنعانى، فلم تشبه إلا بشيمه، وآثار قلمه، وأزهار كلمه، تذكرت سحرا وسيا، وخيرا
عميا، وأرتياحا مقيا، ورؤحا وريحانا ونعيا“ .

٢ - وأظهر الفنون التى كان يجيدها الميكالى هو فن الإخوانيات، ورسائله إلى
أصدقائه مشربة بأنفاس الحنين، حتى لتحسبها رسائل عاشق لا رسائل صديق ...
وإليك قوله من رسالة :

”أيام ظل العيش رطب، وكف الهوى رحب، وشرب الصبأ عذب، وما لشرق
الأنس غرب“^(١).

وقوله من رسالة ثانية :

”إنما أشكو اليك زمانا سلب ضعف ما وهب، وبلغ بأكثر مما متع، وأوحش فوق
ما أنس، وعنف فى نزع ما ألبس، فإنه لم يذقنا حلاوة الإجتماع، حتى جرعنا مرارة الفراق،
ولم يمتعنا بأنس التلاق، حتى غادرنا رهن التلهف والأشتياق“^(٢).

وليتأمل القارئ رقة الحنين فى قوله من كلمة ثالثة :

”أنا أسأل الله تعالى أن يرد على برد العيش الذى فقدته، وفسحة السرور الذى عهدته،
فيقصر من الفراق أمدّه، ويعلو للقاء حكمه ويده، ويرجع ذلك العيش الذى رقت غلائله،
وصفت من الأقداء مناهله، فلم أهنأ بعده بأنس مقيم، ولا تعلقت يوما إلا بعيش بهيم“ .

فان ترجع الأيام بعد الذى مضى بذى الأثل صيفامثل صيفى ومربى
شددت بأعناق النوى بعد هذه مراثر إن جاذبتها لم تقطع

وما على الله بعزى أن يقرب بعيدا، ويهب طالعا سعيدا، ويسهل عسيرا، ويفك من رق
الأشتياق أسيرا“^(٣).

ومع أن صلته بأبي منصور الثعالبي كانت صلة الأمير المفضل بالصاحب الأمين فانا نجده يكتب إليه بأجل ما يوحى الرفق والحنان فيقول :

”كأني، وأنا أشكو إليك شوقاً لو عاجله الأعرابي لما صبا إلى رمل عاجل، أو كابدته الخلى^(١) لانتني على كيد ذات حرق ولواعج، وأذم زمانا يفرق فلا يحسن جمعا، ويحرق فلا ينوي رقعا، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوى الوداد، ثم يخجل عليهم بما يشفى الصدور والأكباد، قاسى القلب فلا يلين لاستعطاف، جائر الحكم فلا يميل إلى إنصاف، وكم أستعدى على صروفه وأستنجد، وأتلقى غيظا عليه وأنشد :

متى وعسى يثنى الزمان عنائه بعثرة حال والزمان عثور

فتدرك آمال وتقتضى مآرب وتحدث من بعد الأمور أمور

وكلا! فما على الدهر عتب، ولا له على أهله ذنب، وإنما هي أقدار تجري كما شاء مجريها، وتنفذ كالسهم إلى مراميها، فهي تدور بالمكروه والمحبوب، على الحكم المقدور المكتوب، لا على شهوات النفوس، وإرادات القلوب، وإذا أراد الله تعالى أذن في تقريب البعيد التازح، وتسهيل الصعب الجاح، فيعود الانس للقاء الإخوان كأتم ما لم يزل معهودا، ويحدد للذاكرة^(٢) والمؤانسة رسوما وعهودا، إنه الملبى به والقادر عليه“ .

٣ — وقد كان الميكالى يعيش أطيب العيش بين نعمة الجاه والمال، ولكنه كان يشكو زمانه على غير ما كان يشكو البائسون من الكتاب والشعراء، فراه يقول :

”يأبى الدهر إلا ولوعا بشمل وصل يشرده، ونظام أنس يبده، ومغلب ظلم يحدده . ولو أنبسطت فيه يدى لكسرت جناحه، وخفضت جماعه، ولكنه الحية الصماء لا تستجيب لراقى، والداء العضال لا يشفى منه طيب ولا وافي“^(٣) .

ولننظر قوله يتوجع لرفيق عليل :

”لو أستطعت نخلعت عليه سلامتى سر بالا، وأعرته من جسمى صحة وإقبالا، فليست أهنأ بالعافية مع سقمه، ولا أتمتع بنضارة عيشى مع شحوب جسمه“^(٤) .

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨٩ (٢) ص ٢٥٥ ج ٤ نية . (٣) ص ٢٥٦ ج ٤ نية .

ولسنا نعرف إلى من كتب العبارات الآتية :

”أنا في مقاساة حرّ الشوق إليك كما اعتاد محبوم بخير صائب^(١)، وتذكر الاجتماع معك كما اهتز من صرف المدامة شارب ، وفي تكلف الصبر عنك كطالب جدوى خلة لا تواصل وفي القلق لفراقك كطائر جوّ أعلقته الحبال . كتبت هذه الأحرف وأنا أودّ أن مدادها سواد طرفي ، وبياضها جلدة بين غني وأقنى ، وحاملها دون سائر الناس كفى . لولا التعلل باللقاء لتصدعت أكباد وقلوب ، وكانت بيني وبين النوى شئون وخطوب . أنا في مفارقتك كبنت الماء فضب عنها الغدير ، ونبت الأرض أخطأه النوء المطير . لا تفارق نفسي فيك أشواقها ، حتى تفارق الجمائم أطواقها “ .

٤ — وأهتم الميكالي بهذا النوع من الكتابة غرس فيه الحرص على وصف ما يرد عليه من رسائل إخوانه ، فكان قلمه من أفصح الأقلام في وصف الكتب يتهاذاها الأصدقاء ، ومن أمثلة ذلك قوله :

”وصل كتاب مولاي وسيدى أبداع الكتب هوادى وأعجازا ، وأبرعها بلاغة وإعجازا ، فحسبت ألفاظه در السحاب ، أو أصفى قطرا وديمة ، ومعانيه در السحاب ، بل أوفى قدرا وقيمة ، وتأملت الأبيات فوجدتها فائقة النظم والرصف ، عبقة النسيم والعرف ، فائزة بقداح الحسن والظرف ، مالكة لزمام القلب والطرف ؛ ولا غرو أن يصدر مثلها عن ذلك الخاطر وهو هدف الفقر والنوادر ، وصدف الدرر والجواهر . والله يتمتع بما منحه من هذه الفرر والأوضاع ، كما أطلق فيها السنة الثناء والامتداح “ .

٥ — ويجانب هذه البراعة كان الميكالي كريم الأخلاق ، وما اللطف ما يقول الثعالبي فيه : ”وكتيرا ما أحكى للإخوان أنى استغرقت أربعة أشهر بحضرته ، وتوفرت على خدمته ، ولازمت في أكثر أوقاتي على مجلسه ، وتعطرت بغيار موكبه ، فبالله يمينا كنت غنيا عنها لو خفت لائمها أنى ما أنكرت طرفا من أخلاقه ، ولم أشاهد إلا مجدا وشرفا من أحواله ، وما رأيته أغتاب غائبا ، أو سب حاضرا ، أو حرم سائلا ، أو خيب آملا ، أو أطاع سلطان

(١) صلبت الحمى دامت واشتدت .

الغضب في الحضر، أو تصلى بنار الضجر في السفر، أو بطش بطش المتجبر، ولا وجدت المآثر إلا ما يتعطاها، والمآثم إلا ما يتخطاها .

٦ - ونعود فنذكر أن صلة الميكالى بأصدقائه وألأفه آتتهب أجزاء نفسه بحيث يمكن رجوع أدبه الى المعانى النفسية التى توحى بها الصداقة والألفة والحب ، فأدبه مقسم بين كتاب شوق، أو رسالة عتب، أو كلمة توجع، أو خطاب اقتضاء، أو مالكة تهتة، أو نعيقة شاء . والظاهر من كلام عمر المطوعى فى كتابه عن الشعراء أن الميكالى كان بليغ الأثر فى أنفس معاصريه ، وأن فريقا منهم كان يؤلف الكتب بارشاده وفى ضوء فكره . وهذا شبيه بالحق ؛ لأن الميكالى فيما يظهر من شعره ونثره كان قوة عظيمة من القوى الأدبية ، ولكن ينبغى الاحتياط فى فهم هذه الفكرة : فقد كان الميكالى غنيا ، وكان بيته ملجأ الشعراء والكتاب والمؤلفين ، فلا مفر من أن يحسب لمجاملته حساب ، وأن يقدر الناقد أنه قد ينسب إليه ما ليس له لمكانه من العلم والغنى والجاه .

٧ - صنعة الميكالى فى شعره أظهر منها فى نثره ، فهو حين ينثر سهل الخليفة ، فإذا نظم تكلف ، وهو يؤثر الجناس على سائر أنواع البديع ، وإلى القارئ قوله :

شافة كفى رشاً بقبلة ما شفت
فقلت إذ قبلها ياليت كفى شفتى

وقوله :

من لى بشمل الأئس أجمعه بشادن حلّ فيه الأئس أجمعه
ما زال يعرض عن وصلى فأخذه فالآن لى لأن بعد الصد أخذه^(١)

وهذا كما نرى تكلف ثقيل ممجوج .

وقد يترك الصنعة ويمضى على سجيته فيجيد ، من ذلك قوله :

عمر الفتى ذكره لا طول مدته وموته خزيه لا يومه الدانى

(١) الأخدع : شعبة من الوريد ، والجمع أخادع .

وقوله :

كم والد يحرم أولادهُ وخيره يحظى به الأبعدُ
كالعين لا تبصر ما حولها ولحظها يدرك ما يبعد

وجملة القول أن الجيد من ثمره أكثر من جيد شعره ، وهو فى كلا الفنين صناع اليد
ذكى الجنان .

٨ - وسلطانه على معاصريه له قيمته على أى حال ، فليس الغنى ولا العلم مما يكفى
لأن يكون للرجل حاشية وأنصار أوفياء . وإنما يرجع ذلك الى رقة القلب وقوة العقل وخفة
الروح ، وهى المقومات الأساسية لحياة المفكر والأديب . وكذلك أستطاع الميكالى أن يستعبد
طائفة من أحرار القلوب والعقول بما كان له من صفاء الذهن ، وقوة القريحة ، وطهارة
الوجدان .

١٥ - بديع الزمان

١ - ولد أبو الفضل أحمد بن الحسين في همدان نحو سنة ٣٥٨هـ، درس اللغة والأدب وتعمق فيهما تعمقا ظهر أثره في نثره وشعره . وكان في صباه جميلا فتانا خفيف الروح، وكان لجماله وحلاوة لسانه أثر كبير في النصر الذي أحرزه في حياته الأدبية ، فقد أنتقل الى نيسابور سنة ٣٨٢هـ، وكانت يومئذ موطن الأبي بكر الخوارزمي أعلم أهل عصره باللغة والأدب ، وأقربهم مكانة من الملوك والأمراء . فبدأ لبديع الزمان أن يناظره علنا عند بعض الأمراء ، فقبل الخوارزمي بعد تردد، ثم دارت المناقشة يوما أو بعض يوم في موضوعات أدبية مختلفة فأستطاع بديع الزمان بسرعة بديهته ونضارة صباه أن يجذب اليه أنظار الحاضرين ، فغلب الخوارزمي وظهرت عليه دلائل الضعف ، وسرى في الأقطار الاسلامية يومئذ أن بديع الزمان أجمل منه شعرا ، وأحلى نثرا ، وأقوى حجة ، ثم مرض الخوارزمي حزنا ومات قبل أن ينقضى الحول سنة ٣٨٣هـ

وبموت الخوارزمي خلا الحق لبديع الزمان عند الملوك والأمراء والوزراء ، وصار ينتقل في الحواضر الاسلامية بالشرق الى أن أستقر في هراة ، وصاهر أحد علمائها الأعلام ، وحسنت حاله ، وأقبلت عليه الدنيا ، ولكن المنية عاجلته وهو في سن الأربعين سنة ٣٩٨هـ وقد أستيقظ في قبره بعد الدفن فظل يصرخ ويطلب الغوث ، ولكن الناس لم ينتبهوا اليه الا بعد مدة ففتحوا قبره فوجدوه مضطجعا وقد أمسك لحيته بيده ومزق كفنه ، ولكنه مات من الرعب والفرع حين يئس من النجاة .

٢ - اهتم كتاب التراجم بحياة بديع الزمان ، وأجمل ما قرأناه في ترجمته قول الثعالبي في بتيمة الدهر: "بديع الزمان، ومعجزة همدان، ونادرة الفلك، وبكر عطار، وفرد الدهر،

وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء
الذهن، وقوة النفس، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه، وغرر النظم ونكته، ومن
لم يرو ولم يرو أن أحدا بلغ ما بلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسجده، فانه كان
صاحب عجائب، وبدائع وغرائب : فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي
أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يخرم حرفا ولا يخل معنى،
وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظوة واحدة خفيفة ثم يهدبها
عن ظهر قلبه هدا، ويسردها سردا ... وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى
بديع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة، والجواب عنها فيها، وكان زبها يكتب
الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرا إلى الأول ويخرجه كأحسن شيء
وأملحه، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه فيقرأ من النظم والنثر،
ويروى من النثر والنظم، ويعطى القوافي الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيدة، ويقترح عليه
كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف، على ريق لا يبلغه، ونفس
لا يقطعها، وكلامه كله عفو الساعة، وفيض البديهة، ومسارقة القلم، ومساوقة اليد، وجمرات
الحدة، وثمرات المدة، ومجارات الخاطر للناظر، ومباراة الطبع للسمع . وكان يترجم ما يقترح
عليه من الأبيات الفارسية المشتعلة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين
الإبداع والإسراع، إلى عجائب كثيرة لا تحصى، ولطائف تطول أن تستقصى . وكان مع هذا
كله مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف، عظيم الخلق، شريف
النفس، كريم العهد، خالص الود، حلو الصداقة، مر العداوة . وفارق همذان سنة ٣٨٠
وهو مقتبل الشيبه، غص الحداثة، وقد درس على أبي الحسين بن فارس وأخذ عنه جميع
ماعداء، وأستفد علمه، وأستزف بحره . وورد حضرة الصاحب فتزود من ثمارها، وحسن
آثارها . ثم قدم جرجان وأقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية والتعيش في أكثافهم، والاقتناس

(١) انظر شاهد هذا فيما سنبعض من نص المناظرة (ص ٣٤٨) .

من أنوارهم، وأختص بأبي سعد محمد بن منصور ونفقت بضائع لديه، وتوفر حظه من عادته المعروفة في إسداء المعروف والإفضال على الأفاضل. ولما استقرت عزيمته على قصد نيسابور أعانته على حركته، وأزاح عله في سفرته، فوافاها في سنة ٣٨٢ ونشر بها بزه، وأظهر طرزه، وأملى أربعمائة^(١) مقامة نحلها أبا الفتح الاسكندري في الكدية وغيرها، وضمنها ما تشتهى الأنفس، وتلد الأعين، من لفظ أنيق قريب المأخذ، بعيد المرام، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام، وجَدَّ يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول. ثم شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سببا لهبوب ريح الهمداني وعلو أمره، وقرب نجحه، وبعد صيته، إذ لم يكن في الحسبان والحساب أن أحدا من الأدياء والكتّاب والشعراء ينهري لمباراته، ويحتري على مجاراته، فلما تصدى الهمداني لمساحلته وتعرض للتحكك به وجرت بينهما مكاتبات ومباهلات ومناظرات ومناضلات وأفضى السنان إلى العنان، وقرع النبع بالنبع، وغلب هذا قوم وذاك آخرون، وجرى من الترجيح بينهما ما يجري بين الخصمين المتحاكين، والقرنين المتصاوين، طار ذكر الهمداني في الآفاق، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء، وظهرت أمارات الإقبال على أموره، وأدّله أخلاف الرزق وأركبه أكثاف العز. وأجاب الخوارزمي داعي ربه نغلا الجول للهمداني وتصرفت به أحوال جميلة، وأسفار كثيرة، ولم يبق في بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها، وجنى ثمرتها، وأستفاد خيرها وميرها، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس إلا استمطر منه بنوء، وسرى معه في ضوء، ففاز برغائب النعم، وحصل على غرائب القسم، وألقى عصاه بهراة وأخذها دار قراره، وجمع أسبابه... وخار الله له في مصاهرة أبي علي الحسين بن محمد الخشنامي... فانتظمت أحوال أبي الفضل بصره، وتعرفت القرة في عينه، والقوة في ظهره، وأقنتي بمعونته ومشورته ضياعا فاخرة، وعاش عيشة راضية. وحين بلغ أشده وأربى على أربعين سنة ناداه الله فلباه، وفارق دنياه في سنة ٣٩٨ فقامت عليه نوادب الأدب، وأنشلم حد القلم... الخ^(٢).

(١) راجع ما حققناه من عدد المقامات في الجزء الأول ص ٢٠٦ - (٢) البيهقي ج ١ ص ١٦٧ - ٣٦٩

٣ - وقد نقلنا كلام الثعالبي على طوله لأنه يعطى صورة من طرائق كتاب القرن الرابع فى كتابة التراجم ، ولأن الثعالبي كان من معاصرى البديع ، ولأنه أعطانا فوائد تاريخية على قلة مايفعل ذلك ، فقد عرفنا أن البديع أنشأ المقامات فى نيسابور بعد أن حل بها سنة ٣٨٢ وعرفنا أنه ناظر الخوارزمى فى ذلك الحين ، وهذا يعين أن الخوارزمى مات سنة ٣٨٣ لا سنة ٣٩٣ كما توهم بعض من نقل عنهم ابن خلكان^(١) .

وتاريخ إنشاء المقامات الذى نص عليه الثعالبي ظاهر الصحة ، لأن البديع يذكر تواريخ سبقت ذلك ، كقوله فى المقالة القزوينية "غزوت الثغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين" .

٤ - أما المناظرة التى أشار اليها الثعالبي والتى أستفاض ذكرها فى كتب الأدب فقد حررها بديع الزمان بقلمه ، وهى وثيقة أدبية تمثل زهوه وأخلاقه ، وتبين تهافت الناس اذ ذاك على شهود المناظرات ، وكانت من الفنون الظاهرة فى القرن الرابع ، ومن أشهر من آهت بتدوين مناظرات ذلك العهد أبو حيان التوحيدي ، غير أن التوحيدي كان يهتم بتدوين المناظرات الفلسفية والفقهية .

ابتدأ بديع الزمان فحدثنا أن تقييد تلك المناظرة كان مما أقترح عليه ، وأنه سيسوق صدر حديثه مع الخوارزمى الى العجز ، كما يساق الماء الى الأرض الجُرُز . ثم قال بعد كلام فى الثناء على من وجه اليه الحديث :

"نعود للقصة نسوقها ، وأولها أنا وطئنا خراسان فما آخرتنا الا نيسابور دارا ، وإلا جوار السادة جوارا ، لا جرم أنا حططنا بها الرجل ، ومددنا عليها الطنب ، وقديما كنا نسمع بحديث هذا الفاضل فنتشوقه ، ونخبره على المغيب فتعشقه ، ونقدر أنا لو وطئنا أرضه ، ووردنا بلده ، يخرج لنا فى العشرة ، عن القشرة ، وفى المودة ، عن الجلدة ، فقد كانت لحمة الأدب جمعتنا ، وكلمة الغربة نظممتنا ، وقد قال شاعر العرب غير مدافع :

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

فأخلف ذلك الظن كل الإخلاف ، وأختلف ذلك التقدير كل الاختلاف ، وقد كان أتفق علينا في الطريق من العرب اتفاق ، لم يوجهه استحقاق ، من بزة بزوها ، وفضة فضوها ، وذهب ذهبوا به ، ووردنا نيسابور براحة أنقى من الراحة ، وكيس أخلى من جوف حماره ، وزى أوحش من طلعة المعلم^(١) بل أطلاعة الرقيب ، فما حللنا إلا قصبه جواره ، ولا وطئنا إلا عتبة داره . وهذا بعد رقعة كتبناها ، وأحوال أنس نظمناها . فلما أخذنا لحظ عينه سقانا الدردى من أول دمه ، وأجنانا سوء العشرة من باكورة فنه ، من طرف نظر بشطره ، وقيام دفع في صدره ، وصديق استهان بقدره ، وضيف استخف بأمره . لكنا أقطعناه جانب أخلاقه ، وقاربناه إذ جانب ، وواصلناه إذ جاذب ، وشربناه على كدورته ، ولبسناه على خشونته ، ورددنا الأمر في ذلك الى زى استغته ، ولباس أسرته ، وكاتبناه نستمد وداده ، ونسلس قياده ، ونستميل فؤاده ، ونقيم متآده .

هـ — وخلاصة ما سلف أن بديع الزمان بعد أن أعانه محمد بن منصور وأزاح علله في سفرته الى نيسابور خرج عليه اللصوص في الطريق — وهو يسميهم «العرب» — فسلبوا ما كان معه من فضة وذهب ودخل نيسابور على أسوأ حال ، وفكر عند وصوله في الاتصال بأبى بكر الخوارزمى ، ولكن الخوارزمى لم يكرم زيارته ، وظن بديع الزمان أن تلك الجفوة لم تكن إلا لأنه ورد في زى غث ، ولباس رث .

أما المراسلات التى سبقت المناظرة فهى خطاب من البديع وجواب من الخوارزمى .

ولننظر كيف بدأ البديع يغرس بذور الشحنة :

«الأستاذ أبو بكر — والله يطيل بقاءه ! — أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه آباط القلة ، فى أطار الغربية ، فأعمل فى رتبته أنواع المصارفة ، وفى الأهترأله أنواع المضايقة ، من إيماء بنصف الطرف ، وإشارة بشطر الكف ، ودفع فى صدر القيام ، عن التمام ،

(١) يريد أن طلعة المعلم توحش الطفل لأنها تنقله من اللعب الى الدرس ، ومعاذ الله أن تكون «طلعة المعلم وحشة»

ومضغ الكلام، وتكلف لرد السلام . وقد قبلت تربته صمرا، وأحتملته وزرا ، وأحتضنته
نكرا، وتأبطته شرا، ولم آله عذرا، فان المرء بالمال، وثياب الجلال، ولست مع هذه الحال،
وفي هذه الأشمال، أتقرز صف النعال، فلو صدقته العتاب ، وناقشته الحساب، لقلت
إن بوادينا ثاغية صباح، وراغية رواح، وناسا يحرون المطارف، ولا يمتعون المعارف .
وفيهـم مقاماتٌ حسان وجوههم وأنديةٌ ينتابها القول والفعل

ولو طوّحت بأبي بكر أيده الله طوائف الغربه ، لوجد مغنى البشر قريبا ، ومحط الرحل
رحيا، ووجه المضيف خصيبا . ووجه الأستاذ أبى بكر أيده الله فى الوقوف على هذا العتاب
الذى معناه ود، والمر الذى يتلوه شهد، موفقٌ أن شاء الله تعالى “ .

فأجاب الخوارزمي :

”وصلت رقعة سيدى ومولاي ورئيسى أطال الله بقاءه الى آخر السكاج ، وعرفت
ما تضمنه من خشن خطابه ، ومؤلم عتابه ، وصرفت ذلك منه الى الضجر الذى لا يخلو منه
من مسه عسر، ونبا به دهر، والحمد لله الذى جعلنى موضع أنسه، ومظنة مشتكى ما فى نفسه!
أما ماشكاه سيدى ورئيسى من مضايقتى إياه فى القيام فقد وفيته حقه أيده الله سلاما وقياما،
على قدر ما قدرت عليه، ووصلت إليه، ولم أرفع عليه الا السيد أبا البركات العلوى أدام الله
عزه، وما كنت لأرفع أحدا على من جدّه الرسول، وأمه البتول، وشاهداه التوراة والانجيل،
وانصراه التأويل والتزيل، والبشير به جبرائيل وميكائيل . فأما القوم الذين صدر سيدى
عنهم فكما وصف حسن عشرة ، وسداد طريقة، وكمال تفصيل وجملة، ولقد جاورتهم
فأحمدت المراد، ونلت المراد :

فان كنت قد فارقت نجدا وأهله فما عهد نجدٍ عندنا بذميم

والله يعلم نيتى للاخوان كافة، ولسيدى من بينهم خاصة، فان أعانى الدهر على ما فى نفسى
بلغت إليه ما فى الفكرة، وجاوزت مسافة القدرة ، وإن قطع على طريق عشتري بالمعارضة،
وسوء المؤاخذه، صرفت عنانى عن طريق الاختيار، بيد الاضطرار :

فما النفس إلا نطفة بقرارة إذا لم تكدر كان صفوا معينا

وبعد فبذا عتاب سيدى اذا أستوجبنا عتابا ، وأقترنا ذنبا ، فاما أن يسلفنا العريضة فنحن نصونه عن ذلك ونصون أنفسنا عن احتماله . ولست أسومه أن يقول استغفر لنا إنا كنا خاطئين ، ولكنى أسأله أن يقول لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .“

٦ — وبهذين الخطابين بدأت البغضاء ، وأتقطع بديع الزمان عن زيارة الخوارزمي « ومضى على ذلك الأسبوع ، ودبت الأيام ، ودرجت الليالى ، وتطاوت المدة » ومشى الواشون بالسوء ، ودعا ناس الى مناظرة تقوم بين الرجلين ، فتردد الخوارزمي وهش بديع الزمان ، ثم ركب الخوارزمي فى جمع من أصحابه وتلاميذه ، وبعد لحظات ابتدأ النضال ، ولنترك البديع يصف ذلك الموقف المشهود .

صورة المناظرة^(١)

”... فتركاه على غلوائه ، حتى إذا نفى ما فى رأسه ، وفرغ جعبة وسواسه ، عطفنا عليه فقلنا : يا عافاك الله ! دعوناك وغرضنا غير المهارشة ، وأسترناك وقصدنا غير المناوشة ، فلتهدأ ضلوعك ، وليفرخ روعك ، وما آجتمعا إلا لخير فلتسكن سورتك ، ولتان فورتك ، ولا ترقص لغير طرب ، ولا تم لغير سبب ! وإنما ذكرناك لتتلاءم المجلس فوائد ، وتذكر أبياتا شوارد ، وأمثالا فرائد ، ونباحثك فنسعد بما عندك ، وتسالنا فتسر بما عندنا ، ويقف كل واحد منا موقفه من صاحبه ، وقديما كنت أسمع بحديثك فيعجبني الالتقاء بك ، والاجتماع معك ، والآن إذ سهل الله ذلك فهلم الى الأدب ننفق يوما عليه ، وإلى الجدل نتجاذب طرفيه ،

(١) أثبتنا هذا الشاهد على طوله لطرافته ولدلالته على عقلية فريق من كتاب ذلك العهد ، ولينين كيف استطاعت اللغة المثقلة بالزخرف والسجع أن تؤدي نوعا من القصص فى تدوين المناظرات . وقد أسقطنا جزءا من صورة هذه الوثيقة الأدبية فرارا من الطويل .

فاسمع خيرا وأسمعنا مثله ، ولتبدأ بالفن الذى ملكت به زمانك ، وفقت به أقرانك ، وملكك به عنانك ، وأخذت منه مكانك ، فطار به آسماك بعد وقوعه ، وأرتفع له ذكرك عقب خضوعه ، وأخمت به الرجال حتى أذعن العالم ، وقلد الجاهل ... بخارنا بفرسك ، وجُد لنا بنفسك .

فقال : وما هو ؟

فقلت : الحفظ إن شئت ، والنظم إن أردت ، والنثر إن اخترت ، والبديهة إن نشطت .
فهذه أبوابك التى أنت فيها آبن دعواك ، تملأ منها فاك .

فأفحم عن الحفظ رأسا ، ولم يحل فى النثر قذحا . وقال :
أباهك .

فقلت : أنت وذاك !

فقال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليحيز . فقلت : يا هذا أنا أكفيك ، ثم تناولت جزأ فيه أشعاره وقلت لمن حضر :

هذا شعر أبى بكر الذى كد به طبعه ، وأسهر له جفنه ، وأجال فيه فكره ، وأنفق عليه عمره ، وأستنزف فيه يومه ، ودقونه فى صحيفة مآثره ، وجعله ترجمان محاسنه ، وعبر به عن باطنه ، وأخذ مكانه وهو ثلاثون بيتا ، وسأقرن كل بيت بوفقه ، وأنظم كل معنى الى لفقه ، بحيث أصيب أغراضه ، ولا أعيد ألفاظه ، وشريطتى أن لا أقطع النفس ، فان تهيا لواحد ، أو أمكن لناقد ، من حضر ، يريد النظر ، أن يميز قوله من قولى ، ويحكم على البيت أنه له أو لى ، أو يرجح ما نظمه بنار الروية ، على ما أملت على لسان النفس فله يد السبق ، أو يكون غيرها فإعفاء عن هذه المقاومة ، ويتنحى لنا عن أرض المائلة ، ويخلى الطريق لمن يبنى المنار به .

فقال أبو بكر : ما الذى يؤمننا من أن تكون نظمت من قبل ما تريد إنشاءه الان ؟

فقلت : اقترح لكل بيت قافية لا أسوقه إلا إليها ، ولا أقف به إلا عليها ، ومثال ذلك أن تقول (حشر) فأقول بيتا آخره (حشر) ثم (عشر) فأنظم بيتا قافيته (عشر) ثم هلم جرا الى حيث يتضح الحق ، ويفتضح الزرق^(١) ، وتستقر الحجّة ، وتستقل الشبهة ، وتتطرد فيعرف الحال من العاقل ، ويفرق بين الحق والباطل .

فأبى أبو بكر أن يشاركنا في هذا العنان ، ومال الى السيد أبي الحسين يسأله بيتا ليحيز فتبعنا رأييه فيما رآه ، ولم نرض إلا رضاه ، وأعمل كل منا لسانه وفمه ، وأخذ دواته وقلمه ، فأجرنا البيت الذي قاله ، وكلما أجزأه إجازة جارى القلم فيها الطبع ، وبارى اللسان بها السمع ، وسارق الخاطر بها الناظر ، وسابق الجنان بها البنان ، إذ قلنا :

هذا الأديب على تعسف فتكهِ	وبروكه عند القريض بركهِ ^(٢)
متسرع في كل ما يعتاده	من نظمه متباطئ عن تركهِ
والشعر أبعد مذهبا ومصاعدا	من أن يكون مطيعه في فكهِ
والنظم بحرٌ والخواطر معبرٌ	فانظر الى بحر القريض وفكهِ
ففتى تواني في القريض مقصر	عرّضت أذن الامتحان بعركهِ
هذا الشريف على تقدّم بيته	في المكرمات ورفعته في سمكهِ
قد رام منى أن أقارن مثله	وأنا القرين السوء إن لم أنكهِ ^(٣)
وإذا نظمت قصمت ظهر مناظري	وحطمت جارحة القرين بدكهِ
ودبغت منه أديمه وتركته	نهج الأديم بدبغه وبدكهِ
أصغو الى الشعر الذي نظّمته	كالدّر رصّع في مجرّة سلكهِ
ففتى عجزت عن القريض بديهة	فدمى الحرام له إراقة سفكهِ

وقال أبو بكر أبياتا جهدنا به أن يخرجها من الغلاف ، ويبرزها من الخاف ، فلم يفعل دون أن طواها وجعل يعركها ويفركها ، فقلت : إن البيت لقائله ، كالولد لناجله ، فما لك

نق (١) الزرق جمع أزرق ويراد به الأعمى . وفي القرآن (ونحشر المحرمين يومئذ زرقا) أى عميا .

(٢) البرك بفتح فسكون : الصدر . (٣) من النكابة وهى الإهانة .

تفق أبـنـک وتضـمـیـه ؟ أبرـزها للـعیـون ، وخلصـها من الظنـون . فـکره أبو بـکر أیدـه الله أن تـکون
الهـزـة أعـقل منه لأنـها تـحـدث فتـغـطـی ، فلم یـسـتـجـری أن یـظـهـر ثم مـسـح جـبـیـنه وبـسـط یـمـیـنه
للـبـدیـه نفـسا دون أن یـکـتـب . فـقـلنا : أنت وذاك . وأقـترـح علینا أن نـقـول علی وزن قول
أبی الطـیـب المـتـنـبی حیث یقول :

أرق علی أرق ومثلی یأرق وجـوی یزید وعـبـرة تـفـرق
وآبـتـدر أبو بـکر أیدـه الله الی الإجازة ولم یزل الی الغایات سباقا فـقال :
وإذا آبتـدهت بـدیـه یا سـیـدی فأـراک عـنـد بـدیـهـی تـتـقـلـق
وإذا قـرضت الشـعر فی مـیدانـه لا شـک أنـک یا أنـحـی تـشـقـق
إنی إذا قـلت البـدیـه قـلتـها عـجـلا وطـبـعک عـنـد طـبـعی یـرتـق
مـالی أراک ولست مثـلی عـنـدها مـتـوـها بالـترهات تـمـخـرق
إنی أجـیز علی البـدیـه مثـل ما تـریانـه وإذا نـطـقت أصـدق
لو کنت من صـخـیر أصـم لهـالـه منی البـدیـه وأغـتـدی یـتـفـلـق
أو کنت لیثا فی البـدیـه خادرا لرئیت یا مـسـکین منی تـفـرـق
وبـدیـه قد قـلتـها مـتـنـفـسا فـعل الذی قد قـلت یا ذا الأخرق

ثم وقـف یـعـتـذـر ویقول : إن هـذا کما یـحـی لا کما یـجـب . فـقلت : قـبل الله عـذـرک لکنی
أراک بین قـواف مـکـروهة وقافات خـشـنة کل قاف بـکـیل قاف ، منها تـتـقـلـق وتـشـقـق وتـمـخـرق
وتـخـرق وتـطـلـق وتـعـلـق وتـسـرق وتـفـرق وأحـق وأخری الی أشیاء لا أکـثـر بها العـدد ، نـخذ الآن
جـزاء عـن قـرضک ، وأداء لـفـرضک ، وقلت :

مـهـلا أبا بـکر فـزـندک أضـیق فـانـحـرس فإن أخاک حی یرـزق
دعنی أعـرک إذا سـکت سـلامـة فـالقول یـنـجـد فی ذوبک ویـعـرق
ولفـاتک فـتـکات سوء فیکـم فدع السـتـور وراـءها لا تـخـرق
وأنـظـر لـأشـنع ما أقول وأدعی أله الی أعـراضک مـتـسـلـق
یا أحـمـقا وكـفـاک ذلک نـزـیة جـربت نار مـعـرقتی هـل تـحـرق

فلما أصابه حر الكلام، ومسه لفتح هذا النظام، قطع علينا فقال : يا أحمق لا يجوز فإن
أحمق لا ينصرف . فقلنا : يا هذا لا تقطع فإن شعرك إن لم يكن عيبة عيب فليس بظرف ظرف،
ولو شئنا لقطعنا عليك، ولوجد الطعن سيلا اليك . وأما أحمق فلا يزال يصفعك لتصفعه
حتى ينصرف وتنصرف معه ! وعرفناه أن للشاعر أن يرد ما لا ينصرف الى الصرف، كما أن له
رأيه في القصر والحذف، وأنشدناه حاضر الوقت من أشعار العرب فقال : يجوز للعرب ما لا
يجوز لك . فلم يدر كيف يجيب عن هذا الموقف وهذه المواقفة، وكيف يسلم من هذه
المصارفة، لكنا قلنا : أخبرنا عن بيتك الأول أمدحت أم قدحت، وزكيت أم جرحت ؟
ففيه شيان متفاوتان، ومعنيان متباينان، منها أنك بدأت نخطبت بيا سيدي، والثانية أنك
عطفت فقلت تنقلب وهما لا يركضان في حلبة ولا يخطان في خطة . ثم قلت له : خذ وزنا
من الشعر حتى أسكت عليك فتستوفي من القول حظك وأسكت علينا حتى نستوفي حظنا،
ثم إنني أحفظ عليك أنفاسك وأوافقك عليها وأحفظ على أنفاسي ووافقني عليها فإن عجزت عن
اختلافها حفظتها لك، فسألني عنها بعد ذلك . وأخذنا بيت أبي الطيب المتنبي :

أهلا بدار سبالك أغيدها أبعد ما بان عنك نحردها

فقلت :

يا نعمة لا تزال تجحدها ومنة لا تزال تكندها

فأخذ بنحني البيت قبل تمامه، ومضيق الشعر قبل نظامه، فقال : ما معنى تكندها ؟
فقلت : يا هذا، كند النعمة كفرها . فرفع يديه ورأسه وقال : معاذ الله بأن يكون كند بمعنى
بحمد، وإنما الكنود القليل الخير . فأقبلت الجماعة عليه يوسعونه بريا وفريا ويتلون له قول
الله تعالى (إن الإنسان لربه لكنود) وقلت له : أليس الشرط أملك؟ والعهد بيننا أن تسكت
ونسكت حتى تم وتم، ثم نبحث ونفحص، فنبد الأدب وراء ظهره وصار الى السخف يكلنا
بصاعه ومده، وينفض فيه حمة جهده، وأفضى الى السفه يغرف علينا غرفا، ويستقي من
جرفه جرفا . فقلت : يا هذا إن الأدب غير سوء الأدب وللناظرة حضرا لا للنافرة، فان
نفضت من هذا السخف يدك، وثبتت عن هذا السفه قصدك، وإلا تركت مكالمتك. ولو كان

في باب الاستخفاف شيء أعظم من الاحتقار، وإنكار أبلغ من ترك الإنكار، بلغته منك . فأخذ يمشي على غُلُوّائه ، ويمعن في هرائه وهذائه . فاستندت الى المسند ، ووضعت اليد على اليد ، وقلت استغفر الله من مقالتي ونقضتها قائمة معه . وسكت حتى عرف الناس ، وأيقن الجلاس ، أني أملك من نفسي ما لا يملكه ، وأملك من طريق الحلم ما لا يسلكه ، ثم عطفت عليه وقلت : يا أبا بكر إن الحاضرين قد عجبوا من حلمي ، وتعجبوا من فضلي ، وبقى الآن أن يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عي ، وأن تكلفى للسفه أشد استمرارا من طبعك ، وغربي في السخف أمتن عودا من نبعك ، وستقرع باب السخف معك ، ونفترع من ظهر السفه مفترعك . فتكلم الآن . فقال لي : أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همذان مع قلته فما الذي أفدت أنت بعقلك مع غزارته ؟ فقلت أما قولك أهل همذان فما أولاني أن أجيب عنه ولكن هذا الذي نمدح به وتبجح وتشرف وتتصلف من أنك شحذت فأخذت ، وسألت فحصلت ، وأجسدت فأقتنيت ، فهذا عندنا صفة ذم يا عافاك الله ! ولأن يقال للرجل يا فاعل يا صانع أحب إليه من أن يقال يا شحاذ ويا مكدي ! وقد صدقت ، أنت في هذه الحلبة أسبق ، وفي هذه الحرفة أعرق ، ولعمرك أنت أشحذ ، وفي الكدية أنفذ ، وأنا قريب العهد بهذه الصنعة ، حديث الورد لهذه الشرعة ، مرمل السيد في هذه الرقعة . فأما مالك فعندنا يهودي يماثلك في مذهبه ، ويزيدك بذهبه ، ومع ذلك لا يطرقي إلا بعين الرهبة ، ولا يمد إلى إلا يد الرغبة ، ولو كان الغنى حظا لأخطأه مثل هذا العقل ، ولو كان المال غنما لما أدرك بهذا السعي . ولكن عرفني هل كنت فيما سلف من زمانك ، ونبت من أسنانك ، إلا هاربا بذمائك ، مضرجا بدمائك ، مرتهنا بقولك بين وجنة موشومة ، وجوارح مهشومة ، ودار مهدومة ، وخدود ملطومة . ومتى صفت مشارعك ، وأخصبت مرابعك ، إلا في هذه الأيام القذرة ؟ وستعرف غدك من بعد ، وتنكر أمسك ، وتعلم قدرك في غد ، وتعرف نفسك . وما أضيع وقتا أنطقته بذكرك ، ولسانا دنسته باسمك ! وملت الى القوال فقلت أسمعنا خيرا فدفع القوال وغنى أبياتا منها :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم في الخلد الرقيق

فقال أبو بكر : أحسن ما في الأمر أنى أحفظ هذه القصيدة وهو لا يعرفها، فقلت :
يا عافاك الله أعرفها وإن أنشدتكها ساءك مسموعها، ولم يسرك مصنوعها، فقال : أنشد !
فقلت : أنشد ولكن روايتي تخالف هذه الرواية وأنشدت :
وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم في الوجه الصفيق

فأنته السكتة، وأخبرته النكتة، وأنطقات تلك الوقدة، وأنحلت تلك العقدة. وأطرق مليا
وقال : والله لأضربنك وإن ضربت، ولأشمتنك وإن شمتت، ولتلعنن نبأه بعد حين، ولتلعنن
أينا الضارب وأينا المضروب ! فقلت : يا أبا بكر مهلا فانك بين ثلاثة فصول لم تتخطها من عمرك
وثلاث أحوال لم تتعدها في أمرك، وأنت في جميع الثلاثة ظالم في وعيدك، متعدي في تهديدك،
لأنك كهل وأنت شاعر، وكنت شابا وأنت مقامر، وكنت صبيا وأنت مؤاجر، فنطاق القدرة
في الفصول الثلاثة ضيق عن هذا الوعيد، لكنا نصفعلك الآن وتضربنا فيما بعد، فقد قيل اليوم
قصف، وغدا خسف، وقيل اليوم نحر، وغدا أمر ! فقال أبو بكر والله لو دخلت الجنة،
واتخذت السندس والإستبرق جنة، لصفعت ! فقلت : والله لو أن قفاك غدا في درج في خرج
في برج لأخذك من النعال ما قدم وما حدث، وشملك من الصفع ما طاب وخبت، وأنشدت
قول ابن الرومي :

إن كان شيئا سفيها يفوق كل سفيه
فقد أصاب شبيها له وفوق الشبيه

ثم لما آتت نفس العقل وزال سكر الغيظ تمثلت بقول القائل :

وأنزلى طول النوى دار غربة إذا شئت لا قيت أمرا لا أشاكه
أحامقه حتى يقال سجيبة ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ودفع القوال فبدأ بأبيات، ولحن بأصوات، وجعل النعاس يثني الرؤوس، ويمنع
الجلوس، فقمنا عن الليل وهو يحمره مائل الذقن الى ما وطئ من مضجع، ومهد من مهجع،
ولم يكن النوم ملء الحفون، ولا شغل العيون، حتى أقبل وفد الصباح، وحيل المؤذن بالفلاح،

ونذب الى النهوض، بالمفروض، فأجبنا . فلما قضينا الفرض، فارقنا الأرض، فأوى الى أم
 مشواه وأويت الى الحجر وظنى أن هذا الفاضل يأكل يده ندما، ويبكى على ما جرى دما ودما،
 فانه إذا سمع بمحدث همدان قال : الهاء هم والميم موت، والذال ذل ، والألف آفة، والنون
 ندامة، وأنه إذا نام هاله منا طيف، وإذا آتبه راعه منا سيف، وأخذ الناس يترامزون بما
 جرى ويتغامزون، وراب هذا الفاضل غمزاتهم مثل ماراب المريض تغامز العواد فجعل
 يحلف للناس بالعق، وتحير الرق، والمكتوب فى الرق، إنه أخذ قصب السبق، وإنه ينطق
 عن الحق، والناس أكياس لا يقنعهم عن المدعى يمين دون شاهدين ! وسعوا بيننا بالصلح
 يحكمون قواعده ومعاقده، وعرفنا له فضل السن فقصدناه معتذرين اليه فأومأ بإيماء مهيضة،
 وأهترأهتازة مغيضة، وأشار إشارة مريضة، بكف سحبها على الهواء سحبا، وبسطها فى الحق
 بسطا، وعلمنا أن للقمور أن يستخف ويستبين، وللقامر أن يحتمل ويلين، فقلنا إن بعد
 الكدر صفوا ، كما أن عقب المطر صحوا، فهل لك فى أخلاق فى العشرة نستأنفها، وطرق
 فى الخلطة نسلكها، فان ثمرة الخلاف ماقد بلوتها؟ فقال ظهر الوفاق لفظا كما ذكرت، والجمل
 أجمل كما علمت، وسنشترك هذا العنان. وعرض علينا الإقامة عنده سحابة ذلك اليوم، فاعتلنا
 بالصوم، فلم يقبل العذر وألح فقلت : أنت وذاك فطعمنا عنده، وأخذنا دندنا مزده ،
 وخرجنا والنية على الجليل موفورة، وبقعة الود معمورة، وصرنا لا نتعلل إلا بمدحه، ولا نتنقل
 إلا بذكره، ولا نعتد إلا بوده، لا بل ملائنا البلد شكرا، والأسماع نشرا، وبتنا نحن من الحال
 فى أعذبا شرعة ، ومن الثقة فى أطيبها جرعة ، ومن الظنون فى أملحها فرعة، ومن المودة
 فى أعزها بقعة، وأوسعها رقعة، حتى طرأ علينا رسولان متحملان لمقاتته، مؤديان لرسالته ،
 ذاكران أن أبا بكر يقول قد تواترت الأخبار، ونظاھرت الآثار، فى أنك قُهرت وأنى قُهرت
 ولا شك أن ذلك التواتر عنك صدرت أوائله . والخبر إذا تواتر به النقل، قبله العقل. ولا بد
 أن نجتمع فى مجلس بعض الرؤساء فنتناظر بمشهد الخاصة والعامة، فانك متى لم تفعل ذلك
 لم آمن عليك تلامذتى أو تقر بعجزك وقصورك عن بلوغك أمدى وما أبدى . فعجبت كل
 العجب مما سمعت، وأجبتة فقلت : أما قولك قد تواتر الخبر بأنك قُهرت وأن ذلك عن

جهتي صدر ومن لسانى سمع فبالله ما أتمدح بقهرك ، ولا أتجبح بقسرك . وإن لذهفسك عندك
لشأنا إن ظننتنى أقف هذا الموقف ، أنا ان شاء الله تعالى أبعد مرتقى همة ومصعد نفس
أسأل الله سترًا يمتد ووجهها لايسود ! فأما التواتر من الناس والتظاهر على أنى قهرتك فلو قدرت
على الناس لخطت أفواههم ، ولقبضت شفاههم ، فما الحيلة وهل الى ذلك سبيل فأتوصل ،
أم ذريعة فأتوصل ؟ ثم هذا التواتر ، ثمرة ذلك التناظر ، مع ذلك التستار ، فان كان قد ساءك
فأحرى أن يسوءك عند مجتمع الناس ومحتفل أولى الفضل ، ولأن يترك الأمر مختلفًا فيه خير
لك من أن يتفق عليه . وإن أحببت أن تطير هذا الواقع وتهيج هذا الساكن فأريك موقفا .
فأما هذا الوعيد فقد عرضته على جوانحي أجمع وجوارحي كلها فلم تنشد الا بيت الغائل :
وعيدٌ تخرج الآرام منه وتكره نية الغم الذائب

فكم تتكوكب تلامذتك ويتعسكرون ، ويتجيش أصحابك ويتجمعون ، ولست أراك إلا بين
ثنتين : إحداهما تروح الى أثى وتغرد الى طفل ، والأخرى تجيب دعوة المضطر إذا دعاك
بمسلفات . فان كان الله قد قضى أن القتل بأخس السلاح ، فلا مفتر من القدر المتاح ، رزقنا الله
عقلا به نعيش ! ونعوذ بالله من رأى بنا بطيش ! وقلنا من بعد إن رسالتك هذه وردت موردا
لم نحتسبه ، ووصلت موقفا لم نرتقبه ، فلذلك خرج الجواب عن البصل ثوما ، وعن البخل
لوما . فلما ورد الجواب عليه وسع من الغيظ فوق ملئه ، وحمل من الحقد فوق عبئه ، وقال :
قد بلغ السيل الزبا ، وعلت الوهاد الربا ، فى أمرك . وسترى فى يومك ، وتعرف فى قومك !
ثم مضت على ذلك أيام ونحن منتظرون لفاضل ينشط لهذا الفصل ، وينظر بيننا بالعدل ،
فاتفقت الآراء على أن يعقد هذا المجلس فى دار الشيخ أبى القاسم الوزير وأستدعيت فسرحت
الطرف من ذلك السيد فى عالم أفرغ فى عالم وملك فى درع ملك ورجل نظم الى التنبل تبذلا
والى الترفع تواضعا ، ونطق فودت الأعضاء لو أنها أسمع مصغية وآستمع فتمنت الجوارح
لو أنها ألسن ناطقة فقلت : الحمد لله أن عقد هذا المجلس فى دار من يفرق بين من يُحق ومن
يزرُق^(١) وكنت أول من حضر وانتظرت مليا حضور من ينظر وقدم من يناظر ، وطلع الإمام

(١) من زرق الطائر اذا أخرج ما فى أمعائه .

أبو الطيب وأخذ من المجلس موضعه، والامام أبو الطيب بنفسه أمة ووحده عالم . ثم حضر السيد أبو الحسين وهو ابن الرسالة والإمامة ، وعامر أرض الوحي والمحتجب بفناء النبوة والضارب في الأدب بعرقه ، وفي النطق بحذقه، وفي الإنصاف بحسن خلقه ، فحشم الى المجلس قَدَم سيفه وجعل يضرب عن هذا الفاضل بسيفين لأمر كان قد موّه عليه ، وحديث كان شبه لديه ، وفطنت لذلك فقلت : أيها السيد أنا إذا سار غيري في التشيع برجلين ، طرت بجناحين ، وإذا متّ سواي في موالاة أهل البيت باللمحة دالة توسلت بغرة لائحة ، فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يحملك على ترك الواجب . ثم إن لي في آل الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد قد نظمت حاشيتي البر والبحر، وركبت الأفواه، ووردت المياه، وسارت في البلاد، ولم تسر زاد ، وطارت في الآفاق، ولم تسر على ساق ، ولكني أتسوق بها لديكم ولا أتفق بها عليكم ، ولا آخرة قلتها لا للحاضرة، وللدين أدخرتها لا للدنيا . فقال أنشدني بعضها فقلت :

يا لمةً ضرب الزما	ن على مُعرّسها خيامه
لله درك من نُخزا	مى روضة عادت ثغامه
لرزية قامت بها	للدين أشرط القيامه
لمضرج بدم النبؤ	ة ضارب بيد الإمامه
متقسم بظبا السيو	ف مجرّع منها حمامه
مُنْع الورود وماؤه	منه على طَرف الثمامه
نصب آبن هند رأسه	فوق الورى نصب العلامه
ومقبّل كان النبيُّ	بليثمه يشفى غرامه
قرع آبن هند بالقضيب	عذابه فرط أستضامه
وشدا بنغمته عليه	له وصبّ بالفضلات جامه
والدين أبلج ساطع	والعدل ذو خال وشامه
يا ويح من ولى الحكّما	ب قفاه والدينأ أمامه
ليضرسن يد النداء	مة حين لا تغنى الندامه

وليدركن على الغرامه مة سوء عاقبه الغرامه
وحى أباح بنو أميه مة من طوائلهم حرامه
حتى آشتفوا من يوم بد ر وأستبدوا بالزعامه
لعنوا أمير المؤمنين بن بمثل إعلان الإقامه
لم لا تخرى يا سمي ء ولم تصبي يا غمامه
لم لا تزولى يا جبا ل ولم تشولى يا نعامه
يا لعنة صارت على أعناقهم طوق الحمامه
إن العمامه لم تكن للئيم ما تحت العمامه
من سبط هند وآبئها دون البتول ولا كرامه
يا عين جودى للبقه ع وزرعى بدم رغامه
جودى بمذخور الدمو ع وأرسلى بددا نظامه
جودى بمكنون الدمو ع أجذب بما جاد ابن مامه

فلما أنشدت ما أنشدت، وسردت ما سردت. وكشفت له الحال فيما اعتقدت، انحلت له العقدة وصار سلما يوسعنا حلما. وحضر بعد ذلك الشيخ أبو عمر البسطامي وناهيك من حاكم يفصل، وناظر يعدل، يسمع قيفهم، ويقول فيعلم. ثم حضر بعد ذلك القاضي أبو نصر والأدب أدنى فضائله، وأيسر فواضله، والعدل شمية من شيمه، والصدق مقتضى هممه. وحضر بعده الشيخ أبو سعيد محمد بن ارمك أيده الله وهو الرجل الذى يحبه للأؤوه ولودعيته من أن يذال بمن أو ممن الرجل، وهو الفاضل الذى يحطب فى جبل الكتابة ما شاء، ويركض فى حلبة العلم ما أراد. وحضر بعده أبو القاسم بن حبيب وله فى الأدب عينه وفِاره، وفى العلم شعلته وناره. وحضره بعده الفقيه أبو الهيثم ورائد الفضل يقدمه، وقائد العقل يخدمه. وحضر بعده الشيخ أبو نصر بن المرزبان والفضل منه بدأ واليه يعود. وحضر بعده أصحاب الإمام أبي الطيب الأستاذ أيده الله.

”وما منهم إلا أغر نجيب“ .

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ الفاضل أبي الحسن الماسرجسي :

”وكل إذا عدّ الرجال مقدّم“

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ أبي عمر البسطامي وهم في الفضل كأسنان المشط ومنه بأعلى مناط العقْد . وحضر بعدهم الشيخ أبو سعيد الهمداني وله في الفضل قدحه المعلى ، وفي الأدب حظه الأعلى . وحضر بعد الجماعة أصحاب الأسبلة المسبلة ، والأسوكة المرسلة ، رجال يلعن بعضهم بعضا فصاروا الى قلب المجلس وصدره حتى رد كيدهم في نحرهم وأقيموا بالنعال الى صف النعال، فقلت لمن حضر : من هؤلاء؟ فقالوا : أصحاب الخوارزمي، فلما أخذ المجلس زخرفه من حضر ، وانتظر أبو بكر فتأخر، اقترحوا على قوافي أثبتوها واقترحات كانوا يبتوها، فما ظنك بالخلفاء أدنيت لها النار من لفظ الى المعنى نسقته ، وبيت الى القافية سقته ، على ريق لم أبلعه ، ونفس لم أقطعه ، وصار الحاضرون بين إعجاب بما أوردت ، وتعجب مما أنشدت . وقال أحدهم بل أوحدهم وهو الإمام أبو الطيب لن يؤمن لك حتى نقترح القوافي ونعين المعاني وننص على بحر فإن قلت حينئذ على الروي الذي أسومه ، وذكرت المعنى الذي أرومه ، فأنت حى القلب كما عهدناك ، منشرح الصدر كما شاهدناك ، شجاع الطبع كما وجدناك ، وشهدنا أنك قد أحسنت ، وأن لافقى إلا أنت . فما خرجت من عهدة هذا التكليف حتى أرتفعت الأصوات بالهيللة من جانب والحوقلة من آخر وتعجبوا إذ أرتهم الأيام، ما لم ترهم الأحلام، وجادهم العيان بما يخل به السماع، وأنجزهم الفهم ما خلفهم الوهم، ثم التفت فوجدت الأعناق تلتفت وما شعرت إلا بهذا الفاضل وقد طلع في شملته وهب بجملته ، بأوداج ما يسعها الزران، وعينين في رأسه ترران، ومشى الى فوق أعناق الناس وجعل يدس نفسه بين الصدور يريد الصدر وقد أخذ المجلس أهله فقلت : يا أبا بكر تترشح عن الصدر قليلا الى مقابلة أخيك . فقال : لست برب الدار، فتأمر على الزوار ! فقلت : يا عافاك الله حضرت لتناظرني والمناظرة آشتقت إما من النظر أو من النظر، فإن كان

اشتقاقها من النظر فمن حسن النظر أن يكون مقعدنا واحداً حتى يتبين الفاضل من المفضل
ثم يتناول السابق ويتقاصر المسبوق . فقصت الجماعة بما قضيت ، وغص هذا الفاضل
من تلك الحكمة ، وأنحط عن تلك العظمة ، وقابلني بوجهه فقلت : أراك أيها الفاضل
حريصاً على اللقاء ، سريعاً إلى الهجاء .

”ولو زينتك الحرب لم تترمرم“ .

ففي أي علم تريد أن نتناظر؟ فأومأ إلى النحو، فقلت : يا هذا إن اليوم قد مَتَّعَ ، والنهار قد
أرتفع ، والظهر قد أزف ، ولئن قرعنا باب النحو أضعنا اليوم فيه ، فبما ذا يخرج الناس ، فعلاهتاف
الناس أيهما رد الجواب هناك ما يدرى المحيب . فإن شئت أن أناظرك في النحو فسلم الآنلى
ما كنت تدعيه من سرعة في البديهة وجودة في الروية ، وقدرة على الحفظ ونفاذ في الترسل .
ثم أنا أجاريك في هذا ، فقال : لا أسلم ذلك ولا أناظر في غير هذا ، وأرتفعت المضاجعة
وآستمرت الملاحاة حتى بلغ الأستاذ الفاضل أبو عمر إليه فقال : أيها الأستاذ انت أديب
نحاسان وشيخ هذه الديار وبهذه الأبواب التي قد عدها هذا الشاب ، كنا نعتقد لك السبق
والحدق ، وتناقلك عن مجاراته فيها مما يتهم ويوهم ، وأضطره الى منازلة أو نزول عنها
ومقاراة فيها أو إقرار بها . فقال : سلمت الحفظ ، فأنشدت قول القائل :

ومستلثم كشفت بالريح ذيله أقمت بعضب ذى شقاشق ميله

بجعت به في ملتقى الحى خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله

وقلت : يا أبا بكر خفف الله عنا في الحفظ فقد كفيتنا مؤونة الامتحان ، ولم نضع وقتاً من
الزمان ، فلو تفضلت وسلمت البديهة أيضاً مع الترسل حتى نفرغ للنحو الذى أنت عليه أكبر
واللغة التى أنت بها أعرف والعروض الذى أنت عليه أجراً ، والأمثال التى لك فيها السبق والقدم
والأشعار التى أنت فيها تقدم ، فقال : ما كنت لأسلم الترسل ولا سلمت الحفظ ، فقلت :
الراجع في شئيه ، كالراجع في قيته ، لكنا نقيلك عن ذلك السماح فهات أنشدنا خمسين بيتاً من
قبلك مرتين حتى أنشدك عشرين بيتاً من قبلى عشرين مرة ، فعلم أن دون ذلك خرط القتاد

تهاب شوكتها اليد فسلمه ثانياً، كما سلمه بادياً، وصرنا الى البديهة، فقال أحد الحاضرين هاتوا على شعر أبي الشيص في قوله :

أبقى الزمان به ندوب عِضاَضٍ ورعى سواد قرونه بيباضٍ

فأخذ أبو بكر يخفضه، ويحصد، مقدراً أنا نغفل عن أنفاسه، أو نوليه جانب وسواسه ، ولم يعلم أنا نحفظ عليه الكلم ثم نوافقه عليها، فقال :

يا قاضيا ما مثله من قاضٍ أنا بالذى تقضى علينا راضٍ
فلقد لبست ضفية مالمومة من نسج ذاك البارق الفضفاض
لا تغضبني إذا نظمت تنفسا إن الغضا في مثل ذاك تغاض
فلقد بليت بشاعر متقادر ولقد بليت بنباب ذئب غاض
ولقد قرضت الشعر فاسمع وأستمع لنشيد شعر طائعا وقراض
فلا تغلبن بديهة بديتي ولأرمرت سواده بيباض

فقلت : يا أبا بكر ما معنى قولك ضفية مالمومة وما الذى أردت بالبارق الفضفاض فأنكر أن يكون قاله قافية ، فواقفه على ذلك أهل المجلس وقالوا : قد قلت ! ثم قلت : فما معنى قولك ذئب غاض ؟ فقال : هو الذى يأكل الغضا، فقلت : استنوق الجمل يا أبا بكر وأنتقلت القوس ركوة وصار الذئب جملا يأكل الغضا، فما معنى قولك إن الغضا في مثل ذاك تغاض فإن الغضا لا أعرفه بمعنى الإغضاء، فقال : لم أقل الغضا ، فقلت : ما قلت ؟ فأنكر البيت جملة، فقلت : يا ويحك ما أغناك عن بيت تهرب منه وهو يتبعك، وتبترأ منه وهو يلحق بك فقل لى : ما معنى قراض فلم أسمعه مصدرا من قرضت الشعر ولكن هلا قلت كما قلت وسقت الحشو الى القافية كما سقته ؟ فقال : هذه طريقة لم تسلكها العرب فلا أسلكها . ثم دخل الرئيس أبو جعفر والقاضى أبو بكر الحربى والشيخ أبو زكريا الخيرى وطبقة من الأفاضل مع عدة من الأراذل فيهم أبو رشيدة، فقلت : ما أحوج هذه الجماعة الى واحد يصرف عنهم عين

(١) الكمال! وأخذ الرئيس مكانه من الصدر والدست وله في الفضل قدم وقدم وفي الأدب هم وهم وفي العلم قديم وحديث فقم المجلس وظهر الحق بنظره وقال : قد أدعيت عليه أبياتا أنكرها فدعوني من البديهة على النفس وأكتبوا ما تقولون وقولوا على هذه ، فقلت :

برز الربيع لنا برونق مائه	فانظر لروعة أرضه وسمائه
فالترب بين ممسك ومعتبر	من نوره بل مائه وروائه
والماء بين مصندل ومكفر	في حسن كدرته ولون صفائه
والطير مثل المحصنات صواح	مثل المغنى شاديا بغنائه
والورد ليس بممسك رياه إذ	يهدى لنا نفحاته من مائه
زمن الربيع جلبت أزكى متجر	وجلوت للرئين خير جلائه
فكانه هذا الرئيس إذا بدا	في خلقه وصفائه وعطائه
بجى أعز محجر وندى أغر	محجل في خلقه ووفائه
يعشوا اليه المحتوى والمجتدى	والمحتوى هو هارب بدمائه
ما البحر في تزخاره والغيث في	إمطاره والجو في أنوائه
بأجل منه مواهباً وרגائباً	لا زال هذا المجد حالف فنائه
والسادة الباقون سادة عصرهم	متمدحون بمدحه وشائنه

فقال أبو بكر تسعة أبيات قد غابت عن حفظنا لكنه جمع فيها بين إقواء وإكفاء ، وإبطاء ، فرددنا عليه بعد ذلك عشرين رداً ونقدنا عليه فيها كذا نقداً ، ثم قالت لمن حضر من وزير ورئيس وفتية وأديب : أرايتم لو أن رجلاً حالف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعراً قط ثم أنشد هذه الأبيات فقط هل كنتم تطلقون أمراًته عليه ؟ ! فقالت الجماعة : لا يقع بهذا طلاق ! ثم قلت : آنقد على فيما نظمت ، وأحكم عليه كما حكمت . فأخذ الأبيات وقال : لا يقال نظرت لكذا وإنما يقال : نظرت إليه ، فكففتي الجماعة إجابته ، ثم قال : شبهت الطير

(١) تهكم يذكر بقول الشاعر :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العيبين

بالمحصنات وأى شبه بينهما؟ فقلت : يا رقيع ، إذا جاء الربيع ، كانت شواذى الأطيار ،
تحت ورق الأشجار، فيكنّ كأنهنّ المخدرات تحت الأستار . ثم قال لى : لم قلت مثل المحصنات
مثل المغنى، فقلت : هن فى الخدر كالمحصنات وكالمغنى فى ترجيع الأصوات . ثم قال : لم قلت
زمن الربيع جلبت أزكى متجر وهلا قلت أربح متجر؟ فقلت : ليس الربيع بتاجر يحلب
البضائع المربحة . ثم قال : ما معنى قولك الغيث فى إمطاره والغيث هو المطر نفسه فكيف يكون
له مطر؟ فقلت : لا سقى الله الغيث أدبياً لا يعرف الغيث ! وقلت له : إن الغيث هو المطر وهو
السحاب كما أن السماء هو المطر وهو السحاب . وقال الجماعة : قد علمنا أى الرجلين أشعر ،
وأى الخصمين أقدر ، وأى البديهتين أسرع ، وأى الرويتين أصنع . فقال أبو بكر : فأسقوني
على الظفر . فقالوا : كفالك ما سقاك ! ثم ملنا الى الترسل ، فقلت : أقترح على غاية ما فى طوقك ،
ونهاية ما فى وسعك ، وأختر ما تبلغه بذرعك حتى أقترح عليك أربعمائة صنف فى الترسل
فإن سرت فيها برجلين ولم أطر بجنّاحين ، بل إن أحسنت القيام بواحد من هذه الأصناف
ولم تخاف كل الإخلاف فلك يد السبق وقصبة ومثال ذلك أن قول لك : اكتب كتاباً يقرأ
منه جوابه هل يملك أن تكتب؟ أو أقول لك : اكتب كتاباً على المعنى الذى أقترح لك وأنظم
شعراً فى المعنى الذى أقترح وأفرد منهما فراغاً واحداً ، هل كنت تمد له ساعداً؟ أو أقول لك
اكتب كتاباً فى المعنى الذى أقول وأنص عليه ، وأنشد من القصائد ما أريده من غير تناقل
ولا تغافل حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره الى أوله وانتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله ،
هل كنت تفوق لهذا الغرض سهماً ، أو تحيل قدحاً ، أو تصيب نجحاً؟ أو قلت لك : اكتب
كتاباً إذا قرئ من أوله الى آخره كان كتاباً ، فإن عكست سطره مخالفة كان جواباً . هل كنت
فى هذا العمل وارى الزند ، قاصد القصد؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً فى المعنى الذى يقترح
ولا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عن الكلمة بدئية ولا يجمع
فيها قلبك ، هل كنت تفعل؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً خالياً من الألف واللام تصب
معانيه على قالب ألفاظه ولا تخرجه عن جهة أغراضه ، هل كنت تقف من ذلك موقفاً
مدوحاً أو يبعثك ربك مقاماً محموداً؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً يخلو من الحروف العواطل ،

هل كنت تحظى منه بطائل، أو تبلى لهاتك بناطل؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً أوائل سطورهِ كلها ميم وآخرها جيم، على المعنى الذى يقترح، هل كنت تغلو فى قوسه غلوة، أو تخطو فى أرضه خطوة؟ أو أقول لك : اكتب كتاباً إذا قرئ معرجاً وسرد معوجاً كان شعراً هل كنت تقطّع فى ذلك شعراً؟ بلى والله تصيب ولكن من بدنك، وتقطع ولكن من ذقنك! أو أقول لك : اكتب كتاباً إذا فسر على وجهه كان مدحاً وإذا فسر على وجهه كان قدحاً. هل كنت تخرج من هذه العهدة؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً إذا كتبه تكون قد حفظته، من دون أن لحظته، هل كنت تثق من نفسك به الى مالا أطاولك بعده، بل آست البائن أعلم؟! فقال أبو بكر هذه الأبواب شعبذة، فقلت : وهذا القول طرمذة! فما الذى تحسن أنت من الكتابة وفنونها، حتى أباحثك على مكنونها، وأكاثرك بمخزونها، وأشبر فيها قلمك، وأسبر فيها لسانك وفك، فقال : الكتابة التى يتعاطاها أهل الزمان المتعارفة بين الناس، فقلت أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتداول لكل قلم، المتناول بكل يد وفم، ولا تحسن هذه الشعبذة؟ فقال نعم . فقلت : هات الآن حتى أطاولك بهذا الحبل وأناضلك بهذا النبل، ثم تقاس ألفاظى بالفاظك، ويعارض إنشائى بإنشائك. وأقترح كتاب يكتب فى النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والبضاعات وأنقطاعاتها والأسعار وغلاتها .

فكتب أبو بكر بما نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

”الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة، بهما يتوصل الى جنات النعيم، ويخلد فى نار الجحيم، قال الله تبارك وتعالى : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصلّ عليهم . وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه أشد الإكبار، وأنكرناه أعظم الإنكار، لما نراه من الصلاح للعباد، وننويه من الخير للبلاد، وتعرفنا فى ذلك ما يرجح للناس فى الزرع والضرع، ويعود اليه أمر الضر والنفع.“

الى كلمات لم تعلق بحفظنا .

فقلت : إن الإكبار والإنكار والعباد والبلاد وجنات النعيم ونار الجحيم والزرع والضرع
أشجاع قد نبتت في المعد ، ولم تزل في اليد ، وقد كتبت وكتبت ، ولا أطلبك بمثل
ما أنشأت فأقرأ لك اليد . وناولته الرقعة فيبقى وبقيت الجماعة وبهت وبهت الكافة وقالوا لي :
أقرأه ، فجعلت أقرأه منكوسا وأسرده معكوسا والعيون تزرق وتحار وكانت نسخة ما أنشأناه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الله شاء إن المحاضر ، صدور بها وتملأ المنابر ، ظهور لها وتفرع الدفاتر ، وجوه بها
وتمشق المحابر ، بطون لها ترشق ، آثارا كانت فيه آمالنا مقتضى على أياديه ، في تأييده الله أدام
الأمير جرى فإذا المسلمين ظهور عن الثقل ، هذا ويرفع الدين ، أهل عن البكل ، هذا يحط أن
في اليه نتضرع ونحن واقفة ، والتجارب زائفة ، والنقود صيارفة ، أجمع الناس صار فقد كريما
نظرا لينظر شيمه ، مصاب وانجعنا كرمه ، بارقة وشمناهممه على آمالنا رقاب وعلقنا أموالنا ،
وجوه له وكشفنا آمالنا وفود اليه بعثنا فقد نظره بجمل يتداركنا أن ونعماء تأييده وأدام بقاءه الله
أطال الجليل الأمير رأى إن وصلى الله على محمد وآله الأخيار .

فلما فرغت من قراءتها انقطع ظهر أحد الخصمين وقال الناس قد عرفنا الترسل أيضا
فلنا الى اللغة ، فقلت : يا أبا بكر هذه اللغة التي هددتنا بها وحدثنا عنها وهذى كتبها وتلك
مؤلفاتها نخذ غريب المصنف إن شئت وإصلاح المنطق إن أردت وألفاظ ابن السكيت إن
نشطت وبجمل اللغة إن اخترت فهو ألف ورقة وأدب الكاتب إن أردت ، وأقترح على أي

(١) هذا الخطاب في ظاهره مغلق ، ولكنه يقرأ من عكسه بسهولة فيقال :

« إن رأى الأمير أطال الله بقاءه ، وأدام تأييده ونعماءه ، أن يتداركنا بجمل نظره ، فقد بعثنا إليه وفود آمالنا ،
وكشفنا له وجوه أحوالنا ، وعلقنا رقاب آمالنا على هممه ، وشمنا بارقة كرمه ، وانجعنا مصاب شيمه ، لينظر نظرا كريما ،
فقد صار الناس أجمع صيارفة ، والنقود زائفة ، والتجارب واقفة ، ونحن نتضرع اليه في أن يحط هذا الكل عن أهل
الدين ويرفع هذا الثقل عن ظهور المسلمين ، فإذا جرى الأمير أدام الله تأييده في أياديه ، على مقتضى آمالنا فيه ،
كانت آثارا وترشق لها بطون المحابر ، وتمشق بها وجوه الدفاتر ، وتفرع لها ظهور المنابر ، وتملأ بها صدور المحاضر
إن شاء الله .

باب شئت من هذه الكتب حتى أجعله لك نقداً ، وأسرده عليك سرداً ، فقال : اقرأ من غريب المصنف رجل ماس ، خفيف على مثال مال وما أمساه ! فاندفعت في الباب حتى قرأته فلم أتردد فيه ، وأتيت على الباب الذى يليه ثم قلت أقترح غيره ، فقالوا : كفى ذلك فقلت له : اقرأ الآن باب المصادر من أخبار فصيح الكلام ولا أطالبك بسواه ولا أسألك عما عداه ، فوقف حماره ، ونحدت ناره ، وقال الناس اللغة مسامة لك أيضاً فهاتوا غيره ، فقلت : يا أبا بكر هات العروض فهو أحد أبواب الأدب وسردت منه خمسة أبحر بألقابها وأبياتها وعللها وزحافها ، فقلت : هات الآن فاسرده كما سردته فلما برد ضجر الناس وقاموا عن المجلس يفدونى بالأُمهات والأب ، ويشيعونه باللعن والسب ، وقام أبو بكر فغشى عليه وقمت اليه فقلت :

يعز علىّ في الميدان أنى قتلت مناسي جلدًا وقهرا
ولكن رمت شيئاً لم يرمه سواك فلم أطق ياليت صبرا

وقبلت عينيه ومسحت وجهه وقلت : أشهد أن الغلبة له فهلا يا أبا بكر جئتنا من باب الخلطة وفي باب العشرة ؟ وتفرق الناس وحبسنا للطعام ، مع أفاضل ذلك المقام ، ولما حلقتنا على الخوان ، كرت في الحفان ، وأسرت الى الرغفان ، وأمعنت في الألوان ، وجعل هذا الفاضل يتناول الطعام بأطراف الأظفار ، فلا يأكل إلا قضمًا ، ولا ينال إلا شماً ، وهو مع ذلك ينطق عن كبد حرى ويفيض عن نفس ملاى ، فقلت : يا أبا بكر بقيت لك مُنة وفيك مسكة :

يا قوم انى أرى الأموات قد نشروا والأرض تلفظ موتاكم إذا قبروا

فأخبرنى يا أبا بكر لم غشّى عليك ؟ فقال : لحمى الطبع وحى الفرو ، فقلت : أين أنت من السجع ، هلا قلت حمى الطبع وحى الصفع ! وقال السيد أبو القاسم : أيها الأستاذ أنت مع الجد والهزل تغلبه ، فقلت : لا تظلموه ولا تطعموه طعاما يصير في بطنه مغصا ، وفي عينه رمصا ، وفي جلده برصا ، وفي حلقة غصصا ! فقال أبو بكر : هذه أسجاع كنت حفظتها فقل كما أقوله : يصير في عينك قذى ، وفي حلقك أذى ، وفي صدرك شجى ! فقلت : يا أبا بكر على

الألف تريد؟ خذ الآن : بفيك البرا، وعلى هامك الثرى، ولا أطمعك الخ... إلا من ورا، كما ترى
فقال : أيها الأستاذ السكوت أولى بك ومالوا الى وقالوا : ملكت فأصبح ! فأبى أبو بكر أن
يبقى لنفسه حمة لم ينفضها ، أو يدخر علينا كلمة لم يعرضها ، فقال : والله لأتركك بين الميمات ،
فقلت : ما معنى الميمات ؟ فقال : بين مهزوم ومهذوم ومهشوم ومغموم ومجوم ومرجوم ،
فقلت ، وأتركك بين الميمات أيضا بين الهيام والصدام والجذام والحمام والزكام والسام والبرسام
والهام والسقام وبين السينات فقد علمتنا طريقة بين منحوس منخوس منكوس معكوس
متعوس محسوس معروس وبين الخاآت فقد فتحت علينا بابا بين مطبوخ مشدوخ منسوخ
ممسوخ مفسوخ وبين الباآت فقد علمتني الطعن وكنت ناسيا بين مغلوب ومسلوب
ومرعوب ومصلوب ومركوب ومنكوب ومنهوب ومغضوب . وإن شئنا كلنا بهذا الصاع ،
وطاولنا بهذا الذراع ، وعرضنا عليك من هذا المتاع ، وكأثرناك بهذه الأنواع ، ثم خرجت
واحتجرت فقد كان اجتمع الناس . وغلث الكروش ، ولما خرجت لم يلقوني إلا بالشفاه تقبيلا ،
وبالأفواه تجيلا ، وانتظروا خروجه الى أن غابت الشمس ولم يظهر أبو بكر حتى حضره الليل
بجنوده وخلع الظلام عليه فروته .

فهذا ما علقناه عن المجلس وأديناه ، والسيد أطال الله بقاءه يقف عليه إن شاء الله .

١٦ - نثر بديع الزمان

١ - أول ميزة لبديع الزمان أنه يشعر بك بفهمه للحياة ، فهو يتحدث عن أشجان وأغراض هي في صميمها ألوان للنفوس الانسانية . وإذا كان هناك كتاب يخاطبونك بما لا تفهم لأنهم يتحدثون عن نفس بعيدة عن نفسك ، وقلب أجنبي عن قلبك ، فإن بديع الزمان يطالعك بطائفة من الأزمان النفسية والروحية هي أزماتك أنت لو درست نفسك وتطلعت الى وجدانك ، وهذا هو السر في أن بديع الزمان لا يزال أدبه حيا ، ولا تزال آراؤه وأفكاره قريبة منا على بعد العهد وتعاقب الأجيال . ومن العجب أننا نتقبل منه الزهو والخيلاء لأننا نشعر أنه في زهوه وخيلائه لا يكذب ولا يمين . ولننظر كيف يقول :

”فانى وإن كنت في مقبل السن والعمر، قد حلبت شطرى الدهر، وركبت ظهري البر والبحر، ولقيت وفدى الخير والشر، وصاغت يدى النفع والضر، وضربت إبطى العسر واليسر، وبلوت طعمى الحلو والمر، ورضعت ضرعى العرف والنكر، فما تكاد الأيام ترى من أفعالها غريبا، أو تسمعى من أحوالها عجيبا . ولقيت الأفراد، وطرحت الآحاد، فما رأيت أحدا إلا ملأت حافى سمعه وبصره، وشغلت حيزى فكره ونظره“ .^(١)

٢ - وهذه الفقرة تمثل شعوره بأرزاء الدهر ونكبات الحياة ، وتمثل حرصه على أن يشغل البارزين من معاصريه . وقد كانت لبديع الزمان غضبات تظهر فيها فورات نفسه وهى مضطربة متأججة ، فترى فى كتاباته صورة نفسه وهى تتوثب كما تتوثب السنة الجحيم ، كقوله فى خليفة أبى نصر الميكالى بهراة :

«وحدثت عن هذا الخليفة، بل الحيفة، أنه قال : قضيت لفلان خمسين حاجة منذ ورد، هذا البلد ، وليس يقنع، فما أصنع ؟ فقلت يا أحمق إن أستطعت أن ترانى محتاجا فاستطع

أنت أراك محتاجا إليك، أف لقولك وفعلك ، ولدهر أحوج لملكك ! » وليتأمل القارئ
« ان استطعت أن ترانى محتاجا فاستطع أن أراك محتاجا إليك » فانه غاية فى التهكم اللذاع .

وفى مثل هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

« هذا الخليفة يزعم أنى طعام ، فلا والله إن لحمى حرام ، وفيه عروق وعظام ، ولو كنت
طعاما لكنت الأكلة التى تمنع الأكلات ... ومن شتمنى من خلف ، فجزاؤه مائة ألف ، وإذا
انتهت الدعوة الى فقد عزل عزرائيل ، ولم يبق فى ولايته إلا قليل ، والله ما يصلح لحمى للقديد ،
ولا يحسن فوق الثريد ، وإنه ليأبى فى المضغ ، وينشب فى الحلق ، ويقلق فى البطن ، ولا
يخرج من المعى إلا مع الأمعاء . وكانوا لا يصيدون ابن آوى ، وإن كانوا شهاوى^(٣) . »

٣ — وكان بديع الزمان شديد الحقد على أبى بكر الخوارزمى ، وكان لذلك مغرما بالنيل
منه والوقوع فيه . ومرض الخوارزمى ، فكتب أحد أصدقاء بديع الزمان يهنئه بمرض عدوه
فغضب لذلك ورأى فى هذه التهينة لؤما لا يرضى عنه كرمه ، ولا يغفر مثله نبيله ، وقذف
صديقه ذاك بالكلمة الآتية :

« الحر ، أطل الله بقالك ، لا سيما اذا عرف الدهر معرفتى ، ووصف أحواله صفتى ،
اذا نظر علم أن نعم الدهر ما دامت معدومة فهى أمانى ، فإن وجدت فهى عوارى ، وأن
محن الزمان وإن مطلت فستفد ، وإن لم تصب فكان قد ، فكيف يشمت بالحنة من لا يأمنها
فى نفسه ، ولا يعدمها فى جنسه ؟ والشامت إن أفلت فليس يفوت ، وإن لم يمت فسيموت ،
وما أقبح الشماتة ، بمن أمن الإمامة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظة .
والدهر غرثان طعمه الخيار ، وظمآن شربه الأحرار ، فهل يشمت المرء بأنياب آكله ، أم
يسر العاقل بسلاح قاتله ؟ وهذا الفاضل شفاه الله وإن ظاهرناه بالعداوة قليلا ، فقد باطناه
ودا جميلا ، والحر عند الحمية لا يصطاد ، ولكنه عند الكرم ينقاد ، وعند الشدائد تذهب

الأحقاد، فلا تتصور حالي إلا بصورتها من التوجع لعلته، والتحزن لمرضته، وقاه الله المكروه، ووقاني سماع السوء فيه، بحوله ولطفه» .

وهذه الرسالة من أعلى الرسائل في أسلوبها، وموضوعها، وله رسالة تشبهها كتبها إلى أبي عامر الضبي يعزیه في بعض أقاربه وفيها يقول :

” أحسن ما في الدهر عمومه بالنوائب، وخصوصه بالرغائب، فهو يدعو الجفلى إذا ساء، ويختص بالنعمة إذا شاء، فلينظر الشامت فإن كان أفلت، فله أن يشمت، ولينظر الانسان في الدهر وصروفه، والموت وصنوفه، من فاتحة أمره، إلى خاتمة عمره، هل يجد لنفسه، أثرا في نفسه، أم لتدبيره، عوناً على تصويره، أم لعمله تقدماً لأمله، أم لحيله، تأخيراً لأجله ؟ كلا بل هو العبد لم يكن شيئاً مذكوراً، خلق مقهوراً، ورزق مقدوراً، فهو يحيا جبراً، ويهلك صبراً . وليتأمل المرء كيف كان قبلاً، فإن كان العدم أصلاً، والوجود فضلاً، فليعلم الموت عدلاً . والعاقل من رفع من حوائل الدهر ماساء ليذهب ماضراً بما نفع، وإن أحب أن لا يحزن فلينظر يمينه، هل يرى إلا محنة، ثم ليعطف يسرة، هل يرى إلا حسرة؟ ومثل الشيخ الرئيس من تفتن لهذه الأسرار، وعرف هذه الدار، فأعد لنعيمها صدراً لا يملؤه فرحاً، ولؤسها قلباً لا يطيئه جزاء، وصحب الدهر برأى من يعلم أن للمتعة حداً، وللعارية رداً . ولقد نعى إلى أبو قبيصة قدس الله روحه، وبرد ضريحه، فعرضت على آمالي قعوداً، وأمانى سوداً، وبكيت والسخرى بما يملك، وضحكت وشر الشدائد ما يضحك، وعضضت الإصبع حتى أدميته، وذممت الموت حتى تمنيته، والموت خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، ونكر قد عم حتى عاد صرفاً، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها وأضمرت حتى صار أيسر غيوبها، وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها . الخ “ .

٤ - وهذه الرسالة تعطينا صورة من نفس ذلك الرجل الحساس . فهو هنا يدرس قيمة الانسان وينتهى بالدرس إلى أنه أثر ضئيل بين آثار الوجود، فقد خلق من حيث لا يريد، ورزق من حيث لا يحتسب . فهو بهذا العوبة صغيرة في يد القدر يرفعها حين يشاء، ويرى بها في الفناء حين يشاء .

ولا يقف بديع الزمان عند هذا الحد، وإنما يمضى فيدعوك الى سياسة نفسك، فيحدثك بأن من العقل أن تجسم حسنات الدهر لتضؤل بجانبها سيئاته، ويروضك على أن تنظر حواليك لترى أن لكل إنسان نصيبه من بأساء الحياة، ويدعوك الى أن تعد لنعم الدنيا صدرا لا يملؤه الفرح، وقلبا لا يطيره الجزع، وتلك هي السياسة الرشيدة عند من يفقهون.

وقد أعطانا البديع في هذه الرسالة أجمل صورة للجزع عند فقد الأعزاء، فقد أضحكك الحزن وأبكاه، وحدثنا بأنه بكى لأن البكاء غاية ما يملك الحر في رد العزيز المفقود، وأنه ضحك لأن الشدائد المرة ترمى المحزون بقهقهة المجانين. وقد وصل البديع الى قرار الحكمة حين حدثنا بأن الموت خطب قد عظم حتى هان، ووصل الى أسمى غايات الخيال حين حدثنا بأن الدنيا أبهمت حتى صار الموت أظهر ما فيها من العيوب. وهو بهذا ينظر الى الوجود وكأنه عدو فاجر لا ينتهى ما لديه من الشؤم المبيت والشر المستطير.

• — لكن هذه السماحة النفسية ليست سمة غالبية في بديع الزمان، فهو في أكثر الأحوال رجل ما كركب خبيث، ومقاماته تنتهى الى فلسفة واحدة هي السخرية من العالم وأقنناص ما يملكون بشقى الحيل والمداورات من غير تورع ولا استحياء. ففي المقامة الأصفهانية يحتال أبو الفتح الاسكندري فيحتجز المصلين في المسجد ولا يزال بهم حتى يملا جيبه ثم يقول في السخر من أولئك المتصدقين :

الناس مُحَرِّجُونَ وَأَبْرَزَ عَلَيْهِم وَبَرَزَ

حتى اذا نلت منهم ما تشتهيهم ففروز

وفي المقامة المكفوفية ينشد أبو الفتح بعد أن يصل الى بغيته وقد تعامى طلبا للال :

أنا أبو قلمون^(١) في كل لون أكون

لاختر من الكسب دوننا فان دهرك دون

زج الزمان بمحق إن الزمان زبون^(٢)

(١) أبو قلمون ثوب روى من الأبرسيم يظهر للعين في ألوان مختلفة بصنائه . (٢) الزبون : الناقة التي

تدفع بثقات رجلها عند الحلب .

لا تكذب بعقل ما العقل إلا جنون

وفي المقامة القزوينية يعترف أبو الفتح بأن النسبة صورة من صور المنافع ويقول :

أنا حالي من الزمان كحالي من النسب

نسبي في يد الزمان إذا سامه أنقلب

أنا أمسى من النبذ ط وأضحى من العرب

وفي المقامة الساسانية يقول :

هذا الزمان مشوم كما تراه غشوم

الحق فيه مليح والعقل عيب ولوم

والمال طيف ولكن حول اللثام يحوم

وهذه الأبيات تمثل حقه على الأغنياء، ورميه إلى أن كل غني لثيم ، ومثل هذا قوله

في المقامة البصرية :

الفقر في زمن اللثام م لكل ذي كرم علامة

رغب الكرام إلى اللثام م وتلك أشرار القيامة^(١)

٦ - والذي يتصفح رسائل بديع الزمان ومقاماته يراه في أكثرها يحارب معاصريه من الكتاب والرؤساء، ولا يقع نظره على الجوانب الطيبة من حياة الناس إلا قليلا . ولا يمكن أن تكون لبديع الزمان سياسة نفسية غير تلك الخطة الصاخبة التي ألفها في حياته وهي العنف المطبق في البحث عن أسباب الغنى والجاه . ومن دلائل حقه وبغيه أن واليا عزل وكتب إليه بعد عزله يستميل فؤاده، فكتب إليه البديع يؤنبه ويصوره بصورة المعشوق الذي انقضت أيام حسنه ولم تبق منه بقية يحتمل معها الدلال . فن تلك الرسالة قوله :

(١) وقد تهكم بديع الزمان بالأدب وأهله غير مرة . راجع ص ٣٩٦ حيث ترى أنه يرى الأدب واللغة والتفسير ضروبا من الحق « لا يبيع بها ذو عقل باقة بقل » وفي ص ٢٢٢ يرى أنه لا قرابة بين الأدب والذهب وأن الأدب لا يمكن ثرده في قصعة ، ولا صرفه في ثمن سلعة ، الخ .

”تناسيت أيامك إذ تكلمنا نذرا، وتلحظنا شذرا، وتجالس من حضر، ونسترق اليك النظر، ونهتر لكلامك، ونهش لسلامك . فأقصد الآن فانه سوق كسد، ومتاع فسد، ودوله عرضت، وأيام آنقضت :

وعهد نفاق مضى وخطب كساد نزل
وخد كآن لم يكن وخط كآن لم يزل

ويوم صار أمس، وحسرة بقيت في النفس، وثغر فاض مأوه فلا يرشف، ووريق خدع فلا ينشف، وتمايل لا يعجب، وثن لا يطرب، ومقلة لا تجرح الحاظها، وشفة لا تفتن ألفاظها! وقد بلغني الان ما أنت متعاطيه من تمويه يحوز بعد الفلق، في الغسق... وإفناك لتلك الشرعات حفا وحصا . وسيكفينا الدهر مؤونة الانكار عليك، بما ينف من بنات الشعر وأمهاته اليك .

ما يفعل الله باليهود ولا بصاد ولا ثمود
ولا بفرعون إذ عصاه ما يعفل الشعر بالحدود^(١)

وهي رسالة طويلة اكتفينا منها بهذه الفقرات، وقد تأثر بهذه الرسالة وحاكاها في أسلوبها وموضوعها جماعة من الكتاب أشهرهم في المتقدمين أبو المغيرة الوزير عبد الرحمن بن حزم الأندلسي^(٢) وأشهرهم في المتأخرين المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويز .

٧ -- ولو كان لبديع الزمان غرض يرمى اليه في مجموع كتاباته لوصل الى أبعد حد من حدود النجاح لأنه أبرع من حمل القلم بين أهل عصره، ولا نعرف كاتباً التزم السجع ووفق الى الدقة والرشاقة والعذوبة كما وفق بديع الزمان . والقاعدة التي اختارها أساساً لفلسفته وهي سوء الظن بالناس تلاشى أثرها في مقاماته لأنه أعطى لبطل تلك المقامات صورة مشوهة هي صورة الاستجداء، ثم التزم منها واحداً لا يختلف إلا قليلاً بحيث لا يبدأ القارئ إلا وهو يعلم ما ستنتهي اليه المقامة .

ومهما يكن من شيء فلن يمكن نكران ما وفق اليه بديع الزمان من نقد طائفة كبيرة من خصال اللؤم والنفاق والضعفة والإسفاف، وما الى ذلك من الهنات التي يوصم بها من تساعدهم الظروف على التغلب والاستعلاء، ثم لا يكونون في أنفسهم وفي سلوكهم إلا برهانا على فساد الحياة ونقص الأحياء .

١٧ - عبد العزيز بن يوسف

١ - كان أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كما وصفه الثعالبي «أحد صدور المشرق، وفرسان المنطق»^(١) وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدودا في وزرائه، وخواص ندمائه، وتقلد الوزارة بعده لأبنائه^(٢). وكان الصاحب بن عباد يقول: كتاب الدنيا أربعة: الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو إسحاق الصابى، ولو شئت لذكرت الرابع، يعنى نفسه^(٣).

وجملة أخباره تدل على أنه كان في زمانه من أعلام الكتاب.

٢ - ويظهر مما أثر من أخلاقه أنه كان رجلا كريم النفس. وقد شفع لأبى إسحاق الصابى عند عضد الدولة في ساعة غضب، وتفصيل ذلك أن قوما سعوا لإخراج الصابى من السجن فقال عضد الدولة «قد سوغته نفسه: فإن عمل كتابا في مآثرنا وتاريخنا أطلقته» فشرع الصابى في محبسه في تأليف كتاب في أخبار بنى بويه، وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو في تبييض الكتاب وتسويده فسأله عما يعمل فقال: أبا طيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها» فخرج الرجل وأنهى ذلك الى عضد الدولة - ودسأس الأصدقاء كثيرة يعانينا الأحرار في جميع الأزمان! - فأمر عضد الدولة بإلقاء الصابى تحت أرجل الفيلة، فأكب أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن هارون على الأرض يقبلانها ويشفعون اليه في أمره حتى أمر^(٤) بآستحيائه.

٣ - والظاهر أن صلته بالصاحب والصابى كانت صلة وداد، ورسائله الى الصاحب كثيرة، ولكن تغلب عليها صفة التودد المشوب بالتملق^(٥). أما رسائله الى الصابى فتفيض بالعطف والحنان.

(١) البيهقي ج ٢ ص ٧٦ (٢) البيهقي ج ٢ ص ٨٧ (٣) ياقوت ج ١ ص ٣٢٨ (٤) ياقوت

ج ١ ص ٣٢٥ (٥) راجع هذه الرسائل في البيهقي ج ٢ ص ٩٢ - ٩٤

وانظر هذه الرسالة :

« وصل كتاب مولاي بما قرب الى جنائه ، وبعد على مداه ، من محاسن لفظه ونظمه ، ومبازه التي ما يزال يؤثرني فيها بالرغائب ، ويصفيني منها بالعقائل . فوقفت منه بين اعتبار واقتباس ، واعتذار واعتباط ، واستبصار في موضع الفضيلة ، وشكر لما جمع الله لي في وده من المنح الجزيلة ، ووجدت خطابه مفتتحا بشكوى الأيام في انحرافها ، ومكاره أحداثها ، فاستوحشت منها لاستيحاشه ، واستعدت عليها لاستعداداته . وشايعت المهجنين لاثارها ، والزارين على أحكامها ، لاعتراضها دون آماله ، وقدها في أحواله ، ولم يستبق الجمال لنفسه والفضل لأهله ، دهر^(١) أناخ على مولاي بصرفه ، وأخترله دون واجب حقه » .

٤ — وتمتاز رسائله في الاخوانيات بترصيعها بحبات شعره ، فقد آبتدأ إحدى رسائله الى صاحب هذه الأبيات :

كتاب لو أن الليل يرمى بمثله لألقت يدا في محجتيه ذكاء
تهادى بأبكار المعاني وعونها وأعيان لفظ ما هن كفاء
شواهد لولا أنهم أوالف ضرائر إلا أنهم سواء
لبسنا بها نعي وألبست الربا نحائل روض جادهن سماء
بنان ابن عباد تعلن نوءه وما صوبه إلا حيا وحباء

(٢) وثلاث كتب تناظرت في الحسن والاحسان ، وتقابلت في البر والإنعام ، لازالت أياديه قلائد الأعناق ، ومراميه مضامير السباق ، ولا آنفكت عين الله حامية له ، وكافلة به .

ويظهر أن الصابي كان كذلك يرصع رسائله بالشعر بدليل قول أبي القاسم من رسالة ثانية :

« وقفت على الأبيات التي أتحنفني بها سيدي ، وتكلفت لجوابها على ظلم في خاطري لطول السفار ، وأتصال حالي بالحل والترحال . ومولاي يأخذ العفو ويرضى بالميسور ، ويعذر

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٩٤ (٢) معطوف على (حيا وحباء) وبذلك يتبين القارئ مهارة الكاتب في وصل الشعر بالثر في سياق واحد . (٣) اليتيمة ج ٢ ص ٩١

مستأنفا على التقصير في جواب ما يأتيني من أمثاله ، مادمننا في ملكة الهواجر، وتعب البكر^(١)
والأصائل» .

٥ — ومن الفنون البارزة عند أبي القاسم وصف الرسائل الاخوانية ؛ كقوله في وصف رسالة للصابي :

«عرفت كيف تنتظم فرق البلاغة ، وتلتقي طرف الخطابة ، وتترأى أشخاص البيان ،
وتتأيل أعطاف الحسن والاحسان ، وقرأت لفظا جليا ، حوى معنى خفيا ، وكلاما قريبا ،
رمى غرضا بعيدا ، وفصولا متباعدة كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنحها الامتراج صيغة
المضارعة ، ولحمة الموافقة ، فصارت لدلالة الأول منها على الثاني ، وتعلق العجز فيها بالهادي ،
أولاد أرحام مبرورة ، وذوات قربي موصولة ، لتعاطف عيونها ، وتناصف أبكاها وعونها» .^(٢)

٦ — وعند تأمل رسائله نجده يحسن الوصف . كقوله من كتاب له الى صاحب
في فتح عمان وإبادة الزوج بها وما وصل الى عضد الدولة من المغام :

« ... وكانت لأولئك الكفرة عادة أشتهرت منهم في استباحة الناس وأكل لحومهم ،
وبلغ من كلبهم على ذلك أنهم كانوا يتنقلون بينهم اذا شربوا بأكف الناس ، وسأل مولاى
عن هذا النقل الغريب فحكى لى عنهم أنه لا شيء فى الانسان ألد من كفه وبنانه ، وكان
فى ذلك اليوم الذى شارف فيه طلائع العسكر المنصور باب عمان ثار من بعض المكامن
طوائف من أولئك الكلاب فكجا ببعض الغلمان دابته فأختلسوه وأقتسموه بينهم وأكلوه
فى الوقت ، وتعجب الناس من ضراوتهم وقساوتهم ، وقد أبادهم الله تعالى جده ، وطهر البر والبحر
من عبثهم ومعرتهم ، فأنقاد أهل جبال عمان باخعين بالطاعة ، معتصمين بذمة الجماعة ، وتمت
نعمة الله على مولانا فى هذا الفتح ، وجلت له مغام الأجر ، ووصل أمس غنائم تلك الناحية
وفىها فيل صغير بقية الفرس ما عرف ألطف ولا أظرف منه ، وفى الغنائم كل ما تشتهى

الأنفس وتلذ الأعين . والله تعالى يجني مولانا ثمار الأرض برا وبحرا، وسهلا وجبلا،
بمنه وكرمه . آمين“ .

٧ - وكانت له بحكم منصبه جولات في الرسائل السلطانية، نذكر منها قوله من كتاب
عن الطائع لله الى ركن الدولة لما ورد عضد الدولة العراق :

”فأنت وعضد الدولة — كلاً كما الله ! — يدا امير المؤمنين فيما يأخذ ويذر ، وناظره
فيما يقرب ويبعد، بكما أفرش مهاد الملك بعد إقضاضه، ورفع منار الدين بعد أنخفاضه، فأبشرا
من الله تعالى بالحسنى، إن الله لا يضيع أجر المحسنين“ .^(١)

ومن كتاب عن عضد الدولة في عود الطائع الى بغداد والتقاءه معه :

”ولما ورد أمير المؤمنين بالنهروان أنعم بالأذن لنا في تلقيه على الماء، فأمتثلناه وتقبلناه
وتلقانا من عوائد كرمه، ونفحات شيمه، والمخائل الواعدة بجمل آرائه، وعواطف أنحائه،
ورعاية ما كنفنا يمينه، وشايعنا عزه، الى أن وصلنا الى حضرته البهية، في الحديدية، التي
استقبلت منه بسليل الملك، وقعيد الخلافة، وسيد الأنام، والمستنزل بوجهه در الغمام، فتكفأت
علينا ظلال نوره وبشره، وغزتنا جهات تفضله وفضله، وقرب علنا سنن خدمته، وأنالنا
شرف القعود بين يديه، على كرسى امر بنصبه لنا عن يمينه، وأمام دسسته، وأوسعنا من جميل
لقياه، وكريم نجواه، ما يسم بالعز أغفال النعم، ويضمن الشرف في النفس والعقب، ويكفل
من الفوز في الدين والدنيا بغايات الأمل . وكان لنا في الوصول اليه، والقعود بين يديه،
في مواقع الحاظه، وموارد ألفاظه، مراتب لم يعطها أحد فيما سلف، ولم تجد الأيام بمثلها
لمن تقدم“ .

٨ - وليس بين أيدينا من أخباره ورسائله ما يعطينا صورة صحيحة من نفسه
وأخلاقه، والذي يمكن الجزم به أنه كان دقيق العبارة رصين الأسلوب، والى القارئ هذه
الكلمات مقتبسة من رسائله القليلة التي أعفاها الزمان من الضياع .

- ”وأجنهم الليل فادرعوه مقتادين بخزائم أنوفهم، الى مصارع حتوفهم“ .
- ”سار الى سدة دار الخلافة والسعود تشايحه، والميامن تواكبه، وطلائع الآمال تشرف عليه، وثغر الاسلام يتسم اليه“ .
- ”وقد كان الغضنفر بن حمدان حين نفضته المذاهب، ولفظته المهارب، وأقلقتة عن مجاثمه المكاييد والكائب، تطوع الى بلاد الشام يتنقل بين مصارع يحسبها مراتع، ومجاهل يعدها معالم، يروم آتعاشا والجد خاذله، ويبنى آتياشا والبنى طالبه“ .
- ”ولما ضاق عن هذا المخدول حلمنا باتساع غوايته، ووعر الطريق الى آستبقائه، استخرنا الله تعالى في آسترجاع ما ألبسناه من النعم“ .
- ”إن الله سائلك عن الخطرة والخطفة، واللحظة واللفظة“ .
- ”أدرع من ثوب عفافك، ما يشمل كافة أطرافك“ .
- ”احذروا أن يتقلكم الله بأقدامكم، الى مصارع حمامكم“ .
- ”التقوى هى العدة الوافية، والجنة الواقية، والتجارة الراجعة، والسعادة السانحة، والجلء للشبهة، والضياء للغممة“ .
- ”سيعيذ الله من حرّ الهواجر برد الظلال، ومن قلق الركاب، نجح الإياب“ .
- ”أيقظوا قلوبكم من سينة الخواطر، وأحبسوا ألباطكم عن محظور المناظر“ .

الفهرس المفصل

الباب الرابع كتاب النقد الأدبي

صفحة	صفحة
٢٢ أثر الخلقة الطبيعية	١ — أبو الحسن الجرجاني
٢٣ ما هو الجزل وما هو الرقيق	القاضي إنسان له عواطف وأهواء ... ٧
٢٤ إشارة إلى ما نقله عن السالفين من النقاد	وصف جرجان وما كان بها من نعيم ... ٨، ٧
٢٥، ٢٤ الفرق بين الشعر والدين	وفاء أبي الحسن لجرجان ... ٨
... .. رأى مؤلف هذا الكتاب في حدود	أسفاره وأعماله ... ٩
٢٦، ٢٥ الشاعرية	مؤلفاته في الأدب والفقه والتاريخ ... ١٠، ٩
٣ — ابن فارس	إبائه وعزته ... ١٠
٢٧ مولد ابن فارس ومذهبه وأشيائه	نماذج من شعره في التصون والعفاف ... ١١
٣٠-٢٨ ما وقع بينه وبين تلميذه بديع الزمان	اعتذاره من الانقباض عن الناس ... ١٢
٣٠ منزلته الشعرية والثروة	تفريده على أفتان الجمال ... ١٣
٣١ نماذج من شعره	وصفه لنعيم الحواس ... ١٤
٣٢ كتاب الصاحي	حنينه إلى ليالى بغداد ... ١٥
٣٢ حياته العقلية بين التحرر والجمود	رقة الشوق ... ١٦
٣٣ إنكاره أن يكون للفلاسفة شعراً وإعراب	٢ — نقد آراء الجرجاني
٣٤، ٣٣ الجانب المشرق من حياته العقلية	كيف ألف كتاب الوساطة ... ١٧
٣٦، ٣٥ نماذج مما استجاده من شعر المحدثين	أخوة الأدب وحقوقها المفروضة ... ١٨، ١٧
... .. آراء ابن فارس في فقه اللغة	أغلاط الجاهليين ... ١٩، ١٨
٣٨، ٣٧ نقد رأى السنيور جويدي	التعسف في الدفاع عن أشعار الجاهلية ٢١، ٢٠
٣٩، ٣٨ ما هو فقه اللغة في رأى الثعالبي وابن فارس	أثر المكان والطبع في رقة الشعر وجفافه ٢٢، ٢١

صفحة		صفحة	
	كيف حرم الجاحظ من شرف المنزلة	٤٠	رأى ابن سيده وابن جنى
	وكيف سبقه ابن الزيات وإبراهيم	٤٠	أول من كتب بالخط العربي
٥٧	ابن العباس	٤١	رأيه في التوقيف والاصطلاح
٥٨	نقد رأى ابن شهيد في ذلك	٤٢	رسم المصحف
	٥ - أبو بكر الباقلاني	٤٢	رأيه في نشأة العلوم العربية
٥٩	حياته	٤٢، ٤٣	رأيه فيما جهل أصله من التعابير
٥٩	تصويره لما كان في زمانه من أزمة عقلية	٤٥	نقد هذا رأى
٦٠	موقفنا من درس إعجاز القرآن	٤٥	الألفاظ المبهمة المدلول
٦١، ٦٠	الموازنة بين القرآن وبين غيره من الكلام	٤٦، ٤٥	خصائص اللغة العربية
٦١	نتيجة هذا البحث	٤٦	تعليل ما عرف من كثرة المترادفات
٦٢	نقد رأى الباقلاني	٤٧	تأثير الأقاليم في اللغات
	الفرق بين القرآن وبين غيره من الكتب		٤ - النقد عند ابن شهيد
٦٣	الرباطية		الفرق بين البيان وبين النحو والتصريف
	لماذا لم يصف الله التوراة والانجيل	٤٨	التنديد بالنحاة والمعلمين
٦٣	بالاعجاز؟	٤٩	كلمة الجاحظ في معلم النحو ومعلم البيان
٦٤	شرح أسرار تفوق اللغة العربية	٤٩	نقد رأى الجاحظ وابن شهيد
٦٤	نقد رأى الباقلاني ورأى المسيو مرسيه	٥٠	محاورة ابن شهيد لتلاميذه من العرب
٦٥	بين اللغة العربية واللغات الأجنبية	٥١	واليهود
٦٥	أثر الغرور القومي	٥٢	الأنساب والقرايات بين الحروف
٦٦	ليس القرآن من جنس كلام العرب	٥٢	اختلاف البلاغة باختلاف أقدار المخاطبين
٦٦	نقد هذا رأى	٥٣	الشعر الذى يوضع للجدتين
٦٧	رأينا في الفوارق بين اللغات		هل في مقدور كل بليغ أن يصل الى كل
	سر البلاغة والفصاحة يرجع الى	٥٤، ٥٣	غرض
٧٠-٦٨	ما في المعنى من قوة وروح	٥٤	البلاغة ضرب من السياسة النفسية
٧١	بين القديم والجديد	٥٥	سر البلاغة يرجع الى الطبع
	نقد من كانوا يرون أن البلاغة لا ترجع	٥٦	هل الأجسام من صور النفوس؟
٧٢	الى المعانى		

صفحة

٩٢ تجنب البحترى للغريب ...

٩٣ السهو والغلط عند المتقدمين ...

٧ - أبو هلال العسكري

٩٤ تحقيق تاريخ وفاته ...

٩٥٩٤ أبو أحمد العسكري ...

٩٦ إباء أبي هلال ...

٩٦ شعره في التوجع لحظ الأديب ...

٩٦ صلته بالصاحب بن عباد ...

٩٨٩٧ دفاعه عن أدب الصاحب ...

٩٩٩٨ تحامله على المتنبى ...

٩٩ نثر أبي هلال ...

١٠٠ نماذج من نثره ...

١٠١ نماذج من شعره ...

٨ - كتاب الصناعتين

١٠٣ الغاية من علم البلاغة ...

١٠٤١٠٣ جودة كتاب الصناعتين ...

١٠٥١٠٤ غلبة الأدب على هذا الكتاب ...

١٠٦ إهماله لأكثر أسماء الشعراء والكتاب ...

١٠٦ سر البلاغة عند أبي هلال ...

١٠٧ حسن اللفظ موقوف على جمال المعنى ...

١٠٧ السهل المتنع ...

١٠٨ الكلام الجزل ...

١٠٩ المدار على إصابة المعنى ...

١١٠١٠٩ أطايب من الأدب ...

صفحة

٧٤٠٧٣ شواهد من القرآن بلاغتها في معانيها ...

٧٦-٧٤ شواهد من كلام العرب وأشعارهم ...

٧٦ مناقشة بعض السرقات الشعرية ...

٧٧٠٧٦ أهمية الألفاظ والأساليب ...

٧٧ الباقلائي ينفي السجع من القرآن ...

٧٩-٧٨ خطأ هذا الرأي ...

٨١٠٨٠ غلط في فهم السجع ...

٦ - أبو القاسم الآمدي

٨٢ حياته ومذهبه في الأدب ...

٨٣ نماذج من شعره ...

٨٤ معرفته لنفسية أدياء الأدب والبيان ...

٨٥ رأيه في الحاسة الفنية ...

٨٦ هل يمكن كسب الذوق بكثرة المران ...

٨٦ إثارة الشعر المطبوع على المصنوع ...

يغتفر للأعراب ما لا يغتفر للشعراء

٨٧ المثقفين ...

مسألة العمل والإغراب بإثارة وحشى

٨٧ المعاني والألفاظ ...

٨٨ دخل هذا الاتجاه في أعمار الألفاظ ...

٨٨ اللحن لا يعرى منه أحد من الشعراء ...

٨٩ بين صاحب أبي تمام وصاحب البحترى ...

٨٩ اجتماع أبي تمام والبحترى لأول مرة ...

٩٠ التحليق والإسفاف عند هذين الشاعرين ...

٩٠ هل ابتدع أبو تمام مذهب البديع ...

٩١ غرابة شعر أبي تمام وحسد معاصريه ...

صفحة	
١٢٠	إيثاره لمذهب المعتزلة
١٢٠	تحامل معاصريه
١٢١	مؤلفاته المختلفة
١٢٢	عنايته بجمع أشات الثقافة الأدبية
١٢٢	كتاب الموشح
١٢٣	جمعه للمؤاخذات الشعرية
١٢٤	تجنيه على أبي تمام
١٢٤-١٣٦	سوق المآخذ بدون تمحيص
١٢٧	وحدة البيت ووحدة القصيدة
١٢٨	دقة الوصف
١٢٨	تقييد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء
	الناس يعيشون في رذائلهم أضعاف
١٢٩	ما يعيشون في فضائلهم
١٣٠	بعض الفكاهات

صفحة	
٩	أبو على الحاتمي
١١١	حياته وأدبه
	مثل القصيدة مثل الانسان في اتصال
١١٢	بعض أجزائه ببعض
١١٢	القدماء والمحدثون
١١٣	براعته في نقد الشعر
١١٣	السرف في نحول الحاتمي هو صلفه وكبرياؤه
١١٤	اصطدامه بالمتنبي
١١٥	وصفه لغطرسة المتنبي
١١٦	الرسالة الحاتمية
١١٧-١١٩	مناقشة هذه الرسالة
١٠	أبو عبدالله المرزباني
١٢٠	حياته وإدماؤه على الشراب

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

١٣٨	شخصيته الفلسفية
١٣٩	رأيه في حياة أهل الجنة
١٣٩	حياته الوجدانية
١٤٠	كتاب الصداقة والصدق
١٤١	براعته في تصوير الصداقة والحب
١٤١-١٤٢	تحليل العواطف والأهواء
١٤٢-١٤٣	صورة فنية لمودة صديقين
١٤٣	رأيه في الشريعة والفلسفة
١٤٤	إخوان الصفاء

١	أبو حيان التوحيدى
١٣٣	أسرار العبقريّة
١٣٣	مولد التوحيدى ونحول نشأته
١٣٤	ثورته على الحياة والأحياء
١٣٤	اتصاله بالصاحب وخروجه عليه
١٣٥	ثورة نفسية
١٣٦	إحراقه لكتبه وغضبه على الناس
١٣٧	هجاؤه لمعاصريه
١٣٧	حديثه عن ابن مسكويه

صفحة

- القيمة الفنية لخطبه المنبرية ... ١٦٢
اهتمامه بالسجع والأزدواج ... ١٦٢
تضمينه لآى القرآن ... ١٦٣
كلفه بالخيال ... ١٦٣
وقوفه عند الأفكار السطحية ... ١٦٤
سياسته لعامة الجماهير ... ١٦٥

٥ - أبو محمد بن حزم

- حياته وكلفه بالكتابة عن الحب ... ١٦٦
كتاب طوق الحمامة ... ١٦٧
الحبة لا تصح إلا بعد طول الأئس ... ١٦٧
دوام الوصل لا يذهب بالحب ... ١٦٨
إغرامه بتتبع أخبار العشاق ... ١٦٩
وصف رسائل الحب ... ١٧٠
دراسة الحب جزء من علم النفس ... ١٧١
رأى ابن حزم فى طبيعة المرأة ... ١٧٢
غرامه منذ الطفولة بدرس المرأة ... ١٧٣
شاهد محزن من وفاء المرأة ... ١٧٤
المرأة أكثر مواساة من الرجل ... ١٧٥
السرفى تمكن طبع المواساة من النساء ... ١٧٦
المرأة والرجل فى الضعف سواء ... ١٧٦
ما الصلاح وما الفساد فى الرجال والنساء ... ١٧٧
عفاف ابن حزم ... ١٧٧
الجمال أهل للدرس ... ١٧٨

٦ - أبو منصور الثعالبي

- حياته وشعره ... ١٧٩
مواهبه الثرية ... ١٨٠

صفحة

٢ - أبو على بن مسكويه

- تحقيق آسسه وإسلامه ... ١٤٥
انصالة بابن العميد ... ١٤٥
سخرية التوحيدى من اشتغاله بالكيمياء ... ١٤٦
سرتحامل التوحيدى عليه ... ١٤٧
بديع الزمان يتوّد الىه ... ١٤٧
شغف ابن مسكويه بالفلسفة اليونانية ... ١٤٩
وصيته ودستوره فى نظام السلوك ... ١٥٠

٣ - الأخلاق عند ابن مسكويه

- تعريف الخلق ... ١٥٢
حيرته بين الفلاسفة القدماء ... ١٥٣
اهتمامه بتثقيف الخواص ... ١٥٤
نقته بالمنطق ... ١٥٤
الجسم والنفس ... ١٥٥
نقد رأيه فى خلود النفس ... ١٥٥
جهوده فى الفلسفة العملية ... ١٥٦
تحديد آرائه الأخلاقية ... ١٥٧
آداب الصداقة ورعاية الصديق ... ١٥٨

٤ - ابن نباتة الخطيب

- أبناء نباتة فى الأدب العربى ... ١٥٩
حياة ابن نباتة الخطيب ... ١٥٩
خطبة المنام ... ١٦٠
ولوعه بالأخبار المنامية ... ١٦٠
تعليل هذه الأخبار ... ١٦١
أثر الزهد والصلاح فى خطبه ... ١٦١

صفحة	صفحة
١٨٧ يتيمة الدهر	١٨٢٦١٨١ طرائف من الكايات
غرام التعالي بإطراء من يترجم لهم من	١٨٣ كتاب ثمار القلوب
١٨٨ الشعراء	١٨٣ ثعابين مصرفي كلام الجاحظ
١٨٩ استغلال التعالي لألفاظ معاصريه	١٨٤ النقش والتصوير عند الأمم القديمة
١٩٠ إغفاله لتاريخ الوفيات	١٨٤ عرق الخال
١٩٠ كتاب فقه اللغة	١٨٥ حشو اللوزينج
	١٨٦ ماء عناق

الباب السادس

كتاب الوسائل والمهود

١ - أبو الفضل بن العميد

١٩٣ حياته ومواهبه
١٩٤ إجلاله لأبي بكر الخياط
١٩٤ طريقته في نقد الشعر
١٩٥ أدب النفس
١٩٦ رائية ابن نباتة السعدى
١٩٧ ما وقع بين ابن العميد وبين السعدى
١٩٨ عمل التوحيدى في هذه المحاورة
١٩٩ أبو الفتح ابن العميد ونزواته في صباه
٢٠٠ توجع أبي الفضل من سيرة أبنه
٢٠١ مرض ابن العميد ومماته

٢ - نثر ابن العميد

٢٠٢ عظمته الثرية
٢٠٣ خطاب وعيد
٢٠٧-٢٠٤ رسائله الوجدانية

ما يجب أن يتحلى به الرجل في الحياة

٢٠٨ الرسمية
٢١٠-٢٠٨ الرسائل الإخوانية

٣ - أبو حفص بن برد

٢١١ حياته وأدبه
٢١٢ ضياع رسائله
٢١٢ خطابه الى القواد والكتاب
٢١٣-٢١٥ صور النزاع بين العرب والبربر
٢١٥ قيمة ابن برد الأدبية
٢١٥ عهد المؤيد بن هشام
٢١٦ كتاب ابن برد عن المظفر حين قتل وزيره عيسى بن سعيد
٢١٧ الجانب النفعى والوجدانى عند ابن برد

٤ - أبو المغيرة بن حزم

٢١٨ حياته ونحوه
٢١٨ ما وقع بينه وبين أبي محمد بن حزم

صفحة	
٢٣٧	استهزاء الشراب
٢٣٨	استهزاء الدواء والمداد
٢٣٩	الموضوعات المكررة... ..
٢٤٠	تهنئة بالشفاء من المرض... ..
٢٤٠	تهنئة بالمرض !... ..
٢٤١، ٢٤٠	تكرير العبارات والألفاظ
٢٤٢، ٢٤١	رسائل المرصعة بالشعر

٧ - الصاحب بن عباد

٢٤٣	بداية أمره
٢٤٣	اتصاله بابن العميد
٢٤٤	ولايته الوزارة
٢٤٤	عدته العلمية
٢٤٤	أخلاقه بين الكرم واللؤم
٢٤٥	رغبته في استكتاب الصابي
٢٤٦	ما آتلفه التوحيدى على ابن عباد
٢٤٧	صور من غرور الصاحب
٢٤٨	مفتريات التوحيدى عليه
٢٤٩	رأى الثعالبي فى الصاحب
٢٥٠	من قصد الصاحب من الشعراء والكتاب
٢٥٢، ٢٥١	إغرابه بالكتابة فى الطب
	رسالة الخوارزمى الى تلميذ ظهر عليه
٢٥٢	الجدى
٢٥٣	كلام الخوارزمى عن الحرب... ..
	إغراب الصاحب بنظم قصائد خالية
٢٥٤	من بعض الحروف

صفحة	
٢١٩	سخريته من الدراسات الفقهية
٢٢٠	دقة حسه فى اختيار أطايب الحياة
٢٢٠	سوء ظنه بالناس
٢٢١	حنينه الى إخوانه
٢٢٢	غربة أدباء الأندلس... ..
٢٢٢	حديثه عن بلائه بالناس
٢٢٣	إقذاعه فى الهجاء... ..
٢٢٤	محاكاته لبديع الزمان
٢٢٥	معارضته لإحدى رسائل بديع الزمان... ..
٢٢٥	غلبة التكلف على نثره

٥ - أبو الفرج الببغا

٢٢٦	حياته ونحوه
٢٢٧	دورانه حول أغراضه النفسية
٢٢٨، ٢٢٧	نماذج من شعره... ..
٢٢٩	مودته لأبى إسحاق الصابى
٢٣٠	وصف الببغا
٢٣١	وصف الصابى للثبغا الببغا
٢٣٢، ٢٣١	غلبة النعة الوصفية على الببغا

٦ - نثر الببغا

٢٣٣	اهتمامه بالإخوانيات
٢٣٤، ٢٣٣	نماذج من إخوانياته... ..
٢٣٤	رسائله فى التهنئة بمولودة... ..
٢٣٥	تفضيل الأثى على الذكر
٢٣٥	"تهنئة" من تزوجت أمه
٢٣٦	رسالة ابن العميد فى الموضوع نفسه

صفحة

٩ - قابوس بن وشمكير

٢٧٧	نشأته وأدبه
٢٧٨	شعره في محنته
٢٧٨	صنعتة في اثره
٢٧٩	ما آبتكره من فنون البديع
٢٨٠	الجمع بين الصور المختلفة في الجملة الواحدة
٢٨٢-٢٨١	نقد رسائل قابوس
	دراسة الآداب القديمة تعطينا صورة
٢٨٥-٢٨٣	عجيبة من أحلام الانسانية
٢٨٨-٢٨٦	هل كانت لقابوس فلسفة؟
٢٨٩-٢٨٨	نشأة التكنية عند العرب

١٠ - أبو إسحاق الصابى

٢٩٠	حياته وأخلاقه النبيلة
٢٩٠	تاثيره بالروح الاسلامى
٢٩١	صداقته للشرىف الرضى
٢٩٣-٢٩١	قصيدة للشرىف في رثائه
٢٩٣	رغبته في أن يمدحه المتنبي
٢٩٤	تأبى الصابى عن الاتصال بالصاحب
٢٩٤	توجهه من الحياة
٢٩٥	رقعة شعره وعذوبته

١١ - رسائل الصابى

٢٩٦	فناء روحه في البيئة الاسلامية
٢٩٦	استقاؤه من منع على بن أبى طالب
٢٩٧	نثره تغلب عليه الصبغة الادارية
٢٩٧	ضعف الخلفاء لعهد

صفحة

٢٥٥	تحامل الصاحب على المتنبي
٢٥٦	إعجابه بمذهب ابن العميد
٢٥٧-٢٥٦	شذرات من رسالته عن المتنبي
٢٥٨	قيمتة الأدبية

٨ - أبو بكر الخوارزمى

٢٥٩	نبوغه بين معاصريه
٢٦٠	حياته وأسفاره
٢٦٠	كلمة عن أشعار النساء
٢٦١	اتصاله بالصاحب
٢٦١	تحامله على المتنبي بمجاملة للصاحب
٢٦٢	فساد الصلات بينه وبين الصاحب
٢٦٣	اصطدامه بالهمذاني بديع الزمان
٢٦٥-٢٦٤	شغوره بأعباء الحياة
٢٦٥	تشاؤمه من محبة من يعانون إدارار الأيام
٢٦٦	فهمة لأسرار البيان
٢٦٧	نثر البلاغة يرجع الى الصدق
٢٦٩-٢٦٨	الخوارزمى بين التحليق والإسفاف
٢٦٩	المرح والفكاهة
٢٧٠	الجوانب الجدية
٢٧١	شعوره بهزيمته في الحياة
٢٧٢	تصويره لبعض من عرف من الظالمين
٢٧٣	شاهد من سمعته المتكلف
٢٧٥-٢٧٤	هل كانت للخوارزمى فلسفة خاصة؟
	إشارته الى ما وضع بعد الاسلام على السنة
٢٧٥	الجاهلية

صفحة	صفحة
٣١١ غرامه بمقارعة كتاب المشرق	٢٩٧ نفاه بمواهبه الأدبية
٣١٢ خبثه في هجاء الافليلي	٢٩٨ فقرات وصفية
٣١٢ نموذج من نثره الجيد	٢٩٩ أثر الحكمة قليل في نثره
٣١٣ وصفه لاحدى المناقرات	٣٠٠ كتابه عن الطائع الى عضد الدولة
٣١٤ فتنته ببعض رسائله	٣٠٠ كتابه عن عز الدولة وقد زوجت ابنته
٣١٤ وصف البعوض ووصف الحلواء	٣٠١ تفوقه وسعة حيلته
٣١٥ رسالة بديع الزمان في وصف ما عند الشواء	١٢ - أبو عامر بن شهيد
٣١٦ وصف جارية	٣٠٢ آل شهيد
٣١٧ رسالته عن النار والحطب	٣٠٢ غرام أبي عامر بالفتوة والصبوة
٣١٧ قوته في اللغة العربية	٣٠٣ عيشه في القصف والتهتك
٣١٨ نثر ابن شهيد لم يبق منه إلا القليل	٣٠٤ كرم نفسه
١٤ - أبو الفضل الميكالى	فساد رأيه في شئون نفسه وسداد رأيه
٣١٩ أسرة الميكالى	في شئون غيره ، وما آتفق للشاعر
٣١٩ رأى الثعالبي في أبي الفضل	الفرنسي لافونتين في هذه الحال
٣٢٠ الاخوانيات عند الميكالى	٣٠٥ شعوره بكرامة الموت
٣٢١ كتابه الى الثعالبي	٣٠٥ نوحه على نفسه حين فكر في الانتحار
٣٢١ شكوى الزمان	٣٠٦ ظرفه في مرضه
٣٢٢ وصف رسائل الاخوان	نماذج من شعره الموجه حين أحس دنو
٣٢٣ صلته بأصدقائه وألافه	الموت
٣٢٣ فنه في نثره وشعره	٣٠٧ شعوره في إخوانه ومحبيه
٣٢٤ سلطانه على معاصريه	٣٠٨ ما أوصى أن يكتب على قبره
١٥ - بديع الزمان	٣٠٨ وفاته رحمه الله
٣٢٥ حياته وأسفاره	١٣ - نثر ابن شهيد
٣٢٦ رأى الثعالبي فيه	٣١٠ براعته في الإنشاء
٣٢٨ بوادر الشربينه وبين الخوارزمي	٣١١ مظاهر الالتواء في نثره

صفحة		صفحة	
٣٥٠	مناوشات لفظية	٣٢٩	المراسلات التي تقدمت المناظرة
	١٦ - نثر بديع الزمان	٣٣٠	جواب الخوارزمي
٣٥١	تصويره لألوان النفوس	٣٣١	صورة المناظرة
٣٥١	قوة نفسه وخطابه عن خليفة الميكالي ...	٣٣٢	المباراة في نظم الشعر
٣٥٢	خطابه الى من هنا بمرض الخوارزمي ...	٣٣٣	قصيدة بديع الزمان
٣٥٣	خطاب في التعزية	٣٣٤	قصيدة الخوارزمي
٣٥٤	تحليل هذا الخطاب	٣٣٤	جواب بديع الزمان
٣٥٤	سخريته من الناس	٣٣٥	مناوشة أدبية
٣٥٥	حقده على الأغنياء	٣٣٦	ملاحاة
٣٥٦	خطاب الى انسان ولّى صباه	٣٣٧	ملاحاة أشنع
٣٥٦	نقد الأخلاق	٣٣٨	هدنة تعقبها حرب
	١٧ - عبد العزيز بن يوسف	٣٣٩	تحرش وسفه
٣٥٧	حياته وأخلاقه	٣٤٠	قصيدة في التشيع
٣٥٧	صلته بالصاحب	٣٤٢	استئناف النضال
٣٥٨	نماذج من رسائل الاخوانية	٣٤٤	نقد قصيدة للخوارزمي
٣٥٨	ترصيع النثر بالشعر	٣٤٥	وصف الربيع
٣٥٩	وصف الرسائل الاخوانية	٣٤٦	ملاحاة
٣٥٩	فتح عمان وإبادة الزنوج	٣٤٧	مباراة في الترسل
٣٦٠	الرسائل السلطانية	٣٤٧	رسالة للخوارزمي في التجارات والأسعار
٣٦١	فقرات من نثره	٣٤٨	رسالة لبديع الزمان تقرأ معكوسة ...
		٣٤٩	هزيمة الخوارزمي

فهرس الاعلام

أحمد بن الحسين — ج ٢ ص ٢٢١ (وانظر المتنبي).
 أحمد بن الحسين — (انظر بديع الزمان).
 أحمد بن الخطيب — ج ١ ص ٨١
 أحمد زكي باشا — ج ١ ص ٢٩٧
 أحمد بن صالح — ج ١ ص ٢٩٧
 أحمد ضيف — ج ١ ص ٢٠٣، ٢٥٨، ٢٦٠
 أحمد بن طولون — ج ١ ص ٢٩٧
 أحمد عارف الزين — ج ٢ ص ١٧
 أحمد بن عبد ربه — ج ١ ص ١٢٢
 أحمد عبد الخالق السادات — ج ٢ ص ٢٨٩
 أحمد بن كثير الفرغاني — ج ١ ص ٣٠٢
 أحمد بن يوسف المصري — ج ١ ص ١١٣،
 ١٥٣، ٢٩٤، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٣، ٣٠٤
 الأحنف بن قيس — ج ١ ص ٨٩
 الأحوص — ج ١ ص ٢٣٩
 الأخشيدي (كافور) — ج ٢ ص ٢٦١
 الأخضري — ج ١ ص ٦٤
 الأخطل — ج ١ ص ٧٦، ٨٧، ٢٥١ ج ٢
 ص ١٢٣، ٢٣١، ١٢٣، ٣١١
 الأخفش — ج ٢ ص ٨٢
 ادريس — ج ١ ص ١٢٧ — ج ٢ ص ٣١٤

حرف الألف

آدم (عليه السلام) — ج ١ ص ١٨٣، ٢٤٧،
 ج ٢ ص ٢٩، ٤٠، ٤١
 أبان بن أبي عياش — ج ١ ص ٨٩
 ابراهيم بن زيد — ج ١ ص ١٢٧
 ابراهيم بن العباس — ج ٢ ص ٥٧
 ابراهيم مصطفى — ج ١ ص ٢٩
 ابليس — ج ١ ص ١٢٧
 ابن الأبهري — ج ١ ص ١٦٨
 أبي بن كعب — ج ٢ ص ٤٢
 ابن الأثير — ج ١ ص ١٨، ٩٥، ٩٦، ٩٨ ج ٢
 ص ١٥٩، ١٦٣
 الأمدى — ج ١ ص ١١٣، ج ٢ ص ٨٤، ٨٥،
 ٨٨، ٨٦
 ابن الأجدابي — ج ٢ ص ٣٩
 أحمد بن ابراهيم بن علي — ج ١ ص ٢٤٣
 أحمد أمين — ج ١ ص ٨٤، ٨٦، ٩٦
 أحمد بن أيمن — ج ١ ص ٣٠٠
 أحمد بن بندار — ج ٢ ص ٣٦
 أحمد بن حاتم — ج ١ ص ٢٤٦
 أحمد بن الحارث — ج ١ ص ٢٤٢

الأفليلي (أبو القاسم) - ج ٢ ص ٥٢، ٣١١، ٣١٢

الأفوه الأزدى - ج ١ ص ٩٤

الأفوع بن حابس - ج ١ ص ٨٩

أكثم بن صيفي - ج ١ ص ٤٨

أبو أمامة - ج ١ ص ٨٧

أمين عبد العزيز - ج ١ ص ٢٩٦

الأمين (الخليفة) - ج ٢ ص ٨٥

ابن الأنباري (محمد بن القاسم) - ج ١ ص ٢٤٦، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧؛ ج ٢ ص ٢٧

أوس - ج ١ ص ٩٤

أوسكار وايلد - ج ٢ ص ٩٤

أيوب بن القرية - ج ١ ص ٨٨

حرف الباء

بابك الخرمي - ج ١ ص ٣٣٢

البارودي - ج ١ ص ٢٠

الباقلاني - ج ١ ص ٦٧، ١١٣؛ ج ٢ ص ٥١، ٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦

٦٧، ٦٧٢، ٧٣، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١

البيضاء (أبو الفرج) - ج ١ ص ٢٧، ١٢٨؛ ج ٢ ص ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥

٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١

٢٤٢

بتروف Petrof - ج ٢ ص ١٦٦

البحترى - ج ١ ص ١٨، ٢٠، ٢١؛ ج ٢ ص ١٨، ٢٤، ٦١، ٦٢، ٦٦، ٨٢، ٨٤

٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ١٠١

١٠٨، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٣، ٣٠٩

أبو إسحاق بن حمام - ج ١ ص ٢٦٨

أبو إسحاق (الحاجب) - ج ٢ ص ٢٦١

إسحاق بن إبراهيم الموصلي - ج ١ ص ١٥٢، ٢٤

أبو إسحاق بن محمد البصري - ج ١ ص ١٣٥

الأسدي (أبو العلاء) - ج ٢ ص ١٨٢

الأسدي - ج ٢ ص ٢٠

الاسكافي (أبو القاسم) - ج ٢ ص ١٨٨

إسماعيل (عليه السلام) - ج ٢ ص ٤١

إسماعيل بن القاسم (أبو العتاهية) - ج ١ ص ١٥١

أرسططاليس - ج ٢ ص ١١٦، ١١٧، ١١٨

١٤٩، ١٥٣، ٢٨٨

أرشميدس - ج ٢ ص ٢٨٨

أشجع - ج ١ ص ١٦١

الأشعري (أبو الحسن) - ج ٢ ص ٧٧

الأشعري (أبو موسى) - ج ٢ ص ٧٥

الأصبهاني (أبو الفرج) - ج ١ ص ٣، ٣٤

٢٣٥، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٥

الأصمعي - ج ١ ص ١٥٠، ٢٤٦، ٢٥٠، ٢٥١

٢٥٢؛ ج ٢ ص ٣٩، ٤٦، ٧٢، ٩٢

١٠٩، ١٢٩، ١٣٠، ٢٧٦

الأصفهاني (الراغب) - ج ١ ص ١٦١

ابن الأعرابي - ج ١ ص ١٤٩، ج ٢ ص ٩١، ٩٢

١٩٠

الأعشى - ج ١ ص ٢١٧، ٢١٨؛ ج ٢ ص ٧٠

١٠٧

الأعظمي (نعمان) - ج ٢ ص ٢٧٧

أفلاطون - ج ٢ ص ١٥٣، ٢٨٨

- بشر بن المعتمر — ج ٢ ص ٢٤
 البشري (الشيخ سليم) — ج ١ ص ٢٩
 البشري (الشيخ عبد العزيز) — ج ١ ص ٢٩
 البصري (الحسن) — ج ١ ص ٦١، ٧٠
 البغيث — ج ١ ص ٢٠٦؛ ج ٢ ص ٧٦، ٢٨١
 البغدادى (أبو القاسم) — ج ١ ص ٣٣٨، ٣٣٩
 الى بقية القصة ص ٣٥٠
 البغدادى (أبو محمد عبد الرازق بن الحسن) —
 ج ٢ ص ١٩٨
 البكرى (توفيق) — ج ١ ص ٧٧، ٨٦، ١٧٣،
 ١٩١، ٢١٩
 البلاذرى (أبو جعفر) — ج ٢ ص ٢٥١
 بلانشو Blanchot — ج ١ ص ٤١
 بودلير Beaudelaire — ج ١ ص ١٨٣
 البها زهير — ج ٢ ص ٧١
 بيان الطفيل — ج ١ ص ١٤٣، ١٤٤
 بيدبا (مؤلف كليلة ودمنة) — ج ١ ص ٢٧١ ج ٢
 ص ٢٣٧
 بيراست الحكيم (ملك الجن) — ج ١ ص ٢٨٢

حرف التاء

- تأبط شرا — ج ١ ص ٩٤
 أبو تمام — ج ١ ص ١٨، ٢٠، ٢١، ٤٨، ٥٣،
 ١٨١؛ ج ٢ ص ٢٢، ٢٤، ٣٤، ٨٢، ٨٤
 ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٩
 ١٠١، ١٢٤، ١٢٥
 التنوخى — ج ١ ص ١١٣، ١٢٢ و ٣١٥ الى بقية
 الفصل

- البحترى (وهب بن وهب) — ج ٢ ص ٢٧٦
 بختيار — ج ١ ص ٢٤٤
 بدر الحرى — ج ٢ ص ٣٠٠
 بديع الزمان الهمذاني — ج ١ ص ١٧، ١٨،
 ٢٥، ٢٧، ٧٨، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨،
 ١١٠، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١٢٦، ١٢٨،
 ١٣٠، ١٣٢، ١٣٤، ١٦٦، ١٧٠، ١٧٤،
 ١٨٩، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣،
 ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٦، ٢٢٢،
 ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٣٢،
 ٢٦٢، ٢٩٤؛ ج ٢ ص ٢٢، ٢٨، ٢٩، ٣٠،
 ١٤٠، ١٤٧، ١٤٩، ١٨٦، ١٨٨، ٢٠٩،
 ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٦١،
 ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧٣، ٢٧٧، ٢٩٥، ٣١٢،
 ٣١٥، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٥، ٣٢٦ الى نهاية
 المناظرة ص ٣٥٠ ثم ثر بديع الزمان
 البديهي (أبو الحسن) — ج ٢ ص ٢٥٠
 ابن برد (الأصغر) — ج ٢ ص ٢١١، ٢١٢
 ابن برد (الأكبر) — ج ٢ ص ٣١١، ٣١٣،
 ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٣١٣
 بروكلمان — ج ١ ص ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢،
 ٢٠٣؛ ج ١ ص ١٦٧
 بزرجمهر — ج ١ ص ٩٩
 ابن بسام — ج ٢ ص ١٧٩، ٢١١، ٢١٢،
 ٢١٣، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٤٢،
 ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٥٩
 البسطامى (أبو عمر) — ج ٢ ص ٣٤١
 بطليموس — ج ٢ ص ٢٨٨
 بشار بن برد — ج ١ ص ١٨، ٢٠، ٤٨، ٧١، ١٥٥،
 ج ٢ ص ١٨٢

الخرجانی (عبد القاهر) - ج ۱ ص ۲۲، ج ۲ ص ۷،
۴۲

الخرجاني (أبو الحسن علي بن عبد العزيز) —
 ج ١ ص ٢٦٦، ١٣، ج ٢ ص ٢٦٧، ١٠٩،
 ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩،
 ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٧، ١٨١، ١٩٠

جریئر - ج ۱ ص ۸۷، ۲۰۷، ۲۲۰، ج ۲ ص ۱۸،
۳۱۱، ۲۸۱، ۱۲۳، ۱۰۹

جرير بن عبد الله - ج ۲ ص ۳۷

الجزایری (طاہر) - ج ۲ ص ۱۵۹

الجزیری (محمد ابراہیم) - ج ۱ ص ۵۵، ۵۴

الجمدى (النابعة) - ج ١ ص ٢٨

جعفر بن محمد بن ثوابه — ج ۱ ص ۱۷ ج ۲ ص ۱۴۱

جمیل - ج ۱ ص ۱۶۱، ۲۳۹، ۲۵۱ ج ۲ ص ۹۰

جنان (معشوقة أبي نواس) — ج ١ ص ٢٤١

ابن جنی - ج ۲ ص ۴۰

جوت - ج ۲ ص ۶۶

ابن الجوزی - ج ۱ ص ۲۰۲

جولڈ یزہیر - ج ۲ ص ۱۶۷

جویدی - ج ۲ ص ۳۸۶۳۷

حرف الحاء

أبو حاتم السجستاني - ج ١ ص ٢٥٠، ٦٧٧

الحاتمی (أبو علی) -- ج ۱ ص ۱۱۳؛ ج ۲ ص ۱۱۹، ۱۱۸، ۱۱۶، ۱۱۵، ۱۱۴، ۱۱۳، ۱۱۱

الحارث بن شمر الغسانی — ج ۱ ص ۴۸

أبو حامد المروزي — ج ١ ص ٢٨٢، ٢٨٣

التوحيدى — ج ۱ ص ۲۶، ۷۰، ۱۱۳
 ۱۱۵، ۱۱۶، ۱۲۱، ۱۲۳، ۱۳۰، ۱۳۱،
 ۱۶۳، ۱۶۶، ۱۶۷، ۱۶۹، ۲۵۲، ۲۸۱،
 ۲۸۲، ۴۸۵ ج ۲ ص ۱۳۳، ۱۳۴، ۱۳۵،
 ۱۳۶، ۱۳۷، ۱۳۸، ۱۳۹، ۱۴۰، ۱۴۱،
 ۱۴۲، ۱۴۳، ۱۴۴، ۱۴۶، ۱۴۷، ۱۹۰،
 ۱۹۳، ۱۹۸، ۱۹۹، ۲۲۴، ۲۴۶، ۲۴۷، ۲۴۸

۲۵۹، ۲۴۹

حرف الثاء

[illegible]

حرف الجيم

جابر بن حیان - ج ۲ ص ۱۴۶

الجاحظ - ج ١ ص ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠.

جالينوس - ج ۲ ص ۱۴۹، ۱۵۳

جبریل — علیہ السلام ج ۱ ص ۹۹ ، ۱۰۰

جبریل القرداحی — ج ۱ ص ۲۰۳

الجرجانی (أحمد بن محمد) - ج ۲ ص ۱۸۱

الخطيئة — ج ١ ص ٦٥٥ ، ٥٦ ؛ ج ٢ ص ٤٢

حماد بن إسحاق — ج ١ ص ٢٤٢

حمزة الأصفهاني — ج ١ ص ٢٣٠

حممة بن رافع — ج ١ ص ٢٥٢

حميد الدين البلخي — ج ١ ص ٢٠٣

حميد بن ثور — ج ٢ ص ١٠٥

الحميري (السيد) — ج ٢ ص ١٢١ ، ٩٨

الحناط — ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣

ابن حيان — ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٥

الحيري (أبوزكريا) — ج ٢ ص ٣٤٤

حرف الخاء

خالد الخزيت — ج ١ ص ٢٣٨

خالد بن عبد الله القسري — ج ١ ص ٧٣

ابن خالويه — ج ١ ص ٢٤٩ ؛ ج ٢ ص ١١٤

الخبزأرزي — ج ١ ص ٢١٧

الخبزجي (أبودلف) — ج ١ ص ٣٥١

الختعمي — ج ١ ص ١٢٠

أبو الخطاب (الصابي) — ج ١ ص ١٣٩

الخفاجي — ج ١ ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١

ابن خفاجة الأندلسي — ج ١ ص ١٧٣

ابن الخلال — ج ٢ ص ١٢٠

ابن خلدون — ج ٢ ص ٢١٥

خلف الأحمر — ج ٢ ص ٨٥ ، ٩٢ ، ١٣٠

ابن خلكان — ج ١ ص ١٣١ ، ٢٤٧ ؛ ج ٢ ص ١٧

٩٤ ، ١٢٠ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤

١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٦٠ ، ٣٢٨

حافظ إبراهيم — ج ١ ص ٢٠ ، ٤٣ ، ٥٤ ، ١٧٣

الحجاج — ج ١ ص ٤٧ ، ٦٢ ؛ ج ٢ ص ١٣٣

٢٧٢ ، ٢٧٣

ابن الحجاج — ج ١ ص ٣٣٨ ، ٣٤٠ ؛ ج ٢ ص ١١٣

ابن أبي الحديد — ج ١ ص ٦٩ ، ٩٦ ، ١٠١

٢٨٢ ، ٢٨٣ ؛ ج ٢ ص ١٥٩

الحربي (أبو بكر) — ج ٢ ص ٣٤٤

الحريري — ج ١ ص ٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣

٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٩٤ ؛ ج ٢ ص ٢٢٢ ، ١٦٢

الحريزي (يهود ابن شلومو) — ج ١ ص ٢٠٣

ابن حزم (أبو المغيرة عبد الوهاب) — ج ١ ص

١١٠ ؛ ج ٢ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١

٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥

ابن حزم (أبو محمد) — ج ١ ص ١٢٥ ؛ ج ٢ ص

١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢١٩

٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧

ابن حزم (أبو بكر) — ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٨٣

٢٨٤ ؛ ج ٢ ص ١٧٤

حسان — ج ١ ص ٢١٧

الحسن بن علي — ج ١ ص ١٢٧

حسني مخلوف — ج ١ ص ٢٩٤

أبو الحسين (السيد) — ج ٢ ص ٣٤٠

الحسين بن محمد الخشنامي — ج ٢ ص ٣٢٧

الحصري (أبو إسحاق) — ج ١ ص ٢٤ ، ٢٧

٧١ ، ١٢٦ ، ١٩٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٧

٢٣٩ ، ٢٣٥ ، ١٨ ؛ ج ٢ ص

ابن الخصيب — ج ١ ص ٨٢

الخليل بن أحمد — ج ١ ص ١٨٤، ٢٦٩؛ ج ٢ ص ٩٢، ٤٤٤، ٤٤٣، ٤٤٢

خنافر الحميري — ج ١ ص ٣٥، ٣٦، ٥٦

الخنساء — ج ٢ ص ١٠٧

خواجا — ج ١ ص ٢٤٩

خوارزم شاه (مأمون بن مأمون) — ج ٢ ص ١٧٩

الخوارزمي (أبو بكر) — ج ١ ص ١٨، ١٩، ٢٦

١٠٥، ١٠٦، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١٢٦

١٢٧، ١٣٠، ١٣١، ١٧٤، ٣٤٦؛ ج ٢

ص ١٣٩، ١٤٠، ١٨٦، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٥

٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٩

٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥

٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١

٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٩٤

٣١٢، ٣١٩، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٠

٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٤٢، ٣٤٣

٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٢

الخطاط (أبو بكر) — ج ٢ ص ١٩٤، ١٩٥

حرف الدال

ابن الداري — ج ٢ ص ٢٤٥

الدؤلي (أبو الأسود) — ج ١ ص ٥٥؛ ج ٢ ص ٤٢، ٤٣

دانونزيو (شاعر إيطاليا) — ج ٢ ص ٢٨٥

ابن داود — ج ١ ص ٨٣، ٨٤، ٨٥؛ ج ٢ ص ١٧١

الدارقطني — ج ١ ص ٢٤٧

ابن درستويه — ج ١ ص ١٨، ٢٦٩

ابن دريد — ج ١ ص ٧٣، ١١٣، ١٩٨، ١٩٩

٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩

٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٥٠، ٢٥١

٢٥٢؛ ج ٢ ص ٨٢، ١٩٠، ٣١٩

دعبل بن علي — ج ٢ ص ٩١

دكين (من حمير الجن) — ج ١ ص ٢٦٣

دوزي — ج ٢ ص ١١٧

ديك الجن — ج ١ ص ١٧٣؛ ج ٢ ص ١٨، ٢٥

ديمومبين (Demombynes) — ج ١ ص ٦٩

١٨٠، ١٨٧، ٢٠٠؛ ج ٢ ص ١٦٧

حرف الذال

الذبياني (الناطقة) — ج ١ ص ٦٥؛ ج ٢ ص ٧٠

١٠١، ١١٢، ١٢٦، ١٣٥

ابن ذريح (قيس) — ج ٢ ص ٧٥

أبو ذر — ج ٢ ص ٢٧١

حرف الزاء

رؤبة — ج ٢ ص ٢٢

الرازي (أبو الحسين بن فارس) — ج ٢ ص ٢٧

الرافعي (مصطفى صادق) — ج ١ ص ١٦٢

ربيعة بن حذار — ج ١ ص ٨٩

رجاء (أبو سعد) — ج ٢ ص ١٨٥

الرستي (أبو سعيد) — ج ٢ ص ٢٥٠

ابن رشد — ج ١ ص ٢٨٢

الرشيد — ج ٢ ص ٤٦، ٢٥٠

ابن رشيق — ج ١ ص ١٨، ١٩، ٢١، ٢٢

الرضي (الشريف) — ج ١ ص ٢٠، ٢٦، ٦٩

١١٣، ١٢١، ٢٨٣؛ ج ٢ ص ٢٣١، ٢٥٩

٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٦

الرقاشي (عبد الصمد بن الفضل) — ج ١ ص ٨١

٨٩، ٩٣

الرقاشي (الفضل بن عيسى) — ج ١ ص ٨٠، ٨٩، ٩٢

ركن الدولة — ج ١ ص ١١٦، ١٩٥٦، ٢٠٠٦، ٢٠٣
ج ٢ ص ٢٤٤، ٣٦٠

الزمانى (على بن عيسى) -- ج ١ ص ٨٩، ج ٢ ص ١١٤
ذو الرمة — ج ١ ص ١٨٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٦، ٢١٧

روش (Ruch) — ج ۲ ص ۲۵۴

الروزباری (أبو بکر بن علی) - ج ۱ ص ۲۸۶

ابن الرومی - ج ۱ ص ۲۰، ۶۱؛ ج ۲ ص ۱۰۵،
۱۲۶، ۱۳۳، ۱۳۷، ۱۸۰، ۲۱۶، ۲۱۹
۳۰۰

رينان (Renan) — ج ۱ ص ۴۴۲ ج ۲ ص ۳۳۶۳۲

حرف الزای

زبدة الحقب (شيطان بديع الزمان) - ج ١
ص ٢٦٧

أبو زيد الطائي - ج ١ ص ٢١٥

ابن الزبيرى --- ج ٢ ص ٢٥

الزبير بن بكار - ج ١ ص ٢٤٢

الزبيرى (بكار بن عبد الله) - ج ٢ ص ٢٧٦

الزجاج - ج ٢ ص ٨٢

الزجالي (أبو الوليد) - ج ٢ ص ٣٠٨

الزرکلی (خیر الدین) - ج ۲ ص ۱۴۵، ۹۴

ابن زکریا - ج ۲ ص ۲۵۱

بنت زكريا بن يحيى التميمي - ج ٢ ص ١٧٤

الزنا بیری - ج ۱ ص ۳۴۱

أبو زكريا - ج ۲ ص ۱۴۶

الزعفراني (أبو القاسم) - ج ٢ ص ٢٥٠

الزوزنى (أبو على) - ج ٢ ص ١٨٨

الزوزنى (الكاتب) - ج ٢ ص ٢٨٠

زهير بن نعيم (من الجن) - ج ١ ص ٢٦١، ٢٦٢

زہیر - ج ۲ ص ۱۳۰

ابن الزيت — ج ١ ص ١٨ ؛ ج ٢ ص ٥٧

الزيات (أحمد) - ج ١ ص ٦٠

زياد بن أبي سفیان -- ج ١ ص ٤٧ ، ٦٣ ، ٩٢

زیدان (جورجی) - ج ۱ ص ۲۳۴ ج ۲ ص ۹۴

أبو زيد - ج ١ ص ٧٧

ابن زیدون — ج ۱ ص ۱۸۰ ، ۱۸۱ ، ۲۹۴ ج ۲
ص ۱۵۹ ، ۲۰۹

زید بن عدی" — ج ۲ ص ۱۸۶

زید بن علی - ج ۱ ص ۱۲۷

أبو زيد القرشي - ج ٢ ص ٢٦٠

حرف السين

السجستانی (أبوسليمان محمد بن طاهر) - ج ۲
ص ۱۴۲

السجستاني (أبو حاتم) - ج ١ ص ٢٥٢

سحبان - ج ۱ ص ۱۳۹، ۱۳۷، ۱۳۹

ابن السراج — ج ۲ ص ۸۲

سعد باشا — ج ۱ ص ۵۴، ۵۵

ابن سعدان (أبو عبد الله) - ج ١ ص ١٢٣.

ابن سعد (أبو الحسين) - ج ٢ ص ١٨٥

السعدى (ابن نباتة) - ج ٢ ص ١٥٩، ١٩٦،
١٩٨، ١٩٧

سعید بن حمید - ج ۱ ص ۱۹۱ ج ۲ ص ۱۰۸

سقراط - ج ۲ ص ۱۴۹، ۱۵۳

- أبو الطيب (الامام) - ج ٢ ص ٣٤٠، ٣٤٢
أبو الطيب اللغوى - ج ٢ ص ١١٤
أبو الطيب - ج ٢ ص ٢٢٤ (وأنظر المتنبي).

حرف العين

- عاتكة بنت قند - ج ٢ ص ١٧٤
العارض (أبو الفضل) - ج ٢ ص ٩
عامر بن الطفيل - ج ١ ص ٩٤
عامر بن الظرب العدواني - ج ١ ص ٢٥٢
العامرى (المظفر أبو عامر) - ج ٢ ص ٥٢،
٢١٢، ١٤٦، ٥٣

أبو عامر النجدى - ج ١ ص ١٦٧

- ابن عباد (الصاحب) - ج ١ ص ١١١، ١١٣،
١١٤، ١١٦، ١١٧، ١٢١، ١٣٠، ١٣١،
١٧٤ ج ٢ ص ١٧، ٢٨، ٣٢، ٩٤، ١٨٢،
١٩٤، ٢٢٧، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦،
٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٤،
٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١،
٢٦٢، ٢٦٣، ٢٧٧

- العباس بن الحسين (أبو الفضل) - ج ١ ص ١٦٧
ابن عباس - ج ٢ ص ٤١، ٨٧، ٩٧، ٣١٣،
٣١٤

- أبو العباس (كاتب محمد بن إبراهيم) - ج ٢ ص ٢٧١
أبو العباس (عبد الله بن المعتز) - ج ١ ص ٥٦
أبو العباس بن سابور - ج ١ ص ١٣٩
أبو العباس - ج ١ ص ١٣٧
العباس بن الأحنف - ج ٢ ص ٧٥، ١٠٧،
١٢١

- العبيشى (ابن أبي الفوارس) - ج ٢ ص ٢٧٦

- الصولى (إبراهيم) - ج ١ ص ١٧، ١٨، ٢ ج ١٨١

- الصولى (أبو بكر) - ج ١ ص ٥٦، ٢٤٩
الصيمرى (أبو جعفر) - ج ١ ص ١٦٧

حرف الضاد

- الضبي (أبو العباس) - ج ٢ ص ٢٥٠
الضبي (أبو عامر) - ج ٢ ص ٣٥٣
ضمرة بن ضمرة - ج ١ ص ٨٩

حرف الطاء

- الطائع لله - ج ٢ ص ٣٦٠
الطائى (أبو تمام) - ج ٢ ص ١٢٣، ١٢٦،
ابن طباطبا - ج ٢ ص ٨٢
ابن أبى طاهر (أحمد) - ج ١ ص ١٧
الطبرى (أبو عبد الله) - ج ١ ص ٤٩، ٢ ج ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧

الطبنى - ج ٢ ص ٣١٣

- طه حسين - ج ١ ص ١٨، ٣٣، ٣٤، ٣٧،
٣٨، ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٤٨، ٦٠، ٦١، ٦٤،
١٦١، ١٧٣، ١٨٣، ٢٠٠، ٢٣٠، ٢٣٤،
٢٤٦ ج ٢ ص ٤٦

طرفة - ج ١ ص ٢١٧، ٢٢٠، ٢ ج ٢٠ ص ٢٠

الطرماح - ج ٢ ص ١٢٥

ابن الطواء - ج ١ ص ٣٤١

ابن طوق (مالك) - ج ١ ص ٨١

ابن طولون - ج ١ ص ١٧

أبو الطيب الرازى الكيائى - ج ٢ ص ١٤٦

العبيد (في عرف أهل الأندلس) - ج ٢ ص ٢١٣
 أبو العتاهية - ج ٢ ص ١٢٧، ١٢٥، ١٠٥
 عتية بن أرقم (شيطان الجاحظ) - ج ١ ص ٢٦٥
 عتية بن عبيد - ج ٢ ص ٢٤٥
 عتية بن مرداس - ج ١ ص ٨٧
 عدة الدولة - ج ٢ ص ٣٠٠
 عز الدولة - ج ٢ ص ٣٠٠
 العسكري (أبو أحمد) - ج ٢ ص ٢٨٨، ٩٥، ٩٤
 العسكري (أبو داود المتكلم) - ج ١ ص ٢٢١
 العسكري (أنظر أبو هلال)
 عبد الحميد العبادي - ج ١ ص ١٨
 عبد الحميد بن يحيى - ج ١ ص ٦٣، ٦١، ٦٠
 ١٣٣، ٧٢، ٧١، ١٣٠، ١٣٩، ٢٦٢ ج ٢ ص ١٣٣
 عبد الرحمن الشيرازي - ج ٢ ص ١٨٨
 عبد الرحمن بن عبد الله ابن أنحى الأصمعي -
 ج ١ ص ٢٤٩، ٢٤٦
 عبد الرحمن بن هشام - ج ٢ ص ٢١٨
 عبد الصمد بن الفضل - ج ١ ص ٨٨، ٧٩
 عبد الصمد بن المعذل - ج ١ ص ٢١، ٢٠
 عبد العزيز البشري - ج ١ ص ١٨٥
 عبد العزيز (أبو الحسن صاحب ديوان الرسائل) -
 ج ٢ ص ٢٦٤
 عبد العزيز جاويز - ج ١ ص ٥٤، ج ٢ ص ٧١،
 ٢٢٥
 عبد العزيز بن يوسف - ج ١ ص ٢٦، ٢٥ ج ٢
 ص ٣٥٧ - ٣٦١
 عبد الله بن خلف - ج ١ ص ٢٤٠

عبد الله بن شداد - ج ١ ص ٧٤
 عبد الله بن عبد الله - ج ٢ ص ١٨٦
 عبد الله عفيفي - ج ١ ص ١٦١
 عبد الله بن عمار البرقي - ج ٢ ص ٢٧٦
 عبد اللطيف بن يوسف البغدادي - ج ٢
 ص ١٥٩
 عبد الملك بن مروان - ج ١ ص ٩١
 ابن عبد الواحد (أبو الحسن بن محمد) - ج ٢
 ص ٨٢
 ابن عبد الواحد (القاضي أبو جعفر) - ج ٢
 ص ٨٢
 العتيبي (أبو نصر) - ج ١ ص ١٧٠
 أبو عبيدة - ج ١ ص ٢٨٥، ٢٨٣، ٢٥٢، ٦٩
 عثمان بن إبراهيم الخاطبي - ج ١ ص ٢٣٨
 عثمان بن عفان - ج ١ ص ١١٢، ٦٩، ٥٨
 ٢٣٨ ج ٢ ص ٤٢
 عثمان بن مظعون - ج ٢ ص ٦٦
 عثمان بن يوسف القليوبي - ج ٢ ص ١٥٩
 العجاج - ج ١ ص ٧٤
 العجلي (محمد بن علي) - ج ٢ ص ٣٤
 عدى بن زيد - ج ٢ ص ٢٢
 العذري - ج ١ ص ٢٣٨
 عصمة بن بدر الفزاري - ج ١ ص ٢٠٦،
 ٢٠٧
 عضد الدولة - ج ١ ص ١١١، ١١٩، ١٢٠،
 ١٢٣، ١٢٢ ج ٢ ص ١٢٠، ١٤٥، ٢٤٤، ٣٥٧،
 ٣٦٠، ٣٥٩

العكلى (بن حزام) — ج ١ ص ٢٤٨ ج ٢ ص ٤٦
 علقمة بن لبيد — ج ١ ص ٧٤
 العلوى (أبو طالب) — ج ٢ ص ٢٤٦
 العلوى (أبو البركات) — ج ٢ ص ٣٣٠
 العلوى (محمد) — ج ٢ ص ٢٦٨، ٢٧١
 أم عفيف المحاربية — ج ١ ص ٢٦٤
 العقاد (عباس محمود) — ج ١ ص ١٦١
 عقال بن شبة — ج ١ ص ٧٠
 عليكة بن أحمد — ج ١ ص ١٤٢، ١٤٦
 ابن عمر القاضى — ج ٢ ص ١٨٢
 على بن أبى طالب — ج ١ ص ٢٤، ٣٣، ٤٧، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٣، ٦٨، ٦٩، ٧٥
 ١١٢، ١٢١، ٢٨٣، ٢٨٤، ج ٢ ص ٢٩
 ١٦٤، ٢٧٥، ٢٩٦
 على ابن ابراهيم — ج ٢ ص ٢٧
 على بن أحمد (عليكة) — ج ١ ص ١٤٣
 على بن الجهم — ج ٢ ص ١٨
 على بن عاصم — ج ١ ص ٢٣٩
 على بن عبد العزيز — (أنظر الجرجاني أبا الحسن)
 على بن عبدة الرياحى — ج ١ ص ١٥٢
 على بن عرس الموصلى — ج ١ ص ١٤٣
 على بن كامه — ج ١ ص ١١٦
 على ماهر باشا — ج ١ ص ١٨٥
 على بن محمد الكوفى — ج ٢ ص ١٨
 على بن المستنير بن بنت قطرب — ج ١ ص ٢٤٦
 على بن موسى — ج ١ ص ١٢٧

على بن هشام القائد — ج ١ ص ٢٤، ١٥٢
 على يوسف — ج ٢ ص ٧١
 ابن عمار — ج ٢ ص ٨٢
 عمر بن الخطاب — ج ١ ص ٤٧، ٥٠، ٥٤، ٥٨، ٦٩، ١٤٣، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥
 ج ٢ ص ٧٥
 عمر بن أبى ربيعة — ج ١ ص ١٨١، ١٨٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١
 ٢٤٢، ج ٢ ص ٩٧
 عمر بن ذر — ج ١ ص ٨٧
 عمر المطوعى — ج ٢ ص ٣٢٣
 عمر بن هبيرة — ج ١ ص ٢٠١
 عمر بن عبد العزيز — ج ١ ص ٦١، ٧٠
 أبو عمر الزاهد — ج ١ ص ٢٤٩
 عمر بن شبة — ج ١ ص ٢٤٢
 عمرو (معشوق ابن شهيد) — ج ٢ ص ٣٠٧
 عمرو بن سعيد — ج ١ ص ٢٥٢
 أبو عمرو (غلام ثعلب) — ج ٢ ص ١٨٥
 عمرو بن عبيد — ج ١ ص ٨٩، ٢٠١
 عمرو بن كلثوم — ج ١ ص ٢١٧
 أبو عمرو بن العلاء — ج ٢ ص ٤٢
 ابن العميد (أبو الفتح) — ج ١ ص ١١٧، ١١٨
 ١١٩، ج ٢ ص ١٩٩، ٢٦٩
 ابن العميد (أبو الفضل) — ج ١ ص ١٨، ١٩، ٢٦، ٢٧، ١٠٥، ١١١، ١١٣، ١١٥، ١١٦، ١٣١، ١٥٧، ١٦١، ١٧٠، ١٧٤
 ١٩٠، ج ٢ ص ٥٢، ١٣٤، ١٣٧، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٨٢، ١٨٥، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥
 ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢

نفر الدولة - ج ١ ص ١٢٠ ج ٢ ص ٢٧٧، ٢٤٤
ابن الفرات (محمد بن علي) - ج ٢ ص ١٨٥
أبو فراس - ج ٢ ص ١٨٨، ٢٠٢، ٢٥٩
فرانك هاريس (Franc Haris) - ج ٢ ص ٢٦٩
الفراهيدي (الخليل بن أحمد) - ج ١ ص ٢٦٦
الفرزدق - ج ١ ص ٨٧، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٢٠
ج ٢ ص ٢٠، ٢١، ٢٢٢، ٢٦٦، ٢٧٦، ٣١١
فرعون - ج ١ ص ٢٧٢، ٢٧٣
الفضل بن محمد (القاضي أبو بشر) - ج ٢
ص ٢٦٦
فلوجل (Flügel) - ج ١ ص ٨٤
فيتاغورس - ج ٢ ص ٢٨٨

حرف القاف

قابوس بن وشمكير - ج ١ ص ١١٣، ١٥٧ ج ٢
ص ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣
٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٨٩
ابن القارح - ج ١ ص ٢٦٠
قاسم أمين - ج ٢ ص ٧١
القاسم بن علي - ج ٢ ص ٩
أبو القاسم الإفلح - ج ٢ ص ٥٧
أبو القاسم الأمدي - ج ٢ ص ٨٢، ٨٧، ٨٩
القالي - ج ١ ص ٢٠٠، ٢٣٠، ٢٥٠ ج ٢
ص ٢٧٣
ابن قتيبة - ج ١ ص ٥٩، ٦٠، ٩٩، ١٢٩
قدامة بن جعفر - ج ١ ص ١٨، ٤٤، ٥٦، ٩٧
٩٨، ١٠٦ ج ٢ ص ٨٢، ٢٧٩
ابن قريعة (أبو بكر) - ج ١ ص ١٤١

٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨
٢٠٩، ٢١٠، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٣٦، ٢٤٣
٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٥٦، ٢٥٩
٢٦١، ٣٥٧

عميد الملك - ج ٢ ص ١٤٥

عيسى بن سعيد - ج ٢ ص ٢١٦

عيسى بن عمر - ج ٢ ص ٣٧

عيسى بن موسى العباس - ج ١ ص ١٢٧

عيسى بن هشام - ج ١ ص ٨٦، ١٣٣، ١٣٩
١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٩
٢٢٣، ٢٢٤

أبو العيلاء - ج ١ ص ٨١، ٨٤

حرف الغين

الغزالي - ج ١ ص ٢٨٢، ٣٣٧

الغضنفر بن حمدان - ج ٢ ص ٣٦١

حرف الفاء

ابن فارس (أحمد) - ج ١ ص ٤٤، ٥٥، ٥٦
١١٣، ١٨٤، ٢٤٩ ج ٢ ص ٢٣، ٢٧
٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧
٣٨، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨
١٩٠، ٢٣١، ٢٤٤، ٣٢٦

الفارسي (أبو علي) - ج ٢ ص ١١٤

السيدة فاطمة (بنت الرسول) - ج ١ ص ١٢٦

فاطمة بنت عبد الملك - ج ١ ص ٢٤٠

أبو الفتح الاسكندري (بطل المقامات) -

ج ١ ص ٧٨، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦
١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٩٨، ٢٠٩، ٢١٥، ٢١٩
٢٢٤ ج ٢ ص ٢٠٠

- المأموني (أبو طالب) — ج ٢ ص ٢٥٠
 مؤيد الدولة — ج ١ ص ١١٨، ١١٩، ج ٢ ص ٩٤، ٢٤٣، ٢٤٤
 المبرد (محمد بن يزيد) — ج ١ ص ٢٤٦، ج ٢ ص ٩١، ١٢٨، ١٨٦، ٢٥٦
 متى بن يونس — ج ١ ص ٢٨١
 المتنبي — ج ١ ص ١٨٠، ١٧٤، ٢٠٠، ٢١٥، ٢١٨، ج ٢ ص ١٠، ١٧، ٢٤، ٥٢، ٦٦، ٧١، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١١١، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٣٥، ١٢٨، ١١٩، ١١٨، ١١٧، ١٨٩، ١٩٤، ٢٣١، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٩٣، ٣٣٤
 مثنى الشاعر — ج ٢ ص ١٢٥
 مجنون ليلي — ج ١ ص ١٦١، ١٨٥، ٢٣٩
 المجوسي (أبو نصر) — ج ١ ص ٢٠، ١٢٣
 محبوب ثابت — ج ١ ص ١٨١
 المحسن (أبو علي) — ج ٢ ص ٢٤٧
 المحسن بن الحسين — ج ١ ص ٢٤٩
 المختار بن عبيد — ج ١ ص ٧١
 ابن المدبر (ابراهيم) — ج ١ ص ٢٤، ١٥٥، ١٥٦، ٢٠٠، ٢٠١، ج ٢ ص ٢١٢
 ابن محلم الشيباني — ج ١ ص ٢٢٥
 محمد (عليه السلام) — ج ١ ص ٢٤، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٨، ٦٨، ٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٦، ٩٨، ١١١، ١٢٧، ١٤٧، ١٨٥، ج ٢ ص ٢٥، ٤١، ٤٤، ٦٦، ٧٠، ٧٢، ١٠٥، ١٥٩، ١٦٠، ٢١٧
 محمد بن ابراهيم (من أعداء الشيعة) — ج ١ ص ١٢٦
 محمد بن ابراهيم (كان يكتب عنده أبو العباس

- ابن قرة — ج ٢ ص ٢٥١
 قس بن ساعدة — ج ١ ص ٣٥
 قريط بن أنيف — ج ٢ ص ٦٨
 قطري بن الفجاءة — ج ١ ص ٩١
 القلقشندي — ج ١ ص ٢٣، ٢٧، ٢٨، ٢٠٢، ٢٨٢، ج ٢ ص ٢١٥، ٢٤١
 القيس (امرؤ القيس بن حجر) — ج ١ ص ٢٨، ٦٠، ٦٥، ١٨١، ٢١٧، ٢١٩، ٢٣٩، ج ٢ ص ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٥، ٦١، ٦٥، ٧٠، ٨٢، ١٠١، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٠، ٢٠٢

حرف الكاف

- الكسائي — ج ٢ ص ٣٩
 ابن الكلبي — ج ١ ص ٢٥٠، ج ٢ ص ٢٧٥
 كلثوم ابن عمرو العتابي — ج ١ ص ٨١
 كولان (Colin) — ج ١ ص ٣٤٢

حرف اللام

- لافونتين (La Fontine) — ج ٢ ص ٣٠٤
 لامرتين (Lamartine) — ج ٢ ص ٦٦
 لييد — ج ٢ ص ١٩، ٢٩
 لقمان بن عاد — ج ١ ص ٢٤٨

حرف الميم

- ماسينيون Massignon — ج ١ ص ٦٧، ٢٣٦، ج ٢ ص ١٣٣، ١٦٧
 مالك بن الأخطل — ج ١ ص ٨٧
 المأمون — ج ١ ص ١٢٧، ج ٢ ص ١٨٦

محمد لطفي جمعة — ج ١ ص ٢٠٥
 محمد نجيب الغرابي باشا — ج ١ ص ٢٩
 محمد بن منصور (أبوسعبد) — ج ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٩
 محمد المويلحي — ج ١ ص ١٧٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤
 محمد المهدي — ج ١ ص ٢٥٨ ج ٢ ص ٢٦٠
 محمد بن موسى — ج ١ ص ٣٠٢
 محمد هلال بك — ج ١ ص ١٧٤
 محمد هيكل بك — ج ١ ص ٣٣
 محمد بن يوسف الثغري — ج ٢ ص ٨٩
 المهلب (أبو محمد) — ج ١ ص ١٦٧ ، ٢٨٢
 ابن ميمون (العباس) — ج ٢ ص ١٣٠
 المرزباني (أبو عبد الله) — ج ١ ص ١١٣ ، ج ٢
 ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،
 ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٢٦١
 ابن المرزبان (أبو نصر) — ج ٢ ص ٣٤١
 مرسية (Marçais) — ج ١ ص ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٣ ،
 ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٧١ ،
 ١٩٩ ج ٢ ص ٦٤ ، ١٦٧
 المرقش — ج ١ ص ٤٨
 مروان — ج ١ ص ٦٠
 مروان بن أبي حفصة — ج ٢ ص ٢٧٦
 المستعين — ج ١ ص ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ج ٢ ص ١٢٩
 أبو مسلم — ج ١ ص ٧٠
 مسلم بن الوليد — ج ١ ص ١٨ ، ٢٠ ، ٤٨ ، ج ٢
 ص ٩٠ ، ٢٥٧

الذي راسله الخوارزمي) — ج ٢ ص ٢٧١
 محمد بن أحمد — (أنظر أبو المظهر الأزدي) .
 محمد بن أحمد — ج ٢ ص ٢٧
 محمد بن أرمك — ج ٢ ص ٣٤١
 محمد بن اسحاق — ج ١ ص ٨٤
 محمد بنخيت — ج ٢ ص ٣٢
 محمد بن جامع الصيدلاني — ج ٢ ص ١٧١
 محمد بن جعفر — ج ١ ص ٢٤٦
 محمد بن حامد — ج ٢ ص ١٨٩
 محمد بن حبيب — ج ١ ص ٢٤٢
 محمد بن الحسين (ابن أخت الفارسي) — ج ٢
 ص ٧
 محمد بن خلف — ج ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠
 محمد السباعي — ج ١ ص ١٧٤
 محمد بن سعيد الكاتب — ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٤
 محمد بن سلام — ج ١ ص ٣٧
 محمد بن سليمان — ج ١ ص ٢٩٧
 محمد بن صالح الغوري — ج ١ ص ٢٩٨
 محمد عبده — ج ١ ص ١٢٨ ، ٢٢٢ ج ٢ ص ٧١ ،
 ١٣٣
 محمد عبد الرحمن المستكني — ج ٢ ص ٢١٢
 محمد بن علي — ج ٢ ص ١٠٥
 محمد بن عمران المرزباني — ج ١ ص ٢٤٧
 محمد عبد المطلب — ج ٢ ص ٢٦٩
 محمد فريد — ج ١ ص ١٨١

المنصور (الخليفة) - ج ١ ص ٢٠١
 المنصور بن أبي عامر - ج ٢ ص ١٧٤
 المنفلوطي - ج ١ ص ١٨٤؛ ج ٢ ص ٧١، ٨٩
 المهدي - ج ١ ص ٣٦، ٣٧، ٢٠١؛ ج ٢ ص ١٨٢
 المهلب (أبو محمد) - ج ١ ص ١٦٧؛ ج ٢ ص ٢٥٥، ٢٩٣، ٢٩٩
 موسى عليه السلام - ج ٢ ص ٧٧، ١٨٣
 موسى بن جعفر - ج ١ ص ١٢٧
 الموصل (إسحاق) - ج ٢ ص ٨٥
 ميتس (Mez) ج ١ ص ٣٣٨؛ ج ٢ ص ٢٥٤
 ابن ميادة - ج ١ ص ١٨٤؛ ج ٢ ص ٤٤
 الميكالي (أبو نصر) - ج ١ ص ١١١؛ ج ٢ ص ٣٥١
 الميكالي (أبو الفضل) - ج ١ ص ١١٣، ١٧٠
 ١٧٨؛ ج ٢ ص ١٨٢، ١٨٦، ٢٠٩، ٢٢٠
 ٢٢٦، ٢٦٩، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٤
 ٣٢٥

حرف النون

الناغية - ج ١ ص ٢٢٠
 ابن ناقي - ج ١ ص ٢٠٢
 ابن نباتة الخطيب - ج ١ ص ٥٨، ١١٣؛ ج ٢ ص ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥
 ابن نباتة المصري - ج ٢ ص ١٥٩
 ابن نباتة السعدي - ج ١ ص ٢٠٢
 نجاح بن سلمة - ج ٢ ص ١٣٤
 نجبة بن علي - ج ٢ ص ٢٤٤
 أبو النجم - ج ١ ص ١١٧

ابن مسكويه - ج ١ ص ١١٣، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤؛ ج ٢ ص ١٣٧، ١٣٨، ١٤٥
 ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٩٣، ١٩٦
 ٢٠٠، ١٩٨
 ابن مصعب (عبد الله) - ج ٢ ص ٢٧٦
 أبو المطهر الأزدي - ج ١ ص ٢٣٨، ٣٤٢، ٣٤٩، ٣٥١
 المطيع لله - ج ٢ ص ٢٩٩
 معاوية - ج ١ ص ٢٥، ٥٧، ٧١، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ١٣٣، ٢٥٢؛ ج ٢ ص ٢٨
 ابن المعتز - ج ١ ص ٢٠، ٥٦، ٨٢، ١٥٦، ١٧٤
 المعتصم - ج ١ ص ١٢٣، ٢٢٣، ٣٣٢؛ ج ٢ ص ٨٥
 المعتضد - ج ١ ص ١٧
 المعتمد بن عباد - ج ٢ ص ٢٧٧
 المعري (أبو العلاء) - ج ١ ص ٢٦، ١٩٢، ٢٥٨، ٢٦٠؛ ج ٢ ص ٢٥٥، ٢٥٩، ٣١١
 معز الدولة - ج ١ ص ٢٤٤
 معن بن أوس - ج ١ ص ١٦٦؛ ج ٢ ص ٢٦
 معين الدولة - ج ١ ص ١٤٢
 المقرئ - ج ٢ ص ٢١٥، ٢١٨
 ابن المقفع - ج ١ ص ١٨، ٣٨، ٤٣، ٦١، ٧١، ٧٢؛ ج ٢ ص ٢٨٩
 المكتفي - ج ٢ ص ١٨١
 المنادي (يوسف بن حمويه) - ج ٢ ص ٣٥
 ابن منذر - ج ٢ ص ١٣٠
 المنتصر - ج ٢ ص ١٢٩
 المنخل الشكري - ج ٢ ص ٢٢

اليقوبى (أبو محمد) - ج ١ ص ٣٣٨	اليربوعى (أبو الأقيشر) - ج ٢ ص ٨
يموت بن المزرع - ج ١ ص ٢٤٦	اليزدادى - ج ٢ ص ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠
يوسف عليه السلام - ج ١ ص ١٠٠، ٩٩	يزد جرد - ج ٢ ص ٢٧٣
يوسف بن ابراهيم - ج ١ ص ٢٩٧	يزيد بن معاوية - ج ١ ص ٢٥١
يوسف الاسرائيلى - ج ٢ ص ٥١	يزيد بن الوليد - ج ١ ص ٦٠
أبو يوسف (القاضى) - ج ١ ص ٣٣٤	يعقوب بن ابراهيم (أبو الفرج) - ج ٢ ص ١٨٥
	يعقوب بن أبى شيبة - ج ١ ص ٢٤٢



جمع مواد هذا الفهرس فضيلة الأستاذ على عبد الحميد مبارك، ورتبه
حضرة سليمان فهمى مبارك افندى : فلهما من المؤلف أبزل الشاء .

المراجع

الغرض من هذه المراجع هو تحديد الطبقات التي اعتمدنا عليها عند تحرير الشواهد أو نقد بعض الآراء ليستطيع القارئ الرجوع إليها حين يشاء، ولم نرد استقصاء كل ما رجعنا إليه عند تأليف هذا الكتاب وإنما اكتفينا بما لم يكن بد من الإشارة إليه في معرض البحث والتحقيق^(١).

- إحياء علوم الدين — الغزالي — القاهرة — ١٢٧٨
- الأخلاق عند الغزالي — زكي مبارك — ١٩٢٤
- الأدب الجاهلي — طه حسين — القاهرة ١٩٢٨
- أدب الكاتب — ابن قتيبة — القاهرة ١٩٢٧
- أدب الكتاب — الصولي — القاهرة ١٣٤١
- أدبيات اللغة العربية — عاطف بركات — القاهرة ١٩٠٩
- إرشاد الأديب، إلى معرفة الأديب (هو معجم الأدباء) .
- أسواق الذهب — أحمد شوقي .
- الأغاني (٢١ جزء) — الأصبهاني — طبع دار الكتب المصرية وطبع الساسي .
- الأمالي — القالي — طبع بولاق ١٣٢٤
- بغية الوعاة — السيوطي — القاهرة ١٣٢٦
- بلاغة العرب في الأندلس — أحمد ضيف — القاهرة ١٩٢٤
- البيان والتبيين — الجاحظ — القاهرة ١٣٣٢
- تاريخ الأدب العربي — أحمد الزيات — ١٩٢٠

(١) راعينا في تواريخ الطبقات ما أثبتته الناشر، والقارئ لا يصعب عليه تمييز السنة الهجرية من السنة الميلادية .

- التحفة البهية — الاستانة — ١٣٠٢
- تجارب الأمم — ابن مسكويه — طبعة مرجوليوت .
- التفضيل بين بلاغة العرب والعجم — أبو هلال العسكري (ضمن مجموعة التحفة البهية) .
- ثمار القلوب — الثعالبي — القاهرة .
- تهذيب الأخلاق — ابن مسكويه — ١٣٢٩
- حب ابن أبي ربيعة وشعره — زكي مبارك — الطبعة الثالثة .
- حكاية أبي القاسم البغدادي — أبو المطهر الأزدى — طبع هيدلبرج .
- جواهر الألفاظ — قدامة بن جعفر — الطبعة الأولى . .
- الحيوان — الجاحظ — القاهرة .
- الخصائص — ابن جنى — الطبعة الأولى .
- خطب ابن نباتة — بيروت ١٣١١
- درة الغواص — الحريري — الطبعة الأولى .
- دلائل الإعجاز — عبد القاهر الجرجاني — القاهرة ١٣٣١
- ديوان أبي نواس — طبعة دمشق .
- ديوان الشريف الرضي — طبعة بيروت .
- الذخيرة — ابن بسام — مخطوط بدار الكتب المصرية .
- الرسالة الحاتمية (ضمن مجموعة التحفة البهية) .
- رسائل اخوان الصفا — القاهرة ١٩٢٩
- رسائل بديع الزمان — بيروت .
- رسائل البلغاء — كرد علي — القاهرة ١٩١٣
- رسائل الجاحظ — القاهرة ١٣٢٤
- رسائل الخوارزمي — القاهرة ١٢٧٩

- رسائل الصابى — القاهرة
- رسالة الغفران — المعرى — القاهرة ١٩٢٥
- الرسالة العذراء — ابن المدبر — طبع دار الكتب المصرية ١٩٣١ (شرح زكى مبارك) .
- زهر الآداب — أربعة أجزاء — الحصرى — ١٩٢٥
- سحر البلاغة — الثعالبي — دمشق .
- سر الفصاحة — الخفاجى — مخطوط بدار الكتب المصرية .
- شرح نهج البلاغة — ابن أبى الحديد — القاهرة ١٣٢٩
- الصاحبى — ابن فارس — القاهرة ١٩١٠
- طبع الأعشى — القلقشندى — طبع دار الكتب المصرية .
- الصدقة والصدىق — التوحيدى — القاهرة ١٣٢٣
- الصناعتين (في مجلدين) — أبو هلال العسكرى — ١٣٢٠
- صهاريج اللؤلؤ — توفيق البكرى — القاهرة ١٣٢٠
- ضحى الاسلام — أحمد أمين — ١٩٣٣
- طبقات الشعراء — ابن سلام — القاهرة ١٣٣٢
- طبقات النحاة — الأنبارى — القاهرة ١٩٢٤
- طوق الحمامة — ابن حزم — ليدن ١٩١٤
- العقد الفريد — ابن عبد ربه — القاهرة ١٣٢١
- عيون الأخبار — ابن قتيبة — طبع دار الكتب المصرية .
- حول البلاغة — توفيق البكرى — القاهرة ١٣١٣
- الفرائد والقلائد — الثعالبي — ١٣١٧
- فقه اللغة — الثعالبي — القاهرة ١٩٢٧
- الفوز الأصغر — ابن مسكويه — الطبعة الأولى .

- الفهرست - ابن النديم - طبع القاهرة .
- كتاب الكتاب - ابن درستويه - بيروت ١٩٢١
- كليلة ودمنة - ابن المقفع - القاهرة ١٣٢٧
- كمال البلاغة - اليزدادى - القاهرة ١٣٤١
- الكنايات - الثعالبي - القاهرة ١٩٠٨
- المثل السائر - ابن الأثير - بولاق ١٢٨٢
- محاضرات الراغب الأصفهاني - الطبعة الأولى .
- مصارع العشاق - جعفر بن أحمد - القاهرة ١٩٠٧
- معجم الأدباء (سبعة مجلدات) - ياقوت - طبعة مرجوليوت ١٩٢٣
- معجم البلدان (ثمانية مجلدات) - ياقوت - القاهرة ١٣٢٤
- المقابسات - التوحيدى - القاهرة ١٩٢٩
- المكافاة - أحمد بن يوسف - القاهرة ١٩١٤
- مقامات بدیع الزمان - بيروت .
- مقامات الحریری - طبع الحلبي .
- مقدمة ابن خلدون - القاهرة ١٣٢٢
- من غاب عنه المطرب - الثعالبي - طبع الاستانة .
- مختارات المتفلوطى .
- الموشح - المرزبانى - القاهرة ١٣٤٣
- الموشى - أبو إسحاق الوشاء - ليدن .
- الموازنة بين الطائيين - الآمدى - بيروت .
- الموازنة بين الشعراء - زكى مبارك - القاهرة ١٩٢٦
- نثر النظم ، وحل العقد - الثعالبي - القاهرة ١٣١٧

- المخصص — ابن سيدة — الطبعة الأولى .
 نشوار المحاضرة — التنونى — طبعة مرجوليوث .
 نفع الطيب — المقرئ — طبع ليدن .
 نقد الشعر — قدامة بن جعفر — الآستانه ١٣٠٢
 نقد النثر — قدامة بن جعفر — القاهرة ١٩٣٣
 نهاية الأرب — النويزى — طبع دار الكتب المصرية .
 نهج البلاغة — على بن أبى طالب — ١٩٢٥
 الوساطة — أبو الحسن الجرجاني — صيدا ١٣٣١
 الوسيط — أحمد السكندرى ومصطفى عنانى — ١٩٢٩
 وفيات الأعيان — ابن خلكان — القاهرة ١٢٩٩
 يتيمة الدهر — الثعالبي — طبعة دمشق .

Encyclopédie de l'Islam

- Huart. — Littérature Arabe. Paris 1923.
 Marçais. — Origines de la prose littéraire arabe (Revue Africaine 1^{er} trimestre 1927).
 Mez. — La Renaissance de l'Islam (traduction inédite de M. Ruch).
 — Abulkasim. (Heidelberg 1920).
 Mubârak. — La Prose Arabe au IV^e siècle de l'Hégire.
 — Paris 1931.



كَمُلَ طبع الجزء الثانى من كتاب "النثر الفنى فى القرن الرابع"
 بمطبعة دارالكتب المصرية فى يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٣٥٢
 (أول فبراير سنة ١٩٣٤) ما
 محمد نديم
 ملاحظ المطبعة بدارالكتب المصرية

ديوان زكى مبارك

مقتطفات من بعض مقالات الكتاب والشعراء الذين نقدوا هذا الديوان

نوصى قراءنا بالاطلاع على مقدمة هذا الديوان، بل بالامعان فيها، فقد أزعج فيها صاحب الديوان حياته الأدبية وحياته العاطفية الشعرية بصفة خاصة، ولولا ضيق المقام لآثرنا نشرها برمتها فهي نموذج من النثر الفني الرقيق الجميل ... الدكتور زكى مبارك شاعر غنائى بطبعه : فلفظه موسيقى كصوته المعروف لخللانه . وشعره يحوم حول العاطفة ويقتات بها . سواء أكانت عاطفة جنسية أم وطنية . ولو عبر شاعرنا عن عاطفة الوطنية نظماً بدل حصرها فى نثره الفني لكان لنا منه ذخيرة شعرية قيمة على مدى الزمن ... وشعر ديوانه صور شتى من عواطفه . وخواطره هى مرآة نفسيته ونظراته الى الحياة ، وهو أمين بفطرته فى تصوير نفسيته بهذا الشعر جميعه ، وكفى بهذا الصدق المطبوع فى التعبير نفراً لأى شاعر ، فان هذه هى الصفة الخالدة التى لا يقال عنها أى نقد، والتى تستنكر بجانبها المقارنة والتفضيل .

مجلة أبولو الشعرية



لعل المقدمة التى كتبها الدكتور زكى مبارك خير ما يكتب فى تحليل شعره : فقد تجرد كناقد من ذاتيته وعمد الى ما يعلمه عن نفسه بفعله أساساً لتلك النظرة النقدية التى وصف فيها شعره ونفسه . قال عن نفسه : (فان الشاعر نفسه يتحدثنا فى مواطن كثيرة من مؤلفاته الأدبية والوجدانية بأنه يجهل قلبه كل الجهل) وأشار فى الموضوع نفسه الى رسالة كان كتبها فقال : (وأعيد عليك يا صديقي أن الأزمة الباقية هى أزمة القلب فقد فهمت كل

شئ وبقي قلبي كالغابة المجهولة في ضمير الظلماء) وكلاهما قول شاعر ... وإنك لترحب إذ تقرا
أشعار هذه المجموعة بإشراق ديباجتها وجرسها ، والإجادة في اختيار ألفاظها . ومن غرر
الديوان قصيدة (غريب في باريس) .

محرر المقتطف



نقلنا من هذا الديوان صفحة يخاطب فيها المؤلف أهل أسيوط وهى مثال حسن لسائر
القصائد والمقطوعات . وأحسن ما فى الدكتور زكى مبارك أنه يذكر المدن المصرية ويصف
مغاني الطبيعة على ضفاف النيل .

محرر المجلة الجديدة



لعل الكثيرين من قراء العربية لا يجهلون الأديب النابغة الدكتور زكى مبارك ، ولعل
الكثيرين يعرفون أنه جمع بين كثير من المواهب والصفات ، فهو كاتب وشاعر ومن متخزجى
الأزهر والجامعة ، ومن أبناء سنتريس وباريس ، ومن رجال التعليم والصحافة أيضا . وعلى
الجملة هو من الشبان الذين اعطوا حكمة الكهول وتدقيقاتهم وتحقيقاتهم ، ومن الكهول الذين
لهم نشاط الشبان وثورة الشباب ... جمع فى هذا الديوان كثيرا مما فاضت به عاطفته وجادت
به قريحته الخصبية من قصائد فى الحب والمجد والشباب والجمال ، وأهداه تحفة ممتعة لقراء
العربية يتصفحونها فيرون فيها نفوسهم كما يصورها الخيال الصادق والشعور الفياض والأحلام
اللذيذة ، ويقرأون فيها نوعا من الشعر جديدا بخياله وأفكاره وصوره ، قديما بنسجه العربى ،
وأسلوبه الأدبى ، ونسجه المحكم الذى لم يفسده شرود عن القواعد ولا تنجى على أصول اللغة
بدعوة الابتكار والتجديد .

محرر الهلال



ديوان زكى مبارك مجموعة من حالاته النفسية فى الفراق والبعد والشكوى والحزن وذكر
الديار والأحباب . وفى شعره الطابع العربى الصميم ، وهو نتيجة حفظه ثلاثين ألف بيت
فى حدائثه من الشعر القديم .

محرر الحديث



أهدانا الأستاذ زكى مبارك مجموعة من شعره ، سماها بالعربية ”ديوانا“ وبالفرنسية ”قصائد غرامية“ والتسمية الثانية أحق أولى ... وإن قارئ قصائد الأستاذ مبارك ليدرك من أول وهلة أنه تأثر بالأدب الغربى الى حد بعيد ، ولا غرو فالأستاذ أديب فى الفرنسية كما هو أديب فى العربية .

محرم جريدة الهدى



الدكتور زكى مبارك عالم وأديب وقد طالع له القراء فصولا رائعة فى مختلف الصحف والمجلات . ولكن الدكتور زكى مبارك لا يكتفى بمثل هذه الأبحاث العلمية المحضة ، بل يعنى كذلك بأدب الخلق والابتداع والنقد وله فيه مؤلفات مشهورة ككتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) وكتاب « ذكريات باريس » . وقد أخرج هذه الأيام ديوان شعر يدل أبغ الدلالة على إحساس فياض وشعور قوى وشاعرية متقدمة تنعكس فيها شتى العواطف الانسانية ويمتاز شعر الدكتور زكى مبارك بشئ من تعادل قوى العاطفة والعقل فيه فهو ليس بالشعر الخاف النابع من العقل وحده وليس بالشعر المفكك الصادر عن العاطفة المشوشة ولذلك تلمح فيه أثر الأسلوب المتين والصياغة الحلوة والنظام والتناسب والانسجام . وفى وسعنا أن نقول إن ديوانه جهد عظيم للتوفيق بين نزعات الشعر العصرى القائم على قوة الملاحظة والتحليل والشعر العربى القائم على قوة الخيال وبلاغة العبارة .

مجلة الأسبوع ابراهيم المصرى



كان همى حين تصفحت هذا الديوان أن أتخسس من روح الشعر : هل استقر فيه أو هو محوم عليه على قرب أو بعد ، أو أنه لم يعمره أبدا ولم يطل عليه من قرب أو من بعد . وقد فرحت لصديق الوفى الدكتور زكى مبارك حين رأيت روح الشعر يتقمص ديوانه ويشيع فيه الحركة ويحيل فيه الحياة ... قرأت فى هذا الديوان قصائد قد بلغت الغاية فى حسن

النظم وقوة المعنى وجمال الأسلوب . ذلك الى إحكام فى ربط المعانى بعضها ببعض وبراعة فى حسن السياق مما لا يتهاى ذلك كله إلا للفحول من الشعراء .

الاهرام محمد خالد



مزية شعر الدكتور زكى مبارك التى تبدولى هى حسن السبك وجودة الصياغة . ولقد نسيت معانيه بعد طى الديوان ولم يعلق بنفسى منها أثر ولم يستقر فى ذاكرتى لها طيف . ولكن الدكتور زكى مبارك أديب كبير وبجائه له آثاره المشهورة ودراساته المعروفة وعالم من كبراء العلماء، وله فى ذلك فضل غير منكور لا يزيده أن يكون شاعرا ولا ينقصه أن لا يكون.

البلاغ إبراهيم عبد القادر المازنى



شعر زكى مبارك يطرد فيه الماء، دياجة مشرقة وكلام منسجم ولفظ منضد. شعر منبجس من نبع البحرى ومنحدر من جنبه ... ثم ان هنالك ما يعنى على أن أوتر شعر الدكتور زكى مبارك على قصائد لبعض الشعراء المحدثين . ذلك بأنك لا ترى فى قوافيه قلقا ولا نفورا ولا عيبا ولا تراها مستكرهة على مواضعها ... وإنا لنراه يحيد الشعر حين يستلهم صبوته . والذي يؤخذ من هذا أن فى دخيلة نفس زكى مبارك ميلا شديدا الى الفتك، ولقد أطاعه قليلا فأجاد وعصاه كثيرا فكبا .

الاهرام بشر فارس



لقد أزدحت مكتبات الأدباء بمؤلفات الأديب الممتاز النابغة الدكتور زكى مبارك وها هو ذا يخرج ديوانه للناس . ومهما حاول الكاتب أن يقول عن شعر زكى مبارك فحسبه أنه لا يقول شعرا لمجرد أن يملا صفحة أو صفحتين ولكنه يقوله عند ما يمتلى قلبه رغبة فى أن يقول الشعر، فشعر الدكتور زكى مبارك وحى هذا القلب الكبير الباصح الذى غمرته الأيام بمحادثاتها

وصهرته في أثون تجاربيها وأخرجته لصاحبه قطعة من الاحساس السامى الدقيق ... تقرأ ديوان الدكتور زكى مبارك من الألف للياء فتحس له في نفسك راحة وتستشعر بلذة وتدرك ما ذا عسى أن يريد قوله ، أهو جاد أم عابث ، أهو ضاحك أم باك ، أهو متحمس أم متريث ، أهو عاشق أم هو مدنف ؟ أنت تقف على هذه الخواطر وتدركها بنفسك ، وأنت تنصف هذا الشاعر الذى ينشد بقلبه أغاريد سامية في هذه الحياة . وثمة عقيدة تخامرك هي أن هذا الشاعر الفنان قد خلق ليعيش في عزلة عن الناس وأن يحيا بعيدا عن ضوضاء الحياة ومعه من قلبه قيثارة عجيبة ، وإن كان ضنيننا بشعره كما تضمن الحياة بالنبوغ .

الصباح محمد على غريب

✱
✱

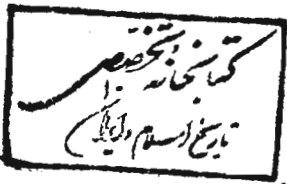
كان لا بد من أن يصدر الدكتور زكى مبارك ديوان شعره بعد ما أتحف الأدباء بطائفة طيبة من ثره وأبحاثه وتعليقاته على الكتب الأدبية ، وكان موفقا في نظمه كما هو موفق في ثره وخطبه ، لأن الدكتور زكى مبارك أستطاع أن ينشئ نفسه نشأة أدبية ممتازة ساعده عليها استعداده الفطرى وما أحاط به من ضروب شتى . وفي الديوان مجموعة طيبة من الشعر العصرى النفيس . وهو يلبس شعره دياجة بدوية ، ورقة حضرية . وللديوان مقدمة بديعة كتبها الشاعر بنفسه ولم يسبق إليها فيما أعلم .

المقطم محى الدين رضا

✱
✱

للدكتور زكى مبارك مكانة محبوبة بين الشباب ، لأنه يكتب بروح الشباب وينظم بعواطف الشباب ، ويرى بعين آمالهم وأحلامهم . وهو في الحياة عصامى وفي الأدب يكاد يكون عصاميا ، ولذلك كان لما يكتبه وينظمه رونق ممتاز يختص به . وقد أصدر أخيرا ديوانا من الشعر الطريف ، الذى يجمع بين حسن الدياجة ومثانة الأسلوب وبين الافكار المبتكرة والخواطر الفذة والصور النفسية الجذابة . فنحن الدكتور زكى بهذا الديوان ، ونهني القراء هذه الهدية التى يهديها اليهم .

المصور طاهر الطناحي



کتابدار ۲۰۵

(مطبعة دارالكتب المصرية ۱۹۳۲/۶۱/۳۰۰۰)
